

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

" سورة الإسراء "

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

2	الفهرس
3	الفهرس(2)
16	الاسراء 1-8
43	الاسراء 9-21
111	الاسراء 22-38
159	الاسراء 39-52
185	الاسراء 52-65
250	الاسراء 66-77
270	الاسراء 78-96
338	الاسراء 97-111

- 16 التسبيح يقتضي إثبات صفات الكمال لله
- 17 أخبر القرآن بمسرى النبي صلى الله عليه وسلم و بصعوده إلى السموات
- 20 المعراج كان بمكة قبل الهجرة بإجماع الناس
- 20 حقق الله للنبي نعت العبودية في أرفع مقاماته
- 21 رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلائق
- 22 كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله
- 23 اسم العبد يتناول معنيين
- 23 دل القرآن العظيم على بركة الشام في خمس آيات
- 25 عقر دار المؤمنين الشام وأن منافقيها لا يغلبوا أمر مؤمنيتها
- 26 لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه
- 27 الرد على من ينكرون رؤية الله يوم القيامة
- 28 إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى
- 28 المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد
- 29 الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب
- 29 وصف الله اليهود بالكبر وإرادة العلو في الأرض والفساد
- 30 حب الرياسة هو أصل البغي والظلم
- 32 لما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء
- 33 مدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما
- 35 خراب بيت المقدس مرتين
- 35 لا يعذب الله أحدا إلا بعد إرسال رسول إليه
- 36 فرق الله بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكونى
- 36 أهمية التفريق بين أمره الديني وخلق الكونى
- 38 لفظ العبد في القرآن
- 39 {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا }
- " إن للحسنة نورا في القلب وقوة في البدن وإن للسينة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه "
- 40

40 عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق
41 الحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى
42 لطائف لغوية

43 الاسراء 9-21

43 { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ }
45 القرآن اشتمل على أصول الدين
47 أقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمدا
48 أضاف الله كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته
48 وصف الله القرآن بأنه يقص و ينطق و يحكم و يفتى و يبشر و يهدي
50 " لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون "
50 في خلق الليل والنهار حكما اخرى
51 كل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده قد بينه الله ورسوله بيانا شافيا
51 العلم بالدليل يوجب العلم بعين المدلول كما ان الشمس آية النهار
53 الحكمة من اعتبار الشهر والعام الهلالي دون الشمسي
53 { وَكَلَّ إِنْسَانٌ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ }
54 لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه
54 الأصول الثلاثة امور متلازمة
56 يوم القيامة تنشر صحائف الاعمال
57 الاعتذار عن النفس بالباطل و الجدل عنها لا يجوز
58 أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول
60 الحجة على العباد انما تقوم بشينين
61 { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }
66 من لم يبلغه أمر الرسول في شيء معين لم يثبت حكم وجوبه عليه
67 استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه
70 الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبي عن إتباع ما سواه إتباعا عاما
72 " اذا قل العلم ظهر الجفاء واذا قلت الآثار ظهرت الأهواء"
75 لا يحكم بكفر احد حتى تقوم عليه الحجة
78 " ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب "

- 79 _____ العقوبة قبل الحجة ليست مشروعة
- 79 _____ لا يترك أحد قط اتباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب
- 80 _____ الإيمان بالقدر من أصول الإيمان
- 83 _____ الأمر الشرعي غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية
- 84 _____ الصفات الاختيارية
- 85 _____ أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم
- 86 _____ الله سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر وقد يجيب دعاءهم
- 87 _____ فمن لم يرد الدار الآخرة قولاً وعملاً وإيثاراً ومحبة فلا خلاق له في الآخرة
- 88 _____ أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا
- 89 _____ الإرادة هي الفارقة بين أهل الجنة وأهل النار
- 98 _____ ليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات
- 101 _____ لا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر
- 102 _____ الزهد الشرعي
- 102 _____ أهل الجنة هم أهل الإيمان
- 103 _____ لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل لا على إيمان خال عن عمل
- 104 _____ أخبر الله أنه من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه
- 104 _____ الله سبحانه هو المعطى على الحقيقة
- 105 _____ طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله وجميع أوليائه
- 107 _____ لطائف لغوية

111 _____ الاسراء 22-38

- 111 _____ المشركون لم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به
- 112 _____ النهي عن الشيء لا يدل على وقوعه
- 112 _____ إقرار المشرك بأن الله رب كل شيء لا ينجيه من عذاب الله
- 112 _____ غير الله لا يصلح أن يتخذها يعبد ويدعى
- 113 _____ "لا يرجون عبد إلا ربه"
- 114 _____ " اعظم الذنوب ان تجعل لله ندا وهو خلقك "
- 115 _____ لا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ولا تتناقض دلالة القياس
- 116 _____ قضى هنا ليست بمعنى القدر والتكوين إنما هي بمعنى أمر

- 117 _____ قرر الشرائع الجامعة التي اتفقت عليها الرسل
- 118 _____ جميع الرسل متفقون في الدين الجامع في الأصول الاعتقادية والعلمية
- 119 _____ الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم
- 120 _____ لله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين
- 120 _____ محبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس
- 121 _____ حق الوالدين مقرون بحق الله
- 122 _____ " من الكبائر ان يسب الرجل والديه "
- 123 _____ جناح ذل من الرحمة لا جناح ذل من العجز والضعف
- 123 _____ اطلق الله ذكر الاصناف وليس في اللفظ ما يدل على التسوية
- 124 _____ " المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا يظن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إحافا "
- 124 _____ " لو صدق السائل ما أفلح من رده "
- 126 _____ بذل المال لا يجوز إلا لمنفعة في الدين أو الدنيا
- 126 _____ الإسراف في المباحات منهي عنه
- 128 _____ " ما كان الرفق في شئ إلا زانه ولا كان العنف في شئ إلا شاناه "
- 130 _____ لا بد من اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه
- 130 _____ مفهوم المخالفة ودليل الخطاب
- 132 _____ اسم الخاطيء فلم يجيء في القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة
- 133 _____ الله سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش
- 133 _____ الأفعال فيها صفات تقتضي الحسن والقبح باعتبار ملاءمتها ومنافرتها
- 134 _____ النظر إلى العورات حرام
- 135 _____ القتل ثلاثة أنواع
- 137 _____ كلكم راع وكلكم مسنول عن رعتيه
- 138 _____ جعل الشرع بلوغ الأشد حدا للتكليف
- 139 _____ الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها
- 139 _____ عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه
- 140 _____ العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال
- 140 _____ بخس المكيال و الميزان فهو من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب
- 141 _____ القول بلا علم حرام بالنص والإجماع
- 143 _____ التكلف في العلم والقول من المنكر المذموم في الشرع والعقل

- 144 _____ القلوب آنية الله في ارضه فأحبها إلى الله تعالى أرقها واصفاها
- 148 _____ يحذر الله ممن يتكلم في الشرعيات و العقليات بلا علم
- 148 _____ البصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل
- 149 _____ يجب على الإنسان الامساك عما لا يعلم انتفاؤه وثبوتته
- 152 _____ أدلة الحق لا تتناقض
- 153 _____ الله سبحانه يكره ما نهى عنه
- 154 _____ الله لا يرضى الكفر والفسوق والعصيان مع كون الحوادث كلها بمشيئة الله تعالى
- 155 _____ هل أراد الله تعالى المعصية من خلقه أم لا ؟
- 155 _____ لا يوجد آية ولا حديث يأمر العباد أن يرضوا بكل مقضى مقدر
- 156 _____ لطائف لغوية

الاسراء 39-52 159

- 159 _____ الرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة
- 160 _____ ثبوت الكمال لله وعلوه عن الأمثال
- 162 _____ نفى العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية
- 163 _____ القرآن هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة
- 163 _____ اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة
- 164 _____ الله هو الإله المعبود الحق الذي كل ما سواه مفتقر إليه
- 166 _____ لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شيء
- 167 _____ الله سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش
- 168 _____ { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا }
- 169 _____ التحميد مقرون بالتسبيح وتابع له
- 170 _____ الله تبارك وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها
- 171 _____ عبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى
- 172 _____ دلالة الألفاظ على معانيها سمعية عقلية تسمى الفقه
- 173 _____ جعل الله الجمادات قابلة للحياة ولا يمتنع قبولها لها
- 173 _____ سمى الله نفسه حليما وسمى بعض عباده حليما و ليس الحليم كالحليم
- 174 _____ بين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة
- 175 _____ لفظ القرآن يراد به نفس الكلام أكثر مما يراد به فعل المتكلم

- 176 أنزل الله القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه
- 177 السماع الذى أمر الله به سماع فقه وقبول
- 178 عاقب الله المعرض عن اتباع ما بعث به رسله بالحجاب الذي في قلوبهم
- 179 البصر والسمع هما الأصل في العلم بالمعلومات
- 180 شرع الله للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه وهو سماع القرآن
- 180 القلب الميت لا يسمع ولا يبصر
- 181 { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا }
- 181 طريقة القرآن فى بيان امكان المعاد
- 182 يستدل على امكان المعاد بالنشأة الاولى
- 183 لطائف لغوية

185 الاسراء 52-65

- 185 المؤمن يبغى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر
- 186 الشريعة تأمر بما تترجح مصلحته وتنهى عما ترجحت مفسدته
- 187 الرد على من ينكر صفات الله الاختيارية مثل المشيئة والكلام والارادة
- 188 أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء
- 188 فضل الله بعض النبيين على بعض
- 189 الزبور ذكر مفردا في موضعين من القرآن
- 189 المؤمن يؤمن بالله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ويجتنب طريق المشركين
- 189 الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحوها نقص في العقل والإعراض عنها بالكلية قدح في الشرع
- 190 { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ }
- 192 شرك الفلاسفة وكفرهم أعظم من شرك مشركى العرب وكفرهم
- 194 الله سبحانه ليس له شريك فى ملكه بل هو سبحانه له الملك وله الحمد
- 196 من يدعى من الملائكة والأنبياء وغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا
- 197 من سوى بين الخالق والمخلوق فى الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك
- 199 الدين مبني على اصلين
- 200 الله سبحانه لم يجعل له أحدا واسطة فى شىء من الربوبية والألوهية
- 201 بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء

- 203 لا تجوز الإستعانة بمخلوق
- 204 " لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد "
- 205 سمي الله آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء كما سماها شركاء
- 206 الفرق بين حقوق الله التي يختص بها والحقوق التي له ولرسله
- 207 إقرار المشرك بأن الله رب كل شيء لا ينجيه ان لم يقتنر به اقراره بأنه لا اله الا الله
- 208 قطب رحي الدين
- 209 لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين
- 209 الدعاء لله وحده
- 210 من جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم فهو كافر
- 211 " من حلف بغير الله فقد أشرك "
- 211 الشرك نوعان شرك في ربوبيته وشرك في الألوهية
- 212 من يتخذ الملائكة والأنبياء أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون
- 213 " أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله "
- 214 الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له
- 215 لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان
- 216 الوسيلة التي أمر الله بابتغائها إليه تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته
- 218 خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم هو من أعظم أنواع الشرك
- 219 من عبد الله بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد
- 220 بقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده
- 221 الرد على من يقول إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته
- 222 الخوف والرجاء يستلزم المحبة
- 223 قرب الرب من عابديه وداعيه هو مقيد مخصوص لا مطلق عام لجميع الخلق
- 226 وصف الله انه يقرب اليه من يقربه من الملائكة والبشر
- 227 ابتغاء الوسيلة إليه هو طلب ما يتوسل به أي يتوصل ويتقرب به إليه سبحانه
- 228 من رحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمدا أن لا يهلك قومه بعذاب الاستتصال
- 229 الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه
- 230 { وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا }
- 231 الاعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه
- 232 الآيات السماوية قد تكون سبب عذاب

- 233 _____ قد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستتصال
- 234 _____ " هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به "
- 235 _____ الكفر يتبعض ويزيد وينقص
- 235 _____ آدم كرم على من سجد له
- 237 _____ الإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره
- 237 _____ المعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله كان عذابا على صاحبه
- 238 _____ من اكتفى بالحقائق الكونية ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس
- 240 _____ لا يعذب الله إلا من بلغت الرسالة ولا يعذب إلا من خالف الرسل
- 240 _____ ما يبئلى به من الذنوب فهو عقوبة له على عدم فعل ما خلقه الله له
- 242 _____ الأصوات من أعظم المحركات
- 242 _____ بين الله ان عباده هم الذين ينجون من السيئات
- 243 _____ الشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين
- 244 _____ أئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب
- 245 _____ ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم
- 246 _____ الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول
- 247 _____ لطائف لغوية

250 _____ الاسراء 66-77

- 250 _____ ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟
- 251 _____ مستحضر توحيد الربوبية وتوحيد السؤال والتوكل عليه معرض عن توحيد الالهية
- كثير من المتكلمين والمتصوفة فى نوع من الحقائق الكونية لا فى الحقائق الدينية الشرعية
- 253 _____
- 253 _____ الكافر إنما يخضع لله عند رغبة ورهبة فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه
- 254 _____ حال الإنسان عند السراء والضراء
- 256 _____ الدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة
- 257 _____ تحصل إجابة الدعوة بكمال الطاعة لألوهيته وبصحة الإيمان بربوبيته
- 258 _____ قطب رعى الدين
- 258 _____ بين الله هذا التوحيد فى كتابه وحسم مواد الإشراك به
- 260 _____ قد يجيب الله دعاء الكفار

- 260 ما خلق الله تعالى خلقا اكرم عليه من محمد
- 261 يوم القيامة تنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال
- 262 الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى
- 262 ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا
- 264 لا يهلك الله أمة ونبيها بين أظهرها
- 264 المؤمن يختار الأذى في طاعة الله على الأكرام مع معصيته
- 265 استعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير
- 266 سنة الله لا تتبدل ولا تتحول
- 266 سنة الله في أوليائه إكرامهم وسنته في الكافرين إهانتهم وعقوبتهم
- 267 لطائف لغوية

270 الأسراء 78-96

- 270 الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان
- 271 المواقيت لأهل الأعدار ثلاثة ولغيرهم خمسة
- 272 حكم الجمع في الصلاة
- 274 " يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك "
- 275 صلاة الفجر أول وقتها من طلوع الفجر الثاني
- 276 إن وجوه المشقة على المأمومين يمنع استحباب التأخير وشرعه وعلى هذا بنيت قاعدة الصلاة
- 277 صلاة الفجر لما سميت قرآنا خصت بقرآن زائد
- 278 النهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر
- 278 أكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا فالمراد جنس الدلوك
- 279 إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان
- 280 تأخير الصلاة عن الوقت المضروب عمدا من الكبائر
- 281 أعمال النهار فواتيح وأعمال الليل خواتيم
- 282 { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا }
- 283 هذا أمر يتناول الامام والمأموم والمنفرد
- 284 العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب
- 285 تجب الصلاة بادراك آخر جزء من الوقت

- 285 _____ إذا ظهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعاً
- 287 _____ السماع الذي شرعه الله تعالى للمسلمين
- 288 _____ هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة؟
- 289 _____ التطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله
- 290 _____ المقام المحمود هو الشفاعة
- 291 _____ { وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا }
- 291 _____ كل معبود من دون الله باطل
- 292 _____ سنة الله في الأنبياء الصادقين وأتباعهم وفي الكذابين بالحق
- 293 _____ " تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة "
- 293 _____ قراءة القرآن تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء
- 295 _____ هذا الرسول الأُمى العربي بعث بأفصح اللغات وأبين الالسنه والعبارات
- 296 _____ النفاق والكفر يتبعض ويزيد وينقص
- 296 _____ السماع الذى أمر الله به سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم سماع فقه وقبول
- 297 _____ مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسر به تصوره وإرادته
- 299 _____ طب الاديان يحتذى حذو طب الابدان
- 301 _____ لا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس
- 302 _____ الناظر يحتاج إلى أن يظفر بالدليل الهادي وإلى أن يهتدي به وينتفع
- 304 _____ سعادة العبد في كمال افتقاره الى ربه واحتياجه اليه
- 304 _____ لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعاً
- 304 _____ آيات نزلت بمكة ثم جرى بالمدينة سبب يقتضي الخطاب فأُنزلت مرة ثانية
- 305 _____ { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }
- 305 _____ روح الأدمي مخلوقة مبدعة
- 310 _____ لم يلزم من اتفاق الاسمين اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص
- 311 _____ القرآن بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة
- 312 _____ الصفات الاختيارية
- 313 _____ الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر
- 313 _____ الإنس والجن لا يقدرّون على معارضة القرآن بمثله
- 314 _____ التحدى والتعجيز ثابت في لفظه ونظمه ومعناه
- 316 _____ الإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه

- 319 القرآن أفضل الكتب الثلاثة
- 319 فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين القرآن وبين السنة من وجوه
- 320 إعجاز القرآن يعلم بطريقتين جملي وتفصيلي
- 321 اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة البرهانية
- 322 الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح في المحاربات
- 324 الآيات التي اقترحوها هي مما لا يصلح الإتيان بها
- 327 صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة
- 329 { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا }
- 329 يتعجب الكفار من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر
- 330 البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته
- 331 الإقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم
- 332 التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم
- 332 لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا
- 333 شهادة الله تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه
- 333 شهادة الله وحده كافية
- 334 لطائف لغوية

338 الاسراء 97-111

- 338 الهدى أربعة أقسام
- 340 أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب ومشية العبد
- 341 خلق الله سبحانه تعالى الأشياء بأسباب
- 342 تارة يستدل على إمكان المعاد بخلق السموات والارض
- 343 الأجسام تنقلب من حال إلى حال
- 347 قياس الأولى
- 349 الإنسان منوع عند الخير
- 349 العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق
- 351 قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتبارا لأهل الايمان ولأهل الكفر
- 353 فرعون من أكبر خلق الله عنادا وبغيا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه
- 355 إن الله أمر بسؤال العلم

- 356 _____ دعوة الأنبياء عليهم السلام أنه جاء بالطريق الفطرية
- 357 _____ أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه
- 358 _____ المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل
- 360 _____ تصديق القلب يتبعه عمل القلب
- 362 _____ نفاة الأسماء والصفات مظاهون لفرعون
- 363 _____ كان لموسى من الآيات ما لم يكن مثله للمسيح
- 364 _____ { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } _____
- 364 _____ صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له
- 364 _____ القرآن منقول بالتواتر محفوظ في الصدور
- 365 _____ أنزل الله القرآن منجماً مفرقاً
- 366 _____ جبريل نزل القرآن من الله لا من هواه ولا من لوح
- 367 _____ إن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه وأنه تنزيل منه وأنه كلامه
- 368 _____ الكتب السماوية السابقة بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم
- 369 _____ الرسول صلى الله عليه وسلم موصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن
- 370 _____ سجود التلاوة سجود عند خصوص الأمر بالسجود
- 371 _____ الخرور على الذقن عبادة مقصودة
- 374 _____ سجود التلاوة يسقط لما هو أفضل منه
- 375 _____ السماع المأمور به سماع فقه وقبول
- 376 _____ سماع آيات الله تعالى هو سماع النبيين وأهل العلم
- 378 _____ حكم السماعات المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف
- 380 _____ علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة
- 382 _____ التسبيح يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها
- 382 _____ الإيمان يتبعض ويزيد وينقص
- 383 _____ الأحوال المذكورة في القرآن هي وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود
- 383 _____ يدعى الله بجميع أسمائه الحسنی
- 384 _____ دعاء الإسم هو دعاء مسماه
- 386 _____ أنكر الله على المشركين الذين امتنعوا من تسميته بالرحمن
- 386 _____ لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين
- 388 _____ كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته

- 388 _____ هذان الإسمان هما أصل بقية أسماء الله تعالى
- 388 _____ رفع الأصوات الرفع الشديد مكروه
- 389 _____ الاسم يظهر به المسمى ويعلو
- 391 _____ الاسماء الحسنى
- 392 _____ الله هو المستحق للمحامد الكاملة
- 392 _____ الحمد لله رأس الشكر
- 393 _____ " أول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء "
- 394 _____ نزه الله تعالى نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد
- 395 _____ نفيه سبحانه عن نفسه أن يلد شيئا اقتضى أن لا يتولد عنه شيء
- 395 _____ يعظم الله فرية النصارى على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم
- 396 _____ الشفاعة التى نفاها القرآن
- 397 _____ جميع ما سوى الله من الأعيان و صفاتها و أحوالها مخلوقة لله مملوكة لله
- 398 _____ جمع الله فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات
- 399 _____ { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا }
- 399 _____ الله سبحانه يولى عباده إحسانا وجودا وكرما لا حاجة إليهم
- 400 _____ الشريعة الحنيفية أكمل من غيرها من الشرائع
- 400 _____ لطائف لغوية

~ §§ الإسراء (مكية) 111 §§ ~

الإسراء 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {1} وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا {2} ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا {3} وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا {4} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {6} إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا {7} عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا {8}

التسبيح يقتضي إثبات صفات الكمال لله

قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الإسراء 1 والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا ابن نفيل الحراني ثنا النضر ابن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال إسم يعظم الله به ويحاشي به من السوء وقال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من السوء وعن الضحاك عن ابن عباس في قوله { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا } الإسراء 1 قال عجب و عن أبي الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس أنه تنزيه نفسه من السوء و روي في ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و

نفي النفاص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشى به من السوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبي صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن السوء و قال حدثنا الضحاك ابن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال ابن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضيها الله لنفسه و أمر بها ملائكته و فزع إليها الأخيار من خلقه¹

أخبر القرآن بمسرى النبي صلى الله عليه وسلم و بصعوده إلى السموات

ومن آياته صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع الأول منها ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بعث كمعراجة إلى السماء وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السموات وهذا مما تواترت به الأحاديث وأخبر به القرآن أخبر بمسراه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس وفي موضع آخر بصعوده إلى السموات فقال تعالى { **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } الإسراء 1 فأخبر هنا بمسراه ليلا بين المسجدين وأخبر أنه فعل ذلك ليريه من آياته ومعلوم أن الأرض قد رأى سائر الناس ما فيها من الآيات فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس كما قال في السورة الأخرى { **أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** } {12} **وَلَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَىٰ** } {13} **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ** } {14} **عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** } {15} **النَّجْمِ 12-15** وقد بين ذلك في السورة الأخرى فإنه رأى جبريل { **عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ** } {14} **عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** } {15} إذ يَعْشَى السِّدْرَةَ مَا يَعْشَى } {16} **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** } {17} **النَّجْمِ 14-17** وانه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى وذكر في تلك السورة المسرى لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهانا فإنه لما أخبرهم به فكذبه من كذبه وتعجبوا من ذلك سألوه عن نعتة وصفته فنعتة لهم لم يخرم من النعت شيئا وأخبر خبر غيرهم التي كانت في الطريق فظهر لهم صدقه وكان صدقه في هذا آية على صدقه فيما غاب عنهم وكان قطع المسافة البعيدة في الزمان اليسير لأجل ما أراه من الآيات التي تختص برويتها الأنبياء وبهذا تميز عن قطع المسافة كرامة لولي أو بتسخير الجن كما في قصة بلقيس حيث { **قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** } النمل 39 فإن قطع الجسم للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك كما كانت { **الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ** } {36} **وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَغَوَاصِّ** } {37} **وَأَخْرَيْنَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** } {38} ص 36-38 وهذا تسخير ملكي و قطع محمد صلى الله عليه وسلم كان لما أراه الله من الآيات التي ميزه بها على سائر النبيين وكان ذلك فتنة أي محنة وابتلاء للناس ليتبين من يؤمن به ممن يكذبه وأحاديث المعراج وصعوده إلى ما فوق السموات وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ ورؤيته لما رآه من الآيات

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 125-126

والجنة والنار والملائكة والأنبياء في السموات والبيت المعمور وسدرة المنتهى وغير ذلك معروف متواتر في الأحاديث وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله يظهر به تحقيق قوله تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَنبَأَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} البقرة 253 فالدرجات التي رفعها محمد ليلة المعراج وسيرفعا في الآخرة في المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون الذي ليس لغيره مثله ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة وأبي ذر ومن رواية ابن عباس وأبي حبة الأنصاري وغيرهم فروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى بصره قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه قال ففتح لنا فإذا أنا بأدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وبعث إليه قال قد بعث إليه قال ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ويحيى بن زكريا عليهما السلام فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن قال فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس صلى الله عليه وسلم فرحب ودعا لي بخير قال الله عز وجل {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} مريم 57 ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون صلى الله عليه وسلم فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل أو قد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كأذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال ما فرض ربك علي أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلي ربي فقلت رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت إلى موسى عليه السلام فقلت حط عني خمس قال فإن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال لي يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه وفي رواية

قال فأتيت فانطلق بي إلى زمزم فشرح عن صدري ثم غسل بماء زمزم ثم أنزلت طست من ذهب مملوءة حكما وإيمانا فحشى بها صدري وفي رواية فشق من النحر إلى مرق البطن وقال عن البيت المعمور فقلت ما هذا قال بناء بناه الله لملائكته يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يقصدون الله ويسبحونه لا يعودون إليه وفي حديث أبي ذر فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئة حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا افتح قال من هذا قال جبريل قال هل معك احد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى قال مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار قال الزهري وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس و ابا حبة الأنصاري يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع منه صريف الأقلام وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها قال { إِذْ يَعْشَى السَّدْرَةَ مَا يَعْشَى } النجم 16 قال فرأى من ذهب قال فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله شيئا من أمته المقدمات وعنه في قوله عز وجل { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى } النجم 9 قال إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألتنني عن أشياء من بيت المقدس لم أتبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وصعد الأدمي ببدنه إلى السماء قد ثبت في أمر المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فإنه صعد إلى السماء وسوف ينزل إلى الأرض وهذا مما يوافق النصارى عليه المسلمون فإنهم يقولون إن المسيح صعد إلى السماء ببدنه وروحه كما يقوله المسلمون ويقولون إنه سوف ينزل إلى الأرض أيضا كما يقوله المسلمون وكما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة لكن كثيرا من النصارى يقولون إنه صعد بعد أن صلب وأنه قام من القبر وكثير من اليهود يقولون إنه صلب ولم يصعد ولم يقم من قبره وأما المسلمون وكثير من النصارى فيقولون إنه لم يصلب ولكن صعد إلى السماء بلا صلب والمسلمون ومن وافقهم من النصارى يقولون إنه ينزل إلى الأرض قبل القيامة وأن نزوله من أسراط الساعة كما دل على ذلك الكتاب والسنة وكثير من النصارى يقولون إن نزوله هو يوم القيامة وإنه هو الله الذي يحاسب الخلق وكذلك إدريس صعد إلى السماء ببدنه وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلى السماء ببدنه ومن أنكر صعود بدن إلى السماء من المتفلسفة فعمدته شيئا أحدهما أن الجسم الثقيل لا يصعد وهذا في غاية الضعف فإن صعود الأجسام الثقيلة إلى الهواء مما تواترت به الأخبار في أمور متعددة مثل عرش بلقيس الذي حمل من اليمن إلى الشام في لحظة ولما قال سليمان { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } {38} قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ } {39} قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ

فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ {40} قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ {41} فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ {42} النمل 38-42 ومثل حمل الريح لسليمان عليه السلام وعسكره لما كان يحمل البساط في الهواء وهو جالس عليه بأصحابه ومثل حمل قري قوم لوط ثم إلقائها في الهواء ومثل المسرى إلى بيت المقدس الذي ظهر صدق الرسول بخبره¹

المعراج كان بمكة قبل الهجرة بإجماع الناس

قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الإسراء 1 فإن المعراج كان بمكة قبل الهجرة بإجماع الناس وكان الإسراء من المسجد الحرام وقال { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ } {1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ } {2} وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ } {3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ } {4} النجم 1-4 سورة النجم إلى قوله { أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ } {12} وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَىٰ } {13} عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ } {14} النجم 12-14 إلى قوله { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } النجم 19 وهذا كله نزل بمكة بإجماع الناس²

حقق الله للنبي نعت العبودية في أرفع مقاماته

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والاعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والاحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وامثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة إليه واخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمة والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وامثال ذلك هي من العبادة لله وذلك ان العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وبها ارسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه { اَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } النحل 36 وجعل ذلك لازماً لرسوله الى الموت قال { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } الحجر 99 وبذلك وصف ملائكته وانبياءه فقال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ } {19} يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 165-175

²منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 66 و مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 336

يَقْتُرُونَ {20} الأنبياء 19 وذم المستكبرين عنها بقوله {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} غافر 60 ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} الإسراء 1 وقوله {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} {45} إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ {46} وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} {47} ص 45-48 وقوله {وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ص 17 وقال عن سليمان {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ص 30 وعن أيوب {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} ص 44 وقال {وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ} ص 41 وقال عن نوح عليه السلام {ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} الإسراء 3 وقال {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} الجن 19 وقال {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا} البقرة 23 وقال {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} النجم 10 وقال {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} الإنسان 6 وقال {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} الفرقان 63 وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الالهية والنبوة {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} الزخرف 59 ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ولهذا حقق الله له نعت العبودية في أرفع مقاماته وفي اكمل احواله حيث قال في الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} الإسراء 1 وقال تعالى {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} النجم 10 وقال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} الجن 19 ولهذا يشرع في التشهد وفي سائر الخطب المشروعة كخطب الجمع والأعياد وخطب الحاجات عند النكاح وغيره أن نقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وكان رسول الله يحقق عبوديته لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح من دعوى الألوهية حتى قال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال أيضا لأصحابه لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد بل قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد وقال لا تتخذوا قبري عبدا وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى وقال اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقال إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك والغلو في الأمة وقع في طائفتين طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئا من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم قال تعالى في خطابه لبنى إسرائيل {وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّا تُكْفِرُنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} المائدة 12 والتعزيز النصر والتوقير والتأييد¹

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلائق

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 150-151 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 66 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 378 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 362

قال تعالى { **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } الإسراء 1 ورسول الله صلى عليه وسلم هو أفضل الخلائق وسيد ولد آدم وله الوسيلة في المقامات كلها ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئاً ولا أنه يريد كل واقع كما أنه لم يكن حاله أنه يتبع الهوى بل هو منزّه عن هذا وهذا قال الله تعالى { **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ {3}** } **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ {4}** } النجم 3-4 وقال تعالى { **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ {19}** } وقال تعالى { **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا {البقرة 23}** } وقال { **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا** } الإسراء 1 والمراد بعبده عابده المطيع لأمره وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون وقد قال الله لنبيه { **وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ {الحجر 99}** } قال الحسن البصرى لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت وقد قال الله تعالى له { **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ {القلم 4}** } قال ابن عباس ومن وافقه كإبن عيينة وأحمد بن حنبل على دين عظيم و الدين فعل ما أمر به وقالت عائشة كان خلقه القرآن رواه مسلم وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه لكن يعاقب الله¹

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى { **وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ {19}** } يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ {20} الأنبياء 19-20 وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل 36}** } وقال { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ {الذاريات 56}** } وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام { **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ {الأعراف 59}** } وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى وقد بين ان عباده هم الذين ينجون من السيئات قال الشيطان { **بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ {39}** } إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {40} الحجر 39-40 وقال تعالى في حق يوسف { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {يوسف 24}** } وبها نعت كل من اصطفى من خلقه كقوله { **وَإِذْ كَرَّمْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {45}** } إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ {46} } وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ {47} } ص 45-47 وقوله { **وَإِذْ كَرَّمْنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ {ص 17}** } وقال عن سليمان { **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ {ص 30}** } وعن أيوب { **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ {ص 44}** } وقال { **وَإِذْ كَرَّمْنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ {ص 41}** } وقال نوح عليه السلام { **ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا {الإسراء 3}** } وقال { **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ {الإسراء 1}** } وقال { **وَأَنَّهُ لَمَّا**

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 503 و قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 87

قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ { الجن 19 } وَقَالَ { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا } البقرة 23 وقال { فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ } النجم 10 وقال { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ } الإنسان 6 وقال { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا } الفرقان 63 ومثل هذا كثير متعدد في القرآن¹

اسم العبد يتناول معنيين

قال تعالى { **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } الإسراء 1 و اسم العبد يتناول معنيين أحدهما بمعنى العابد كرها كما قال { **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** } مريم 93 وقال { **وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** } آل عمران 83 وقال { **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } البقرة 117 { **كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ** } البقرة 116 وقال { **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا** } الرعد 15 و الثاني بمعنى العابد طوعا هو الذي يعبده و يستعينه و هذا هو المذكور في قوله { **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا** } الفرقان 63 و قوله { **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** } الإنسان 6²

فان العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق كما فى قوله { **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** } مريم 93 وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل فكانت الاضافة فى حقه أكمل مع أنها حقيقة فى جميع المواضع ومثل هذه الالفاظ يسميها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها هل هى من قبيل الاسماء المتواطئة أو من قبيل المشتركة فى اللفظ فقط والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة اذ واضع اللغة انما وضع اللفظ بازاء القدر المشترك وان كانت نوعا مختصا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ³

دل القرآن العظيم على بركة الشام فى خمس آيات

روى أبوداود فى سننه عن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله ستكون هجرة بعد هجرة فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم وفى سننه أيضا عن عبدالله بن خولة عن النبى قال إنكم ستجندون أجنادا جندا بالشام وجندا باليمن وجندا بالعراق فقال ابن خولة يا رسول الله اختر لى فقال عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من خلقه فمن أبى فليحلق بيمينه وليتق من

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 177

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 30

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 105

غدره فإن الله قد تكفل لى بالشام وأهله وكان الخوالى يقول من تكفل الله به فلا ضيعة عليه وهذا نسان فى تفضيل الشام وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة قال الإمام احمد أهل المغرب هم أهل الشام وهو كما قال فإن هذه لغة أهل المدينة النبوية فى ذاك وفى الكتب المعتمد عليها مثل مسند أحمد وغيره عدة آثار عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الأصل مثل وصفه أهل الشام بأنه لا يغلب منافقوهم مؤمنيهم وقوله رأيت كأن عمود الكتاب وفى رواية عمود الإسلام أخذ من تحت رأسى فأنتعته نظرى فذهب به إلى الشام وعمود الكتاب والإسلام ما يعتمد عليه وهم حملته القائمون به ومثل قوله عقر دار المؤمنين الشام ومثل ما فى الصحيحين عن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة وفيهما أيضا عن معاذ بن جبل قال وهم بالشام وفى تاريخ البخارى قال وهم بدمشق وروى وهم بأكناف بيت المقدس وفى الصحيحين أيضا عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أخبر أن ملائكة الرحمن مظلة أجنحتها بالشام والآثار فى هذا المعنى متعاضدة ولكن الجواب ليس على البديهة على عجل وقد دل الكتاب والسنة وما روى عن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام مع ما علم بالحس والعقل وكشوفات العارفين ان الخلق والأمر ابتداء من مكة أم القرى فهى أم الخلق وفيها ابتدئت الرسالة المحمدية التى طبق نورها الأرض وهى جعلها الله قياما للناس إليها يصلون ويحجون ويقوم بها ما شاء الله من مصالح دينهم ودنياهم فكان الإسلام فى الزمان الأول ظهوره بالحجاز أعظم ودلت الدلائل المذكورة على أن ملك النبوة بالشام والحشر إليها فالى بيت المقدس وما حوله يعود الخلق والأمر وهناك يحشر الخلق والإسلام فى آخر الزمان يكون أظهر بالشام وكما أن مكة أفضل من بيت المقدس فأول الأمة خير من آخرها وكما أنه فى آخر الزمان يعود الأمر إلى الشام كما أسرى بالنبى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فخير أهل الأرض فى آخر الزمان ألزمهم مهاجر إبراهيم عليه السلام وهو بالشام فالأمر مساسه كما هو الموجود والمعلوم وقد دل القرآن العظيم على بركة الشام فى خمس آيات قوله {وَأُورَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} الأعراف 137 والله تعالى إنما أورث بنى إسرائيل أرض الشام وقوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} الإسراء 1 وقوله {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} الأنبياء 71 وقوله {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} الأنبياء 81 وقوله تعالى {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً} سبأ 18 الآية فهذه خمس آيات نصوص و البركة تتناول البركة فى الدين والبركة فى الدنيا وكلاهما معلوم لا ريب فيه فهذا من حيث الجملة والغالب¹

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 41 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 32

عقر دار المؤمنين الشام وأن منافقيها لا يغلبوا أمر مؤمنيا

ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء وهي أحد ما اعتمده في تخضيض المسلمين على غزو النصارى وأمرى لهم بلزوم دمشق ونهيبى لهم عن الفرار إلى مصر وإستدعائى العسكر المصرى إلى الشام وتثبيت الشامى فيه وقد جرت فى ذلك فصول متعددة وهذه المناقب أمور أحدها البركة فيه ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى قوله تعالى فى قصة موسى {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} الأعراف 129 إلى قوله {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَىٰ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ} {135} فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} {136} وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا} {137} الأعراف 135-137 ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغاربها بعد أن أغرق فرعون فى اليم وقوله تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} {الإسراء 1} وحوله أرض الشام وقوله تعالى فى قصة إبراهيم {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} {70} وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} {71} الأنبياء 70-71 ومعلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والفرات وقوله تعالى {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} {الأنبياء 81} وإنما كانت تجرى إلى أرض الشام التى فيها مملكة سليمان وقوله تعالى فى قصة سبأ {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} {سبأ 18} وهما كانا بين اليمن مساكن سبأ وبين منتهى الشام من العمارة القديمة كما قد ذكره العلماء فهذه خمس نصوص حيث ذكر الله أرض الشام فى هجرة إبراهيم إليها ومسرى الرسول إليها وانتقال بنى إسرائيل إليها ومملكة سليمان بها ومسير سبأ إليها وصفها بأنها الأرض التى باركنا فيها وأيضا فيها الطور الذى كلم الله عليه موسى والذى أقسم الله به فى سورة الطور وفى {وَالنِّينِ وَالزَّيْتُونِ} {1} {وَطُورِ سَيْنِينَ} {2} {التين 1-2} وفيها المسجد الأقصى وفيها مبعث أنبياء بنى إسرائيل وإليها هجرة إبراهيم وإليها مسرى نبينا ومنها معراجها وبها ملكه وعمود دينه وكتابه وطائفة منصوره من أمته وإليها المحشر والمعاد كما أن من مكة المبدأ فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض والشام إليها يحشر الناس كما فى قوله {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} {الحشر 2} نبه على الحشر الثانى فمكة مبدأ وإيليا معاد فى الخلق وكذلك فى الأمر فإنه أسرى بالرسول من مكة إلى إيليا ومبعثه ومخرج دينه من مكة وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى مملكة المهدي بالشام فمكة هى الأول والشام هى الآخر فى الخلق والأمر فى الكلمات الكونية والدينية ومن ذلك أن بها طائفة منصوره إلى قيام الساعة التى ثبت فيها الحديث فى الصحاح من حديث معاوية وغيره لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة وفيهما عن معاذ بن جبل قال وهم فى الشام وفى تاريخ البخارى مرفوعا قال وهم بدمشق وفى صحيح مسلم عن النبى أنه قال لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة قال أحمد بن حنبل أهل المغرب هم أهل الشام وهم كما قال لوجهين أحدهما أن فى سائر الحديث بيان أنهم أهل الشام الثانى أن لغة النبى صلى الله عليه وسلم وأهل مدينته فى أهل المغرب هم أهل الشام ومن يعرب عنهم كما أن لغتهم فى أهل المشرق هم أهل نجد والعراق فإن التغريب والتشريق من الأمور النسبية فكل بلد له غرب قد يكون شرقا لغيره وله شرق قد يكون غربا لغيره فالإعتبار فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم بما كان غربا وشرقا له حيث تكلم بهذا الحديث وهى المدينة ومن علم حساب الأرض كطولها وعرضها علم أن حران والرقعة وسيمسياط على سمت

مكة وأن الفرات وما على جانبيها بل أكثره على سمت المدينة بينهما في الطول درجتين فما كان غربي الفرات فهو غربي المدينة وما كان شرقيها فهو شرقي المدينة فأخبر أن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين وأما أهل الشرق فقد يظهرون تارة ويغلبون أخرى وهكذا هو الواقع فإن جيش الشام ما زال منصورا وكان أهل المدينة يسمون الأوزاعي إمام أهل المغرب ويسمون الثوري شرقيا ومن أهل المشرق ومن ذلك أنها خيرة الله من الأرض أن أهلها خيرة الله وخيار أهل الأرض وإستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديثين حديث عبدالله بن خولة الأزدي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستجدون أجنادا جندا بالشام وحنادا باليمن وحنادا بالعراق فقال الخواري يا رسول الله إختبر لي قال عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إلى خيرته من عباده فمن ابى فليلحق بيمنه وليتق من غدره فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله وكان الخواري يقول ومن تكفل الله به فلا ضيعة عليه ففي هذا الحديث مناقب أنها خيرة وحديث عبدالله بن عمرو عن النبي قال ستكون هجرة بعد هجرة فخير أهل الأرض أئمة مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم تقدرهم نفس الرحمن تحشرهم النار مع القرودة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا فقد أخبر أن خير أهل الأرض أئمة مهاجر إبراهيم بخلاف من يأتي إليه أو يذهب عنه ومهاجر إبراهيم هي الشام وفي هذا الحديث بشرى لأصحابنا الذين هاجروا من حران وغيرها إلى مهاجر إبراهيم واتبعوا ملة إبراهيم ودين نبيهم محمد تسليما وبيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله إلى المدينة لأن الهجرة إلى حيث يكون الرسول وأثاره وقد جعل مهاجر إبراهيم يعدل لنا مهاجر نبينا فإن الهجرة إلى مهاجره إنقطعت بفتح مكة ومن ذلك أمر النبي بها في حديث الترمذي ومن ذلك إن الله قد تكفل بالشام وأهله كما في حديث الخواري ومن ذلك إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها على الشام كما في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر ومن ذلك أن عمود الكتاب والإسلام بالشام كما قال النبي رأيت كأن عمود الكتاب أخذ من تحت رأسي فأتبعته بصرى فذهب به إلى الشام ومن ذلك أنها عقر دار المؤمنين كما قال النبي وعقر دار المؤمنين الشام ومن ذلك أن منافقيها لا يغلبوا أمر مؤمنينا كما رواه أحمد في المسند في حديث وبهذا إستدللت لقوم من قضاة القضاة وغيرهم في فتن قام فيها علينا قوم من أهل الفجور والبدع الموصوفين بخصال المنافقين لما خوفونا منهم فأخبرتهم بهذا الحديث وإن منافقيننا لا يغلبوا مؤمنينا وقد ظهر مصداق هذه النصوص النبوية على أكمل الوجوه في جهادنا للتتار وأظهر الله للمسلمين صدق ما وعدناهم به وبركة ما أمرناهم به وكان ذلك فتحا عظيما ما رأى المسلمون مثله منذ خرجت مملكة التتار التي أذلت أهل الإسلام فإنهم لم يهزموا ويغلبوا كما غلبوا على باب دمشق في الغزوة الكبرى التي أنعم الله علينا فيها من النعم بما لا نحصيه خصوصا وعموما والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضاه وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله¹

لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 511

ليس في الأدلة ما يقتضى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الله سبحانه بعينه ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك بل النصوص الصحيحة على نفيه أول كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول الله هل رأيت ربك فقال نور انى اراه وقد قال تعالى **{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** {الإسراء: 1} ولو كان قد اراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك اولى وكذلك قوله **{ أَفْتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ }** {النجم: 12} **{ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ }** {18} {النجم: 18} ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك اولى وفي الصحيحين عن ابن عباس في قوله وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن قال هي رؤيا عين أريها رسول الله ليلة اسرى به وهذه رؤيا الآيات لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج فكان ذلك فتنة لهم حيث صدقه قوم وكذبه قوم ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه وليس في شيء من احاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الامة انه لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه الا ما نازع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد خاصة واتفقوا على ان المؤمنين يرون الله يوم القيامة عيانا كما يرون الشمس والقمر واللجنة تجوز مطلقا لمن لعنه الله ورسوله واما لعنة المعين فان علم أنه مات كافرا جازت لعنته وأما الفاسق المعين فلا تنبغى لعنته لنهاى النبي أن يلعن عبدالله بن حمارا الذى كان يشرب الخمر مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما مع أن فى لعنة المعين اذا كان فاسقا او داعيا الى بدعة نزاع وهذه المسألة قد بسط الكلام عليها¹

الرد على من ينكرون رؤية الله يوم القيامة

قال عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون الامام نظير مالك في كلامه المشهور الذى رد فيه على الجهمية ومن خالفها ومن أول كلامه قال فاما الذى جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقا وتكيفا فقد استهوته الشياطين فى الارض حيران فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال لا بد أن كان له كذا من أن يكون له كذا فعلمى عن البين بالخفى فجحد ما سمي الرب من نفسه بصمت الرب عما لم يسم منها فلم يزل يملى له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى **{وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ}** {22} **{إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** {23} {القيامة: 22-23} فقال لا يراه أحد يوم القيامة فجحد والله أفضل كرامة الله التى أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر الى وجهه ونضرتة اياهم **{فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}** {القمر: 55} وقد قضى انهم لا يموتون فهم بالنظر اليه ينضرون الى أن قال وانما جحد رؤية الله يوم القيامة اقامة للحجة الضالة المضلة لأنه قد عرف انه اذا تجلى لهم يوم القيامة راوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحدا وقال المسلمون يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فانكم ترون ربكم كذلك وقال رسول الله لا تمتلىء النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وينزوى بعضها الى بعض وقال لثابت بن قيس قد ضحكك الله مما فعلت بضيفك البارحة

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 510

وقال فيما بلغنا عنه ان الله يضحك من أزلكم وقنوطكم وسرعة اجابتكم وقال له رجل من العرب ان ربنا ليضحك قال نعم قال لن نعدم من رب يضحك خيرا في اشباه لهذا مما لم نحسه وقال تعالى { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } {الإسراء 1} {وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } الطور 48 وقال { وَلِئْصَنَعُ عَلَيَّ عِزِّي } طه 39 وقال { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ } ص 75 وقال { وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 فوالله ما دلهم على عظم ما وصف به نفسه وما تحيط به قبضته الا صغر نظيرها منهم عندهم ان ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفته قلوبهم فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميانه كما سماه ولم نتكلف منه علم ما سواه لا هذا ولا هذا لا نجد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف انتهى¹

إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى

قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } {الإسراء 1} ومعلوم ان في ذلك حكم أخرى ايضا ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضع من مناسبتة وهذا كالمناسبة في قوله {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} {6} سورة يس الآية 6 فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم²

المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد

وقال تعالى { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً } {الإسراء 2} فأمر أن يتخذ وكيلاً ونهى أن يتخذ من دونه وكيلاً لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد والوكالة الجائزة أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره أو يحصل بلا توكل لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلاً أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً } {الإسراء 2} (عن التوكل)³

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 562

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 436

³رسالة في تحقيق التوكل ج: 1 ص: 89

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب

قال تعالى { **ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** } {الإسراء 3} الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب وأنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة وأنه علم ذلك كان هذا كذبا وبهتاناً بخلاف ما إذا قال { **فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** } {البقرة 37} { **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ** } طه 121 فإنه يكون صادقا في ذلك والله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن يكون وهو عالم به بعد أن كان كذلك كل ما أخبر به من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم بذنوبهم وأنه نجى الأنبياء ومن إتبعهم بإيمانهم وتقواهم كما قال { **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ بَيِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } {الأعراف 165} وقال { **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } {العنكبوت 40¹}

وصف الله اليهود بالكبر وإرادة العلو في الأرض والفساد

قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه استكبارا وحسدا وغلوا واتباعا للهوى وهذا هو الغي والنصارى ليس لهم علم بما يفعلونه من العبادة والزهد والأخلاق بل فيهم الجهل والعلو والبدع والشرك جهلا منهم وهذا هو الضلال وإن كان كل من الأمتين فيه ضلال وغي لكن الغي أغلب على اليهود والضلال أغلب على النصارى ولهذا وصف الله اليهود بالكبر والحسد واتباع الهوى والغي وإرادة العلو في الأرض والفساد قال تعالى { **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** } {البقرة 87} وقال تعالى { **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا** } {النساء 54} وقال { **سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** } {الأعراف 146²}

كما قال في اليهود بل طبع الله عليها بكفرهم سورة النساء 144 وقد وصفهم بنحو مما وصف عدوهم فرعون فقوله **وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا** سورة الإسراء 4 فوصفهم بالفساد في الأرض والعلو كما أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 12-13

المفسدين سورة القصص وختم السورة بقوله تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين سورة القصص 83¹

حب الرياسة هو أصل البغي والظلم

قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } {4} فَأَذا جَاء وَعَدُّ أَوْلَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا } {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } {6} إِنَّ أَحْسَنَتُمْ أَحْسَنَتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعَدُّ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } {7} عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا } {8} الإسراء 4-8 وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرجاه في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال لما أنزلت هذه الآية {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} {الأنعام 82} شق ذلك على أصحاب النبي وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال إن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني بحليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} {الفرقان 68} الآية وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعاً الظلم ثلاثة دواوين فديوان لا يغفر الله منه شيئاً وديوان لا يترك الله منه شيئاً وديوان لا يعبأ الله به شيئاً فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً فهو الشرك فإن الله لا يغفر أن يشرك به وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فهو ظلم العباد بعضهم بعضاً فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه أي مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق فإن شاء عذب وهذا الظالم لنفسه وإن شاء غفر له وقد بسطنا الكلام في هذه الأبواب الشريفة والأصول الجامعة في القواعد وبيننا أنواع الظلم وبيننا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وروى أن هذه الآية نزلت في أهل الرياء قال تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } {الكهف 110} وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبو داود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغي والظلم كما أن الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} {القصص 4} إلى أن ختم السورة بقوله {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} {القصص 83} وقال {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} {الإسراء 4} وقال {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 19

إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا { المائدة 32 } وقالت الملائكة { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ { البقرة 30 } فأصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر كما قال عن المنافقين { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ { 11 } } أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ { 12 } { البقرة 11-12 } وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه ولهذا يقول الفقهاء العقد الصحيح ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده والفساد ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصود والصحيح المقابل للفساد اصطلاحهم هو الصالح وكان يكثر في كلام السلف هذا لا يصلح أو يصلح كما كثر في كلام المتأخرين يصلح ولا يصلح والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي في الحديث الصحيح أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مِزْجَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ وَصَلَحَ الْقَلْبُ فِي أَنْ يَحْصَلَ لَهُ وَبِهِ الْمَقْصُودُ الَّذِي خُلِقَ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَفَسَادِهِ فِي ضِدِّ ذَلِكَ فَلَا صَلَاحَ لِلْقُلُوبِ بَدُونَ ذَلِكَ قَطُّ وَالْقَلْبُ لَهُ قُوَّتَانِ الْعِلْمُ وَالْقَصْدُ كَمَا أَنَّ لِلْبَدَنِ الْحَسَّ وَالْحَرَكَةَ الْإِرَادِيَّةَ فَكَمَا أَنَّهُ مَتَى خَرَجَتْ قُوَى الْحَسِّ وَالْحَرَكَةِ عَنِ الْحَالِ الْفَطْرِيِّ الطَّبِيعِيِّ فَسَدَتْ فَإِذَا خَرَجَ الْقَلْبُ عَنِ الْحَالِ الْفَطْرِيِّ الَّتِي يُولَدُ عَلَيْهَا كُلُّ مَوْلُودٍ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ مَقْرَأًا لِرَبِّهِ مَرِيدًا لَهُ فَيَكُونَ هُوَ مَنْتَهَى قَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ وَذَلِكَ هِيَ الْعِبَادَةُ إِذْ الْعِبَادَةُ كَمَالُ الْحُبِّ بِكَمَالِ الذَّلِّ فَمَتَى لَمْ تَكُنْ حَرَكَةُ الْقَلْبِ وَوَجْهَهُ وَإِرَادَتُهُ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ فَاسِدًا إِمَّا بِأَنْ يَكُونَ مَعْرُضًا عَنِ اللَّهِ وَعَنْ ذِكْرِهِ غَافِلًا عَنِ ذَلِكَ مَعَ تَكْذِيبٍ أَوْ بَدُونَ تَكْذِيبٍ أَوْ بَأَنْ يَكُونَ لَهُ ذِكْرٌ وَشَعُورٌ وَلَكِنْ قَصْدُهُ وَإِرَادَتُهُ غَيْرُهُ لِكُونَ الذِّكْرُ ضَعِيفًا لَمْ يَجْتَذِبِ الْقَلْبُ إِلَى إِرَادَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِلَّا فَمَتَى قُوَى عِلْمِ الْقَلْبِ وَذِكْرُهُ أَوْجَبَ قَصْدَهُ وَعِلْمَهُ قَالَ تَعَالَى { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا { 29 } } ذَلِكَ مَبْلُغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ { 30 } { النجم 29-30 } فأمر نبيه بأن يعرض عن من كان معرضًا عن ذكر الله ولم يكن له مراد إلا ما يكون في الدنيا وهذه حال من فسد قلبه ولم يذكر ربه ولم ينب إليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال { ذَلِكَ مَبْلُغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ { النجم 30 } فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم وأما المؤمن فأكبر همه هو الله وإليه إنتهى علمه وذكره وهذا الآن باب لواسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه وإذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك أصل فسادهم والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالملزوزين في قرن فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البر وهو العدل والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده هي فساد وظلم ولهذا سمي قطاع الطريق مفسدين وكانت عقوبتهم حقا لله تعالى لإجتماع الوصفين والذي يريد العلو على غيره من أبناء جنسه هو ظالم له باغ إذ ليس كونك عاليا عليه بأولى من كونه عاليا عليك وكلاهما من جنس واحد فالقسط والعدل أن يكونوا أخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك¹

وقد بين القرآن أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله فأعظم السيئات جحود الخالق والشرك به وطلب النفس أن تكون شريكة وندا له أو أن تكون إلها من دونه فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها فتجد أحدهم يوالي من يوافقه على هواه ويعادي من يخالفه في هواه وإنما معبوده ما

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 163-167 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 417

يهواه ويريده قال تعالى { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا } الفرقان 43 والناس عنده في هذا الباب كما هم عند ملوك الكفار من المشركين من الترك وغيرهم يقولون يا رباعي أي صديق وعدو فمن وافق هواهم كان وليا وإن كان كافرا مشركا ومن لم يوافق هواهم كان عدوا وإن كان من أولياء الله المتقين وهذه هي حال فرعون والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية وجحود الصانع وهؤلاء وإن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم فقد يعادونه كما عادى فرعون موسى وكثير من الناس ممن عنده بعض عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد بل يطلب لنفسه ما هو عنده فإن كان مطاعا مسلما طلب أن يطاع في أغراضه وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله ويكون من أطاعه في هواه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع الله وخالف هواه وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسول وإن كان عالما أو شيئا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره حتى لو كانا يقرآن كتابا واحدا كالقرآن أو يعبدان عبادة واحدة متماثلان فيها كالصلوات الخمس فإنه يحب من يعظمه بقبول قوله والافتداء به أكثر من غيره وربما أبغض نظيره وأتباعه حسدا وبغيا كما فعلت اليهود لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى قال تعالى { وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } الجاثية 17 ولهذا أخبر الله تعالى عنهم بنظير ما أخبر به فرعون وسلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى عن فرعون { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } القصص 4 وقال تعالى عنهم { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } الإسراء 4 ولهذا قال تعالى { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } القصص 83 والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لعبادته ليذكروه ويشكروه ويعبدوه وأرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبدوا الله وحده وليكون الدين كله لله ولتكون كلمة الله هي العليا¹

لما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء

لما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء فخرجت الروم النصرانية إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذوا الثغور الشامية شيئا بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصرانية والمنافقين الملاحدة إلى أن تولى نور الدين الشهيد وقام بما قام به من أمر الإسلام وظهره والجهاد لأعدائه ثم استجد به ملوك مصر بنوا عبيد على النصرانية فانجدهم وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بني عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن سادى وخطب بها لبنى العباس فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بايدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سببا لخير الدنيا والآخرة وبالعكس البدع والالحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الالحاد والبدع سلط

¹ الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 88

عليهم الكفار ولما اقاموا ما اقاموه من الاسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقاً لقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْحِيكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ {10} تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {11} يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {12} وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {13} الصف 10-13

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالاسلام كانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والالحاد والفجور سلط عليهم الكفار قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا {4} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {6} إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا {7} عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا {8}

الإسراء 4- 8 وكان بعض المشايخ يقول هولاء ملك الترك التتار الذي قهر الخليفة بالعراق وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جدا يقال قتل منهم ألف ألف وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ كان بعض الشيوخ يقول هو للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبني اسرائيل وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الالحاد والنفاق والبدع¹

مدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما

فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له فإذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يراحم ذلك ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر موجب للعلم بأن المدار علة للدائر وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الواردة فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي وانه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا ومن هذا ظهور بخت نصر على بني اسرائيل فإنه من دلائل نبوة موسى إذ كان ظهور بخت نصر إنما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا {4} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {6} إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا {7} عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا {8} إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا {9} وَأَنَّ

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 179

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {10} الاسراء 4-10 دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا فكان ظهور بني إسرائيل على عدوهم تارة وظهور عدوهم تارة من دلائل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم وكذلك ظهور أمة محمد صلى الله عليه وسلم على عدوهم تارة وظهور عدوهم عليهم تارة هو من دلائل رسالته محمد وأعلام نبوته وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم في حياته وبعد موته كما جرى لهم مع يوشع وغيره من دلائل نبوة موسى وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته مع خلفائه من أعلام نبوته ودلائلها وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون على أهل الكتاب أحيانا فإن أولئك لا يقول مطاعهم إنني نبي ولا يقاتلون أتباع الأنبياء على دين ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم بل قد يصرحون بأننا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم وأيضا فلا عاقبة لهم بل الله يهلك الظالم بالظالم ثم يهلك الظالمين جميعا ولا قتلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين أو ظهور بعضهم على بعض وبين أن ظهور محمد وأمه على أهل الكتاب اليهود والنصارى هو من جنس ظهورهم على المشركين عباد الأوثان وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته ليس هو كظهور بخت نصر على بني إسرائيل وظهور الكفار على المسلمين وهذه الآية مما أخبر بها موسى وبين أن الكذاب المدعي للنبوة لا يتم أمره وإنما يتم أمر الصادق فإن من أهل الكتاب من يقول محمد وأمه سلطوا علينا بذنوبنا مع صحة ديننا الذي نحن عليه كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك وهذا قياس فاسد فإن بخت نصر لم يدع نبوة ولا قاتل على دين ولا طلب من بني إسرائيل أن ينتقلوا عن شريعة موسى إلى شريعته فلم يكن في ظهوره إتماما لما ادعاه من النبوة ودعا إليه من الدين بل كان بمنزلة المحاربين قطاع الطريق إذا ظهوروا على القوافل بخلاف من ادعى نبوة وديننا دعا إليه ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة وتوعد مخالفه بشقاوة الدنيا والآخرة ثم نصره الله وأظهره وأتم دينه وأعلا كلمته وجعل له العاقبة وأذل مخالفه فإن هذا من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة فإنه دليل عليها وذلك من جنس خرق العادات التي لم تقترن بدعوى النبوة فإنه ليس دليلا عليها وقد يغرق في البحر أمم كثيرة فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبي بخلاف غرق فرعون وقومه فإنه كان آية بينة لموسى وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه الصلاة والسلام من أن الكذاب لا يتم أمره وذلك أن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب على كذبه من غير أن يتبين كذبه ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال الكذاب لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق كان معها ما يدل على كذبه من وجوه منها دعواه الإلهية وهو أعور والله ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلامات الثلاث في الأحاديث الصحيحة فأما تأييد الكذاب ونصره وإظهار دعوته دائما فهذا لم يقع قط فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة فهذا هو الواقع ومن يستدل على ذلك بالحكمة فحكمته تناقض أن يفعل ذلك إذ الحكيم لا يفعل هذا وقد قال تعالى {وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} {الفتح 22} فأخبر أن سنة الله التي لا تبدل لها نصر المؤمنين على الكافرين والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله فإذا نقض الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد¹

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 416-420

خراب بيت المقدس مرتين

ان اليهود عندما كانوا متبعين لموسى عليه السلام كانوا على الهدى ودين الحق وكانوا منصورين ثم كثرت فيهم الأحداث التي تعرفونها كما قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } {4} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا } {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } {6} إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } {7} عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا } {8} سورة الإسراء الآيات 4 8 وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين فالخراب الأول لما جاء بخت نصر وسباهم إلى بابل وبقي خرابا سبعين سنة والخراب الثاني بعد المسيح بنحو سبعين سنة وقد قيل هذا تأويل قوله {لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} المائدة 78 فبعد الخراب الثاني تفرقوا في الأرض ولم يبق لهم ملك وبين الخرابين كانوا تحت قهر الملوك الكفار وبعث المسيح عليه الصلاة والسلام وهم كذلك¹

خراب بيت المقدس مرتين ومجيء بخت نصر إلى بيت المقدس والله سبحانه قد ذكر في القرآن المرتين وكانت الأولى بعد سليمان وكانت الثانية بعد زكريا ويحيى والمسيح لما قتلوا يحيى بن زكريا الذي يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمدان وكثير من المذكورين بالعلم يظن أن بخت نصر هو الذي قدم الشام لما قتل يحيى بن زكريا وهذا عند أهل العلم من أهل الكتاب وعند من له خبرة من علماء المسلمين باطل والمتواتر أن بخت نصر هو الذي قدم في المرة الأولى²

لا يعذب الله أحدا إلا بعد إرسال رسول إليه

فجماهير المسلمين وسائر أهل الملل سلفهم وخلفهم الذين يقولون إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة ولا يظلم أحدا فينقصه شيئا من حسناته ولا يحمل عليه شئيات غيره بل ولا يعذب أحدا إلا بعد إرسال رسول إليه كما قال تعالى { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا } {2} ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } {3} وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } {4} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا } {5} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 94

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 337

وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {6} إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا {7} عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا {8} الإسراء 2-8 ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل إنه يجوز منه تعالى فعل كل شيء وأن الظلم هو الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة فهو لاء يقولون إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين في الجنة لا يعذبهم في النار بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة فضلا أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهية لفعلهم ونهيهم عن ذلك¹

فرق الله بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلقه الكوني

قال تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } {4} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا } {5} الإسراء 4-5 وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والاذن والتحريم والبعث والارسال والكلام والجعل بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الديني الذي أمر به وشرعه واثاب عليه واکرمهم وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفليحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله واعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخله في مشيئته و ارادته الكونية لا يخرج عنها خير ولا شر ولا عرف ولا نكر وهذه الإرادة والإشاعة تتناول ما لا يتناوله الأمر الشرعي والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبه ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح وهذا التقسيم الوارد في إسم الإرادة يرد مثله في إسم الأمر والكلمة والحكم والقضاء والكتاب والبعث والإرسال ونحوه فإن هذا كله ينقسم إلى كوني قدرى وإلى ديني شرعى

وأما لفظ البعث فقال تعالى في البعث الكوني { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا } {5} الإسراء وقال في البعث الديني { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } {الجمعة 2} قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } {النحل 36}²

اهمية التفريق بين أمره الديني وخلقه الكوني

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 225

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 269 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 133 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 146

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء إلا بمشيئته وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الحكم الديني { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة 50 وقال في الحكم الكوني { فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتَنِي لِى أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف 80 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدريّة وإن كان مستلزماً للإرادة الدينية الشرعية وقد يجمع الحكمين مثل ما فى قوله { إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ } يوسف 40 وكذلك فعله { وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ } غافر 20 وقال فى البعثين والإرسالين { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ } الجمعة 2 { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } الإسراء 5¹

الإرادة والاذن والكتاب والحكم والقضاء والتحرير وغيرها كالأمر والبعث والارسال ينقسم فى كتاب الله إلى نوعين أحدهما ما يتعلق بالأمر الدينية التى يحبها الله تعالى ويرضاها ويثيب أصحابها ويدخلهم الجنة وينصرهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين والثانى ما يتعلق بالحوادث الكونية التى قدرها الله وقضاها مما يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر وأهل الجنة وأهل النار وأولياء الله وأعداؤه وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ويصلى عليهم هو وملائكته وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون فمن نظر إليها من هذا الوجه شهد الحقيقة الكونية الوجودية فرأى الأشياء كلها مخلوقة لله مدبرة بمشيئته مقهورة بحكمته فما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس لا معقب لحكمه ولا راد لأمره ورأى أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه له الخلق والأمر وكل ما سواه مربوباً له مدبر مقهور لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً بل هو عبد فقير إلى الله تعالى من جميع الجهات والله غنى عنه كما أنه الغنى عن جميع المخلوقات وهذا الشهود فى نفسه حق لكن طائفة قصرت عنه وهم القدريّة المجوسية وطائفة وقفت عنده وهم القدريّة المشركية أما الأولون فهم الذين زعموا أن فى المخلوقات ما لا تتعلق به قدرة الله ومشيئته وخلق كالأفعال العباد وغلاتهم أنكروا علمه القديم وكتابه السابق وهؤلاء هم أول من حدث من القدريّة فى هذه الأمة فرد عليهم الصحابة وسلف الأمة وتبرؤوا منهم وأما الطائفة الثانية فهم شر منهم وهم طوائف من أهل السلوك والإرادة والتأله والتصوف والفقر ونحوهم يشهدون هذه الحقيقة ورأوا أن الله خالق المخلوقات كلها فهو خالق أفعال العباد ومريد جميع الكائنات ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر ولا عرفان ولا نكر ولا حق ولا باطل ولا مهتدى ولا ضال ولا راشد ولا غوي ولا نبى ولا متنبى ولا ولي الله ولا عدو ولا مرضى الله ولا مسخوط ولا محبوب لله ولا ممقوت ولا بين العدل والظلم ولا بين البر والعقوق ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار ولا بين الأبرار والفجار حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة والخلق العام فشهدوا المشترك بين المخلوقات وعموا عن الفارق بينهما وصاروا ممن يخاطب بقوله تعالى { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ } {35} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } {36} القلم 35-36 وبقوله

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 413

تعالى { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
 {ص28 و بقوله تعالى { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } الجاثية 21 { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى
 بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا } الأعراف 137 و منه قول النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بكلمات الله
 التامات التي لا يتجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق و ذرأ و برأ و من شر ما ينزل من السماء و
 ما يعرج فيها و من شر ما ذرأ في الأرض و ما يخرج منها و من شر فتن الليل و النهار و من شر
 كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن فالكلمات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ليست هي أمره
 و نهييه الشرعيين فإن الفجار عصوا أمره و نهييه بل هي التي بها يكون الكائنات و أما الكلمات الدينية
 المتضمنة لأمره و نهييه الشرعيين فمثل الكتب الإلهية التوراة و الأنجيل و الزبور و القرآن و قال
 تعالى { وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا } التوبة 40 و قال صلى الله عليه وسلم
 و استحللتهم فروجهن بكلمة الله و أما قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } الأنعام 115
 فإنه يعم النوعين و أما البعث بالمعنى الأول ففي مثل قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا
 بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } الإسراء 5 و الثاني في مثل قوله تعالى { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي
 الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ } الجمعة 2 و قوله تعالى { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ } البقرة 129 و
 قوله تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 (ذكر
 النصوص عن القضاء قضينا الكوني والشرعي) ¹

لفظ العبد في القرآن

ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير
 وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها كقوله { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمْتًا لَكُمْ
 فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } الأعراف 194 { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي
 مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ } الكهف 102 قد يقال في هذا أن المراد به الملائكة والأنبياء إذا كان قد نهى عن
 اتخاذهم أولياء فغيرهم بطريق الأولى فقد قال { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ
 عَبْدًا } مريم 93 وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدجال فيوحى الله الى المسيح أن لى
 عبادا لا يدان لأحد بقتالهم وهذا كقوله { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا } الإسراء 5 فهو لاء لم يكونوا
 مطيعين لله لكنهم معبدون مذللون مقهورون يجرى عليهم قدره وقد يكون كونهم عبيدا هو
 اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفارا كقوله { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ
 } يوسف 106 وقوله { إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } مريم 93 أي ذليلا خاضعا ومعلوم أنهم لا
 يأتون يوم القيامة الا كذلك وإنما الإستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا ثم قال { لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ
 عَدًّا } 94 { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا } 95 { مريم 94-95 فذكر بعدها أنه يأتي منفردا كقوله
 { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } الأنعام 94²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 61 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 150

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 44

{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا }

قال تعالى { **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا** } {7} **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** } {8} **الإسراء 7-8** قال تعالى { **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** } {133} **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } {134} **آل عمران 133-134** فنذكر أنه يحب المحسنين والعافين عن الناس وتبين بهذا أن هذا من الإحسان والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازماً لصاحبه أو متعدياً إلى الغير ومنه قوله { **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } القصص 84 وقال { **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا** } الأنعام 160 فالكاظم للغيظ والعافى عن الناس قد أحسن إلى نفسه والى الناس فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس ومن أحسن إلى الناس فالى نفسه كما يروى عن بعض السلف أنه قال ما أحسنت إلى أحد وما أسأت إلى أحد وإنما أحسنت إلى نفسى وأسأت إلى نفسى قال تعالى { **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } **الإسراء 7** وقال تعالى { **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** } فصلت 46 ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحساناً إلى المحسن يعود نفعه عليه لكان فاعلاً إثمياً أو ضرراً فإن العمل الذى لا يعود نفعه على فاعله إما حيث لم يكن فيه فائدة وإما شر من العيب إذا ضر فاعله والعفو عن الظالم أحد نوعى الصدقة المعروف والإحسان إلى الناس وجماع ذلك الزكاة والله سبحانه دائماً يأمر بالصلاة والزكاة وهى الصدقة وقد ثبت فى الصحيح عن النبى من غير وجه أنه قال كل معروف صدقة وذلك نوعان أحدهما اتصال نفع إليه الثانى دفع ضرر عنه فإذا كان المظلوم يستحق عقوبة الظلم ونفسه تدعوه إليه فكف نفسه عن ذلك ودفع عنه ما يدعوه إليه من إضراره فهذا إحسان منه إليه وصدقة عليه والله تعالى { **يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** } يوسف 88 و{ **لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } التوبة 120 فكيف يسقط أجر العافى وهذا عام فى سائر ما للعبد من الحقوق على الناس ولهذا إذا ذكر الله فى كتابه حقوق العباد وذكر فيه العدل ندب فيها إلى الإحسان فإنه سبحانه يأمر بالعدل والإحسان كما قال تعالى { **وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } البقرة 280 فجعل الصدقة على المدين المعسر بإسقاط الدين عنه خيراً للمتصدق من مجرد إنظاره¹

والأعمال تفضل بنيات أصحابها وطاعتهم لله تعالى وما فى قلوبهم من الإيمان بطاعتهم لله كما ثبت فى الصحيح ان النبى قال **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** وبذلك يثابون وعلى ترك ما فرضه الله يعاقبون وبذلك يندفع عنهم بلاء الدنيا والآخرة وما اصابهم من المصائب فبذنوبهم قال تعالى { **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } **الإسراء 7** وقال تعالى { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ** } النساء 79 قال العلماء

¹مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

أى ما أصابك من نصر ورزق وعافية فهو من نعم الله عليك وما أصابك من المصائب فبذنوبك كما قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ } الشورى 30¹

" إن للحسنة لنورا فى القلب وقوة فى البدن "

العدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما ان الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب فى العدل وفساده فى الظلم واذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 والعمل له اثر فى القلب من نفع وضر وصلاح قبل اثره فى الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى { مَنْ عَمَلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا } الجاثية 15 وقال تعالى { إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَتْكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } الإسراء 7 قال بعض السلف ان للحسنة لنورا فى القلب وقوة فى البدن وضيء فى الوجه وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الخلق وان للسيئة لظلمة فى القلب وسوادا فى الوجه ووهنا فى البدن ونقصا فى الرزق وبغضا فى قلوب الخلق وقال تعالى { كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } الطور 21 وقال تعالى { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } المدثر 38 وقال { وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلَّ قَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا } الأنعام 70 و تبسل أى ترتهن وتحبس وتؤسر كما ان الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض انما هو باخراج المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل اليه لكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه فى العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض فى كل شئ متعذر علما وعملا ولكن الامثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى { وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ } النساء 129²

عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق

قال تعالى { إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَتْكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَلْبَسُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَّرُوا مَا عَلُوا تُتَبَّرًا } {7} عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتكم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا {8} الإسراء 7-8 أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك فى نفسه وتخييل مثل هذا فى حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 424

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 7 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 99

عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما فى قوله تعالى **{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}** {الإسراء7¹

فان الله تعالى ليس كمثله شىء وليس امره لنا كامر الواحد منا لعبده وخدمه وذلك ان الواحد منا إذا أمر عبده فاما ان يأمره لحاجته اليه او إلى المأمور به أو لحاجته إلى الأمر فقط فالاول كأمير السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له فان هداية الخلق وارشادهم بالأمر والنهى هي من باب الاحسان اليهم والمحسن من العباد يحتاج إلى احسانه قال الله تعالى **{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}** {الإسراء7 وقال **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}** {الجاثية15 والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم ولا هو محتاج إلى أمرهم وإنما أمرهم احسانا منه ونعمة أنعم بها عليهم فامرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم وارسال الرسل وانزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه كما قال **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** {الأنبياء107 وقال تعالى **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ}** {آل عمران164 وقال **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}** {57} **{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا}** {58} {يونس57-58 فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامتنال فقد تمت النعمة فى حقه كما قال **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}** {المائدة3 وهؤلاء هم المؤمنون ومن لم ينعم عليه بالامتنال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقى لما بدل نعمة الله كفرا كما قال **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ}** {إبراهيم28²

الحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى

المقصود هنا أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات كعبادة الله وحده وترك السيئات كترك الشرك أمر وجودي وفعل السيئات مثل **{إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}** {الإسراء7 فأمّا عدم الحسنات والسيئات فجزاؤه عدم الثواب والعقاب وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملًا وبقي مدة لا يفعل كثيرًا من المحرمات ولا سمع أنها محرمة فلم يعتقد تحريمها مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك فهذا لا يثاب ولا يعاقب ولكن إذا علم التحريم فاعتقده أثيب على اعتقاده وإذا ترك ذلك مع دعاء النفس إليه أثيب ثوابًا آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها فهذا يثاب ثوابًا آخر بحسب نهيه لنفسه وصبره على المحرمات واشتغاله بالطاعات التي ضدها فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات وإذا تبين هذا فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك وكرهته من

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 214

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 356-357

لطائف لغوية

- 1- قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الإسراء 1 سميع بصير منزه عن الصم والعمى²
- 2- قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } الإسراء 1 وقال تعالى { ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا } الإسراء 3 ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها³
- 3- قال تعالى { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً } الإسراء 2 وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة لا بلفظ التوراة في غير موضع⁴

¹ الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 59

² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 44

⁴ الجواب الصحيح ج: 5 ص: 244

الاسراء 9-21

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } {9} وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {10} وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا {11} وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا {12} وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا {13} أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا {14} مِّنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا {15} وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا {16} وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {17} مَّن كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا {18} وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا {19} كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا {20} انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا {21}

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ }

قال تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } {9} وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {10} {الإسراء 9-10} إن كل من سلك إلى الله جل وعز علما وعملا بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيح فلا بد أن يسلك بينات الطريق وإن كان ما ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهدا فيه مخطئا مغفورا له خطؤه وقد يكون ذنبا وقد يكون فسقا وقد يكون كفرا بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل فإنها أقوم الطرق ليس فيها عوج كما قال تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ } {الإسراء 9} وقال عبد الله بن مسعود خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ وخط خطوطا عن يمينه ومשמاله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبيل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } {الأنعام 153} وقال الزهري كان من مضي من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة ولهذا قيل مثل السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهو يروي عن مالك ومن سلك الطريق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ ثم يحدث نظرا يعلم به وجود الصانع ولم يحتج إلى أن يبقى شاكا مرتابا في كل شيء¹

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 166-167

و قد قال تعالى { أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ } الجاثية 23 فمن كان يعبد ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه فما هويه هوية إلهه فهو لا يتأله من يستحق التأله بل يتأله ما يهواه و هذا المتخذ إلهه هواه له محبة كمحبة المشركين لألهتهم و محبة عباد العجل له و هذه محبة مع الله لا محبة لله و هذه محبة أهل الشرك و النفوس قد تدعي محبة الله و تكون في نفس الأمر محبة شرك تحب ما تهواه و قد أشركته في الحب مع الله و قد يخفي الهوى على النفس فإن حبك الشيء يعمى و يصم و هكذا الأعمال التي يظن الإنسان أنه يعملها لله و في نفسه شرك قد خفي عليه و هو يعملها إما لحب رياسة و إما لحب مال و إما لحب صورة و لهذا قالوا يارسول الله الرجل يقاتل شجاعة و حمية و رياء فأبي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله فلما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين يدعون المحبة و لم يزنوها بميزان العلم و الكتاب و السنة دخل فيها نوع من الشرك و إتباع الأهواء و الله تعالى قد جعل محبته موجبة لإتباع رسوله فقال { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } آل عمران 31 و هذا لأن الرسول هو الذي يدعو الى ما يحبه الله و ليس شيء يحبه الله إلا و الرسول يدعو إليه و ليس شيء يدعو إليه الرسول إلا و الله يحبه فصار محبوب الرب و مدعو الرسول متلازمين بل هذا هو ذاته و إن تنوعت الصفات فكل من ادعى أنه يحب الله و لم يتبع الرسول فقد كذب ليست محبته لله و حده بل إن كان يحبه فهي محبة شرك وإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود و النصارى محبة الله فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين و هكذا أهل البدع فمن قال أنه من المریدين لله المحبين له و هو لا يقصد إتباع الرسول و العمل بما أمر به و ترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين و اليهود و النصارى بحسب ما فيه من البدعة فإن البدع التي ليست مشروعة و ليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله فأمر بكل معروف و نهى عن كل منكر و أيضا فمن تمام محبة الله و رسوله بغض من حاد الله و رسوله و الجهاد في سبيله لقوله تعالى { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ } المجادلة 22 و قال تعالى { تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِيسٌ مَّا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } 80 { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } 81 { المائدة 80-81 و قال تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ } الممتحنة 4 فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم و من معه حيث أبدوا العداوة و البغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله و حده فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة و لا يستقبح سيئة و هؤلاء سلكوا طريق الإرادة و المحبة مجملا من غير إعتصام بالكتاب و السنة كما سلك أهل الكلام و الرأي طريق النظر و البحث من غير إعتصام بالكتاب و السنة فوقع هؤلاء في ضلالات و هؤلاء في ضلالات كما قال تعالى { فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } 124 { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } 125 { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْسَى } 126 { طه 123-126 و قال { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 و

قال { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } {الإسراء 9} وقال { قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } {يونس 108} و مثل هذا كثير في القرآن¹

وهذا الذي جاءت به شريعة الاسلام هو الصراط المستقيم و هو الذي يصلح به دين الانسان كما قال النبي صلى الله عليه و سلم أعدل الصيام صيام داود كان يصوم يوماً و يفطر يوماً و فى رواية صحيحة أفضل و الأفضل هو الأعدل الأقوم و {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} {الإسراء 9} و هى وسط بين هذين الصنفين أصحاب البدع و أصحاب الفجور أهل الاسراف و التقشف الزائد ولهذا كان السلف يحذرون من هذين الصنفين قال الحسن هو المبتدع فى دينه و الفاجر فى دنياه و كانوا يقولون أهدروا صاحب الدنيا أغوته دنياه و صاحب هوى متبع لهواه و كانوا يأمرن بمجانبة أهل البدع و الفجور²

القرآن اشتمل على أصول الدين

قال تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } {9} وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } {10} {الإسراء 9-10} أن القرآن اشتمل على أصول الدين التى تستحق هذا الاسم و على البراهين والآيات والأدلة اليفتينية بخلاف ما أحدثه المبتدعون والملحدون كما قال الرازي مع خبرته بطرق هؤلاء لقد تأملت الطرق الكلامية و المناهج الفلسفة فما وجدتها تشفى عليلاً و لا تروى غليلاً و رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} {فاطر 10} {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} {طه 5} و اقرأ فى النفى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} {الشورى 11} {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} {طه 110} قال ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى و الخير والسعادة و الكمال و الصلاح منحصر فى نوعين فى العلم النافع و العمل الصالح و قد بعث الله محمداً بافضل ذلك و هو الهدى و دين الحق كما قال {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} {الفتح 28} و قد قال تعالى {وَإِذْ كُنَّا عِبَادًا لِّإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} {ص 45} فذكر النوعين قال الوالى عن ابن عباس يقول أولوا القوة فى العبادة قال ابن ابي حاتم وروى عن سعيد بن جبير و عطاء الخراسانى و الحسن و الضحاك و السدى و قتادة و أبى سنان و مبشر بن عبيد نحو ذلك و {الْأَبْصَارِ} {ص 45} قال الأبصار الفقه فى الدين و قال مجاهد {الْأَبْصَارِ} {ص 45} الصواب فى الحكم و عن سعيد بن جبير قال البصيرة بدين الله و كتابه و عن عطاء الخراسانى {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} {ص 45} قال أولوا القوة فى العبادة و البصر و العلم بأمر الله و عن مجاهد وروى عن قتادة قال أعطوا قوة فى العبادة و بصراً فى الدين و جميع حكماء الأمم يفضلون هذين النوعين مثل حكماء اليونان و الهند و العرب قال ابن قتيبة الحكمة عند العرب العلم و العمل فالعمل الصالح هو عبادة الله و حده لا شريك له و هو الدين دين الاسلام و العلم و الهدى هو تصديق الرسول فيما أخبر به عن الله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و غير ذلك فالعلم النافع هو الايمان و العمل الصالح هو الاسلام العلم النافع من علم الله و العمل الصالح هو العمل بأمر الله هذا تصديق الرسول فيما أخبر و هذا طاعته فى أمر و ضد الأول

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 359-362

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 462

ان يقول على الله ما لا يعلم وضد الثاني ان يشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا والأول أشرف فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} الحجرات 14 وجميع الطوائف تفضل هذين النوعين لكن الذي جاء به الرسول و أفضل ما فيهما كما قال {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} الإسراء 9 وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر تارة سورة الاخلاص و قل يا أيها الكافرون ففي قل يا أيها الكافرون عبادة الله وحده وهو دين الاسلام وفي قل هو الله أحد صفة الرحمن وان يقال فيه ويخير عنه بما يستحقه وهو الايمان هذا هو التوحيد القولي وذلك هو {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 وفي الثانية {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} آل عمران 64 قال أبو العالية في قوله {لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} 92 {عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 93 {الحجر 92-93} قال خلتان يسئل عنهما كل أحد ماذا كنت تعبد وماذا أجببت المرسلين فالأولى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله والثانية تحقيق الشهادة بان محمدا رسول الله والصوفية بنوا أمرهم على الارادة ولا بد منها لكن بشرط أن تكون ارادة عبادة الله وحده بما أمر والمتكلمون بنوا أمرهم على النظر المقتضى للعلم ولا بد منه لكن بشرط ان يكون علما بما أخبر به الرسول والنظر في الأدلة التي دل بها الرسول وهي آيات الله ولا بد من هذا وهذا ومن طلب علما بلا ارادة أو ارادة بلا علم فهو ضال ومن طلب هذا وهذا بدون اتباع الرسول فيهما فهو ضال بل كما قال من قال من السلف الدين والايمان قول ومل واتباع السنة وأهل الفقه في الأعمال الظاهرة يتكلمون في العبادات الظاهرة وأهل التصوف والزهد يتكلمون في قصد الانسان و ارادته وأهل النظر والكلام وأهل العقائد من اهل الحديث وغيرهم يتكلمون في العلم والمعرفة والتصديق الذي هو أصل الارادة ويقولون العبادة لا بد فيها من القصد والقصد لا يصح إلا بعد العلم المقصود المعبود وهذا صحيح فلا بد من معرفة المعبود وما يعبد به فالضالون من المشركين والنصارى وأشباههم لهم عبادات وزهاديات لكن لغير الله او بغير أمر الله وانما القصد والارادة النافعة هو ارادة عبادة الله وحده وهو انما يعبد بما شرع لا بالبدع وعلى هذين الأصلين يدور دين الاسلام على أن يعبد الله وحده وأن يعبد بما شرع ولا يعبد بالبدع وأما العلم والمعرفة والتصوف فمدارها على أن يعرف ما أخبر به الرسول ويعرف ان ما أخبر به حق اما لعلمنا بانه لا يقول الا حقا وهذا تصديق عام واما لعلمنا بان ذلك الخبر حق بما أظهر الله من آيات صدقه فانه انزل الكتاب والميزان وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم ان القرآن حق وأما العمليات وما يسميه ناس الفروع والشرع والفقه فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان فما شيء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حله أو حرمه الا بين ذلك وقد قال تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} المائدة 3 وقال تعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} يوسف 111¹

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 172

أقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمدا

ما أحسن ما وصف الله به كتابه بقوله تعالى { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** } {الإسراء 9} فأقوم الطرق الى أشرف المطالب ما بعث الله به رسوله¹

فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدى بعد هدى وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمدا كما قال تعالى { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** } {الإسراء 9}²

والفرقان إنما هو الفرقان الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فهو {الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} {الفرقان 1} وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وبين الرشاد والغي وبين طريق الجنة وطريق النار وبين سبيل أولياء الرحمن وسبيل أولياء الشيطان³

فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ وقد قال تعالى { **وَمَنْ يَعْلَمْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** } {36} { **وَأِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ** } {37} حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين {38} {الزخرف 36-38} وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى { **وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ** } {الأنبياء 50} وقال تعالى { **وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } {القلم 52} وقال تعالى { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** } {9} { **وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** } {10} {الإسراء 9-11}⁴

أن أصل العلم الإلهي ومبداه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له { **قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** } {سبأ 50} وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله { **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** } {النساء 165} ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 162 و مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 153

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 181

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 415

⁴مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 414

المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا كقوله { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** } {الإسراء¹9}

أضاف الله كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته

قال تعالى { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** } {الإسراء⁹9} وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنما فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى { **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** } {الزمر⁴²42} وقال تعالى { **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ** } {الأنعام⁶⁰60} مع قوله تعالى { **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ** } {السجدة¹¹11} وقوله { **تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ** } {الأنعام⁶¹61} وقال تعالى { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** } {الإسراء⁹9} وقال { **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** } {المائدة¹⁶16}

وصف الله القرآن بأنه يقص و ينطق و يحكم و يفتى و يبشر و يهدي

قال تعالى { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** } {الإسراء⁹9} أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكري تذكرة³

وجعل الله سبحانه وتعالى القرآن هاديا ومبشرا في قوله { **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** } {الإسراء⁹9}

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 4

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 242

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 60

فإن الله أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ } البقرة 140 فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه وهو سبحانه يحكم ويشهد ويفتى ويقص ويبشر ويهدى ويهدي وينذر كما قال { قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } النساء 176 وقال { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } النمل 76 وقال { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } يوسف 3 وقال { قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } الأنعام 57 { هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ } الجاثية 29 أي يفيتكم أيضا { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } الإسراء 9

وكذلك سمي الرسول هاديا فقال { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الشورى 52 كما سماه بشيرا ونذيرا وسمى القرآن بشيرا ونذيرا فكذلك لما كان هو يشهد للرسول وكان والمؤمنين بكلامه الذي أنزله وكان كلامه شهادة منه كان كلامه شاهدا منه كما كان يحكم ويفتى ويقص ويبشر وينذر¹

العمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له

قال تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } 9 { وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } 10 { الإسراء 9-10 أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان و التحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيانان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه²

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 67

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

" لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون "

قيل إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد و عن كمال الطاعة لأنه عقب آية الدعاء بقوله { فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي } البقرة 186 و الطاعة و العبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته و نجاته و أما إجابة دعائه و إعطاء سؤاله فقد يكون منفعة و قد يكون مضرة قال تعالى { وَيَدْعُ **الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً** } الإسراء 11 و قال النبي صلى الله عليه و سلم لما دخل على أهل جابر فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون¹

قال تعالى { **وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً** } الإسراء 11 و من الدعاء المكروه مثل الدعاء ببغى أو قطيعة رحم أو دعاء منازل الأنبياء أو دعاء الأعرابي الذي قال اللهم ما كنت معذبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا ومثل قوله صلى الله عليه وسلم للمصابين بميت لما صاحوا لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون وقد قال تعالى { **وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ** } يونس 11 وقال تعالى { **وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً** } الإسراء 11²

في خلق الليل والنهار حكما اخرى

ان في خلق الليل والنهار حكما اخرى ايضا ومثل ذلك كثير في كلام الله عز وجل وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر في ذلك الموضوع من مناسبته وهذا كالمناسبة في قوله { **لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** } {6} سورة يس الآية 6 فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين وأحقهم بالإنذار فكان في تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم³

قال تعالى { **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً** } الإسراء 12 فالقمر آية الليل و كذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 34

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 558

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 436

⁴مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 506

قال تعالى { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً } الإسراء 12 وقد قال الله تعالى في كتابه { لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } يونس 5 { وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } الإسراء 12 في آيتين من كتابه فاخبر انه فعل ذلك ليعلم الحساب¹

كل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده قد بينه الله ورسوله بيانا شافيا

قال تعالى { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً } الإسراء 12 فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكيها ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفهمة والمتصوفة²

العلم بالدليل يوجب العلم بعين المدلول

قال تعالى { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً } الإسراء 12 ان القضايا الكلية العامة لا توجد في الخارج كلية عامة وإنما تكون كلية في الأذهان لا في الأعيان وأما الموجودات في الخارج فهي أمور معينة كل موجود له حقيقة تخصه يتميز بها عما سواه لا يشاركه فيها غيره فحينئذ لا يمكن الاستدلال ب القياس على خصوص وجود معين وهم معترفون بذلك وقائلون ان القياس لا يدل على امر معين وقد يعبرون عن ذلك بأنه لا يدل على جزئي وإنما يدل على كلي والمراد بالجزئي ما يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه وكل موجود له حقيقة تخصه يمنع تصورها من وقوع الشركة فيها فاذن القياس لا يفيد معرفة امر موجود بعينه وكل موجود فانما هو موجود بعينه فلا يفيد

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 167

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 445

معرفة شيء من حقائق الموجودات وانما يفيد امورا كلية مطلقة مقدره في الازهان لا محققة في الاعيان وقد بسطنا الكلام على هذا وغيره في غير هذا الموضوع وبين ان ما يذكره النظار من الادلة القياسية التي يسمونها براهين على اثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه وانما يدل على امر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه فاننا اذا قلنا هذا محدث وكل محدث فلا بد له من محدث او ممكن والممكن لا بد له من واجب انما يدل هذا على محدث مطلق او واجب مطلق ولو عين بأنه قديم ازلي عالم بكل شيء وغير ذلك فكل هذا انما يدل فيه القياس على امر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه وانما يعلم عينه بعلم اخر يجعله الله في القلوب وهم معترفون بهذا لان النتيجة لا تكون ابلغ من المقدمات والمقدمات فيها قضية كلية لا بد من ذلك والكلي لا يدل على معين وهذا بخلاف ما يذكره الله في كتابه من الايات كقوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } البقرة 164 الى قوله { لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } البقرة 164 وقوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الرعد 4 { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الرعد 3 وغير ذلك فانه يدل على المعين كالشمس التي هي اية النهار وقال تعالى { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا } الإسراء 12 والدليل اتم من القياس فان الدليل قد يكون بمعين على معين كما يستدل بالنجم وغيره من الكواكب على الكعبة ف الايات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره فان كل ما سواه مفتقر اليه نفسه فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه¹

كانت طريقة الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه الاستدلال على الرب تعالى بذكر آياته وإن استعملوا في ذلك القياس استعملوا قياس الأولى لم يستعملوا قياس شمول تستوي افراده ولا قياس تمثيل محض فان الرب تعالى لا مثيل له ولا يجتمع هو وغيره تحت كلي تستوي افراده بل ما ثبت لغيره من كمال لا نقص فيه فثبوت له بطريق الأولى وما تنزهه غيره عنه من النقائص فتنزهه عنه بطريق الأولى ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل ربوبيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وإمكان المعاد وغير ذلك من المطالب العالية السنية والمعالم الالهية التي هي اشرف العلوم واعظم ما تكمل به النفوس من المعارف وان كان كمالها لا بد فيه من كمال علمها و قصدتها جميعا فلا بد من عبادة الله وحده المتضمنة لمعرفته ومحبته والذل له وأما الاستدلاله تعالى بالآيات فكثير في القرآن والفرق بين الايات وبين القياس ان الآية هي العلامة وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول لا يكون مدلوله امرا كلياً مشتركاً بين المطلوب وغيره بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول كما ان الشمس آية النهار قال الله تعالى { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } الإسراء 12 فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار وكذلك نبوة محمد العلم بنبوته بعينه لا يوجب امراً مشتركاً بينه وبين غيره وكذلك آيات الرب تعالى نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى لا يوجب علماً كلياً مشتركاً بينه وبين غيره والعلم بكون هذا مستلزماً لهذا هو جهة الدليل فكل دليل في الوجود لا بد ان يكون مستلزماً للمدلول والعلم باستلزام المعين للمعين المطلوب اقرب الى الفطرة من العلم بأن كل معين من معينات القضية الكلية يستلزم النتيجة²

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 345

² مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 141

الحكمة من اعتبار الشهر والعام الهلالي دون الشمسي

قوله {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ} {يونس 5} وقوله {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} {الأنعام 96} وقوله {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} {الرحمن 5} وقوله {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} {يس 39} وقوله {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} {البقرة 189} دليل على توقيت ما فيها من التوقيت من التوقيت للسنين والحساب فقوله {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ} {يونس 5} أن علق بقوله {وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ} {يونس 5} كان الحكم مختصا بالقمر وإن اعيد إلى أول الكلام تعلق بهما ويشهد للأول قوله في الأهلة فإنه موافق لذلك ولأن كون الشمس ضياء والقمر نورا لا يوجب علم عدد السنين والحساب بخلاف تقدير القمر منازل فإنه هو الذي يقتضى علم عدد السنين والحساب ولم يذكر إنتقال الشمس فى البروج ويؤيد ذلك قوله {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ} {التوبة 36} الآية فإنه نص على أن السنة هلالية وقوله {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} {البقرة 197} يؤيد ذلك لكن يدل على الآخر قوله {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ} {الإسراء 12} وهذا والله أعلم لمعنى تظهر به حكمة ما فى الكتاب وما جاءت به الشريعة من اعتبار الشهر والعام الهلالي دون الشمسي ان كل ما حد من الشهر والعام ينقسم فى اصطلاح الأمم إلى عددي وطبيعي فأما الشهر الهلالي فهو طبيعي وسنته عددية وأما الشهر الشمسي فعددي وسنته طبيعة فأما جعل شهرنا هلاليا فحكمته ظاهرة لأنه طبيعي وإنما علق بالهلال دون الإجتماع لأنه أمر مضبوط بالحس لا يدخله خلل ولا يفتقر إلى حساب بخلاف الإجتماع فإنه أمر خفي يفتقر إلى حساب وبخلاف الشهر الشمسي لو ضبط وأما السنة الشمسية فإنها وإن كانت طبيعية فهي من جنس الإجتماع ليس أمرا ظاهرا للحس بل يفتقر إلى حساب سير الشمس فى المنازل وإنما الذي يدركه الحس تقريبا ذلك فإن انقضاء الشتاء ودخول الفصل الذي تسميه العرب الصيف ويسميه غيرها الربيع أمر ظاهر بخلاف محاذاة الشمس لجزء من أجزاء الفلك يسمى برج كذا أو محاذاتها لاحدى نقطتى الرأس أو الذنب فإنه يفتقر إلى حساب ولما كانت البروج اثنى عشر فمتى تكرر الهلالي اثنى عشر فقد انتقل فيها كلها فصار ذلك سنة كاملة تعلقت به أحكام ديننا من المؤقتات شرعا أو شرطا إما بأصل الشرع كالصيام والحج وإما بسبب من العبد كالعدة ومدة الإيلاء وصوم الكفارة والنذر وإما بالشرط كالأجل فى الدين والخيار والإيمان وغير ذلك والحرص كقوله {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} {يونس 66} ¹

{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 58

فقد فسروا الطائر بالأعمال وجزائها فبين الله سبحانه أن طائرهم وهو الأعمال وجزاؤها هو عند الله وهو معهم فهو معهم لأن أعمالهم وما قدر من جزائها معهم كما قال تعالى {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} {الإسراء} 13¹

وهو ما طار عنه من خير وشر²

قال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } {13} **أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** {14} {الإسراء} 13- 14

وهو من الله لأن الله تعالى قدر تلك المصائب بأعمالهم فمن عنده تنتزل عليهم المصائب جزاء على أعمالهم لا بسبب الرسل وأتباعهم³

لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه

والكتاب اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم يفرق بين الكلام وكتاب الله فيقول كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو مخلوق والقرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة والله تعالى قد سمي نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما فقال تعالى {الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ} {الحجر} 1 وقال {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ} {النمل} 1 وقال {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ} {الأحقاف} 29 الى قوله تعالى {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} {الأحقاف} 30 فبين ان الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ} {21} {في لُوحٍ مَّخْفُوظٍ} {22} {البروج} 21-22 وقال { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} {77} {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} {78} {الواقعة} 77-78 وقال { يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً } {2} {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} {3} {البينة} 2-3 وقال { وَالطُّورِ } {1} {وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ} {2} {فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} {3} {الطور} 1-3 وقال {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} {الأنعام} 7 ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} {77} {فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} {78} {الواقعة} 77-78 وقال { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } {الإسراء} 13⁴

الأصول الثلاثة امور متلازمة

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 35

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 61

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 254

⁴مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 125

أن التوحيد والايمان بالرسل متلازمان وكذلك الايمان باليوم الآخر هو والايمان بالرسل متلازمان
فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينها في مثل قوله { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } الأنعام 150 ولهذا أخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون
فقال تعالى { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } الزمر 45 وأخبر عن
جميع الأشقياء ان الرسل انذرتهم باليوم الآخر كما قال تعالى { كَلَّمَا لَقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } {8} { قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
كَبِيرٍ } {9} { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } {10} { فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا
لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ } {11} { الملك 8-111 فأخبر ان الرسل انذرتهم وانهم كذبوا بالرسالة وقال تعالى
{ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ
مِّنكُمْ يَتْلُونَ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ } { الزمر 71 فأخبر عن اهل النار
انهم قد جاءتهم الرسالة وانذروا باليوم الآخر وقال تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ
قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْت
لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } {128} { وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } {129} { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } {130} { الأنعام 128-130 فأخبر عن جميع الجن والانس ان الرسل بلغتهم رسالة
الله وهي آياته وانهم انذروهم اليوم الآخر وكذلك قال { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا } {103}
{ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } {104} { الكهف 103-104 الى قوله { أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ } {105} { الكهف 105 فأخبر انهم كفروا بآياته وهي رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر
وقد اخبر ايضا في غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم وان الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين كما
قال تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } { فاطر 24 وقال تعالى
{ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ } { النساء 163 الى قوله { وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا } {165} { النساء 165 وقال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {48} { وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ } {49} { الانعام 48-49 فأخبر ان من آمن بالرسل واصلح من الأولين والآخرين فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } { البقرة 38 ومثل ذلك قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } { البقرة 62 فذكر ان المؤمنين بالله وباليوم الآخر من هؤلاء هم اهل النجاة
والسعادة وذكر في تلك الآية الايمان بالرسل وفي هذه الايمان باليوم الآخر لأنهما متلازمان وكذلك
الايمان بالرسل كلهم متلازم فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر
بهم كلهم كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ } {150} { النساء 150 الى قوله { أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا } { النساء 151 الآية والتي بعدها فأخبر ان المؤمنين بجميع الرسل هم اهل السعادة وان
المفرقين بينهم بالايمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون حقا وقال تعالى { وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَزَمْنَا
طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا } {13} { أَفَرَأَىٰ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ
حَسِيبًا } {14} { مَن أَهْدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {15} { الإسراء 13-15 فهذه الأصول الثلاثة توحيد الله والايمان
برسله وباليوم الآخر هي امور متلازمة والحاصل ان توحيد الله والايمان برسله وباليوم الآخر هي

امور متلازمة مع العمل الصالح فأهل هذا الايمان والعمل الصالح هم اهل السعادة من الأولين والآخرين والخارجون عن هذا الايمان مشركون اشقياء فكل من كذب الرسل فلن يكون الا مشركا وكل مشرك مكذب للرسل وكل مشرك وكافر بالرسل فهو كافر باليوم الآخر وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافر بالرسل وهو مشرك¹

يوم القيامة تنشر صحائف الاعمال

قال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } {13} **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** {14} الإسراء 13-14

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل من ربك وما دينك ومن نبيك {يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} إبراهيم 27 فيقول المؤمن الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبي وأما المرتاب فيقول هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى ان تقوم القيامة الكبرى فتعاد الارواح الى الاجساد وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجهم العرق وتنصب الموازين فتوزن فيها اعمال العباد { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } {6} فهو في عيشة راضية {7} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ } {8} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } {9} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ } {10} نارٌ حَامِيَةٌ } {11} القارعة 6-11 وقال تعالى { فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } {102} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ } {103} تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ } {104} المؤمنون 102-104 وتنشر الدواوين وهي صحائف الاعمال فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما قال سبحانه وتعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } {13} **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** {14} الإسراء 13-14 ويحاسب الله الخلاق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها²

ذكر الله الحفظة الموكلين بنى آدم الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم في مواضع من كتابه³

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 30-34

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 145 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 33

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 251

الاعتذار عن النفس بالباطل و الجدل عنها لا يجوز

قال تعالى {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ} النساء 107 أنه لا يجوز الجدل عن الخائن و لا يجوز للانسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة لها في السر أهواء و أفعال باطنة تخفى على الناس قال تعالى {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} غافر 19 و قال تعالى {وَدَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} الأنعام 120 و قال تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} الأعراف 33 و قد قال تعالى {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} 14 {وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} 15 {القيامة 14-15 فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار و يجادل عنها و هو يبصرها بخلاف ذلك و قال تعالى {كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْنِكَ حَسِيبًا} الإسراء 14 و قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} البقرة 204 و قد قال النبي صلى الله عليه و سلم أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم فهو يجادل عن نفسه بالباطل و هي فيه لدد أي ميل و اعوجاج عن الحق و هذا على نوعين أحدهما أن تكون مجادلته و ذبه عن نفسه مع الناس و الثاني فيما بينه و بين ربه بحيث يقيم أعدار نفسه و يظنها محقة و قصدها حسنا و هي خائنة ظالمة لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى و ينظر قال شداد بن أوس إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية قال أبو دواد هي حب الرياسة و هذا من شأن النفس حتى أنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه و يجادل الله بالباطل قال تعالى

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} 18 {استحوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 19 {المجادلة 18-19} و قال تعالى {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شِرْكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} 22 {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} 23 {انظر كيف كذبوا على أنفسهم و ضل عنهم ما كانوا يفترون} 24 {الأنعام 22-24} و قد جاءت الأحاديث بأن الانسان يجحد أعماله يوم القيامة حتى يشهد عليه سمعه و بصره و جوارحه و قال تعالى {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} فصلت 22 و من عادة المنافقين المجادلة عن أنفسهم بالكذب و الأيمان الفاجرة و صنفهم الله بذلك في غير موضع و في قصة تبوك لما رجع النبي صلى الله عليه و سلم و جاء المنافقون يعتذرون إليه فجعل يقبل علانيتهم و يكل سرايرهم إلى الله فلما جاء كعب قال و الله يارسول الله لو قعدت بين يدي ملك من ملوك الأرض لقدرت أن أخرج من سخطه إنى أوتيت جدلا و لكن أخاف إن حدثتك حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علي و لن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إنى لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر و الله ما كنت أقوى قط و لا أيسر منى حين تخلفت عنك فقال النبي صلى الله عليه و سلم أما هذا فقد صدق يعنى و الباقي يكذبون ثم إنه هجره مدة ثم تاب الله عليه ببركة صدقة فالاعتذار عن النفس بالباطل و الجدل عنها لا يجوز بل إن أذنب سرا بينه و بين الله اعترف لربه بذنبه و خضع له بقلبه و سأله مغفرته و تاب إليه فإنه غفور رحيم تواب و إن كانت السيئة ظاهرة تاب ظاهرا و إن أظهر جميلا و أبطن قبيحا تاب في

الباطن من القبيح فمن أساء سرا أحسن سرا و من أساء علانية أحسن علانية { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } هود 114¹

أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول

قال تعالى { مَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى
وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 و الفقهاء و جمهور المسلمين يقولون الله حرم
المحرمات فحرمت و أوجب الواجبات فوجبت فمعنا شيئان إيجاب و تحريم و ذلك كلام الله و خطابه
و الثاني و وجوب و حرمة و ذلك صفة للفعل و الله تعالى عليم حكيم علم بما تتضمنه الأحكام من
المصالح فأمر و نهى لعلمه بما في الأمر و النهي و المأمور و المحظور من مصالح العباد و
مفاسدهم و هو أثبت حكم الفعل و أما صفته فقد تكون ثابتة بدون الخطاب و قد ثبت بالخطاب و الحكمة
الحاصلة من الشرائع ثلاثة أنواع أحدها أن يكون الفعل مشتتلا على مصلحة أو مفسدة و لو لم يرد
الشرع بذلك كما يعلم أن العدل مشتتل على مصلحة العالم و الظلم يشتمل على فسادهم فهذا النوع هو
حسن و قبيح و قد يعلم بالعقل و الشرع قبح ذلك لا أنه أثبت للفعل صفة لم تكن لكن لا يلزم من
حصول هذا القبح أن يكون فاعله معاقبا في الآخرة إذا لم يرد شرع بذلك و هذا مما غلط فيه غلاة
القائلين بالتحسين و التقييح فإنهم قالوا إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة و لو لم يبعث إليهم
رسولا و هذا خلاف النص قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 و قال تعالى
{ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 و قال تعالى { وَمَا
كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُو عَلَيْهِنَّ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَالِمُونَ } القصص 59 و قال تعالى { كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } 8 { قَالُوا بَلَى
قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ } 9 { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } 10 { الملك 8-10 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم
أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله و من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين و منذرين و النصوص
الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة ترد على من قال من أهل التحسين و التقييح أن
الخلق يعذبون في الأرض بدون رسول أرسل إليهم النوع الثاني أن الشارع إذا أمر بشيء صار
حسنا و إذا نهى عن شيء صار قبيحا و إكتسب الفعل صفة الحسن و القبح بخطاب الشارع و
النوع الثالث أن يأمر الشارع بشيء ليمتنح العبد هل يطيعه أم يعصيه و لا يكون المراد فعل المأمور
به كما أمر إبراهيم بذبح ابنه { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } الصافات 103 حصل المقصود ففداه بالذبح و
كذلك حديث أبرص و أقرع و أعمى لما بعث الله إليهم من سألهم الصدقة فلما أجاب الأعمى قال
الملك أمسك عليك مالك وإنما إبتليتكم فرضي عنك و سخط على صاحبك فالحكمة منشؤها من نفس
الأمر لا من نفس المأمور به و هذا النوع و الذي قبله لم يفهمه المعتزلة و زعمت أن الحسن و القبح
لا يكون إلا لما هو متصف بذلك بدون أمر الشارع و الأشعرية إدعوا أن جميع الشريعة من قسم

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 447

الإمتحان و أن الأفعال ليست لها صفة لا قبل الشرع و لا بالشرع و أما الحكماء و الجمهور فأتبتوا الأقسام الثلاثة و هو الصواب¹

وقد قال طائفة من أهل الكلام والرأى إن هذا فى الواجبات الشرعية غير العقلية كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغيرهم من أصحاب أبى حنيفة وغيرهم مثل أبى الخطاب وغيره على ان الآية عامة لا يعذب الله أحدا إلا بعد رسول وفيهما دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب خلافا لما يقوله المجبرة أتباع جهم أنه تعالى يعذب بلا ذنب وقد تبعه طائفة تنسب إلى السنة كالأشعرى وغيره وهو قول القاضى أبى يعلى وغيره وقالوا إن الله يجوز أن يعذب الأطفال فى الآخرة عذابا لا نهاية له من غير ذنب فعلوه وهؤلاء يحتجون بالآية على ابطال قول من يقول إن العقل يوجب عذاب من لم يفعل والآية حجة عليهم أيضا حيث يجوزون العذاب بلا ذنب فهي حجة على الطائفتين ولها نظائر فى القرآن كقوله { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } { القصص 59 } وقوله تعالى { لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 وقوله { كَلَّمَ الْقَبِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ } {8} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ } {9} الملك 8-9 وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئا وقبيحا وشرا لكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول وهذا قول الجمهور وقيل إنه لا يكون قبيحا إلا بالنهى وهو قول من لا يثبت حسنا ولا قبيحا إلا الأمر والنهى كقوله جهم والاشعرى ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة وأصحاب مالك والشافعى وأحمد كالقاضى أبى يعلى وأبى الوليد الباجى وأبى المعالى الجوينى وغيرهم والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئا قبيحا وكان شرا لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول ولهذا كان للناس فى الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك ثلاثة أقوال قيل إن قبحهما معلوم بالعقل وأنهم يستحقون العذاب على ذلك فى الآخرة وإن لم يأتهم الرسول كما يقوله المعتزلة وكثير من أصحاب أبى حنيفة وحكوه عن أبى حنيفة نفسه وهو قول أبى الخطاب وغيره وقيل لا قبح ولا حسن ولا شر فيهما قبل الخطاب وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل والحسن ما قيل فيه افعل أو ما أذن فى فعله كما تقوله الأشعرية ومن وافقهم من الطوائف الثلاثة وقيل إن ذلك سىء وشر وقبيح قيل مجيء الرسول لكن العقوبة إنما تستحق بمجى الرسول وعلى هذا عامة السلف وأكثر المسلمين وعليه يدل الكتاب والسنة فان فيهما بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح وسىء قيل الرسل وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول وفى الصحيح أن حذيفة قال يا رسول الله انا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قيل أن يأتهم الرسول كقوله لموسى { اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } {17} فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } {18} وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } {19} النازعات 17-19 وقال { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } {4} وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } {5} وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ } {6} القصص 4-6 فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى وحين كان صغيرا قبل أن يأتیه برسالة انه كان طاغيا مفسدا وقال تعالى { وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى } {37} إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى } {38} أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 435-437

التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي {39} طه 37-39 وهو فرعون فهو إذ ذاك عدو لله ولم يكن جاءت الرسالة بعد و أيضا أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعل الصبيان والمجانين ما أمر بالاستغفار والتوبة فعلم أنه كان من السيئات القبيحة لكن الله لا يعاقب الا بعد إقامة الحجة وهذا كقوله تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3} هود 1-3¹

(ناقص ن م) وقد فرق الله بين ما قبل الرسالة وما بعدها فى أسماء وأحكام وجمع بينهما فى أسماء وأحكام وذلك حجة على الطائفتين على من قال ان الافعال ليس فيها حسن وقبيح ومن قال انهم يستحقون العذاب على القولين اما الاول فانه سماهم ظالمين وطاغين ومفسدين لقوله {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} طه 24 وقوله {وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {10} قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} {11} الشعراء 10- 11 وقوله {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} القصص 4 فاخبر انه ظالما وطاغيا ومفسدا هو وقومه وهذه اسماء ذم الافعال والذم انما يكون فى الافعال السيئة القبيحة فدل ذلك على ان الافعال تكون قبيحة مذمومة قبل مجيء الرسول اليهم لا يستحقون العذاب الا بعد اتيان الرسول اليهم لقوله {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} {الإسراء 15} وكذلك أخبر عن هود انه قال لقومه {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} {هود 50} فجعلهم مفترين قبل أن يحكم بحكم يخالفونه لكونهم جعلوا مع الله الها آخر فاسم المشرك ثبت قبل الرسالة فانه يشرك بربه ويعدل به ويجعل معه آلهة أخرى ويجعل له أندادا قبل الرسول ويثبت أن هذه الاسماء مقدم عليها وكذلك اسم الجهل والجاهلية يقال جاهلية وجاهلا قبل مجيء الرسول واما التعذيب فلا والتولى عن الطاعة كقوله {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ} {31} {وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ} {32} القيامة 31-32 فهذا لا يكون الا بعد الرسول مثل قوله عن فرعون {فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ} {النازعات 21} كان هذا بعد مجيء الرسول اليه كما قال تعالى {فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ} {20} {فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ} {21} {النازعات 20-21} وقال {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ} {المزمل 16} هذا آخر ما وجد(هذه عبارة لمن جمع مؤلفات ابن تيمية)²

الحجة على العباد انما تقوم بشيئين

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 675-679

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 38

صَلَّاتٌ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ {سبأ} 50 وتقرير
الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا {الإسراء} 15¹

والحجة على عباد انما تقوم بشيئين بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله والقدرة على العمل به فاما
العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهى واذا انقطع العلم ببعض الدين
أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم
بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلا وهذه أوقات الفترات فاذا حصل من يقوم بالدين من
العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئا فشيئا بمنزلة بيان الرسول لما
بعث به شيئا فشيئا ومعلوم أن الرسول لا يبلغ الا ما أمكن علمه والعمل به ولم تأت الشريعة جملة كما
يقال اذا أردت ان تطاع فأمر بما يستطاع فكذلك المجد لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ الا ما أمكن
علمه والعمل به كما أن الداخل في الاسلام لا يمكن حين دخوله ان يلقي جميع شرائعه ويؤمر بها كلها
وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يكمن في اول الأمر ان يؤمر بجميع الدين ويذكر له
جميع العلم فانه لا يطيق ذلك واذا لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال واذا لم يكن واجبا لم يكن
للعالم والأمير ان يوجبه جميعه ابتداء بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله الى وقت
الامكان كما عفى الرسول عما عفى عنه الى وقت بيانه ولا يكون ذلك من باب اقرار المحرمات
وترك الأمر بالواجبات لأن الوجوب والتحرير مشروط بامكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا
الشرط فتدبر هذا الأصل فانه نافع ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء وان كانت واجبة أو
محرمة في الأصل لعدم امكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في
الوجوب أو التحريم فان العجز مسقط للأمر والنهي وان كان واجبا في الأصل والله أعلم²

{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }

فإن الله تبارك وتعالى جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأكمل له ولأمته الدين وبعثه
على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل فأحيا به ما درس من معالم الإيمان وقمع به
أهل الشرك من عباد الأوثان والنيران والصلبان وأذل به كفار أهل الكتاب أهل الشرك والأرتياب وأقام
به منار دينه الذي ارتضاه وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه وأظهر به ما كان مخفيا عند
أهل الكتاب وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب وحقق به صدق التوراة والزبور والإنجيل وأماط
به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل
وتعميم الخلق بهم بحيث يبعث في كل أمة رسولا ليقوم هداه وحجته³

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 4

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 61

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 80

قال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } {13} **أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** {14} **مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** {15} {الإسراء 13-15}

وهنا أصل فإن الكتاب والسنة قد دل على ان الله لا يعذب أحدا إلا بعد إبلاغ الرسالة فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسا ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية ذلك مثل قوله تعالى { لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165¹

وقد ثبت في الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي أنه قال إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر في القرآن أنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا فقال { **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** } {الإسراء 15} وقال { **وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ** } طه 134 فدل ذلك على أن المقتضي لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بلوغ الرسالة ولهذا قال { **لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** } {النساء 165} وفي الصحيحين عن النبي أنه قال ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وفي رواية من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين وما أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وما أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن²

ومعلوم أن الناس إذا اشتبهت عليهم القبلة في السفر فكلهم مأمورون بالإجتهد والاستدلال على جهة القبلة ثم بعضهم يتمكن من معرفة جهتها وبعضهم يعجز عن ذلك فيغلط فيظن في بعض الجهات أنها جهتها ولا يكون مصيبا في ذلك لكن هو مطيع لله ولا إثم عليه في صلاته إليها لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها فعجزه عن العلم بها كعجزه عن التوجه إليها كالمقيد والخائف والمحبوس والمريض الذي لا يمكنه التوجه إليها ولهذا كان الصواب في قول من يقول إن الله لا يعذب في الآخرة إلا من عصاه بترك المأمور أو فعل المحذور والمعتزلة في هذا وافقوا الجماعة بخلاف الجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم فإنهم قالوا بل يعذب من لا ذنب له أو نحو ذلك ثم هؤلاء يحتجون على المعتزلة في نفس الإيجاب والتحريم العقلي بقوله تعالى { **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** } {الإسراء 15} وهو حجة عليهم أيضا في نفي العذاب مطلقا إلا بعد إرسال الرسل وهم يجوزون التعذيب قبل إرسال الرسل فأولئك يقولون يعذب من لم يبعث إليه رسولا لأنه فعل القبائح العقلية وهؤلاء يقولون بل يعذب من لم يفعل قبيحا قط كالأطفال وهذا مخالف للكتاب والسنة والعقل أيضا قال تعالى { **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** } {الإسراء 15} وقال تعالى { **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** } {163} **وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** } {164} **رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ**

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 291 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 493

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 306

عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا {165} النساء 163-165 وقال تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ {الزمر 71

وقال تعالى عن النار { كَلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {8} قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ {9} الملك 8-9 فقد أخبر سبحانه وتعالى بصيغة العموم أنه كلما ألقى فيها فوج سألهم الخزنة هل جاءهم نذير فيعترفون بأنهم قد جاءهم نذير فلم يبق فوج يدخل النار إلا وقد جاءهم نذير فمن لم يأتته نذير لم يدخل النار وقال تعالى لإبليس {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص85 فقد أقسم سبحانه أنه يملؤها من إبليس وأتباعه وإنما أتباعه من أطاعه فمن لم يعمل ذنباً لم يطعه فلا يكون ممن تملأ به النار وإذا ملئت بأتباعه لم يكن لغيرهم فيها موضع وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يزال يلقي في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه وفي رواية فيضع قدمه عليها فتقول قط قط وينزوي بعضها إلى بعض أي تقول حسبي حسبي وأما الجنة فيبقى فيها فضل فينشئ الله لها خلفاً فيسكنهم فضول الجنة هكذا روي في الصحاح من غير وجه ووقع في بعض طرق البخاري غلط قال فيه وأما النار فيبقى فيها فضل والبخاري رواه في سائر المواضع على الصواب ليبين غلط هذا الراوي كما جرت عادته بمثل ذلك إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ ذكر ألفاظ سائر الرواة التي يعلم بها الصواب وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب بخلاف مسلم فإنه وقع في صحيحه عدة أحاديث غلط أنكرها جماعة من الحفاظ على مسلم والبخاري قد أنكر عليه بعض الناس تخريج أحاديث لكن الصواب فيها مع البخاري والذي أنكر على الشيخين أحاديث قليلة جداً وأما سائر متونهما فمما اتفق علماء المحدثين على صحتها وتصديقها وتلقيها بالقبول لا يستريبون في ذلك وقد قال تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ {130} ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ {131} الأنعام 130-131 فقط خاطب الجن والإنس واعترف المخاطبون بأنهم جاءتهم رسل يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم القيامة ثم قال { ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } الأنعام 131 أي هذا بهذا السبب فعلم أنه لا يعذب من كان غافلاً ما لم يأتته نذير فكيف الطفل الذي لا عقل له ودل أيضاً على أن ذلك ظلم تنزه سبحانه عنه وإلا فلو كان الظلم هو الممتنع لم يتصور أن يهلكهم بظلم بل كيفما أهلكهم فإنه ليس بظلم عند الجهمية الجبرية وقد قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } القصص 59 وقال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } هود 117 وقال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلماً وَلَا هَضْماً } طه 112 قال المفسرون الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن ينقص من حسناته فجعل سبحانه عقوبته بذنب غيره ظلماً ونزه نفسه عنه ومثل هذا كثير كقوله { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 وقوله { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 وكذلك قوله { لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْهِ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ {28} مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيٍّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ {29} ق 28-29 فبين سبحانه أنه قدم بالوعد وأنه ليس بظلام للعبيد كما قال في الآية الأخرى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ {100} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبَابٍ {101} هود

100- 101 فهو سبحانه نزه نفسه عن ظلمهم وبين أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم فمن لم يكن ظالماً لنفسه تكون عقوبته ظلماً تنزه الله عنه وقال في الآية الأخرى {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} {74} لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} {75} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} {76} الزخرف 74- 76 وهذا الظلم الذي نزه نفسه عنه إن كان هو الممتنع الذي لا يمكن فعله فأى فائدة في هذا وهل أحد يخاف أن يفعل به ذلك وأي تنزيه في هذا وإذا قيل هو لا يفعل إلا ما يقدر عليه قيل هذا معلوم لكل أحد وكل أحد لا يفعل إلا ما يقدر عليه فأى مدح في هذا مما يتميز به الرب سبحانه عن العالمين فعلم أن من الأمور الممكنة ما هو ظلم تنزه الله سبحانه عنه مع قدرته عليه وبذلك يحمد ويثنى عليه فإن الحمد والثناء يقع بالأمور الاختيارية من فعل وترك كعامية ما في القرآن من الحمد والشكر أخص من ذلك يكون على النعم والمدح أعم من ذلك وكذلك التسبيح فإنه تنزيه وتعظيم فإذا سبح بحمده جمع له بين هذا وهذا كما قد بسطنا الكلام على حقيقة التسبيح والتحميد ومعنى التسبيح بحمده في غير هذا الموضوع وقد قال سبحانه وتعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} {الأنبياء 26} فالإتخاذ فعل من الأفعال وقد نزه سبحانه نفسه عنه فعلم أن من الأفعال ما نزه سبحانه نفسه عنه والجبرية عندهم لا ينزه عن فعل من الأفعال وفي حديث البطاقة الذي رواه الترمذي وصححه وغيره ورواه الحاكم في صحيحه قال فيه فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر ثم يقال لا ظلم عليك إن لك عندنا بطاقة فتوضع البطاقة في كفة والسجلات في كفة فتثقلت البطاقة وطاشت السجلات فقوله لا ظلم عليك دليل على أنه إن لم يجاز بتلك الحسنات وتوزن حسناته مع سيئاته كان ذلك ظلماً يقدر الله عنه فإنه القائم بالقسط وقد قال تعالى {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا} {الكهف 49} فهل يقال هذا النفي أنه لا يفعل مع أحد مالا يمكن ولا يقدر عليه أو لا يظلمهم شيئاً من حسناتهم بل يحصيها كلها ويثيبهم عليها فدل على أن العبد يثاب على حسناته ولا ينقص شيئاً منها ولا يعاقب إلا على سيئاته وأن عقوبته بغير ذنب ونقص حسناته ظلم ينزه الرب تبارك وتعالى عنه وأيضا فقوله تعالى {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} {القلم 35} وقال تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} {ص 28} وقال {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} {الجاثية 21} إلى غير ذلك فدل على أن التسوية بين هذين المختلفين من الحكم السيء الذي ينزه عنه وأن ذلك منكر لا يجوز نسبته إلى الله تعالى وأن من جوز ذلك فقد جوز منكرة لا يصلح أن يضاف إلى الله تعالى فإن قوله {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} {القلم 35} استفهام إنكار فعلم أن جعل هؤلاء مثل هؤلاء منكر لا يجوز أن يظن بالله أنه يفعله فلو كان هذا وضده بالنسبة إليه سواء جاز أن يفعل هذا وهذا وقوله {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} {الجاثية 21} دل على أن هذا حكم سيء والحكم السيء هو الظلم الذي لا يجوز فعلم أن الله تعالى منزه عن هذا ومن قاله إنه يسوي بين المختلفين فقد نسب إليه الحكم السيء وكذلك تفضيل أحد المتماثلين بل التسوية بين المتماثلين والتفضيل بين المختلفين هو من العدل والحكم الحسن الذي يوصف به الرب سبحانه وتعالى والظلم وضع الشيء في غير موضعه فإذا جعل النور كالظلمة والمحسن كالمسيء والمسلم كالمجرم كان هذا ظلماً وحكماً سيئاً يقدر وينزه عنه سبحانه وتعالى وقال تعالى {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} {المائدة 50} وعند هؤلاء لو حكم بحكم الجاهلية لكان حسناً وليس في نفس الأمر حكم حسن وحكم غير حسن بل الجميع سواء فكيف يقال مع هذا ومن أحسن من الله حكماً فدل هذا النص على أن حكمه حسن لا أحسن منه والحكم الذي يخالفه سيء ليس بحسن وذلك دليل على أن الحسن صفة لحكمه فلو لم يكن الحسن إلا ما تعلق به الأمر أو مالم ينفه عنه

لم يكن في الكلام فائدة ولم يقسم الحكم إلى حسن وأحسن لأن عندهم يجوز أن يحكم الرب بكل ما يمكن وجوده وذلك كله حسن فليس عندهم حكم ينزهه الرب عنه وقال تعالى {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} {الأنعام 124} فدل على أنه أعلم بالمحل الذي يناسب الرسالة ولو كان الناس مستويين والتخصيص بلا سبب لم يكن لهذا العلم معلوم يختص به محل الرسالة وقال تعالى {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ {41} كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ {42} أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ {43} القمر 41-43} وقال {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُعِثٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} {الدخان 37} فهذا يبين أن أولئك إذا كانوا كفارا وقد عذبناهم والكفار الذين كذبوا محمد ليسوا خيرا من أولئك بل هم مثلهم استحقوا من العقوبة ما استحقه أولئك ولو كانوا خير منهم لم يستحقوا ذلك فعلم انه سبحانه يسوي بين المتماثلين ويفضل صاحب الخير فلا يسوي بينه وبين من هو دونه وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ {الحشر 2} إلى قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {الحشر 4} والإعتبار أن يعبر منهم إلى أمثالهم فيعرف أن من فعل كما فعلوا استحق كما استحقوا ولو كان تعالى قد يسوي بين المتماثلين وقد لا يسوي لم يمكن الإعتبار حتى يعلم أن هذا المعين مما يسوي بينه وبين نظيره وحينئذ فلا يمكن الإعتبار إلا بعد معرفة حكم ذلك المعين وحينئذ فلا يحتاج إلى الإعتبار ومن العجب أن أكثر أهل الكلام احتجوا بهذه الآية على القياس وإنما تدل عليه لكون الإعتبار يتضمن التسوية بين المتماثلين فعلم أن الرب يفعل هذا في حكمه فإذا اعتبروا بها في أمره الشرعي لدلالة مطلق الإعتبار على ذلك فهلا استدلوا بها على حكمه الخلق الكوني في الثواب والعقاب وهو الذي قصد بالآية فدلالته عليه أولى فعلم أن المتماثلين في الذنب متماثلان في استحقاق العقاب بخلاف من لم يشركهما في ذلك وإذا قيل هذا قد علم بخبره قيل هو لم يخبر قبل بهذا بل دل على أن هذا هو حكمه الذي لا يجوز أن يضاف إليه سواه كما دل على ذلك ما تقدم من الآيات وأيضا فالنصوص قد أخبرت بالميزان بالقسط وأن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فدل هذا على أن مثقال ذرة إذا زيد في السيئات أو نقص من الحسنات كان ظلما ينزهه الله عنه ودل على أنه يزن الأعمال بالقسط الذي هو العدل فدل على أن خلاف ذلك ليس قسطا بل ظلم تنزهه الله عنه ولو لم يكن هنا عدل لم يحتج إلى الموازنة فإنه إذا كان التعذيب والتنعيم بلا قانون عدلي بل بمحض المشيئة لم يحتج إلى الموازنة وقال تعالى {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} {آل عمران 108} قال الزجاج وغيره قد أعلمنا أنه يعذب من عذبه لاستحقاقه وقال آخر معناه أنه لا يعاقبهم بلا جرم فسمى هذا ظلما¹

وإذا كان أولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون والناس يتفاضلون في الايمان والتقوى فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك كما انهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك واصل الايمان والتقوى الايمان برسول الله وجماع ذلك الايمان بخاتم الرسل محمد فالايمن به يتضمن الايمان بجميع كتب الله ورسله واصل الكفر والنفاق هو الكفر

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 99-110 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 215 و الجواب الصحيح ج: 2 ص:

بالرسل وبما جاءوا به فان هذا هو الكفر الذى يستحق صاحبه العذاب فى الآخرة فان الله تعالى اخبر فى كتابه انه لا يعذب احدا إلا بعد بلوغ الرسالة قال الله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15¹

من لم يبلغه أمر الرسول فى شيء معين لم يثبت حكم وجوبه عليه

قال تعالى { مَّنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 فمن لم يبلغه أمر الرسول فى شيء معين لم يثبت حكم وجوبه عليه ولهذا لم يأمر النبي عمر وعمارا لما أجنبنا فلم يصل عمر وصلى عمار بالتمرغ أن يعيد واحد منهما وكذلك لم يأمر أبا ذر بالإعادة لما كان يجنب ويمكث أياما لا يصلى وكذلك لم يأمر من أكل من الصحابة حتى يتبين له الحبل الأبيض من الحبل الأسود بالقضاء كما لم يأمر من صلى إلى بيت المقدس قبل بلوغ النسخ لهم بالقضاء ومن هذا الباب المستحاضة إذا مكثت مدة لا تصلي لإعتقادها عدم وجوب الصلاة عليها ففى وجوب القضاء عليها قولان أحدهما لا إعادة عليها كما نقل عن مالك وغيره لأن المستحاضة التى قالت للنبي إني حضت حيضة شديدة كبيرة منكرا منعتنى الصلاة والصيام أمرها بما يجب فى المستقبل ولم يأمرها بقضاء صلاة الماضى وقد ثبت عندي بالنقل المتواتر أن فى النساء والرجال بالبوادى وغير البوادى ومن يبلغ ولا يعلم أن الصلاة عليه واجبة بل إذا قيل للمرأة صلى تقول حتى أكبر وأصير عجوزة ظانه أنه لا يخاطب بالصلاة إلا المرأة الكبيرة كالعجوز ونحوها وفى أتباع الشيوخ طوائف كثيرون لا يعلمون أن الصلاة واجبة عليهم فهؤلاء لا يجب عليهم فى الصحيح قضاء الصلوات سواء قيل كانوا كفارا أو كانوا معنورين بالجهل وكذلك من كان منافقا زنديقا يظهر الإسلام أو يبطن خلافه وهو لا يصلى أو يصلى أحيانا بلا وضوء أو لا يعتقد وجوب الصلاة فإنه إذا تاب من نفاقه وصلى فإنه لا قضاء عليه عند جمهور العلماء والمرتد الذى كان يعتقد وجوب الصلاة ثم إرتد عن الإسلام ثم عاد لا يجب عليه قضاء ما تركه حال الردة عند جمهور العلماء كمالك وأبى حنيفة وأحمد فى ظاهر مذهبه فإن المرتدين الذين إرتدوا على عهد النبي كعبدالله بن سعد بن أبى سرح وغيره مكثوا على الكفر مدة ثم أسلموا ولم يأمر أحدا منهم بقضاء ما تركوه وكذلك المرتدون على عهد أبى بكر لم يؤمروا بقضاء صلاة ولا غيرها وأما من كان عالما بوجوبها وتركها بلا تأويل حتى خرج وقتها الموقت فهذا يجب عليه القضاء عند الأئمة الأربعة وذهب طائفة منهم إبن حزم وغيره إلى أن فعلها بعد الوقت لا يصح من هؤلاء وكذلك قالوا فيمن ترك الصوم متعمدا والله سبحانه وتعالى أعلم²

وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة رضى الله عنهم فى الحوادث يشاور عثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وزيد بن ثابت وغيرهم حتى كان يشاور ابن عباس وهذا كان من كمال فضله وعقله ودينه ولهذا كان من أسد الناس رأياً وكان يرجع تارة إلى رأي هذا وتارة إلى رأى

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 186

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 284 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 102

هذا وقد أتى بامرأة قد أقرت بالزنا فاتفقوا على رجمها وعثمان ساكت فقال مالك لا تتكلم فقال أراها تستهل به استهلال من لا يعلم أن الزنا محرم فرجع فاسقط الحد عنها لما ذكر له عثمان ومعنى كلامه أنها تجهر به وتبوح به كما يجهر الإنسان ويبوح بالشيء الذي لا يراه قبيحا مثل الأكل والشرب والتزوج والتسرى والاستهلال رفع الصوت ومنه استهلال الصبي وهو رفعه صوته عند الولادة وإذا كانت لا تعلمه قبيحا كانت جاهلة بتحريمه والحد لا يجب إلا على من بلغه التحريم فإن الله تعالى يقول **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }** الإسراء 15 وقال تعالى **{ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ }** النساء 165 ولهذا لا يجوز قتال الكفار الذين لم تبلغهم الدعوة حتى يدعوا إلى الإسلام ولهذا من أتى شيئا من المحرمات التي لم يعلم تحريمها لقرب عهده بالإسلام أو لكونه نشأ بمكان جهل لم يقم عليه الحد ولهذا لم يعاقب النبي صلى الله عليه وسلم من أكل من أصحابه حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود لأنهم أخطأوا في التأويل ولم يعاقب أسامة بن زيد لما قتل الرجل الذي قال لا إله إلا الله لأنه ظن جواز قتله لما اعتقد أنه قالها تعودا وكذلك السرية التي قتلت الرجل الذي قال إنه مسلم وأخذت ماله لم يعاقبها لأنها كانت متأولة وكذلك خالد بن الوليد لما قتل بني جذيمة لما قالوا صبأنا لم يعاقبه لتأويله وكذلك الصديق لم يعاقب خالدًا على قتل مالك بن نويرة لأنه كان متأولا وكذلك الصحابة لما قال هذا لهذا أنت منافق لم يعاقبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان متأولا ولهذا قال الفقهاء الشبهة التي يسقط بها الحد شبهة اعتقاد أو شبهة ملك فمن تزوج نكاحا اعتقد أنه جائز ووطيء فيه لم يحد وإن كان حراما في الباطن وأما إذا علم التحريم ولم يعلم العقوبة فإنه يحد كما حد النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن مالك إذ كان قد علم تحريم الزنا ولكنه لم يكن يعلم أن الزاني المحصن يرجم فرجمه النبي صلى الله عليه وسلم لعلمه بتحريم الفعل وإن لم يعلم أنه يعاقب بالرجم¹

استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه

قال تعالى **{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }** الإسراء 15 فجميع ما نهى الله عنه هو من شعب الكفر وفروعه كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله ولهذا قال تعالى **{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ }** البقرة 193 لكن قد يكون ذلك شركا أكبر وقد يكون شركا أصغر بحسب ما يقتزن به من الإيمان فمتي اقتزن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريمه وبغضه وخوف العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركا أكبر وأما إن اتخذ الإنسان ما يهواه إلهًا من دون الله وأحبه كحب الله فهذا شرك أكبر والدرجات في ذلك متفاوتة وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ما ينجيه من عذاب الله وهو يقع في كثير من هذه الأنواع ولا يعلم أنها شرك بل لا يعلم أن الله حرمها ولم تبلغه في ذلك رسالة من عند الله والله تعالى يقول **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }** الإسراء 15 فهؤلاء يكثرون جدا في الأمكنة والأزمان التي تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يرحمون به وقد لا يعذبون بكثير مما يعذب به غيرهم

¹ منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 88

ممن كانت عليه حجة الرسالة فينبغي أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه ولهذا لما كثر الجهل وانتشر تزيب الشيطان لكثير من الناس أنواعا من الحرام ضاهوا بها الحلال زين الشيطان لكثير من الناس أنواعا من المحرمات ضاهوا بها حلال وقد لا يعلمون أنها محرمة بغيضة إلى الله بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به وقد يظنون أن فيها هذا وهذا وهم في ذلك يتبعون الظن وما تهوي الأنفس وقد يعلمون تحريم ذلك ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعا ونفاقا فهو لاء غير المؤمن الذي يحب الله ورسوله ويأتي بالمحرم معتقدا أنه محرم وهو مبغض له خائف راج¹

أما تارك الصلاة فهذا إن لم يكن معتقدا لوجوبها فهو كافر بالنص والإجماع لكن إذا سلم ولم يعلم أن الله أوجب عليه الصلاة أو وجوب بعض أركانها مثل أن يصلي بلا وضوء فلا يعلم أن الله أوجب عليه الوضوء أو يصلي مع الجنابة فلا يعلم أن الله أوجب عليه غسل الجنابة فهذا ليس بكافر إذا لم يعلم لكن إذا علم الوجوب هل يجب عليه القضاء فيه قولان للعلماء في مذهب أحمد ومالك وغيرهما قيل يجب عليه القضاء وهو المشهور عن أصحاب الشافعي وكثير من أصحاب أحمد وقيل لا يجب عليه القضاء وهذا هو الظاهر وعن أحمد في هذا الأصل روايتان منصوصتان فيمن صلى في معادن الإبل ولم يكن علم بالنهي ثم علم هل يعيد على روايتين ومن صلى ولم يتوضأ من لحوم الإبل ولم يكن علم بالنهي ثم علم هل يعيد على روايتين منصوصتين وقيل عليه الإعادة إذا ترك الصلاة جاهلا بوجوبها في دار الإسلام دون دار الحرب وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة والصائم إذا فعل ما يفطر به جاهلا بتحريم ذلك فهل عليه الإعادة على قولين في مذهب أحمد وكذلك من فعل محظورا في الحج جاهلا وأصل هذا أن حكم الخطاب هل يثبت في حق المكلف قبل أن يبلغه فيه ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره قيل يثبت وقيل لا يثبت وقيل يثبت المبتدأ دون الناسخ والأظهر أنه لا يجب قضاء شيء من ذلك ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلاغ لقوله تعالى {لَا نَذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} {الأنعام 19} وقوله {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} {الإسراء 15} ولقوله {لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ} {النساء 165} ومثل هذا في القرآن متعدد بين سبحانه أنه لا يعاقب أحدا حتى يبلغه ما جاء به الرسول ومن علم أن محمدا رسول الله فأمن بذلك ولم يعلم كثيرا مما جاء به لم يعذبه الله على ما لم يبلغه فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان بعد البلوغ فإنه لا يعذبه على بعض شرائطه إلا بعد البلاغ أولى وأحرى وهذه سنة رسول الله المستفيضة عنه في أمثال ذلك فإنه قد ثبت في الصحاح أن طائفة من أصحابه ظنوا أن قوله تعالى {الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} {البقرة 187} هو الحبل الأبيض من الحبل الأسود فكان أحدهم يربط في رجله حبلًا ثم يأكل حتى يتبين هذا من هذا فبين النبي أن المراد بياض النهار وسواد الليل ولم يأمرهم بالإعادة وكذلك عمر بن الخطاب وعمار أجنبا فلم يصل عمر حتى أدرك الماء وظن عمار أن التراب يصل إلى حيث يصل الماء فتمرغ كما تمرغ الدابة ولم يأمر واحدا منهم بالقضاء وكذلك أبوذر بقي مدة جنبا لم يصل ولم يأمره بالقضاء بل أمره بالتيمم في المستقبل وكذلك المستحاضة قالت أنى استحاض حيضة شديدة تمنعني الصلاة والصوم فأمرها بالصلاة زمن دم الإستحاضة ولم يأمرها بالقضاء ولما حرم الكلام في الصلاة تكلم معاوية بن الحكم السلمي فبؤ الصلاة بعد التحريم جاهلا بالتحريم فقال له أن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الأدميين ولم يأمره بإعادة الصلاة ولما زيد في

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 107

الصلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة كان من كان بعيدا عنه مثل من كان بمكة وبأرض الحبشة يصلون ركعتين ولم يأمرهم النبي بإعادة الصلاة ولما فرض شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة ولم يبلغ الخبر إلى من كان بأرض الحبشة من المسلمين حتى فات ذلك الشهر لم يأمرهم بإعادة الصيام وكان بعض الأنصار لما ذهبوا إلى النبي من المدينة إلى مكة قبل الهجرة قد صلى إلى الكعبة معتقدا جواز ذلك قبل أن يؤمر بإستقبال الكعبة وكانوا حينئذ يستقبلون الشام فلما ذكر ذلك للنبي أمره بإستقبال الشام ولم يأمره بإعادة ما كان صلى وثبت عنه في الصحيحين أنه سئل وهو بالجعرانة عن رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالخلوف فلما نزل عليه الوحي قال له إنزع عنك جبتك وإغسل عنك أثر الخلق وإصنع في عمرتك ما كنت صانعا في حجك وهذا قد فعل محظورا في الحج وهو لبس الجبة ولم يأمره النبي على ذلك بدم ولو فعل ذلك مع العلم للزمه دم وثبت عنه في الصحيحين انه قال للأعرابي المسيء في صلاته صل فإنك لم تصل مرتين او ثلاثا فقال والذي بعثك بالحق ما احسن غير هذا فعلمنى ما يجزىنى في الصلاة فعلمه الصلاة المجزية ولم يأمره بإعادة ما صلى قبل ذلك مع قوله ما احسن غير هذا وإنما أمره أن يعيد تلك الصلاة لأن وقتها باق فهو مخاطب بها والتي صلاها لم تبرأ بها الذمة ووقت الصلاة باق ومعلوم أنه لو بلغ صبي أو أسلم كافر أو طهرت حائض أو أفاق مجنون والوقت باق لزمته الصلاة أداء لا قضاء وإذا كان بعد خروج الوقت فلا إثم عليهم فهذا المسيء الجاهل إذا علم بوجود الطمأنينة في أثناء الوقت فوجبت عليه الطمأنينة حينئذ ولم تجب عليه قبل ذلك فلماذا أمره بالطمأنينة في صلاة تلك الوقت دون ما قبلها وكذلك أمره لمن صلى خلف الصف أن يعيد ولمن ترك لمعة من قدمه أن يعيد الوضوء والصلاة وقوله اولا صل فإنك لم تصل تبين أن ما فعله لم يكن صلاة ولكن لم يعرف أنه كان جاهلا بوجود الطمأنينة فلماذا أمره بالإعادة إبتداء ثم علمه إياها لما قال والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فهذه نصوصه في محظورات الصلاة والصيام والحج مع الجهل فيمن ترك واجباتها مع الجهل واما أمره لمن صلى خلف الصف أن يعيد فذلك انه لم يأت بالواجب مع بقاء الوقت فثبت الوجوب في حقه حين أمره النبي لبقاء وقت الوجوب لم يأمره بذلك مع مضي الوقت وأما أمره لمن ترك لمعة في رجله لم يصبها الماء بالإعادة فلأنه كان ناسيا فلم يفعل الواجب كمن نسي الصلاة وكان الوقت باقيا فإنها قضية معينة بشخص لا يمكن أن يكون في الوقت وبعده أعنى انه رأى في رجل رجل لمعة لم يصبها الماء فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة رواه أبو داود وقال احمد بن حنبل حديث جيد وأما قوله ويل للأعقاب من النار ونحوه فإنما يدل على وجوب تكميل الوضوء ليس في ذلك أمر بإعادة شيء ومن كان أيضا يعتقد أن الصلاة تسقط عن العارفين أو عن المشائخ الواصلين أو عن بعض أتباعهم أو أن الشيخ يصلي عنهم أو أن الله عبادا اسقط عنهم الصلاة كما يوجد كثير من ذلك في كثير من المنتسبين إلى الفقر والزهد وإتباع بعض المشائخ والمعرفة فهؤلاء يستتابون باتفاق الأئمة فإن أقروا بالوجوب وإلا قوتلوا وإذا أصروا على جحد الوجوب حتى قتلوا كانوا من المرتدين ومن تاب منهم وصلى لم يكن عليه إعادة ما ترك قبل ذلك في أظهر قولي العلماء فإن هؤلاء إما ان يكونوا مرتدين وإما ان يكونوا مسلمين جاهلين للوجوب فإن قيل إنهم مرتدون عن الإسلام فالمرتد إذا أسلم لا يقضي ما تركه حال الردة عن جمهور العلماء كما لا يقضي الكافر إذا أسلم ما ترك حال الكفر باتفاق العلماء ومذهب مالك وابي حنيفة وأحمد في أظهر الروايتين عنه والأخرى يقضي المرتد كقول الشافعي والأول اظهر فإن الذين إرتدوا على عهد رسول الله كالحارث ابن قيس وطائفة معه أنزل الله فيهم {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ} آل عمران 86 الآية والتي بعدها وكعبد الله بن أبي سرح والذين خرجوا مع الكفار يوم بدر وأنزل فيهم {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

{النحل110 فهؤلاء عادوا إلى الإسلام وعبدالله بن ابي سرح عاد إلى الإسلام عام الفتح وبايعه النبي ولم يأمر أحدا منهم بإعادة ما ترك حال الكفر في الردة كما لم يكن يأمر سائر الكفار إذا أسلموا وقد إرتد في حياته خلق كثير إتبعوا الأسود العنسي الذي تنبأ بصنعاء اليمن ثم قتله الله وعاد أولئك إلى الإسلام ولم يؤمروا بالإعادة وتنبأ مسليمة الكذاب وأتبعه خلق كثير قاتلهم الصديق والصحابة بعد موته حتى أعادوا من بقى منهم إلى الإسلام ولم يأمر أحدا منهم بالقضاء وكذلك سائر المرتدين بعد موته وكان اكثر البوادي قد إرتدوا ثم عادوا إلى الإسلام ولم يأمر أحدا منهم بقضاء ما ترك من الصلاة وقوله تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} {الأنفال38 يتناول كل كافر وإن قيل إن هؤلاء لم يكونوا مرتدين بل جهالا بالوجوب وقد تقدم أن الأظهر في حق هؤلاء أنهم يستأنفون الصلاة على الوجه المأمور ولا قضاء عليهم فهذا حكم من تركها غير معتقد لوجوبها¹ كل من عبد عبادة نهى عنها ولم يعلم بالنهي لكن هي من جنس المأمور به مثل من صلى في أوقات النهى وبلغه الأمر العام بالصلاة ولم يبلغه النهى أو تمسك بدليل خاص مرجوح مثل صلاة جماعة من السلف ركعتين بعد العصر لأن النبي صلاهما ومثل صلاة رويت فيها أحاديث ضعيفة أو موضوعة كالفية نصف شعبان وأول رجب وصلاة التسبيح كما جوزها ابن المبارك وغير ذلك فانها اذا دخلت في عموم استحباب الصلاة ولم يبلغه ما يوجب النهى أثيب على ذلك وان كان فيها نهى من وجه لم يعلم بكونها بدعة تتخذ شعارا ويجتمع عليها كل عام فهو مثل أن يحدث صلاة سادسه ولهذا لو أراد أن يصلى مثل هذه الصلاة بلا حديث لم يكن له ذلك لكن لما روى الحديث اعتقد أنه صحيح فغلط في ذلك فهذا يغفر له خطؤه ويثاب على جنس المشروع وكذلك من صام يوم العيد ولم يعلم بالنهي بخلاف ما لم يشرع جنسه مثل الشرك فان هذا لا ثواب فيه وإن كان الله لا يعاقب صاحبه إلا بعد بلوغ الرسالة كما قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } {الإسراء15} لكنه وإن كان لا يعذب فان هذا لا يثاب بل هذا كما قال تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً} {الفرقان23} قال ابن المبارك هي الأعمال التي عملت لغير الله وقال مجاهد هي الأعمال التي لم تقبل وقال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ} {إبراهيم18} الآية هؤلاء أعمالهم باطلة لا ثواب فيها وإذا نهاهم الرسول عنها فلم ينتهوا عوقبوا فالعقاب عليها مشروط بتبليغ الرسول وأما بطلانها في نفسها فلأنها غير مأمور بها فكل عبادة غير مأمور بها فلا بد أن ينهى عنها ثم إن علم أنها منهي عنها وفعلها استحق العقاب فان لم يعلم لم يستحق العقاب وإن اعتقد أنها مأمور بها وكانت من جنس المشروع فانه يثاب عليها وإن كانت من جنس الشرك فهذا الجنس ليس فيه شيء مأمور به لكن قد يحسب بعض الناس في بعض أنواعه أنه مأمور به²

الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبي عن إتباع ما سواه إتباعا عاما

قال تعالى { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } {الإسراء15} في الإكتفاء بالرسالة والإستغناء بالنبي عن إتباع ما سواه إتباعا عاما وأقام الله الحجة على خلقه برسله فقال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 40-47

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 32

وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ { النساء 163 الى قوله { لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل { النساء 165
فدلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال وأنه قد يكون لهم حجة قبل الرسل ف
الأول يبطل قول من أوج الخلق الى غير الرسل حاجة عامة كالائمة و الثاني يبطل قول من
أقام الحجة عليهم قبل الرسل من المتفلسفة والمتكلمة وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ { النساء 59 فأمر
بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمرء إذا لم يتنازعوا وهو يقتضى أن إتفاقهم حجة وأمرهم بالرد
عند التنازع الى الله والرسول فأبطل الرد الى امام مقلد أو قياس عقلي فاضل وقال تعالى { كَانَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا
اختلفوا فيه { البقرة 213 فبين أنه بالكتاب يحكم بين أهل الأرض فيما اختلفوا فيه وقال تعالى
{ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ { العنكبوت 51 فزجر من لم يكتف بالكتاب المنزل
وقال تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي { الأنعام 130 الآيات
وقال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً { الإسراء 15 وقال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ { الزمر 71 الآيات
وقال تعالى { كَلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ { 8 } قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ { 9 } { الملك 8-9 فدلت هذه الآيات على أن من أتاه
الرسول فخالفه فقد وجب عليه العذاب وإن لم يأتها إمام ولا قياس وأنه لا يعذب أحد حتى يأتية
الرسول وإن أتاه إمام أو قياس وقال تعالى { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مَنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا { النساء 69 } وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ { 13 } وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ { 14 } { النساء 13-14 الآية وقد ذكر
سبحانه هذا المعنى فى غير موضع فبين أن طاعة الله ورسوله موجبة للسعادة وان معصية الله
موجبة للشقاوة وهذا يبين أن مع طاعة الله ورسوله لا يحتاج الى طاعة إمام أو قياس ومع معصية الله
ورسوله لا ينفع طاعة إمام أو قياس ودليل هذا الأصل كثير فى الكتاب والسنة وهو أصل الاسلام
شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله وهو متفق عليه بين الذين أتوا العلم والايمن
قولا واعتقادا وإن خالفه بعضهم عملا وحالا فليس عالم من المسلمين يشك فى أن الواجب على الخلق
طاعة الله ورسوله وان ما سواه إنما تجب طاعته حيث أوجبها الله ورسوله وفى الحقيقة فالواجب فى
الأصل إنما هو طاعة الله لكن لا سبيل إلى العلم بمأموره وبخبره كله إلا من جهة الرسل والمبلغ عنه
اما مبلغ امره وكلماته فتجب طاعته وتصديقه فى جميع ما أمر وأخبر وأما ماسوى ذلك فإنما يطاع
فى حال دون حال كالأمرء الذين تجب طاعتهم فى محل ولايتهم ما لم يأمروا بمعصية الله والعلماء
الذين تجب طاعتهم على المستفتى والمأمور فيما أوجبوه عليه مبلغين عن الله أو مجتهدين اجتهدا
تجب طاعتهم فيه على المقلد ويدخل فى ذلك مشائخ الدين ورؤساء الدنيا حيث أمر بطاعتهم كاتباع
أئمة الصلاة فيها وأتباع الحج فيه وأتباع امرء الغزو فيه وأتباع الحكام فى احكامهم وأتباع
المشايخ المهتدين فى هديهم ونحو ذلك والمقصود بهذا الأصل أن من نصب إماما فأوجب طاعته
مطلقا اعتقادا أو حالا فقد ضل فى ذلك كأئمة الضلال الرافضة الامامية حيث جعلوا فى كل وقت
إماما معصوما تجب طاعته فإنه لا معصوم بعد الرسول ولا تجب طاعة أحد بعده فى كل شيء
والذين عينوهم من أهل البيت منهم من كان خليفة راشدا تجب طاعته كطاعة الخلفاء قبله وهو علي
ومنهم أئمة فى العلم والدين يجب لهم ما يجب لنظرانهم من أئمة العلم والدين كعلي بن الحسين وأبى

جعفر الباقر وجعفر ابن محمد الصادق ومنهم دون ذلك وكذلك من دعا لاتباع شيخ من مشايخ الدين في كل طريق من غير تخصيص ولا استثناء وأفرده عن نظرائه كالشيخ عدي والشيخ أحمد والشيخ عبد القادر والشيخ حيوة ونحوهم وكذلك من دعا إلى اتباع امام من أئمة العلم في كل ما قاله وأمر به ونهى عنه مطلقاً كالأئمة الأربعة وكذلك من أمر بطاعة الملوك والأمراء والقضاة والولاة في كل ما يأمرون وينهون عنه من غير تخصيص ولا استثناء لكن هؤلاء لا يدعون العصمة لمتبوعيهم الاغالية اتباع المشايخ كالشيخ عدي وسعد المدني بن حمويه ونحوهما فإنهم يدعون فيهم نحو ما تدعيه الغالية في أئمة بني هاشم من العصمة ثم من الترجيح على النبوة ثم من دعوى الالهية وأما كثير من أتباع أئمة العلم ومشايخ الدين فحالهم وهواهم بضاهي حال من يوجب اتباع متبوعه لكنه لا يقول ذلك بلسانه ولا يعنقده علماً فحالهم يخالف اعتقاده بمنزلة العصاة أهل الشهوات وهؤلاء أصلح ممن يرى وجوب ذلك ويعنقده وكذلك اتباع الملوك والرؤساء هم كما أخبر الله عنهم بقوله { إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } الأحزاب 67 فهم مطيعون حالاً وعملاً وانقياداً وأكثرهم من غير عقيدة دينية وفيهم من يقرب بذلك عقيدة دينية ولكن طاعة الرسول إنما تمكن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به فإذا ضعف العلم والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر فكان وقت دعوة ونبوة في غيره فتدبر هذا الأصل فإنه نافع جداً والله أعلم وكذا من نصب القياس أو العقل أو الذوق مطلقاً من أهل الفلسفة والكلام والتصوف أو قدمه بين يدي الرسول من أهل الكلام والرأي والفلسفة والتصوف فإنه بمنزلة من نصب شخصاً فالاتباع المطلق دائر مع الرسول وجوداً وعملاً¹

" إذا قل العلم ظهر الجفاء وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء "

قال تعالى { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 قال مالك بن أنس إذا قل العلم ظهر الجفاء وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم ولهذا قال أحمد في خطبته الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدي الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 فأهل الهدي والفلاح هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل اليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء في ضلال جهل وشرك وشر لكن الله يقول { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } الإسراء 15 وقال { رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 وقال { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } القصص 59 فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل اليهم رسولا وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث اليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فإن الآخرة لا تكليف فيها وليس كما قال إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار والافهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لأحدهم من ربك وما دينك ومن نبيك وكذلك في عرصات القيامة يقال

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 67

ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس و من كان يعبد القمر القمر و من كان يعبد الطواغيت الطواغيت و تبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة و يقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا و في رواية فيسألهم و يثبتهم و ذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم في فتنة القبر فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون أتاهم حينئذ في الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق فإذا رأوه خرخوا له سجدا الا من كان منافقا فانه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق و هذا المعنى مستفيض عن النبي صلى الله عليه و سلم في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي هريرة و أبي سعيد و قد أخرجهما في الصحيحين و من حديث جابر و قد رواه مسلم من حديث ابن مسعود و أبي موسى و هو معروف من رواية أحمد و غيره فدل ذلك على أن المحنة انما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء و أما قبل دار الجزاء امتحان و ابتلاء¹

{ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }

قال تعالى { **مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** } الإسراء 15 قال تعالى { **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** } الأنعام 164 وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم ألا لا يجني جان إلا على نفسه وإنما ذلك مثل أن يطلب بمال قد وجب على غيره وهو ليس وكيلا ولا ضامنا ولا له عنده مال أو يعاقب الرجل بجرمة قريبه أو جاره من غير أن يكون قد اذنب لا بترك واجب ولا بفعل محرم فهذا الذي لا يحل²

و القرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحدا و لم يعذبه الا بذنب فقال هنا { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ** } النساء 79 و قال لهم في شأن احد { **أَوَلَمْ أَصَابِكُمْ مِصْبِيحَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 و قال تعالى { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } الشورى 30 و قال تعالى في سورة الشورى أيضا { **وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** } الشورى 48 وفي الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وفي سيد الاستغفار أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي³

أن الظلم ممكن مقدور وأنه منزه عنه لا يفعله لعلمه وعدله فهو لا يحمل على أحد ذنب غيره قال تعالى { **مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا**

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 312

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 324 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 79

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 425 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 162

كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا {الإسراء 15} {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} طه 112 وعلى هذا فعقوبة الإنسان بذنوب غيره ظلم ينزه الله عنه وأما إثابة المطيع ففضل منه وإحسان وإن كان حقا واجبا بحكم وعده باتفاق المسلمين وبما كتبه على نفسه من الحرمة وبموجب أسمائه وصفاته فليس هو من جنس ظلم الأجير الذي استؤجر ولم يوف أجره فإن هذا معاوضة والمستأجر استوفى منفعته فإن لم يوفه أجره ظلمه والله تعالى هو المحسن إلى العباد بأمره ونهيه وبإقداره لهم على الطاعة وبإعانتهم على طاعته وهم كما قال تعالى في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم كانوا على ألقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وكنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه فبين أن الخير الموجود من الثواب مما يحمد الله عليه لأنه المحسن به وبأسبابه وأما العقوبة فإنه عادل فيها فلا يلومن العبد إلا نفسه كما قيل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وأصحاب هذا القول يقولون الكتاب والسنة إنما تدل على هذا القول والله قد نزه نفسه في غير موضع عن الظلم الممكن المقدر مثل نقص الإنسان من حسناته وحمل سيئات غيره عليه¹

ان الله لا يجعل الذنب ذنبا لمن لم يفعله فانه هو القائل { **مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا {الإسراء 15}** }²

قال تعالى { **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } فصلت 46 يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من إحسانه أو يجعله لغيره ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره بل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله { **أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى {36}** } وإبراهيم الذي وفى { **37** } **أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى {38}** } **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى {39}** } النجم 36-39 فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعاه وكلا القولين حق على ظاهره وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت ببكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب والعذاب أعم من العقاب كما قال

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 310

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 300

صلى الله عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله { وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } النجم 39 فليس الأمر كذلك فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقولهُ ظاهر الفساد بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة وقد بينا في غير هذا الموضوع نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكة ومستحقه بما ينتفع به منه فهذا نوع وهذا نوع وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدينيوية¹

لا يحكم بكفر احد حتى تقوم عليه الحجة

قال تعالى { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء 15 فلا يحكم بكفر احد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى { لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } النساء 165 وقال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء 15 ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم ان الصلاة واجبة عليه أو يعلم ان الخمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد ايجاب هذا وتحريم هذا بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم ان الصلاة واجبة ثم علم هل يجب عليه قضاء ما تركه في حال الجهل على قولين في مذهب الامام أحمد وغيره أحدهما لا يجب عليه القضاء وهو مذهب أبي حنيفة و الثاني يجب عليه القضاء وهو المشهور عند أصحاب الشافعي بل النزاع بين العلماء في كل من ترك واجبا قبل بلوغ الحجة مثل ترك الصلاة عند عدم الماء يحسب ان الصلاة لا تصح بتيمم أو من أكل حتى تبين له الخيط الابيض من الخيط الأسود ويحسب ان ذلك هو المراد بالآية كما جرى ذلك لبعض الصحابة أو مس ذكره أو أكل لحم الابل ولم يتوضأ ثم تبين له وجوب ذلك وامثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء على قولين في مذهب احمد وغيره وأصل ذلك هل يثبت حكم الخطاب في حق المكلف قبل التمكن من سماعه على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره قيل يثبت مطلقاً وقيل لا يثبت مطلقاً وقيل يفرق بين الخطاب الناسخ والخطاب المبتدأ كأهل القبلة والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية أن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه فان القضاء لا يجب عليه في الصور المذكورة ونظائرها مع اتفاقهم على إنتفاء الاثم لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان فإذا كان هذا في التأثيم فكيف في التكفير وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ومثل هذا لا يكفر ولهذا اتفق الأئمة على ان من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والايمان وكان حديث العهد بالاسلام فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول ولهذا جاء في الحديث يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوما ولا حجا إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقول ادركنا آباءنا وهم يقولون لا إله إلا الله وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجا فقال ولا

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 406

صوم ينجيهم من النار فقيل لحذيفة ما يغني عنهم قول لا إله إلا الله وهم لا يعرفون صلاة ولا زكاة ولا صوما ولا حبا قال تنجيهم من النار تنجيهم من النار وذكرنا قول النبي والمؤمنين ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا دعاء قد استجاب الله كما ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس وقد دل على هذا الأصل ما أخرجه في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله قال قال رجل لم يعجل حسنة قط لأهله إذا مات فحرقوه ثم أذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبنه أحدا من العالمين فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال لم فعلت هذا قال من خشيتك يا رب وأنت أعلم فغفر الله له وفي لفظ آخر اسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال إذا انامت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم أذروني في البحر فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا قال ففعلوا ذلك به فقال للأرض أد ما اخذت فاذا هو قائم فقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يا رب أو قال مخافتك فغفر له بذلك وفي طريق آخر قال الله لكل شيء اخذ منه شيئا أد ما اخذت منه وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة وعقبة بن عمرو أيضا عن حذيفة عن النبي قال كان رجل فيمن كان قبلكم كان يسيء الظن بعمله فقال لأهله إذا أنامت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا فجمعه الله ثم قال ما حملك على الذي فعلت فقال ما حملني إلا مخافتك فغفر له وفي طريق آخر ان رجلا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا انامت فاجمعوا لي حطبا كثيرا وواقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمي ووصلت إلى عظمي فامتحشت فخذوها فاطحنوها ثم أنظروا يوما فذروني في اليم فجمعه الله فقال له لم فعلت ذلك قال من خشيتك فغفر الله له قال عقبة بن عمرو أنا سمعته يعني النبي يقول ذلك وكان نباشا فهذا الرجل ظن ان الله لا يقدر عليه اذا تفرق هذا التفرق فظن انه لا يعيده اذا صار كذلك وكل واحد من انكار قدرة الله تعالى وانكار معاد الابدان وان تفرقت كفر لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلا بذلك ضالا في هذا الظن مخطئا فغفر الله له ذلك والحديث صريح في ان الرجل طمع ان لا يعيده إذا فعل ذلك وأدنى هذا ان يكون شاكا في المعاد وذلك كفر إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره هو بين في عدم ايمانه بالله تعالى ومن تأول قوله لئن قدر الله على بمعنى قضى أو بمعنى ضيق فقد أبعد النجعة وحرف الكلم عن مواضعه فانه إنما امر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد وقال إذا انامت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في الريح في البحر فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الاولى يدل على انه سبب لها وانه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه اذا فعل ذلك فلو كان مقرا بقدرة الله عليه اذا فعل ذلك كقدرته عليه اذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له ولان التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب وهو قد جعل تفريقه مغايرا لان يقدر الرب قال فوالله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه احدا من العالمين فلا يكون الشرط هو الجزاء ولانه لو كان مراده ذلك لقال فوالله لئن جازاني ربي أو لئن عاقبني ربي ليعذبني عذابا كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك ولان لفظ قدر بمعنى ضيق لا أصل له في اللغة ومن استشهد على ذلك بقوله وقدر في السرد وقوله { وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ } {الطلاق} 7 فقد استشهد بما لا يشهد له فان اللفظ كان بقوله { وَقَدِرْ فِي السَّرْدِ } سبأ 11 أى اجعل ذلك بقدر ولا تزد ولا تنقص وقوله { وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ } {الطلاق} 7 أى جعل رزقه قدر ما يغنيه من غير فضل إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعيش واما قدر بمعنى قدر أى اراد تقدير الخير والشر فهو لم يقل إن قدر على ربي العذاب بل قال لئن قدر على ربي والتقدير يتناول النوعين فلا يصح ان يقال لئن قضى الله على لأنه قد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره ولأنه لو كان المراد التقدير أو التضييق لم يكن ما فعله مانعا من ذلك في ظنه ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع

بسببها فغاية ما في هذا انه كان رجلا لم يكن عالما بجميع ما يستحقه الله من الصفات وبتفصيل انه القادر وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك فلا يكون كافرا ومن تتبع الاحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه كما روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت الا احدتكم عنى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا بلى قالت لما كانت ليلتى التى النبى فيها عندى انقلب فوضع رداءه وخلع نعليه فوضعها عند رجليه وبسط طرف إزاره على فراشه واضطجع فلم يثبت الا ريثما ظن انى رقدت فأخذ رداءه رويدا وانتقل رويدا وفتح الباب رويدا فخرج ثم اجافه رويدا فجعلت درعى فى رأسى واختمرت وتقنعت ازارى ثم انطلقت على أثره حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ثم انحرف فانحرفت واسرع فأسرعت فهرول وهرولت وأحضر وأحضرت فسبقته فدخلت فليس الا ان اضطجعت فقال مالك يا عائشة حشبي رابية قالت لا شىء قال لتخبرينى أو ليخبرنى اللطيف الخبير قالت قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى فأخبرته قال فأنت السواد الذى رأيت أمامى قلت نعم فلهزنى فى صدرى لهزة أوجعتنى ثم قال أظننت ان يحيف الله عليك ورسوله قالت قلت مهما يكتم الناس يعلمه الله قال نعم قال فان جبريل عليه السلام أتانى حين رأيت فنادانى فأخفاه منك فأجبتة واخفيتة منك ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت انك رقدت وكرهت ان أوقظك وخشيت ان تستوحشى فقال ان ربك يأمرك ان تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم قلت كيف أقول يا رسول الله قال قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وانا ان شاء الله للاحقون فهذه عائشة أم المؤمنين سألت النبى هل يعلم الله كل ما يكتم الناس فقال لها النبى نعم وهذا يدل على انها لم تكن تعلم ذلك ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شىء يكتمه الناس كافرة وان كان الاقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الايمان وانكار علمه بكل شىء كانكار قدرته على كل شىء هذا مع انها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب ولهذا لهزها النبى وقال أتخافين ان يحيف الله عليك ورسوله وهذا الأصل مبسوط فى غير هذا ¹الموضع

فمن جحد وجوبها(الصلاة) بجهله عرف ذلك و إن جحدها عنادا كفر هذا اصل مضطرد في مباني الإسلام الخمسة و في الأحكام الظاهرة المجمع عليها من مكلف إن كان الجاحد لذلك معذورا مثل إن يكون حديث عهد بالإسلام أو قد نشأ ببادية هي مظنة الجهل بذلك لم يكفر حتى يعرف إن هذا دين الإسلام لأن أحكام الكفر و التأديب لا تثبت إلا بعد بلوغ الرسالة لا سيما فيما لا يعلم بمجرد العقل قال الله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء 15 و قال تعالى { لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل } النساء 165 و قال تعالى { وَلَوْ أَنَا أَهْلَكُنَا هُمْ بَعْدَ ابْنِ قَيْلِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً } طه 134 و قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رَسُولاً يَلْتَلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } القصص 59 و قال تعالى { لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } الأنعام 19 فالإنذار لمن بلغه القرآن بلفظه أو معناه فإذا بلغته الرسالة بواسطة أو بغير واسطة قامت عليه الحجة و انقطع عذره ²

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 406-413 و بغية المرئاد ج: 1 ص: 311

²درء التعارض ج: 4 ص: 51

"ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب"

قال تعالى { **مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** } الإسراء 15 قال كثير من أهل السنة والحديث والنظار الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ومن ذلك أن يبخس المحسن شيئاً من حسنائه أو يحمل عليه من سيئات غيره وهذا من الظلم الذي نزه الله نفسه عنه كقوله تعالى { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** } طه 112 قال غير واحد من السلف الهضم أن يهضم من حسناته والظلم أن يزداد في سيئاته وقد قال تعالى { **أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بَمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ** } 36 { **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ** } 37 { **أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** } 38 { **وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** } 39 النجم 36-39 و قال { **قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ** } 28 { **مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِي وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } 29 ق 28-29 وفي حديث البطاقة الذي رواه الترمذي وغيره وحسنه و رواه الحاكم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **يجاء يوم القيامة برجل من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر ثم يقول الله تعالى له أنتكر من هذا شيئا فيقول لا يارب فيقول الله عز وجل ألك عذرا أو حسنة فيهاب الرجل فيقول لا يارب فيقول الله تعالى بلى إن لك عندنا حسنات وأنه لا ظلم عليك فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول أنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وقال تعالى { **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } غافر 17 و قال تعالى { **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** } الزخرف 76 و قال { **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } النحل 118 و مثل هذه النصوص كثيرة و معلوم أن الله تعالى لم ينف بها الممتنع الذي لا يقبل الوجود كالجمع بين الضدين فإن هذا لم يتوهم أحد و جوده وليس في مجرد نفيه ما يحصل به مقصود الخطاب فإن المراد بيان عدل الله وأنه لا يظلم أحدا كما قال تعالى { **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** } الكهف 49 بل يجازيهم بأعمالهم ولا يعاقبهم إلا بعد إقامه الحجة عليهم كما قال الله تعالى { **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** } الإسراء 15 و قال { **رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** } النساء 165 و قال تعالى { **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** } القصص 59 و في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الرسل و أنزل الكتب**¹**

العقوبة قبل الحجة ليست مشروعة

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 507-508

قال تعالى { مَّن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {الإسراء 15} تكون العقوبة بعد الحجة وإلا فالعقوبة قبل الحجة ليست مشروعة قال تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {الإسراء 15} ولهذا قال الفقهاء فى البغاة إن الامام يرسلهم فإن ذكروا شبهة بينها وإن ذكروا مظلمة أزالها كما أرسل على ابن عباس الى الخوارج فناظرهم حتى رجع منهم أربعة آلاف وكما طلب عمر بن عبد العزيز دعاة القدرية والخوارج فناظرهم حتى ظهر لهم الحق وأقروا به¹

وقد اختلف العلماء فى خطاب الله ورسوله هل يثبت حكمه فى حق العبيد قبل البلاغ على ثلاثة أقوال فى مذهب أحمد وغيره قيل يثبت وقيل لا يثبت وقيل يثبت المبتدأ دون الناسخ والصحيح ما دل عليه القرآن فى قوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {الإسراء 15} وقوله {لَلَّأَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} النساء 165 وفى الصحيحين عن النبي ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر بل قد جعل الله لكل شيء قدرا²

ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة فإنه يكون إما كافرا وإما فاسقا وإما عاصيا إلا أن يكون مؤمنا مجتهدا مخطئا فيثاب على إجهاده ويغفر له خطؤه وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذى تقوم عليه به الحجة فإن الله يقول { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {الإسراء 15} وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل وإما بدونه والله أعلم³

قيام الحجة أنصر وأعذر وقد قال تعالى { مَّن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {15} سورة الإسراء الآية 15 وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين⁴

لا يترك أحد قط اتباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب

قال تعالى { مَّن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا } {الإسراء 15} كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه كل مولود يولد على الفطرة فأبوه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 240

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 288

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 113

⁴الجواب الصحيح ج: 1 ص: 246

جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء وإذا كان قد خلق على الصحة والسلامة فهو يستحق العقوبة على ما غيره من خلق الله بتفريطه وعدوانه لاتباعه الظن وما تهوى الأنفس وقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وقال سبحانه **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء 15** فإن دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه في نهاية الكمال والتمام الذي يشمل كل من بلغته ولا يترك أحد قط اتباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب¹

والقرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ولا يكون الكامل إلا سعيداً وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل كما قال تعالى **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء 15** وقد قال تعالى في خطابه لإبليس **{ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 85** فأقسم أنه لا بد أن يملأها منه ومن أتباعه فدل ذلك على أنه لا يدخلها إلا من اتبع الشيطان إذ لو دخلها غيرهم لامتلأت من هؤلاء وهؤلاء وهو خلاف النص ولهذا لما تنازع الناس في أطفال الكفار فطائفة جازمت بأنهم كلهم في النار وطائفة جازمت بأنهم كلهم في الجنة كان الصواب الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة وهو قول أهل السنة أنه لا يحكم فيهم كلهم بجنة ولا بنار بل يقال فيهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء قيل يا رسول الله أفرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وكذلك ثبت هذا في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد جاء في آثار أخرى أنهم يمتحنون يوم القيامة وجاءت بذلك أحاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا كالمجنون والشيخ الكبير الأصم الذي أدركه الإسلام وهو أصم لا يسمع ما يقال ومن مات في الفترة وأن هؤلاء يؤمرون يوم القيامة فإن أطاعوا دخلوا الجنة وإلا استحقوا العذاب وكان هذا تصديقا لعموم قوله تعالى **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } الإسراء 15** وبذلك استدل أبو هريرة على أن أطفال الكفار لا يعذبون حتى يمتحنوا في الآخرة²

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان

قال تعالى **{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16** و أن المنكرين لكونه يحب من الجهمية و من و افقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة و لا رحمة يقتضي أنه لا يحمد فهم إنما يصفونه بالقدرة و القهر و هذا إنما يقتضى الإجلال فقط لا يقتضى الإكرام و المحبة و الحمد و هو سبحانه الأكرم قال

¹رسالة في التوبة ج: 1 ص: 244

²الصفدية ج: 2 ص: 244

تعالى { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } {12} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ {13} البروج 12-13 ثم قال { وَهُوَ الْعَفْوَ الْوَدُودُ } {14} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ {15} فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ {16} البروج 14-16 و قال شعيب { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } هود 90 وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق و بأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقا مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقا لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة و إن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ثم يلحدون في أسمائه و يحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون الحكمة هي القدرة و تارة يقولون هي المشيئة و تارة يقولون هي العلم و أن الحكمة و إن تضمنت ذلك و استلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادر أو مريدا كان حكيما و لا كل من كان له علم يكون حكيما حتى يكون عاملا بعلمه قال ابن قتيبة و غيره الحكمة هي العلم و العمل به و هي أيضا القول الصواب فتتناول القول السديد و العمل المستقيم الصالح و الرب تعالى أحكم الحاكمين و أحكم الحكماء و الأحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه و هم مع سائر الطوائف يستدلون بالأحكام على العلم و إنما يدل إذا كان الفاعل حكيما يفعل لحكمة و هم يقولون إنه لا يفعل لحكمة و إنما يفعل بمشيئة تخص أحد المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص و هذا مناقض للحكمة بل هذا سفه و هو قد نزه نفسه عنه في قوله { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ } {17} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } {18} الأنبياء 17-18 وقد أخبر أنه إنما خلق السموات و الأرض و ما بينهما بالحق و أنه لم يخلقها باطلا و أن ذلك ظن الذين كفروا و قال { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } المؤمنون 115 و قال { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } القيامة 36 أي مهملا لا يؤمر و لا ينهى و هذا إستفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب و الجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه و لا تنزهه عن فعل و إن كان من منكرات الأفعال و لا تتعته بلوازم كرمه و رحمته و حكمته و عدله فيعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك و لا يفعل ما يضاد ذلك بل تجوز كل مقدور أن يكون و أن لا يكون و إنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعي أو عادة مطردة مع تناقضهم في الإستدلال بالخبر أخبار الرسل و عادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء و على إرسال الرسل و الأمر و النهي و على المعاد و نحو ذلك مما يتعلق بأفعاله و أحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته و عن رحمته و مشيئته مستلزمة لهذا و هذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فهم في الحقيقة لا يقرون بأنه الأكرم و الإرادة التي يثبتونها لم يدل عليها سمع و لا عقل فإنه لا تعرف إرادة ترجح مرادا على مراد بلا سبب يقتضي الترجيح و من قال من الجهمية و المعتزلة إن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح فهو مكابر و تمثيلهم ذلك بالجائع إذا أخذ أحد الرغيفين و الهارب إذا سلك أحد الطريقين حجة عليهم فإن ذلك لا يقع إلا مع رجحان أحدهما إما لكونه أيسر في القدرة و إما لأنه الذي خطر بباله و تصوره أو ظن أنه أنفع فلا بد من رجحان أحدهما بنوع ما إما من جهة القدرة و إما من جهة التصور و الشعور و حينئذ يرجح إرادته و الآخر لم يرده فكيف يقال أن إرادته رجحت أحدهما بلا مرجح أو أنه رجح إرادة هذا على إرادة ذلك بلا مرجح و هذا ممتنع يعرف إمتناعه من تصوره حق التصور و لكن لما تكلموا في مبدأ الخلق بكلام إبتدعوه خالفوا به الشرع و العقل إحتاجوا إلى هذه المكابرة كما قد بسط في غير هذا الموضوع و بذلك تسلط عليهم الفلاسفة من جهة أخرى فلا للإسلام نصروا و لا للفلاسفة كسروا و معلوم بصريح العقل أن القادر إذا لم يكن مريدا للفعل و لا فاعلا ثم صار مريدا فاعلا فلا بد من حدوث أمر إقتضي ذلك و الكلام هنا في مقامين أحدهما في جنس الفعل و القول هل صار فاعلا

متكلما بمشيئته بعد أن لم يكن أو ما زال فاعلا متكلما بمشيئته و هذا مبسوط في مسائل الكلام و الأفعال في مسألة القرآن و حدوث العالم و الثاني إرادة الشيء المعين و فعله كقوله تعالى { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 و قوله { فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا } الكهف 82 و قوله { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16 و قوله { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ } الرعد 11 و قوله { وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } يونس 107 و قوله { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ } الزمر 38 و هو سبحانه إذا أراد شيئا من ذلك فللناس فيها أقوال قيل الإرادة قديمة أزلية و احدة و إنما يتجدد تعلقها بالمراد ونسبتها إلى الجميع واحدة و لكن من خواص الإرادة أنها تخصص بلا مخصص فهذا قول ابن كلاب و الأشعري و من تابعهما و كثير من العقلاء يقول إن هذا فساده معلوم بالإضطرار حتى قال أبو البركات ليس في العقلاء من قال بهذا و ما علم أنه قول طائفة كبيرة من أهل النظر و الكلام و بطلانه من جهات من جهة جعل إرادة هذا غير إرادة ذلك و من جهة أنه جعل الإرادة تخصص لذاتها و من جهة أنه لم يجعل عند وجود الحوادث شيئا حدث حتى تخصص أو لا تخصص بل تجددت نسبة عدمية ليست و جودا و هذا ليس بشيء فلم يتجدد شيء فصارت الحوادث تحدث و تتخصص بلا سبب حادث و لا مخصص و القول الثاني قول من يقول بإرادة واحدة قديمة مثل هؤلاء لكن يقول تحدث عند تجدد الأفعال إرادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة كما تقوله الكرامية و غيرهم و هؤلاء أقرب من حيث أثبتوا إرادات الأفعال و لكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث و تخصيصات بلا مخصص و جعلوا تلك الإرادة واحدة تتعلق بجميع الإرادات الحادثة و جعلوها أيضا تخصص لذاتها و لم يجعلوا عند وجود الإردات الحادثة شيئا حدث حتى تخصص تلك الإرادات الحوادث و القول الثالث قول الجهمية و المعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة أو يفسرونها بنفس الأمر و الفعل أو يقولوا بحدوث إرادة لا في محل كقول البصريين و كل هذه الأقول قد علم أيضا فسادها و القول الرابع أنه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة فنوع الإرادة قديم و أما إرادة الشيء المعين فإنما يريد في وقته و هو سبحانه يقدر الأشياء و يكتبها ثم بعد ذلك يخلقها فهو إذا قدرها علم ما سيفعله و أراد فعله في الوقت المستقبل لكن لم يرد فعله في تلك الحال فإذا جاء وقته أراد فعله فالأول عزم و الثاني قصد و هل يجوز و صفه بالعزم فيه قولان أحدهما المنع كقول القاضي أبي بكر و القاضي أبي يعلى و الثاني الجواز و هو أصح فقد قرأ جماعة من السلف { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } آل عمران 159 بالضم و في الحديث الصحيح من حديث أم سلمة ثم عزم الله لي و كذلك في خطبة مسلم فعزم لي و سواء سمي عزما أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها و أراد أن يفعلها في وقتها فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعين و نفس الفعل و لا بد من علمه بما يفعله ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله و علمه بأن قد فعله هل هو الأول فيه قولان معروفان و العقل و القرآن يدل على أنه قدر زائد كما قال أنعلم في بضعة عشر موضعا و قال ابن عباس إلا لنرى و حينئذ إرادة المعين تترجح لعلمه بما في المعين من المعنى المرجح لإرادته فالإرادة تتبع العلم و كون ذلك المعين متصفا بتلك الصفات المرجحة إنما هو في العلم و التصور ليس في الخارج شيء و من هنا غلط من قال المعدوم شيء حيث أثبتوا ذلك المراد في الخارج و من لم يثبت شيئا في العلم أو كان ليس عنده إلا إرادة واحدة و علم واحد ليس للمعلومات و المرادات صورة علمية عند هؤلاء فهؤلاء نفوا كونه شيئا في العلم و الإرادة و أولئك أثبتوا كونه شيئا

في الخارج وتلك الصورة العلمية الإرادية حدثت بعد أن لم تكن و هي حادثة بمشيتها و قدرته كما يحدث الحوادث المنفصلة بمشيتها و قدرته فيقدر ما يفعله ثم يفعله فتخصيصها بصفة دون صفة و قدر دون قدر هو للأمر المقتضية لذلك في نفسه فلا يريد إلا ما تقتضي نفسه إرادته بمعنى يقتضي ذلك و لا يرجح مرادا على مراد إلا لذلك و لا يجوز أن يرجح شيئا لمجرد كونه قادر فإنه كان قادرا قبل إرادته و هو قادر على غيره فتخصيص هذا بالإرادة لا يكون بالقدرة المشتركة بينه و بين غيره و لا يجوز أيضا أن تكون الإرادة تخصص مثلا على مثل بلا مخصص بل إنما يريد المرید حد الشيين دون الآخر لمعنى في المرید و المراد لا بد أن يكون المرید إلى ذلك أميل و أن يكون في المراد ما أوجب رجحان ذلك الميل و القرآن و السنة تثبت القدر و تقدير الأمور قيل أن يخلقها و أن ذلك في كتاب و هذا أصل عظيم يثبت العلم و الإرادة لكل ما سيكون و يزيل إشكالات كثيرة ضل بسببها طوائف في هذا المكان في مسائل العلم و الإرادة فالإيمان بالقدر من أصول الإيمان كما ذكره النبي صلى الله عليه و سلم في حديث جبريل قال الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و بالبعث بعد الموت و تؤمن بالقدر خيره و شره و قد تبرأ ابن عمر و غيره من الصحابة من المكذبين بالقدر و مع هذا فطائفة من أهل الكلام و غيرهم لا تثبت القدر إلا علما أزليا و إرادة أزلية فقط و إذا أثبتوا الكتابة قالوا إنها كتابة لبعض ذلك و أما من يقول إنه قدرها حينئذ كما في صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء فقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضوع¹

الأمر الشرعي غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية

قال تعالى { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16 والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة من الكلمات و الأمر و الإرادة و الأذن و الكتاب و الحكم و القضاء و التحريم و نحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله و رضاه و أمره الشرعي و ما هو كوني موافق لمشيته الكونية مثال ذلك انه قال في الأمر الديني وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء 58 ونحو ذلك وكذلك قوله { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16 إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن و بالإيمان بين أمره الديني و خلقه الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء و رب كل شيء و مليكه سواء في ذلك الذوات و صفاتها و أفعالها و ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيته شيء و لا يكون شيء الا بمشيته و قد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات و بين من اتبع كلماته الدينيات و ذلك في أمره و إرادته و قضائه و حكمه و إذنه و بعثه و إرساله فقال في الأمر الديني الشرعي { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا } النساء 58 وقال { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ } النحل 90 وقال في الأمر الكوني القدرى { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا } الإسراء 16 على احدى الاقوال في هذه الاية وقال { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 297-306

{يس 82 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزمًا للإرادة الدينية الشرعية¹

الصفات الاختيارية

والصفات الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فنقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلا كلامه وسمعه وبصره واراادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التي تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جدا وكذلك في الارادة و المحبة كقوله تعالى {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} {الإسراء 16} وامثال ذلك في القرآن العزيز فان جواز الفعل المضارع ونواصبه تخلصه للاستقبال مثل إن و أن وكذلك اذا طرف للمستقبل من الزمان فقوله اذا اراد و ان شاء الله ونحو ذلك يقتضى حصول ارادة مستقبله ومشيئة مستقبله²

وقد حكى القولين عن اهل السنة في الارادة والسمع والبصر ابو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبى في كتاب فهم القرآن فتكلم على قوله { حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ } {محمد 31} ونحوه وبين ان علم الله قديم وانما يحدث المعلوم الى ان قال وذلك موجود فينا ونحن جهال و علمنا يحدث قد نعلم ان كل انسان ميت فكلما مات انسان قلنا قد علمنا انه قد مات من غير ان نكون من قبل موته جاهلين انه سيموت الا انا قد يحدث لنا اللحظ من الرؤية وحركة القلب اذا نظرنا اليه ميتا لأنه ميت والله لا تحدث فيه الحوادث الى ان قال وكذلك قوله { لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ } {الفتح 27} وقوله {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً} {الإسراء 16} وقوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} {يس 82} وليس ذلك منه ببديء الحوادث إرادة حدثت له ولا ان يستأنف مشيئة لم تكن له وذلك فعل الجاهل بالعواقب الذي يريد الشيء وهو لا يعلم العواقب فلم يزل يريد ما يعلم أنه يكون لم يستحدث ارادة لم تكن لأن الارادات انما تحدث على قدر ما يعلم المريد واما من لم يزل يعلم ما يكون وما لا يكون من خير وشر فقد أراد ما علم على ما علم لا يحدث له بدو اذ كان لا يحدث فيه علم به قال أبو عبدالله الحارث وقد تأول بعض من يدعى السنة وبعض اهل البدع ذلك على الحوادث فأما من ادعى السنة فاراد اثبات القدر فقال ارادة الله اى حدث من تقديره سابق الارادة واما بعض اهل البدع فزعموا ان الارادة انما هي خلق حادث وليست مخلوقة ولكن بها الله كون المخلوقين قال فزعمت ان الخلق غير المخلوقين وان الخلق هو الارادة وانها ليست بصفة لله من نفسه وجل ان يكون شيء حدث بغير ارادة منه وجل عن البدوات وتقلب الارادات ثم تكلم على ان الحادث هو وقت

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 411 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 46 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 151 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 46 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 39

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 225

المراد لا نفس الارادة كقولهم متى تريد ان اجيء الى ان قال وكذلك قوله {إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} الشعراء15 ليس معناه ان يحدث لنا سمعا ولا تكلف بسمع ما كان من قولهم قال وقد ذهب قوم من اهل السنة ان الله استماعا حادثا في ذاته فذهب الى ما يعقل من الخلق أنه يحدث منهم على سمع لما كان من قول عمن سمعه للقول لأن المخلوق اذا سمع الشيء حدث له عقد فهم عما ادركته اذنه من الصوت وكذلك قوله {فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} التوبة105 لا يستحدث بصرا ولا لحظا محدثا في ذاته وانما يحدث الشيء فيراه مكونا كما لم يزل يعلمه قبل كونه لا يغادر شيئا ولا يخفى عليه منه خافية وكذلك قال بعضهم ان رؤية تحدث وقال قوم انما معنى {سَيَرَىٰ} التوبة105 و {إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} الشعراء15 انما المسموع والمبصر لم يخف على عيني ولا على سمعي ان أدركه سمعا وبصرا لا بالحوادث في الله قال أبو عبدالله ومن ذهب الى انه يحدث الله استماع مع حدوث المسموع وإبصار مع حدوث المبصر فقد زاد على الله ما لم يقل وانما على العباد التسليم لما قال الله { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الإسراء1 ولا نزيد ما لم يقل وانما معنى ذلك كما قال تعالى { حَتَّىٰ نَعْلَمَ } محمد31 حتى يكون المعلوم وكذلك حتى يكون المبصر والمسموع فلا يخفى على ان يعلمه موجودا ويسمعه موجودا كما علمه بغير حادث في علم الله ولا بصر ولا سمع ولا معنى حدث في ذات الله تعالى عن الحوادث في نفسه

قال تعالى { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء16¹

أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم

قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء17

ومن الطريق الطرق الواضحة القاطعة المعلومة إلى قيام الساعة بالتواتر من أحوال إتباع الأنبياء وأحوال من كذبهم وكفر بهم حال نوح وقومه وهود وقومه وصالح وقومه وحال إبراهيم وقومه وحال موسى وفرعون وحال محمد وقومه وهذا الطريق قد بينها الله في غير موضع من كتابه

كقوله { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ } غافر5 إلى قوله { فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } غافر5 وقال { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ } 42 { وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ } 43 { وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى } 44 { الْحَجَّ 42-44 } إلى قوله { 44 } { فَكَايِنَ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ } 45 { الْحَجَّ 45 } إلى قوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } 46 { الْحَجَّ 46 } وقوله { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ } 137 { وَيَاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } 138 { الصافات 137-138 } وقال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } الحجر75 فبين أنه تارك آثار القوم المعذبين للمشاهدة ويستدل بذلك على عقوبة الله لهم وقال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ } الإسراء17 فذكر طريقتين يعلم بهما ذلك أحدهما ما يعاين ويعقل بالقلوب والثاني ما يسمع فإنه قد تواتر عند كل أحد حال الأنبياء ومصدهم ومكذبهم وعابنوا من آثارهم ما دل على

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 181-183

أنه سبحانه عاقب مكذبكم وانتقم منهم وأنهم كانوا على الحق الذي يحبه ويرضاه وأن من كذبهم كان على الباطل الذي يغضب الله على أهله وإن طاعة الرسل طاعة الله ومعصيتهم معصية الله¹

الله سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر وقد يجيب دعاءهم

قال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } {18} { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } {19} { كَلَّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } {20} { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } {21} {الإسراء 18-21}

وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } البقرة 186 وقد روى أن بعض الصحابة قال يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله هذه الآية فأخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ثم أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به كما قال بعضهم فليستجيبوا لي إذا دعوتهم وليؤمنوا بي إذا دعوتهم قالوا وبهذين الشيتين تحصل إجابة الدعوة بكمال الطاعة لألوهيته وبصحة الإيمان بربوبيته فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه حصل مقصوده من الدعاء وأجيب دعاؤه كما قال تعالى { وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ } الشورى 26 أي يستجيب لهم يقال استجاب واستجاب له فمن دعاه موقنا أن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه أجابه وقد يكون مشركا وفاسقا فإنه سبحانه هو القائل { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } يونس 12 وهو القائل سبحانه { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {الإسراء 67} وهو القائل سبحانه { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {40} { بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } {41} { الأنعام 40-41} ولكن هؤلاء الذين يستجاب لهم لإقرارهم بربوبيته وأنه يجيب دعاء المضطر إذا دعاه إذا لم يكونوا مخلصين له الدين في عبادته ولا مطيعين له

ولرسوله كان ما يعطيهم بدعائهم متاعا في الحياة الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق وقال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } {18} { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } {19} { كَلَّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } {20} {الإسراء 18-20} وقد دعا الخليل عليه الصلاة والسلام بالرزق لأهل الإيمان فقال { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } البقرة 126 فقال الله تعالى { وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } البقرة 126 فليس كل من متعه الله برزق ونصر إما إجابة لدعائه وإما بدون ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 214

يكون ممن يحبه الله ويواليه بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤلهم في الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق¹

فمن لم يرد الدار الآخرة قولاً وعملاً وإيثاراً ومحبة فلا خلاق له في الآخرة

قال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } 18 { وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } 19 { كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } 20 { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } 21 { الإسراء 18-21

فان الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه واما بترك المنهى عنه الذى يسميه بعض الناس ورعا فانه اذا ترك السيئات لغير وجه الله لم يثب عليها وان لم يعاقب عليها وان تركها لوجه الله اثيب عليها ولا يكون ذلك الا بما يقوم بقلبه من رجاء رحمة الله أو خشية عذابه ورجاء رحمة وخشية عذابه من الامور الوجودية المأمور بها فتبين ان الورع لا يكون عملاً صالحاً الا بفعل المأمور به من الرجاء والخشية والا فمجرد الترك العدمى لا ثواب فيه واما الزهد الذى هو ضد الرغبة فانما يحمد حمدا مطلقا وتذم الرغبة لترك العمل للآخرة قال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوفًا لِلْيَوْمِ الْعَمَلُ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ } 15 { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 16 { هود 15-16 وقال { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ } الشورى 20 وقال { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } الإسراء 18 فمن لم يرد الدار الآخرة قولاً وعملاً وإيثاراً ومحبة ورغبة وانابة فلا خلاق له فى الآخرة ولا فائدة له فى الدار الدنيا بل هو كافر ملعون مشتت معذب لكن قد ينتفع بزهد فى الدنيا بنوع من الراحة العاجلة وهو زهد غير مشروع وقد يستضر بما يفوته من لذات الدنيا وان كان غير زاهد فلا راحة له فى هذا فمن زهد لطلب راحة الدنيا او رغب لطلب لذاتها لم كن واحد منهما فى عمل صالح ولا هو محمود فى الشرع على ذلك ولكن قد يترجح هذا تارة وهذا تارة فى مصلحة الدنيا كما تترجح صناعة على صناعة وتجارة على تجارة وذلك ان لذات الدنيا لا تنال غالباً الا بنوع من التعب فقد تترجح تارة لذة الترك على تعب الطلب وقد يترجح تعب الطلب على لذة الترك فلا حمد على ترك الدنيا لغير عمل الآخرة كما لا حمد لطلبها لغير عمل الآخرة فثبت ان مجرد الزهد فى الدنيا لا حمد فيه كما لا حمد على الرغبة فيها وانما الحمد على ارادة الله والدار الآخرة والذم على ارادة الدنيا المانعة من ارادة ذلك كما تقدم وكما فى قوله تعالى { إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أَمْتَعَنَّ وَأَسْرَحُكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا } 28 { وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا } 29 { الأحزاب 28-29 ولهذا جرت عادة اهل المعرفة بتسمية هذا الطالب المرید فان أول الخير ارادة الله ورسوله والدار الآخرة ولهذا قال النبى انما الاعمال بالنيات²

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 413

² مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 145-146

أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا

قال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا {18} وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا {19} كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا {20} انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا {21} الإسراء 18-21

ومن الناس من يؤمن بالرسول ايمانا مجملا واما الايمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن بما بلغه عن الرسل وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به ولكن آمن بما جاءت به الرسل ايمانا مجملا فهذا اذا عمل بما علم ان الله امره به مع ايمانه وتقواه فهو من اولياء الله تعالى له من ولاية الله بحسب ايمانه وتقواه وما لم تقم عليه الحجة فان الله تعالى لم يكلفه معرفته والايمان المفصل به فلا يعذبه على تركه لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاتته من ذلك فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به ايمانا مفصلا وعمل به فهو أكمل ايمانا وولاية الله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به وكلاهما ولى الله تعالى والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما واولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب ايمانهم وتقواهم قال تبارك وتعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا {18} وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا {19} كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا {20} انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا {21} الإسراء 18-21 فبين الله سبحانه وتعالى انه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وان عطاءه ما كان محظورا من بر ولا فاجر ثم قال تعالى { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا {21} الإسراء 21 فبين الله سبحانه ان أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وان درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل انبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ { البقرة 253} وقال تعالى { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا { الإسراء 55} وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفي الصحيحين عن ابي هريرة وعمر بن العاص رضى الله عنهما عن النبي انه قال إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر وقد قال الله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ { الحديد 10} وقال تعالى { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَىٰ الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا {95} دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا {96} النساء 95-96

وقال تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {19} الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} {20} يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} {21} خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {22} التوبة 19-22 وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ} {الزمر 9} وقال تعالى {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {المجادلة 11} ¹

الإرادة هي الفارقة بين اهل الجنة واهل النار

فإن الحي لا بد له من ارادة فلا يمكن حيا أن لا تكون له إرادة فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر إستحباب لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له والله تعالى وصف الأنبياء والصدقيين بهذه الإرادة فقال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} {الأنعام 52} وقال تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} {الإسراء 19} ²

واما كون الانسان مريدا لما امر به او كارها له فهذا لا تلتفت اليه الشرائع بل ولا امر عاقل بل الانسان مامورا بمخالفة هواه و الإرادة هي الفارقة بين اهل الجنة واهل النار كما قال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا} {18} {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} {الإسراء 18-19} وقال تعالى {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} {القصص 83} وقال تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} {هود 15} الآية وقال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} {الأنعام 52} ³

فإن الإرادة الجازمة هي التي يقترن بها المقذور من الفعل وإلا فمتى لم يقترن بها المقذور من الفعل لم تكن جازمة فالمريد الزنا و السرقة و شرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ومثل نظر الزاني وإستماعه إلى المزني به وتكلمه معه ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقذور بل

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 187

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 495

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 347

مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه كما قال النبي في الحديث المتفق عليه العيان
ترنيان وزناهما النظر واللسان يزني وزناه النطق واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها
المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وكذلك حديث أبي بكر المتفق عليه
إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال
أنه أراد قتل صاحبه وفي رواية في الصحيحين أنه كان حريصا على قتل صاحبه فإنه أراد
ذلك إرادة جازمة فعل معها مقدوره منعه منها من قتل صاحبه العجز وليست مجرد هم ولا مجرد
عزم على فعل مستقبل فاستحق حينئذ النار كما قدمنا من ان الإرادة الجازمة التي أتى معها بالممكن
يجرى صاحبها مجرى الفاعل التام و الإرادة التامة قد ذكرنا انه لا بد أن يأتي معها
بالمقدور أو بعضه وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما
ترك مع القدرة مثل الذي يأتي بمقدمات الزنا من اللمس والنظر والقبلة ويمتنع عن الفاحشة الكبرى
ولهذا قال في حديث أبي هريرة الصحيح العين تزني والأذن تزني واللسان يزني إلى أن قال
والقلب يتمنى ويشتهي أي يتمنى الوطء ويشتهي ولم يقل يريد ومجرد الشهوة والتمنى ليس
إرادة جازمة ولا يستلزم وجود الفعل فلا يعاقب على ذلك وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة
والإرادة الجازمة التي يصدقها الفرغ ومن هذا الحديث الذي في الصحيحين عن ابن مسعود
أن رجلا اصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله فذكر ذلك له فأنزل الله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي
النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هود 114 الآية فقال الرجل إلى هذه فقال لمن
عمل بها من أمتي فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد في الغالب أن يهيم بما هو أكبر من ذلك كما قال
والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة
فإقترن بها فعل القبلة القدريّة وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة وقد تكون جازمة لكن لم يكن
قادرا والأشبه في الذي نزلت فيه الآية انه كان متمكنا لكنه لم يفعل فتفرق احمد وغيره بين هم
الخطرات وهم الإصرار هو الذي عليه الجواب فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما
يقدر عليه من مقدماته وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر ولهذا قال ابن المبارك
المصر الذي يشرب الخمر اليوم ثم لا يشربها إلى شهر وفي رواية إلى ثلاثين سنة ومن نيته أنه إذا
قدر على شربها شربها وقد يكون مصرا إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت كمن يعزم على
ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره فليس هذا بتائب مطلقا ولكنه تارك للفعل في شهر
رمضان ويثاب إذا كان ذلك التارك لله وتعظيم شعائر الله وإجتناح محارمه في ذلك الوقت ولكنه ليس
من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة ولا هو مصر مطلقا وأما الذي وصفه ابن المبارك
فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها قلت والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من
نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضا لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها غير النية مع
وجود القدرة فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ولكن متى كان مريدا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز
فهو معاقب على ذلك كما تقدم وتقدم ان مثل هذا لا بد ان يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه
وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبى أنه حكى الإجماع على ان النوى للفعل ليس بمنزلة
الفاعل له فهذا الإجماع صحيح مع القدرة فإن النوى للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل وأما
النوى الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام كما تقدم ومما يوضح هذا أن الله سبحانه
في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ جَعَلْنَا لَهُ
فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا} الإسراء 18 وقال {مَنْ كَانَ
يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نُوفًا إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ} 15 {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ} هود 16-15 وقال {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ

كَانَ يُرِيدُ حَرَبَ الدُّنْيَا نُوتَهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ { الشورى 20 فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة ويريد الحياة الدنيا ويريد حرب الدنيا وقال فى آية هود { نُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا } هود 15 إلى أن قال { وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } { 16 } هود 16 فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها وإن الإرادة هنا مستلزمة للعمل ولما ذكر إرادة الآخرة قال { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ } { الإسراء 19 } وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به لا كل سعى ولا بد مع ذلك من الإيمان ومنه قوله { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا } { الأحزاب 28 الآية } { وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ } { الأحزاب 29 } فهذا نظير تلك الآية التى فى سورة هود وهذا يطابق قوله إذا التقى المسلمان بسيفيهما إلا أنه قال فإنه أراد قتل صاحبه أو أنه كان حريصا على قتل صاحبه فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لا بد أن يقترن به فعل وليس هذا مما دخل فى حديث العفو إن الله عفا لأمته عما حدثت به أنفسها ومما بينى على هذا مسألة معروفة بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية هى توبة العاجز عن الفعل كتوبة المحبوب عن الزنا وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ونحوه من العجز فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم وخالف فى ذلك بعض القدرية بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل بل يعاقب على تركه وليس كذلك بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا وبيننا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجرى مجرى الفاعل التام فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباحة اسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل كإصرار العاجز عن كمال الفعل ومما بينى على هذا المسألة المشهورة فى الطلاق وهو أنه لو طلق فى نفسه وجزم بذلك ولم يتكلم به فإنه يقع به الطلاق عند جمهور العلماء وعند مالك فى إحدى الروايتين يقع وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله إن الله تجاوز لأمته عما حدثت به أنفسها فقال المنازع هذا المتجاوز عنه إنما هو حديث النفس والجازم بذلك فى النفس ليس من حديث النفس فقال المنازع لهم قد قال ما لم تكلم به أو تعمل به فأخبر أن التجاوز عن حديث النفس إمتد إلى هذه الغاية التى هى الكلام به والعمل به كما ذكر ذلك فى صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن فإنه لو كان حديث النفس إذا صار عزمًا ولم يتكلم به أو يعمل يؤاخذ به لكان خلاف النص لكن يقال هذا فى المأمور صاحب المقدرة التى يمكن فيها الكلام والعمل إذا لم يتكلم ولم يعمل وأما الإرادة الجازمة المأتى فيها بالمقدور فتجرى مجرى التى أتى معها بكمال العمل بدليل الأخرس لما كان عاجزا عن الكلام وقد يكون عاجزا عن العمل باليدين ونحوهما لكنه إذا أتى بمبلغ طاقته من الإشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره والأحكام والثواب والعقاب وغير ذلك وأما الوجه الآخر الذى إحتج به وهو أن العزم والهيم داخل فى حديث النفس المعفو عنه مطلقا فليس كذلك بل إذا قيل إن الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقاب وغير ذلك يصح ذلك فإن المراد إن كان مقدورا مع الإرادة الجازمة وجب وجوده وإن كان ممتنعا فلا بد مع الإرادة الجازمة من فعل بعض مقدماته وحيث لم يوجد فعل أصلا فهو هم وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجيء فى النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولًا وفعلاً وحينئذ قوله إن الله تجاوز لأمته الحديث حق والمواخذة بالإرادات المستلزمة لأعمال الجوارح حق ولكن طائفة من الناس قالوا إن الإرادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول ثم تنازعوا فى العقاب عليها فكان القاضى أبو بكر ومن تبعه كابى حامد وابى الفرج ابن

الجوزى يرون العقوبة على ذلك وليس معهم دليل على أنه يؤاخذ إذا لم يكن هناك قول أو عمل والقاضى بناها على اصله فى الإيمان الذى إتبع فيه جهما والصالحي وهو المشهور عن أبى الحسن الأشعري وهو ان الإيمان مجرد تصديق القلب ولو كذب بلسانه وسب الله ورسوله بلسانه وإن سب الله ورسوله إنما هو كفر فى الظاهر وأن كلما كان كفرا فى نفس الأمر فإنه يمتنع أن يكون معه شىء من تصديق القلب وهذا اصل فاسد فى الشرع والعقل حتى أن الأئمة كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبى عبيدة وغيرهم كفروا من قال فى الإيمان بهذا القول بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون هو تصديق القلب واللسان فإن هؤلاء لم يكفروهم أحد من الأئمة وإنما بدعوههم وقد بسط الكلام فى الإيمان وما يتعلق بذلك فى غير هذا الموضوع وبين أن من الناس من يعتقد وجود الأشياء بدون لوازمها فيفقد مالا وجود له

وأصل جهم فى الإيمان تضمن غلطا من وجوه منها ظنه انه مجرد تصديق القلب ومعرفته بدون أعمال القلب كحب الله وخشيته ونحو ذلك و منها ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده فى النار فإنه يمتنع أن يكون فى قلبه شىء من التصديق وجزموا بأن إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن فى قلوبهم شىء من ذلك وهذا كلامهم فى الإرادة والكراهة والحب والبغض ونحو ذلك فإن هذه الأمور إذا كانت هما وحديث نفس فإنه معفو عنها وإذا صارت إرادة جازمة وحباً وبغضاً لزم وجود الفعل ووقوعه وحينئذ فليس لأحد أن يقدر وجودها مجردة ثم يقول ليس فيها إثم وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل فإن الأمة مجمعة على أن الله يثيب على محبته ومحبة رسوله والحب فيه والبغض فيه ويعاقب على بغضه وبغض رسوله وبغض أوليائه وعلى محبة الأنداد من دونه وما يدخل فى هذه المحبة من الإرادات والعزوم فإن المحبة سواء كانت نوعاً من الإرادة أو نوعاً آخر مستلزماً للإرادة فلا بد معها من إرادة وعزم فلا يقال هذا من حديث النفس المعفو عنه بل كما جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين وفى صحيح البخارى عن عبدالله بن هشام قال كنا مع رسول الله وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى فقال النبى لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فإنك الآن أحب إلى من نفسى فقال النبى الآن يا عمر بل قد قال تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} التوبة 24 فإنظر إلى هذا الوعيد الشديد الذى قد توعد الله به من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فعلم أنه يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إلى المؤمن من الأهل والمال والمسكن والمتاجر والأصحاب والأخوان وإلا لم يكن مؤمناً حقاً ومثل هذا ما فى الصحيحين عن انس قال قال رسول الله لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله وحتى يقذف فى النار أحب إليه من ان يرجع فى الكفر وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وهذا لفظ البخارى فأخبر أنه لا يجد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث أحدها أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما وهذا من اصول الإيمان المفروضة التى لا يكون العبد مؤمناً بدونها الثانى أن يحب العبد لا يحبه إلا الله وهذا من لوازم الأول والثالث أن يكون القأوه فى النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقة فى التوبة هذه الخصال محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالإرادة المتعلقة بأفعالنا فهي مستلزمة لذلك فإن من كان الله ورسوله أحب

إليه من نفسه وأهله وماله لا بد والموادة من أعمال القلوب فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم العزم والعقاب لأجل عدم الإيمان فإن ما ناقض الإيمان كالشك والاعراض وردة القلب وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الله به ورسوله فإستحق تاركه الذم والعقاب وأعظم الواجبات إيمان القلب فما ناقضه إستلزم الذم والعقاب لتركه هذا الواجب بخلاف ما إستحق الذم لكونه منهيًا عنه كالفواحش والظلم فإن هذا هو الذى يتكلم فى الهم به وقصده إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان وإن كان يناقض كماله بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصى ونفس ترك المعاصى يتضمن فعل الطاعات ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فالصلاة تضمنت شيئين أحدهما نهيها عن الذنوب و الثانى تضمنها ذكر الله وهو أكبر الأمرين فما فيها من ذكر الله أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر و لبسط هذا موضع آخر و المقصود هنا إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء فى الحديث الذى فى الترمذى من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله و دل ذلك على كمال الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان فى قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر فى بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } البقرة 165 ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إقترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فىبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن إستعذنى لأعيزنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهو لأ الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما إستعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة 93 وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وقوله { كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } 20 { وَتَذَرُونَ } الأخرى { 21 } القيامة 20- 21 وقوله { يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا } الإنسان 27 وقوله { إِن تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } آل عمران 120 وقوله { وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } الزمر 45 وقوله { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } الحج 72 وقوله { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ

إِيمَانِكُمْ كَفَّاراً حَسِداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ { البقرة 109 وقوله { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ { البقرة 105 وقوله { وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ
الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ { الأنفال 7 وقوله { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ { التوبة 54 وقوله { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ { محمد 9 وقوله { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا { التوبة 124 الآية وقوله { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن
يُبْكَرُ بَعْضُهُ { الرعد 36 وقوله { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } { يونس 58 وقال {
إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ { القصص 76 وقال { ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ { غافر 75 وقال { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ
{ لقمان 18 وقال { وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا { الشورى 48 وقال { 8 } وَلَئِن
أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورًا { 9 } وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا { 10 } إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا { 11 } هود 9-11 وقال { وَتَحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا { الفجر 20 وقال { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ { 6 } وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ { 7 } وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ { 8 } العاديات 6-8 وقال { وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ { يوسف 87 وقال { وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ { الحجر 56 وقال { وَذَلِكُمْ
ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ { فصلت 23 وقال { بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ
يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَّ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا
{ الفتح 12 وقال { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ { النساء 54 وقال { وَمِنْ شَرِّ
حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ { الفلق 5 وقال { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا { الحشر 9 وقال {
لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ { 118 } هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
{ 119 } آل عمران 118-119 وقال { إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْغَانَكُمْ { محمد 37
وقال { إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ { 9 } وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ { 10 } العاديات 9-10 وقال { فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا { البقرة 10 وقال { فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ { الأحزاب 32
وقال { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ { الأنفال 49 وقال { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ
اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ { المائدة 41 وقال { قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ { يونس 57 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد
ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب واعمالها مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه لا
تباغضوا ولا تحاسدوا وقوله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه وقوله
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالحوى والسهر وقوله لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر و لا
يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان وقوله لا تسموا العنب الكرم وإنما الكرم قلب
المؤمن وأمثال هذا كثير بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه
من ذلك ما يحصل به مدح و ذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترب به ذلك
إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه
فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام أحدها ما هو حسنة وسيئة
بنفسه و ثانيها ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل وهو السيئة المقدورة كما تقدم و ثالثها
ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة كما تقدم

فالقسم الأول هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب والحب والبغض وتوابع ذلك فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب وعلو الدرجات وأسفل الدرجات بما يكون في القلوب من هذه الأمور وإن لم يظهر على الجوارح بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض وإن كان ذلك قد يقترب به أحياناً بغض القول والفعل لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} محمد 30 فأخبر أنهم لا بد أن يعرفوا في لحن القول وأما القسم الثاني والثالث فمظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان مثل المعاصي الطبيعية مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر كما ثبت في الصحاح عن النبي انه قال من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق وإن شرب الخمر وكما شهد النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح للرجل كان يكثر شرب الخمر وكان يجلده كلما جاء به فلغنه رجل فقال لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله وفي رواية قال بعضهم أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به في شرب الخمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم وهذا في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ولهذا قال إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي لا تقدر في الإيمان فأما ما نافي الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث لأنه إذا نافي الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد في الحقيقة ويكون بمنزلة المنافقين فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله وهذا فرق بين يدل عليه الحديث وبه تألف الأدلة الشرعية وهذا كما عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان كما دل عليه الكتاب والسنة فمن صح إيمانه عفى له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس كما يخرجون من النار بخلاف من ليس معه الإيمان فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه ولهذا جاء نية المؤمن خير من عمله هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب الأمثال من مراسيل ثابت البناني وقد ذكره ابن القيم في النية من طريق عن النبي ثم ضعفها فإله أعلم فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجرد ما تجرى مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة وذلك لا يكون إلا قليلاً ولهذا قال بعض السلف قوة المؤمن في قلبه وضعفه في بدنه وقوة المنافق في بدنه وضعفه في قلبه وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى { وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } البقرة 284 وهذه الآية وإن كان قد قال طائفة من السلف أنها منسوخة كما روى البخاري في صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن عمر أنها نسخت فالتسخ في لسان السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين يريدون به رفع الدلالة مطلقاً وإن كان تخصيصاً للعام أو تقييداً للمطلق وغير ذلك كما هو معروف في عرفهم وقد أنكر آخرون نسخها لعدم دليل ذلك وزعم قوم أن ذلك خبر والخبر لا ينسخ ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي كالخبر الذي بمعنى الأمر والنهي والقائلون بنسخها يجعلون النسخ لها الآية التي بعدها وهي قوله {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} البقرة 286 كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس في هذه الآية فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة ما لم يتكلم به أو يعملوا به ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه كما روى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه و حقيقة الأمر أن قوله سبحانه { وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ } البقرة 284 لم يدل على المؤاخذه بذلك بل

دل على المحاسبة به ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب ولهذا قال { فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ } البقرة 284 لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب ولا أنه يغفر كل شيء أو يعذب كل شيء مع العلم بأنه لا يعذب المؤمنين وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة ونحو ذلك والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعا لأصل الإيمان وما كان منافيا له ويفرق أيضا بين ما كان مقدورا عليه فلم يفعل وبين ما لم يترك إلا لعجز عنه فهذان الفرقان هما فصل في هذه المواضيع المشتبهة وقد ظهر بهذا التفصيل أم أصل النزاع في المسألة إنما وقع لكونهم رأوا عزمًا جازما لا يقترن به فعل قط وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارنا للعزم وإن كان العجز مقارنا للإرادة إمتنع وجود المراد لكن لا تكون تلك إرادة جازمة فإن الإرادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة أيضا فمع الإرادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه وإن لم يوجد الفعل بنفسه والإنسان يجد من نفسه إن مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته ومع العجز عنه يضعف وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله على السواء ولا عما يظهر على صفحات وجهه وفلمات لسانه مثل بسط الوجه وتعبسه وإقباله على الشيء والإعراض عنه وهذه ما يشبهها من أعمال الجوارح التي يترتب عليها الذم والعقاب كما يترتب عليها الحمد والثواب وبعض الناس يقدر عزمًا جازما لا يقترن به فعل قط وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت أو غيره فسموا التصميم على الفعل في المستقبل عزمًا وجزما ولا نزاع في إطلاق الألفاظ فإن من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول ما قارن الفعل فهو قصد وما كان قبله فهو عزم ومنهم من يجعل الجميع سواء وقد تنازعا هل تسمى إرادة الله لما يفعله في المستقبل عزمًا وهو نزاع لفظي لكن ما عزم الإنسان عليه أن يفعله في المستقبل فلا بد حين فعله من تجدد إرادة غير العزم المتقدم وهي الإرادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة وتنازعا أيضا هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعي وقد ذكروا أيضا في ذلك قولان والأظهر أن القدرة مع الداعي التام تستلزم وجود المقدور والإرادة مع القدرة تستلزم وجود المراد والمتنازعون في هذه أراد أحدهم إثبات العقاب مطلقا على كل عزم على فعل مستقبل وإن لم يقترن به فعل وأراد الآخر رفع العقاب مطلقا عن كل ما في النفس من الإرادات الجازمة ونحوها مع ظن الإثنين أن ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل وكل من هذين إنحراف عن الوسط فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجرى صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب وأما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مرادا إرادة جازمة بل هو الهم الذي وقع العفو عنه وبه إنتلفت النصوص والأصول ثم هنا مسائل كثيرة فيما يجتمع في القلب من الإرادات المتعارضة كالإعتقادات المتعارضة وإرادة الشيء وضده مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها ومثل حديث النفس الذي يتضمن الكفر إذا قارنه بعض ذلك والتعود منه كما شكوا أصحاب رسول الله إليه فقالوا أن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخز من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال أو قد وجدتموه فقالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان رواه مسلم من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وفيه الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان به على الجواب فإن له موارد واسعة فهنا لما إقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان وهو خالصه ومحضه لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك بل إن كان في الكفر البسيط وهو الإعراض عما جاء به الرسول وترك الإيمان به وإن لم يعتقد تكذيبه فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك إذ الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه فإذا لم يكن معه ما يقتضي الإيمان لم يحتج إلى معارض يدفعه وإن كان في الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة وليس معه إيمان يكره به ذلك ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة

لعامة المؤمنين كما قال تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ } الرعد 17 الآيات فضرب الله المثل لما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذي ينزل في أودية الأرض وجعل القلوب كالأودية منها الكبير ومنها الصغير كما في الصحيحين عن أبي وصى عن النبي أنه قال مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وشربوا وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به من الهدى والعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به فهذا أحد المثلين و المثل الآخر ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه وأخبر ان السيل يحتمل زيدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار زبد مثله ثم قال { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ } الرعد 17 الرابي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع في قلوب المؤمنين من الشك والشبهات في العقائد والأرادات الفاسدة كما شكاه الصحابة إلى النبي قال تعالى { فَيَذْهَبُ جُفَاءً } الرعد 17 يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه { وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ } الرعد 17 وهو مثل ما ثبت في القلوب من اليقين والإيمان كما قال تعالى { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ { إِبْرَاهِيمَ 24 } إِلَى قَوْلِهِ { يُنْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } إِبْرَاهِيمَ 27 فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيمانا ويقينا كما أن كل من حدثته نفسه بذنوب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحا وبراً وتقوى وأما المنافق فإذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفها فإنه قد وجدت منه سيئه الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها أو تنفيها والقلوب يعرض لها الإيمان والنفاق فتارة يغلب هذا وتارة يغلب هذا وقوله إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به نفسها كما في بعض ألفاظه في الصحيح هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين دون من كان مسلما في الظاهر وهو منافق في الباطن وهم كثيرون في المتظاهرين بالإسلام قديما وحديثا وهم في هذه الأزمان المتأخرون في بعض الأماكن أكثر منهم في حال ظهور الإيمان في أول الأمر فمن أظهر الإيمان وكان صادقا مجتتبا ما يضاده أو يضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به دون ما ليس كذلك كما دل عليه لفظ الحديث فالقسمان اللذان بينا أن العبد يثاب فيهما ويعاقب على أعمال القلوب خارجة من هذا الحديث وكذلك قوله من هم بحسنة و من هم بسيئة إنما هو في المؤمن الذي يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسمعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله كما قال تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ { الْبَقَرَةَ 261 } وَ { ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ } الْبَقَرَةَ 265 } وَ { ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى } اللَّيْلِ 20 } وهذا للمؤمنين فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته في الدنيا وقد يخفف عنه بها في الآخرة كما خفف عن أبي طالب لإحسانه إلى النبي وبشفاعة النبي فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف وقد جاء ذلك مقيدا في حديث آخر أنه في المسلم الذي هو حسن الإسلام والله سبحانه أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 741- 744 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 173

ليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خالق الأسباب والمسببات

الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به و طاعته فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان و الطاعة فمن قال أنا أدخل الجنة سواء كنت مؤمناً أو كافراً إذا علم أنى من أهلها كان مفترياً على الله في ذلك فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان فإذا لم يكن معه إيمان لم يكن هذا هو الذى علم الله أنه يدخل الجنة بل من لم يكن مؤمناً بل كافراً فإن الله يعلم أنه من أهل النار لا من أهل الجنة ولهذا أمر الناس بالدعاء و الإستعانة بالله و غير ذلك من الأسباب و من قال أنا لا أدعوا و لا أسأل إتكالاً على القدر كان مخطئاً أيضاً لأن الله جعل الدعاء و السؤال من الأسباب التى ينال بها مغفرتة و رحمته و هذه و نصره و رزقه و إذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء وما قدره الله و علمه من أحوال العباد و عواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت فليس في الدنيا و الآخرة شيء إلا بسبب و الله خالق الأسباب و المسببات ولهذا قال بعضهم الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد و محو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل و الإعراض عن الأسباب بالكيفية قدح في الشرع و مجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب فإن المطر إذا نزل و بذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النبات بل لا بد من ريح مربية بإذن الله و لا بد من صرف الإنتفاء عنه فلا بد من تمام الشروط و زوال الموانع و كل ذلك بقضاه الله و قدره و كذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج بل كم من إنزل و لم يولد له بل لا بد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة و تربيته في الرحم و سائر ما يتم به خلقه من الشروط و زوال الموانع وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة بل هي سبب و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا و لا أنت يا رسول الله قال و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه و فضل و قد قال { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } النحل 32 فهذه بآء السبب أى بسبب أعمالكم و الذى نفاه النبي صلى الله عليه و سلم بآء المقابلة كما يقال إشتريت هذا بهذا أى ليس العمل عوضاً و ثمنا كافياً في دخول الجنة بل لا بد من عفو الله و فضله و رحمته فبعفوه يمحو السيئات و برحمته يأتى بالخيرات و بفضله يضاعف البركات وفى هذا الموضع ضل طائفتان من الناس فريق آمنوا بالقدر و ظنوا أن ذلك كاف في حصول المقصود فأعرضوا عن الأسباب الشرعية و الأعمال الصالحة و هؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله و رسله و دينه و فريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر متكئين على حولهم و قوتهم و عملهم و كما يطلبه المماليك و هؤلاء أجهال ضلال فإن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه و لا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به و لكن أمرهم بما فيه صلاحهم و نهاهم عما فيه فسادهم و هو سبحانه كما قال يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفَعوني فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم و هم فعلوه بقوتهم التى لم يخلقها لهم فيطالبون بجزاء ذلك و الله تعالى غني عن العالمين فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم و إن أسأوا فلها لهم ما كسبوا و عليهم ما اكتسبوا { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } فصلت 46 وفى الحديث الصحيح عن الله تعالى أنه قال يا عبادى أني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى أنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا أغفر الذنوب جميعاً و لا أبالي فاستغفروني أغفر لكم يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفَعوني يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادى لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم

كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم إجتمعا في صعيد و احد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألتة ما نقص ذلك في ملكي شيئاً إلا كما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة و احدة يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيراً فليحمد الله و من و جد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وهو سبحانه مع غناه عن العالمين خلقهم و أرسل إليهم رسولا يبين لهم ما يسعدهم و ما يشقيهم ثم أنه هدى عباده المؤمنين لما إختلفوا فيه من الحق بإذنه فمن عليهم بالإيمان و العمل الصالح فخلقهم بفضله و إرساله الرسول بفضله و هدايته لهم بفضله و جميع ما ينالون به الخيرات من قواهم و غير قواهم هي بفضله فكذلك الثواب و الجراء هو بفضله و إن كان أوجب ذلك على نفسه كما حرم على نفسه الظلم و وعد بذلك كما قال { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 و قال تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } الروم 47 فهو واقع لامحالة و اجب بحكم إيجابه و وعده لأن الخلق لا يوجبون على الله شيئاً أو يحرمون عليه شيئاً بل هم أعجز من ذلك و أقل من ذلك و كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما في الحديث المتقدم إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيراً فليحمد الله و من و جد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وفي الحديث الصحيح سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقفا بها فمات من ليلته دخل الجنة فقله أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي إقراراً بإنعام الرب و ذنب العبد كما قال بعض السلف أنى أصبح بين نعمة تنزل من الله علي و بين ذنب يصعد مني إلى الله فأريد أن أحدث للنعمة شكراً و للذنب إستغفارا فمن أعرض عن الأمر و النهي و الوعد و الوعيد ناظراً إلى القدر فقد ضل و من طلب القيام بالأمر و النهي معرضاً عن القدر فقد ضل بل المؤمن كما قال تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 فنعبده إتباعاً للأمر و نستعينه إيماناً بالقدر و في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف و في كل خير أحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره النبي صلى الله عليه و سلم بشيئين أن يحرص على ما ينفعه و هو إمتثال الأمر و هو العبادة و هو طاعة الله و رسوله و أن يستعين بالله و هو يتضمن الإيمان بالقدر أنه لا حول و لا قوة إلا بالله و أنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته كما يزعم القدرية و المجوسية فقد جحد قدرة الله التامة و مشيئته النافذة و خلقه لكل شيء و من ظن أنه إذا أعين على ما يريد و يسر له ذلك كان محموداً سواء و افق الأمر الشرعي أو خالفه فقد جحد دين الله و كذب بكتبه و رسله و وعده و وعيده و إستحق من غضبه و عقابه أعظم ما يستحقه الأول فإن العبد قد يريد ما يرضاه و يحبه و يأمر به و يقرب إليه و قد يريد ما يبغضه الله و يكرهه و يسخطه و ينهى عنه و يعذب صاحبه فكل من هذين قد يسر له ذلك كما قال النبي صلى الله عليه و سلم كل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة و أما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة و قد قال تعالى { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا } 18 { وَمَن أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا } 19 { كَلَّا تُمَدُّ هَوْلًا وَهَوْلًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } 20 { الإسراء 18-20 } و قال تعالى { فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } 15 { وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } 16 { الفجر 15-16 } بين سبحانه أنه ليس كل من ابتلاه في الدنيا يكون قد أهانه بل هو يبتلى

عده بالسراء و الضراء فالمؤمن يكون صبارا شكورا فيكون هذا و هذا خيرا له كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له و المنافق هلوع جزوع كما قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا {21} إِلَّا الْمُصَلِّينَ {22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ {23} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ {24} لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {25} المعارج 19-25 إلى قوله { أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ {35} المعارج 35 ولما كان العبد ميسرا لمالا ينفعه بل يضره من معصية الله و البطر و الطغيان و قد يقصد عبادة الله و طاعته و العمل الصالح فلا يتأتى له ذلك أمر في كل صلاة بأن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 و قد صح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال يقول الله عزوجل قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين نصفها لي و نصفها لعبدي و لعبدي ما سألت فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال حمدني عبدي فإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى علي عبدي فإذا قال مالك يوم الدين قال مجدني عبدي فإذا قال إياك نعبد و إياك نستعين قال هذه الآية بيني و بين عبدي و لعبدي ما سألت فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين قال فهو لاء لعبدي و لعبدي ما سألت و قال بعض السلف أنزل الله عز وجل مائة كتاب و أربعة كتب جمع علمها في الكتب الأربعة التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان و جمع الأربعة في القرآن و علم القرآن في المفصل و علم المفصل في الفاتحة و علم الفاتحة في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فكل عمل يعمله العبد و لا يكون طاعة لله و عبادة و عملا صالحا فهو باطل فإن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله و إن نال بذلك العمل رئاسة و مالا فغاية المترئس أن يكون كفرعون و غاية المتمول أن يكون كقارون و قد ذكر الله في سورة القصص من قصة فرعون و قارون ما فيه عبرة لأولي الألباب و كل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون و لا ينفع فما لا يكون به لا يكون و ما لا يكون له لا ينفع و لا يدوم فلذلك أمر العبد أن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 والعبد له في المقدور حالان حال قبل القدر و حال بعده فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله و يتوكل عليه و يدعوه فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به و إن كان بفعله و هو نعمة حمد الله على ذلك و إن كان ذنبا إستغفر إليه من ذلك وله في المأمور حالان حال قبل الفعل و هو العزم على الإمتثال و الإستعانة بالله على ذلك و حال بعد الفعل و هو الأستغفار من التقصير و شكر الله على ما أنعم به من الخير و قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 أمره أن يصبر على المصائب المقدرة و يستغفر من الذنب و إن كان إستغفار كل عبد بحسبه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين و قال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 و قال يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فذكر الصبر على المصائب و التقوى بترك المعائب و قال النبي صلى الله عليه و سلم إحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر و لا يتحسر على الماضي بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالنظر إلى القدر عند المصائب و الإستغفار عند المعائب قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 22 {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} الحديد 22-23 و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ

مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ {التغابن 11} قال علقمة و غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و الله سبحانه و تعالى أعلم¹

لا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر

قال الله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا {الإسراء 19} المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج في الحكم وإن خالفوهم في الاسم فقالوا إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها و عندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة و أما الصحابة و أهل السنة و الجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار و يشفع فيهم وإن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة و لا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك وإن كان مستحقا للعقوبة على كبريته و كتاب الله عز و جل يفرق بين حكم السارق و الزاني و قتال المؤمنين بعضهم بعضا و بين حكم الكفار في الأسماء و الأحكام و السنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم و إجماع الصحابة يدل على ذلك كما هو مبسوط في غير هذا الموضوع و على هذا تنازع الناس في قوله { إِنَّمَا يَنْتَقِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } المائدة 27 فعلى قول الخوارج و المعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة و عند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين و عند أهل السنة و الجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصا موافقا لأمر الله فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصيا في غيره و ممن لم يتقه فيه لم يتقبله منه و إن كان مطيعا في غيره و التوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطا في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال كما قال الله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا {الإسراء 19} وقال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً } النحل 97 وقال { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ } النساء 124 وقال { وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا لِي بِهِ مِنْ عَمَلٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة 217²

الزهد الشرعى

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 70-77

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 323

قال الله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } الإسراء 19 الزهد خلاف الرغبة يقال فلان زاهد في كذا وفلان راغب فيه و الرغبة هي من جنس الإرادة فالزهد في الشيء إنتفاء الإرادة له أما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة بحيث لا يكون لا مريدا له ولا كارها له وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه ولهذا كان أساس الطريق الإرادة كما قال تعالى { وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } الأنعام 52 وقال تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } الإسراء 19 ونظائره متعددة كما رغب في الزهد ودم ضده في قوله { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ } {15} أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ } {16} هود 15-16 وقال تعالى { أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ } {1} التكاثر 1 السورة وقال تعالى { وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثِ أَكْلًا لَمًّا } {19} { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } {20} الفجر 19 وقال { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } {6} { وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٌ لَشَهِيدٌ } {7} { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } {8} العاديات 6-8 وقال تعالى { اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } الحديد 20 الآية وهذا باب واسع وإنما المقصود هنا تميز الزهد الشرعي من غيره وهو الزهد المحمود وتميز الرغبة الشرعية من غيرها وهي الرغبة المحمودة فإنه كثيرا ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيرا ما تشتهب الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعى صاحبه ¹

أهل الجنة هم أهل الإيمان

قال الله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } الإسراء 19 أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وقال الله تعالى له { قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } سبأ 50 وتقدير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله { رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } النساء 165 ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا وكذلك ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } {3} البقرة 1-3 ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقوله { وَالْعَصْرِ } {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ } {3} العصر 1-3 وقوله { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } {5} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } {6} التين 5-6 فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 616 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 51

اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته وربط السعادة مع إصلاح العمل به في مثل قوله **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا {الإسراء:19}**¹

لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل

قال حدثنا اسحاق حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن عبدالكريم الجزري عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ عليه {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ} البقرة 177 الى آخر الآية وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الأبطس رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه فصار المطيع الى الله فأدخله الجنة و صار العاصي الى الله فأدخله النار هل يتفاضلان في الايمان قال لا قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الايمان طيب أو خبيث فان الله قال {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الأنفال 37 فسألتهم فلم يجيبوني فقال بعضهم ان الايمان يبطن ليس معه عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرؤون الآية التي في البقرة {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} البقرة 177 قال ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ} البقرة 177 الى قوله {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة 177 فقال سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم وقال **وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ {الإسراء:19}** فالزم الاسم العمل والعمل الاسم والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فاذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعا لفظيا مع أنهم مخطئون في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة وان قالوا انه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح وبعض الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون ان الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد لكن ما علمت معينا أحكى عنه هذا القول وانما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون قول من لا خلاق له فان كثيرا من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الايمان ذنب أو مع التوحيد وبعض كلام الراديين على المرجئة وصفهم بهذا ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية {وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} البقرة 177 فقوله صدقوا أي في قولهم آمنوا كقوله {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} الحجرات 14 الى قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} الحجرات 15 أي هم الصادقون في قولهم آمننا بالله بخلاف الكاذبين الذين قال الله فيهم {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} المنافقون 1 وقال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} 8 {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} 9 {فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} 10 {البقرة 8-10} وفي {

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 5

يَكْذِبُونَ {10} البقرة قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا في قولهم آمنا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول في الباطن وان صدقوه في الظاهر وقال تعالى {الم {1} أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ {2} وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ {3} العنكبوت 1-3 فبين أنه لا بد أن يفتن الناس أى يمتحنهم ويبتليهم ويختبرهم يقال فتننت الذهب اذا أدخلته النار لتمييزه مما اختلط به ومنه قول موسى { إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ } الأعراف 155 أى محتتك واختبارك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره وابتليتهم بارسال الرسل وانزال الكتاب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سببا لضلالة قوم وهدى آخرين والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق والمنافقين بالكذب لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما آمنا فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس فى قلبه فهو كاذب منافق قال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ {166} وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ {167} آل عمران 166-167 فلما قال فى آية البر { أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة 177 دل على أن المراد صدقوا فى قولهم آمنا فان هذا هو القول الذى أمروا به وكانوا يقولونه¹

اخبر الله انه من كان يريد حرث الاخرة نزل له فى حرثه

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحاح انه قال الله اشد فرحا بتوبة عبده من احدكم يرى راحلته اذا وجدها عليها طعامه وشرابه لن يكون بتوبة التائب اعظم فرحا من الواجد لطعامه وشرابه ومركبه بعد الخوف المفضى الى الهلاك وقد ثبت فى صحيح مسلم ان الله يقول عبدي مرضت فلم تعدني قال رب كيف اعودك وانت رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا مرض فلم تعده اما انك لو عدته لوجدتني عنده والله قد اخبر انه من كان يريد حرث الاخرة نزل له فى حرثه وقال { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً } الإسراء 19²

الله سبحانه هو المعطى على الحقيقة

فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطى المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل فمن شهد أن المعطى أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره فقد أشرك بربوبيته ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك فلينظر الى المعطى الأول مثلا فيشكره على ما أولاها من النعم وينظر الى من أسدى اليه المعروف فيكافيه عليه لقوله عليه السلام من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه لأن النعم كلها لله تعالى كما قال تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 180-183

²الاستقامة ج: 2 ص: 53

{وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} النحل 53 وقال تعالى {كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ} {الإسراء 20} فالله سبحانه هو المعطى على الحقيقة فإنه هو الذى خلق الأرزاق وقدرها وساقها الى من يشاء من عباده فالمعطى هو الذى أعطاه وحرك قلبه لعطاء غيره فهو الأول والآخر ومما يقوى هذا المعنى قوله لابن عباس رضى الله عنهما واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف قال الترمذى هذا حديث¹ وهو سبحانه يعطى السلطان والمال للبر والفاجر²

فإجابة الدعاء فقد يكون سببه اضطرار الداعي وصدق التجائه وقد يكون سببه مجرد رحمة الله له وقد يكون أمرا قضاه الله لا لأجل دعائه وقد يكون له أسباب أخرى وإن كانت فتنة في حق الداعي فإننا نعلم أن الكفار قد يستجاب لهم فيسقون وينصرون ويعافون ويرزقون مع دعائهم عند أوثانهم وتوسلهم بها وقد قال الله تعالى {كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} {20} انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً} {21} {الإسراء 20- 21} وقال تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} {الجن 6} وأسباب المقدورات فيها أمور يطول تعدادها ليس هذا موضع تفصيلها وإنما على الخلق اتباع ما بعث الله به المرسلين والعلم بأن فيه خير الدنيا والآخرة ولعلي إن شاء الله أبين بعض أسباب هذه التأثيرات في موضع آخر³

طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله وجميع أوليائه

الواجب أن يعلم أن كل ما اعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك هو فى الجنة كما أن كل ما وعد به أعداءه هو فى النار وقد قال تعالى {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {السجدة 17} وفى الحديث الصحيح عن النبي يقول الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه وإذا علم أن جميع ذلك فى الجنة فالناس فى الجنة على درجات متفاوتة كما قال {انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً} {الإسراء 21} وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو فى الجنة وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع أوليائه السابقين المقربين واصحاب اليمين كما فى السنن أن النبي سأل بعض اصحابه كيف تقول فى دعائك قال أقول اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار أما أنى لأحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال حولهما ندندن فقد أخبر أنه هو ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة فى حياة النبي إنما يدندنون حول الجنة أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ومعاذ ومن يصلى خلفهما من المهاجرين والأنصار ولو طلب هذا العبد ما طلب كان فى الجنة وأهل الجنة نوعان سابقون مقربون وأبرار أصحاب يمين قال تعالى {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ} {18} وَمَا أَدْرَاكَ مَا

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 92 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 92

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 328

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 321

عَلِيٌّ {19} كِتَابُ مَرْقُومٍ {20} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ {21} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {22} عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ {23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ {24} يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ {25} خِتَامُهُ مِسْكَ
وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ {26} وَمِمَّا رَزَقْنَاهُ مِنْ تَسْنِيمٍ {27} عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
الْمُقَرَّبُونَ {28} {المطففين 18-28} قال ابن عباس تمزج لأصحاب اليمين مزجا ويشربها المقربون
صرفا وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا سمعتم المؤذن فقولوا
مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها
درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لى الوسيلة
حلت عليه شفاعتى يوم القيامة فقد أخبر أن الوسيلة التى لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله
ورجاء ان يكون هو ذلك العبد هى درجة فى الجنة فهل بقى بعد الوسيلة شىء أعلى منها يكون
خارجا عن الجنة يصلح للمخلوقين وثبت فى الصحيح أيضا فى حديث الملائكة الذين يلتمسون
الناس فى مجالس الذكر قال فيقولون للرب تبارك وتعالى وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك
قال فيقول وما يطلبون قالوا يطلبون الجنة قال فيقول وهل رأوها قال فيقولون لا قال فيقول فكيف لو
رأوها قال فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا قال ومم يستعيذون قالوا يستعيذون من النار قال
فيقول وهل رأوها قال فيقولون لا قال فيقول فكيف رأوها قالوا لو رأوها لكانوا أشد منها إستعادة قال
فيقول أشهدكم إنى أعطيتهم ما يطلبون وأعدتهم مما يستعيذون أو كما قال قال فيقولون فيهم فلان
الخطأ جاء لحاجة فجلس معهم قال فيقول هم القوم لا يشقى بهم جليسهم فهؤلاء الذين هم من
أفضل اولياء الله كان مطلوبهم الجنة ومهر بهم من النار والنبي لما بايع الأنصار ليلة العقبة وكان
الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشائخ (مشائخ الصوفية) كلهم
قالوا للنبي إشتراط لربك ولنفسك ولأصحابك قال أشتراط لنفسي أن تتصرونى مما تتصرون منه
أنفسكم وأهليكم وأشتراط لأصحابى أن تواسوهم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال لكم الجنة قالوا مد يدك
فوالله لا نقيلك ولا نستقيلك وقد قالوا له فى اثناء البيعة إن بيننا وبين القوم حبالا وعهودا وأنا
ناقضوها فهؤلاء الذين بايعوه من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله وبذلا لنفوسهم وأموالهم
فى رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين قد كان غاية ما طلبوه بذلك
الجنة فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه ولكن علموا ان فى الجنة كل محبوب ومطلوب بل
وفى الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس
والتصور فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها
هذا وهذا كما قال تعالى {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} {ق35} وقال { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ
وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ } الزخرف 71 ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه
كما قال ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا باب واسع¹

لطائف لغوية

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 701-704 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 248 و الاستقامة ج: 2 ص: 110 و
الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 133-134

1- قال تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } الإسراء 9 القرآن قد يراد به المصدر وقد يراد به الكلام المقروء وقال تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } {17} فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} {القيامة 17-18} والقرآن هنا مصدر كما في الآية عن ابن عباس قال علينا أن نجعله في صدرك ثم أن تقرأه بلسانك فإذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } {19} {القيامة 19} وقد يراد ب القرآن نفس الكلام المقروء كما قال { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأعراف 204 وقوله { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ } الإسراء 9¹

2- قال تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ } الإسراء 9 و قال تعالى { مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } الإسراء 15 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرب الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَا لَهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا

ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ } {71} الصافات 69-71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67-68 وقوله { فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ } طه 123 ثم يقرب بالغى والغضب كما في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ } النجم 2 وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } القمر 47²

3- قال تعالى { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا } {13} أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } {14} الإسراء 13-14 فقد فسروا الطائر بالأعمال وجزائها فبين الله سبحانه أن طائرهم وهو الأعمال وجزاؤها هو عند الله وهو معهم فهو معهم لأن

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 198

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

وهو ما طار عنه من خير وشر²

4- قال تعالى { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16 لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثلة هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً } النحل 112 وقوله { وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } 4 { فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } 5 { الأعراف 4-5 وقال في آية أخرى { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ } الأعراف 97 فجعل القرى هم السكان وقال { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ } محمد 13 وهم السكان وكذلك قوله تعالى { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } الكهف 59 وقال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } البقرة 259 فهذا المكان لا السكان لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقولته { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } يوسف 82 مثل قوله { قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً } النحل 112 فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف³

5- قال تعالى { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا } الإسراء 16 وأدوات الشرط تخلص الفعل للاستقبال⁴

6- قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 17 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب اذا أطلق دخل

¹ الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 35

² الجواب الصحيح ج: 3 ص: 61

³ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

⁴ العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 65

فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما في قوله { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147¹

7- قال تعالى { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 17 بصير منزه عن العمى²

8- قال الله تعالى { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا } الإسراء 19 قال الأئمة السعي في كتاب الله هو العمل والفعل كما قال تعالى { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ } الليل 4 وقال تعالى { وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } البقرة 205 وقال تعالى { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا } المائدة 33 وقال عن فرعون { ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ } النازعات 22 وقال { إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا } الإنسان 22³

1

الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 151 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 259

الاسراء 22-38

{ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } {22} وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } {23} وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا } {24} رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا } {25} وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا } {26} إِنْ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } {27} وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا } {28} وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا } {29} إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } {30} وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَنْ قَتَلْتُمْ أَنْفُسَ اللَّهِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } {33} وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {34} وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَرِنًا بِالْقِسْطِ أَلَمْ تَرَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ خَيْرًا وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } {35} وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } {36} وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا } {37} كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } {38}

المشركون لم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به

قال تعالى { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا } {الإسراء 22} أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلها آخر مساويا له في الصفات والأفعال بل ولا كانوا يقولون إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ولا أن الأصنام تخلق شيئا من العالم ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين كما قال تعالى { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {79} الأنعام الآية 79 ولم يقل من المعطلين فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين

فلم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به وجعلوا له أندادا في العبادة والمحبة والدعاء وهذا كما قال تعالى **{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا}** الإسراء 22¹

النهي عن الشيء لا يدل على وقوعه

أن النهي عن الشيء لا يدل على وقوعه بل يدل على أنه ممنوع منه لئلا يقع فيما بعد كقوله تعالى **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ}** الأحزاب 1 فهذا لا يدل على أنه كان يطيعهم وكذلك قوله **{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}** القصص 88 أو **{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا}** الإسراء 22 فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن مشركا قط لا سيما بعد النبوة فالأمة متفقة على أنه معصوم من الشرك بعد النبوة وقد نهى عن ذلك بعد النبوة ونظائره كثيرة²

إقرار المشرك بأن الله رب كل شيء لا ينجيه من عذاب الله

قال تعالى **{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا}** الإسراء 22 فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة فأقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله أن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله فلا يستحق العبادة أحد إلا هو وأن محمدا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعا بدون إذن الله قال الله تعالى **{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** يونس 18 ومن تحقيق التوحيد أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى كما قال تعالى **{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا}** الإسراء 22³

غير الله لا يصلح أن يتخذها يعبد ويدعى

قال تعالى **{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا}** الإسراء 22 و إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها كان قد اتخذ الله ربا ولم يبيغ ربا سوى الله ولم يتخذ ربا سواه كما قال تعالى **{قُلْ}**

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 357

²منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 457

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 106

أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ { الأنعام 164 } وقال تعالى { أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ { الأنعام 14 } وقال { وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } آل عمران 80 وهو أيضا في نفسه هو الاله الحق لا اله غيره فاذا عبده الانسان فقد وحده من لم يجعل معه الها آخر ولا اتخذ الها غيره قال تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ } الشعراء 213 وقال تعالى { **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** { الإسراء 22 } وقال ابراهيم لأبيه أزر { **أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** { الأنعام 74 } فالمخلوق ليس باله في نفسه لكن عبده اتخذه الها وجعله الها وسماه الها وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه بل يضره كما أن الجاهل اذا اتخذ اماما ومفتيا وقاضيا كان ذلك باطلا فانه لا يصلح أن يؤم ولا يفتى ولا يقضى وغير الله لا يصلح ان يتخذ الها يعبد ويدعى فانه لا يخلق ولا يرزق وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع خولا يستجيب له فدعائه باطل وضلال كل من سوى الله اما أنه لا يسمع دعاء الداعي أو يسمع ولكن لا يستجيب له فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء ألبتة وقد قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } { 22 } { وَلَا تَتَفَعَّلُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } { 23 } سبأ 22- 23 فغير الله لا مالك لشيء ولا شريك في شيء ولا هو معاون للرب في شيء بل قد يكون له شفاعاة ان كان من الملائكة والانبيا والصالحين ولكن لا تنفع الشفاعاة عنده الا لمن أذن له فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع وان يأذن للمشفوع له أن يشفع له ومن دونه لا يملكون الشفاعاة البتة فلا يصلح من سواه لان يكون الها معبودا كما لا يصلح أن يكون خالقا رازقا لا اله الا هو وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير¹

وقد قال تعالى { قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } الزمر 64 وقال تعالى { قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ } { الأنعام 14 } { أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا } { الأنعام 114 } فلو لم يكن هناك غيره لم يكن المشركون أمروه بعبادة غير الله ولا اتخاذ غير الله وليا ولا حكما فلم يكونوا يستحقون الإنكار فلما أنكر عليهم ذلك دل على ثبوت غير يمكن عبادته واتخاذها وليا وحكما وأنه من فعل ذلك فهو مشرك بالله كما قال تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ } { الشعراء 213 } وقال { **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** { الإسراء 22 } وأمثال ذلك²

"لا يرجون عبد إلا ربه"

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 204-205

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 329

قال تعالى { **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** } الإسراء 22 قال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } {173} فَاَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } {174} إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {175} آل عمران 173-175 فهي المؤمنین عن خوف أولياء الشيطان وأمرهم بخوفه وخوفه يوجب فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والإستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداد فهذا قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يخافن عبد إلا ذنبه وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التي ناله بها ما ناله كما في الأثر يقول الله أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي من اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشتغلوا بسب الملوك وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يرجون عبد إلا ربه فإن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ولا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب السيئات إلا الله { وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } {يونس 107} { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } { فاطر 2 والرجاء مقرون بالتوكل فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة والتوكل لا يجوز إلا على الله كما قال تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } { المائدة 23 } وقال { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } إبراهيم 12 وقال تعالى { إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } آل عمران 160 وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } { التوبة 59 } وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } {173} { الانفال 173 } فهو لاء قالوا حسبنا الله أي كافينا الله في دفع البلاء وأولئك أمروا أن يقولوا حسبنا في جلب النعماء فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشر وفي إزالة الخير أليس الله بكاف عبده ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرّم { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئِنًّا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } { العنكبوت 41 } وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا { 81 } كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا { 82 } مريم 81-82 { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } { الحج 31 } { **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** } { الإسراء 22 } وقال الخليل { فَاْتَّبَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } { العنكبوت 17 } فمن عمل لغير الله رجا أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة قال الله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } {النور 39} وقال تعالى { مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيَّ شَيْءٌ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } { إبراهيم 18 }¹

" اعظم الذنوب ان تجعل لله ندا وهو خلقك "

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 165

قال تعالى {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُورًا} الإسراء 22 قال النبي صلى الله عليه وسلم غيرة الله ان يأتي المؤمن ما حرم عليه واعظم الذنوب ان تجعل لله ندا وهو خالقك وتجعل معه الها اخر والشرك منه جليل ومنه دقيق فالمقتصدون قاموا بواجب التوحيد والسابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه ولا شيء احب الى الله من التوحيد ولا شيء ابغض اليه من الشرك ولهذا كان الشرك غير مغفور بل هو اعظم الظلم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تقيئها الرياح تارة تميلها وتعديلها اخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة على اصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة¹

لا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ولا تتناقض دلالة القياس

قال تعالى { وَفَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} الإسراء 23 وأحق الناس بالحق من علق الأحكام بالمعاني التي علقها بها الشارع وهذا موضع تفاوت فيه الناس وتنازعوا هل يستفاد ذلك من خطاب الشارع أو من المعاني القياسية فقوم زعموا أن أكثر أحكام أفعال العباد لا يتناولها خطاب الشارع بل تحتاج إلى القياس وقوم زعموا أن جميع أحكامها ثابتة بالنص وأسرفوا في تعلقهم بالظاهر حتى أنكروا فحوى الخطاب وتنبيهه كقوله تعالى { فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ } الإسراء 23 وقالوا إن هذا لا يدل إلا على النهي عن التأفيف لا يفهم منه النهي عن الضرب والشتم وأنكروا تنقيح المناط وادعوا في الألفاظ من الظهور ما لا تدل عليه وقوم يقدمون القياس تارة لكون دلالة النص غير تامة أو لكونه خبر الواحد وأقوام يعارضون بين النص والقياس ويقدمون النص ويتناقضون ونحن قد بينا في غير هذا الموضع أن الأدلة الصحيحة لا تتناقض فلا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ولا تتناقض دلالة القياس إذا كانت صحيحة ودلالة الخطاب إذا كانت صحيحة فإن القياس الصحيح حقيقة التسوية بين المتماثلين وهذا هو العدل الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل²

ومن لم يلحظ المعاني من خطاب الله ورسوله ولا يفهم تنبيه الخطاب وفحواه من أهل الظاهر كالذين يقولون إن قوله { فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا } الإسراء 23 لا يفيد النهي عن الضرب وهو إحدى الروايتين عن داود واختاره ابن حزم وهذا في غاية الضعف بل وكذلك قياس الأولى وإن لم يدل عليه الخطاب لكن عرف أنه أولى بالحكم من المنطوق بهذا فإنكاره من بدع الظاهرية التي لم يسبقهم بها أحد من السلف فما زل السلف يحتجون بمثل هذا وهذا كما إنه إذا قال في الحديث الصحيح والذي نفسي بيده لا يؤمن كررها ثلاثا قالوا من يا رسول الله قال من لا يأمن جاره بوائقه فإذا كان هذا بمجرد الخوف من بوائقه فكيف فعل البوائق مع عدم أمن جاره منه كما في الصحيح عنه أنه قيل له أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خالقك قيل ثم ماذا قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزاني بحليلة جارك ومعلوم أن الجار لا يعرف هذا في العادة فهذا أولى بسلب الإيمان ممن لا تؤمن بوائقه ولم يفعل مثل هذا إذا قال { فَلَا

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 60

² الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 517

وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا {النساء 65} فإذا كان هؤلاء لا يؤمنون فالذين يحكمونه ويرون حكمه وإن لم يجدوا حرجاً مما قضى لا اعتقادهم أن غيره أصح منه أو أنه ليس بحكم سديد أشد وأعظم وكذلك إذا قال { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ {المجادلة 22} فإذا كان بموادة المحاد لا يكون مؤمناً فإن لا يكون مؤمناً إذا حاد بطريق الأولى والأخرى¹

قضى هنا ليست بمعنى القدر والتكوين انما هي بمعنى امر

قال تعالى { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا {الإسراء 23} وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين الارادة و الامر و القضاء و الاذن و التحريم و البيعت و الارسال و الكلام و الجعل بين الكونى الذى خلقه وقدره وقضاه وان كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثبت اصحابه ولا يجعلهم من اوليائه المتقين و بين الدينى الذى امر به وشرعه واثاب عليه و اكرمهم وجعلهم من اوليائه المتقين و حزبه المفلحين وجنده الغالبين وهذا من أعظم الفروق التى يفرق بها بين اولياء الله و اعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من اوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من اعدائه ف الارادة الكونية هى مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته و ارادته الكونية والارادة الدينية هى المتضمنة لمحبهه ورضاه المتناولة لما امر به وجعله شرعا ودينا وهذه مختصة بالايمان والعمل الصالح واما القضاء فقال فى الكونى {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ {فصلت 12} وقال سبحانه {وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ {البقرة 117} وقال فى الدينى { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ {الإسراء 23} اى امر وليس المراد به قدر ذلك فانه قد عبد غيره كما اخبر فى غير موضع كقوله تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ {يونس 18} وقول الخليل عليه السلام لقومه { أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ {75} أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ {76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ {77} {الشعراء 75-77} وقال تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ {الممتحنة 4} وقال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ {5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ {6} وهذه كلمة تقتضى براءته من دينهم ولا تقتضى رضاه بذلك كما قال تعالى فى الآية الأخرى { وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ {يونس 41} ومن ظن من الملاحدة ان هذا رضا منه بدين الكفار فهو من

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 327- 328

اكذب الناس واكفرهم كمن ظن ان قوله { وَقَضَى رَبُّكَ } الإسراء 23 بمعنى قدر وان الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله فان هذا من أعظم الناس كفرا بالكتب¹

قال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } الإسراء 23 قضى هنا ليست بمعنى القدر والتكوين باجماع المسلمين بل وباجماع العقلاء حتى يقال ما قدر الله شيئا الا وقع وانما هي بمعنى أمر وما أمر الله به فقد يكون وقد لا يكون وكذلك فان الحكم يكون بمعنى الأمر الديني وهو الأحكام الشرعية كقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مَجْلِيِّ الصَّيِّدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } المائدة 1 وقوله { وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا } المائدة 50 وقوله { ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ } الممتحنة 10 ويكون الحكم حكما بالحق والتكوين والفعل كقوله { فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتَنِّي لِى أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف 80 وقوله { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ } الأنبياء 112 ولهذا كان بعض السلف يقرءون ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا اياه ذكره ثعلب عن ابن عباس وذكروا انها كذلك فى بعض المصاحف ولهذا قال فى سياق الكلام وبالوالدين احسانا الآية وساق أمره ووصاياه الى أن قال { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا } الإسراء 39 فختم الكلام بمثل ما فتحه به من أمره بالتوحيد ونهيه عن الشرك ليس هو إخبارا انه ما عبد أحد الا الله وان الله قدر ذلك وكونه وكيف وقد قال { وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } الإسراء 39 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة فى مسألة الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية²

قرر الشرائع الجامعة التي اتفقت عليها الرسل

قال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } الإسراء 23

أرسل الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيههم وأنزل عليه كتاب أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم به إلى صراط مستقيم صراط الذي له ما فى السموات وما فى الأرض وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو دين الله الذي بعث به الرسل قبله و أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فصدق كتابه ما بين يديه من كتب السماء وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء وهيمن على ما بين يديه من الكتاب وذلك يعم الكتب كلها شاهدا وحاكما ومؤتمنا يشهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة وقرر ما فى الكتاب الأول من أصول الدين وشرائعه

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 412 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 47 و الجواب الصحيح ج: 1 ص: 153 و
مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 39 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 267-269

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 263-264

الجامعة التي اتفقت عليها الرسل كالوصايا المذكورة في آخر الأنعام وأول الأعراف وسورة سبحان ونحوها من السور المكية الإسراء الآيات 23 39 فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد وإن كان لكل من التوراة والإنجيل والقرآن شريعة ومنهاج ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إنا معشر الأنبياء ديننا واحد الأنبياء إخوة لعلات وإن أولى الناس بابن مريم لأننا إنه ليس بيني وبينه نبي فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً¹

فالدين واحد وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم كما قال تعالى { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } المائدة 48 فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعلمية فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف وسورة بني إسرائيل كقوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } الأنعام 151 إلى آخر الآيات الثلاث وقوله { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 23 إلى آخر الوصايا وقوله { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } الأعراف 29 وقوله { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع²

جميع الرسل متفقون في الدين الجامع في الأصول الاعتقادية والعلمية

قال تعالى { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } الإسراء 23 فان الله سبحانه دلنا على نفسه الكريمة بما أخبرنا به في كتابه العزيز وعلى لسان نبيه وبذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل فقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ } الشورى 13 وقال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقد ثبت عن النبي أنه قال إنا معشر الأنبياء ديننا واحد والشرائع مختلفة فجميع الرسل متفقون في الدين الجامع في الأصول الاعتقادية والعلمية كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة في سورة الأنعام والأعراف وبني إسرائيل وهو قوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا } الأنعام 151 الآيات الثلاث وقوله { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } الأعراف 29 الآية وقوله { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ } الأعراف 33 الآية وقوله { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا }

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 68

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 161

تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ {الإسراء 23} إلى آخر الوصايا وقوله {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ} يوسف 108 الآية فالدعوة والعبادة اسم جامع لغاية الحب لله وغاية الذل له فمن ذل له من غير حب لم يكن عبدا بل يكون هو المحبوب المطلق فلا يحب شيئا إلا له ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يجعل له حقيقة الحب فهو مشرك وإشراكه يوجب نقص الحقيقة كقوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} البقرة 165 الآية والحب يوجب الذل والطاعة والاسلام أن يستسلم لله لا لغيره فمن إستسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو متكبر وكلاهما ضد الاسلام والقلب لا يصلح إلا بعبادة الله وحده وتحقيق هذا تحقيق الدعوة النبوية ومن المحبة الدعوة إلى الله وهي الدعوة إلى الايمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم بما أمروا به فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى وما أبغضه الله ورسوله فمن الدعوة إلى الله النهي عنه ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته ومن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما¹

الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم

قال تعالى { **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** {الإسراء 23} أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به وقضى به وحكم فقال { **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** {الإسراء 23} وقال { **أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ** {النحل 2} وقال { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** {النحل 36} الآية وقال تعالى { **وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ** {النحل 51} وقال { **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** {التوبة 31} } **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** {البينة 5} وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده ويحرم عليهم عبادة ما سواه فقد حكم وقضى أنه لا إله الا هو فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه وليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى { **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** {النجم 23} وقال { **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ** {الحج 62} فالآلهة التي جعلها عابدها آلهة يعبدونها كثيرة لكن هي لا تستحق العبادة فليست بالآلهة كمن جعل غيره شاهدا أو حاكما أو مفتيا أو أميرا وهو لا يحسن شيئا من ذلك ولا بد لكل إنسان من إله يألهه ويعبده تعس عبد الدينار و عبد الدرهم فإن بعض الناس قد أله ذلك محبة و ذلا وتعظيما كما قد بسط في غير هذا الموضوع فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه²

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 6-7

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 171-173

لله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين

قال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُ هُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } الإسراء 23 وجماع الدين شيئان احدهما ان لا نعبد الا الله تعالى والثانى ان نعبد بما شرع لا نعبد بالبدع كما قال تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قيل له ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وكان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وهذا هو دين الاسلام الذى ارسل الله به رسله وأنزل به كتبه وهو الاستسلام لله وحده فمن لم يستسلم له كان مستكبرا عن عبادته وقد قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 ومن استسلم لله ولغيره كان مشركا فقد قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } النساء 48 ولهذا كان لله حق لا يشركه فيه احد من المخلوقين فلا يعبد الا الله ولا يخاف الا الله ولا يتقى الا الله ولا يتوكل الا على الله ولا يدعى الا الله كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 وقال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 23 وقال تعالى { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } النور 52 فالطاعة لله والرسول والخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } التوبة 59 فالرغبة الى الله وحده والتحسب بالله وحده وأما الايتاء فله والرسول كما قال تعالى { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } الحشر 7 فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه فليس لأحد من المشايخ والملوك والعلماء والامراء والمعلمين وسائر الخلق خروج عن ذلك بل على جميع الخلق ان يدينوا بدين الاسلام الذى بعث الله به رسله ويدخلوا به كلهم فى دين خاتم الرسل وسيد ولد آدم وامام المتقين خير الخلق وأكرمهم على الله محمد عبده ورسوله تسليما

وكل من أمر بأمر كائنا من كان عرض على الكتاب والسنة فان وافق قبل ذلك والا رد كما جاء فى الصحيحين عنه انه قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أى فهو مردود فاذا كان المشايخ والعلماء فى احوالهم وأقوالهم المعروف والمنكر والهدى والضلال والرشاد والغى وعليهم أن يردوا ذلك الى الله والرسول فيقبلوا ما قبله الله ورسوله ويردوا ما رده الله ورسوله¹

محبة الله وتوحيده هو الغاية التى فيها صلاح للنفس

قال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُ هُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } الإسراء 23 ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التى فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا فى ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 24-25

وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبهه ومن خضع له ولم يحبه لم يعبهه وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعو الله فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا¹

حق الوالدين مقرون بحق الله

قال تعالى { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } 23 { وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا } 24 { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا } 25 { الإسراء 23-25 } فإن الله خلق العبد وخلق أبويه وخلق من أبويه فالسبب الذي بينه وبين الله هو الخلقي التام بخلاف سبب الأبوين فإن أصل مادته منهما وله مادة من غيرهما ثم إنهما لم يصورا في الأرحام والعبد ليس له مادة إلا من أبويه والله هو خالقه وبارؤه ومصوره ورازقه وناصره وهاديه وإنما حق الأبوين فيه بعض المناسبة لذلك فلذلك قرن حق الأبوين بحقه في قوله { أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ } لقمان 14 وفي قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } النساء 36 وفي قوله { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } الإسراء 23 وجعل النبي التبريء من الأبوين كفرا لمناسبته للتبريء من الرب وفي الحديث الصحيح من أدعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر أخرجاه في الصحيحين وقوله كفر بالله من تبرء من نسب وإن دق وقوله لا ترغبوا عن آبائكم فإن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم فحق النسب والقرابة والرحم تقدمه حق الربوبية وحق القريب المجيب الرحمن فإن غاية تلك أن تتصل بهذا كما قال الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بنته وقال الرحم

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

شجنة من الرحمن وقال لما خلق الله الرحم تعلق بحقو الرحمن فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة¹

" من الكبائر ان يسب الرجل والديه "

قال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } 23 { وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا } 24 { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا } 25 { الإسراء 23-25 } اذا شتم الرجل أباه واعتدى عليه فانه يجب أن يعاقب عقوبة بليغة تردعه وأمثاله عن مثل ذلك بل وأبلغ من ذلك أنه قد ثبت عن النبي في الصحيحين أنه قال من الكبائر ان يسب الرجل والديه قالوا وكيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه فإذا كان النبي قد جعل من الكبائر أن يسب الرجل أبا غيره لئلا يسب أباه فكيف اذا سب هو أباه مباشرة فهذا يستحق العقوبة التي تمنعه عن عقوق الوالدين الذي قرن الله حقهما بحقه حيث قال { أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ } لقمان 14 وقال تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } الإسراء 23 فكيف بسبهما²

في مراسيل ابي دواد عن ابن المسيب ان النبي قال من ضرب اباه فاقتلوه وبالجملة فلا يخفى على لبيب ان حقوق الوالدين لما كانت اعظم كان النكال على اذاهما باللسان وغيره اشد³

فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر ومعهم ايمان أيضا وعلى هذا ورد عن النبي في تسمية كثير من الذنوب كفرا مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان فلا يخلد في النار كقوله في الحديث الصحيح ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه الا كفر وفي حديث آخر كفر بالله من تبرأ من نسب وان دق وكان من القرآن الذي نسخ لفظه لا ترغبوا عن آبائكم فان كفرا بكم ان ترغبوا عن آبائكم فان حق الوالدين مقرون بحق الله في مثل قوله { أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } لقمان 14 وقوله { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } الإسراء 23 فالوالد أصله الذي منه خلق والولد من كسبه كما قال { مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } المسد 2 فالجد لهما شعبة من شعب الكفر فانه جدد لما منه خلقه ربه فقد جدد خلق

¹مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 14

²مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 226

³الصارم المسلول ج: 3 ص: 860

الرب إياه وقد كان في لغة من قبلنا يسمى الرب ابا فكان فيه كفر بالله من هذا الوجه ولكن ليس هذا كمن جحد الخالق بالكلية¹

جناح ذل من الرحمة لا جناح ذل من العجز والضعف

قال تعالى { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } {23} وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا } {24} رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا } {25} الإسراء 23-25 قوله تعالى { وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ } الإسراء 24 فيقال لا ريب ان الذل ليس له جناح مثل جناح الطائر كما انه ليس للطائر جناح مثل اجنحة الملائكة ولا جناح الذل مثل جناح السفر لكن جناح الانسان جانبه كما ان جناح الطير جانبه والولد مامور بان يخفض جانبه لابيويه ويكون ذلك على وجه الذل لهما لا على وجه الخفض الذي لا ذل معه وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم { وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } الشعراء 215 ولم يقل جناح الذل فالرسول امر بخفض جناحه وهو جانبه والولد امر بخفض جناحه ذلا فلا بد مع خفض جناحه ان يذل لابيويه بخلاف الرسول فانه لم يؤمر بالذل فاقتران الفاظ القرآن تدل على اقتران معانيه واعطاء كل معنى حقه ثم انه سبحانه كمل ذلك بقوله قال تعالى { وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا } الإسراء 24 فهو جناح ذل من الرحمة لا جناح ذل من العجز والضعف اذ الاول مجمود والثاني مذموم²

اطلق الله ذكر الاصناف وليس في اللفظ ما يدل على التسوية

قال تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا } الإسراء 26 وقد قال الله تعالى في آية الخمس { فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } الأنفال 41 ومثل ذلك في آية الفية { مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } الحشر 7 وقال في آية الصدقات { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ } التوبة 60 الآية فاطلق الله ذكر الاصناف وليس في اللفظ ما يدل على التسوية بل على خلافها فمن أوجب باللفظ التسوية فقد قال ما يخالف الكتاب والسنة إلا ترى أن الله لما قال { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ } البقرة 177 وقال تعالى { وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ } النساء 8 وقال تعالى { وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 356

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 465

مَعْلُومٌ {24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {25} المعارج 24-25 وقال تعالى { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ
وَالْمُعْتَرَّ {الحج 36} وأمثال ذلك لم تكن التسوية في شيء من هذه المواضع واجبة بل ولا مستحبة
في أكثر هذه المواضع سواء كان الاعطاء واجبا أو مستحبا بل بحسب المصلحة ونحن اذا
قلنا في الهدى والاضحية يستحب ان يأكل ثلثا ويتصدق بثلث فانما ذلك إذا لم يكن هناك سبب يوجب
التفضيل والا فلو قدر كثرة الفقراء لاستحبنا الصدقة بأكثر من الثلث وكذلك إذا قدر كثرة من
يهدى ا على الفقراء وكذلك الأكل فحيث كان الأخذ بالحاجة أو المنفعة كان الاعتبار بالحاجة والمنفعة
بحسب ما يقع بخلاف الموارد فانها قسمت بالأنساب التي لا يختلف فيها أهلها فان إسم الإبن يتناول
الكبير والصغير والقوى والضعيف ولم يكن الأخذ لا لحاجته ولا لمنفعته بل لمجرد نسبه فلهذا سوى
فيها بين الجنس الواحد وأما هذه المواضع فالأخذ فيها بالحاجة والمنفعة فلا يجوز أن تكون
التسوية بين الاصناف لا واجبة ولا مستحبة بل العطاء بحسب الحاجة والمنفعة كما كان أصل
الاستحقاق معلقا بذلك والواو تقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم المذكور
والمذكور أنه لا يستحق الصدقة إلا هؤلاء فيشتركون في أنها حلال لهم وليس إذا اشتركوا في الحكم
المذكور وهو مطلق الحل يشتركون في التسوية فان اللفظ لا يدل على هذا بحال ومثله يقال
في كلام الواقف والموصي وكان بعض الواقفين قد وقف على المدرس والمعيد والقيم والفقهاء
والمتفقهة وجرى الكلام في ذلك فقلنا يعطى بحسب المصلحة فطلب المدرس الخمس بناء على هذا
الظن فقليل له فاعطى القيم أيضا الخمس لأنه نظير المدرس فظهر بطلان حجته آخره والحمد لله رب
العالمين¹

"المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا يفتن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس

الحافا "

قال تعالى { **وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا** {الإسراء 26} ففي الحديث
الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمررة والتمرتان ولكن
المسكين الذي لا يجد غنا يغنيه ولا يفتن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس الحافا فهم كانوا يعرفون
المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبي صلى الله
عليه وسلم أن الذي يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له
بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من
يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذي
يجب أن يقدم في العطاء فانه مسكين قطعاً وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله²

" لو صدق السائل ما أفلح من رده "

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 259

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 301

قال تعالى { **وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا** } الإسراء 26 التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى في اكبى سورة في القرآن { الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } 2 { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } 3 البقرة 1-3 الى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 وقال { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } البقرة 177 وهذه الآية عظيمة جليله القدر من أعظم آي القرآن واجمعه لامر الدين وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن خصال الايمان فنزلت وفي الترمذي عن فاطمة بنت قيس عنه أنه قال ان في المال حقا سوى الزكاة وقرأ هذه الآية وقد دلت على امور أحدها انه اخبر ان الفاعلين لهذه الامور هم المتقون وعامة هذه الامور فعل مأمور به الثاني انه اخبر ان هذه الامور هي البر واهلها هم الصادقون يعنى في قوله آمنا وعامتها امور وجودية هي افعال مأمور بها فعلم أن المأمور به أدخل في البر والتقوى والايمان من عدم المنهى عنه وبهذه الاسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } 13 { وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } 14 الانطار 13-14 وقال { أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } ص 28 { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } القمر 54 وقال { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ } السجدة 18 وهذه الخصال المذكورة في الآية قد دلت على وجوبها لأنه اخبر ان اهلها هم الذين صدقوا في قولهم وهم المتقون والصدق واجب والايمان واجب ايجاب حقوق سوى الزكاة وقوله { فَافْرُقُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا } المزملة 20 وقوله لبنى اسرائيل { لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتكم برسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً المائدة 12 وقوله { لئن تتألو البر حتى تنفقوا مما تحبون } آل عمران 92 وقوله { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم } النساء 36 وقوله { **وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا** } الإسراء 26 فى سبحان والروم { **فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** } الروم 38 فاتيان ذى القربى حقه صله الرحم والمسكين اطعام الجائع وابن السبيل قرى الضيف وفي الرقاب فكاك العانى واليتيم نوع من اطعام الفقير وفى البخارى عن النبي عودوا المريض واطعموا الجائع وفكوا العانى وفى الحديث الذى أفتى به أحمد لو صدق السائل ما أفلح من رده ¹

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 132-134

بذل المال لا يجوز إلا لمنفعة في الدين أو الدنيا

قال تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا {26} إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {27} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا {28} } الإسراء 26-28 أن بذل المال لا يجوز إلا لمنفعة في الدين أو الدنيا وهذا أصل متفق عليه بين العلماء ومن خرج عن ذلك كان سفيها وحجر عليه عند جمهور العلماء الذين يحجرون على السفيه وكان مبدرا لماله وقد نهى الله في كتابه عن تبذير المال { وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا { الإسراء 26 } وهو انفاقه في غير مصلحة وكان مضيعا لماله وقد نهى النبي عن اضاءة المال في الحديث المتفق عليه عن المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وقد قال الله تعالى في كتابه { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا { النساء 5 } وقد قال كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم هذا مثل توكيل السفيه وهو أن يدفع الرجل ماله إلى ولده السفيه أو امرأته السفيهة فينفقان عليه ويكون تحت أمرهما وقال آخرون ذلك أن يسلم إلى السفيه مال نفسه فإن الله نهى عن تسليم مال نفسه إليه إلا إذا أونس منه الرشد والآية تدل على النوعين كليهما فقد نهى الله أن يجعل السفيه متصرفا لنفسه أو لغيره بالوكالة أو الولاية وصرح المال فيما لا ينفع في الدين ولا الدنيا من أعظم السفه فيكون ذلك منهيها عنه في الشرع¹

الإسراف في المباحات منهي عنه

قال تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا {26} إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {27} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا {28} } الإسراء 26-28 ما حرمه الله ورسوله كالحرير فإنه يثاب على تركه كما يعاقب على فعله وثبت عن النبي أنه قال من يلبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وقال عن الحرير والذهب هذا حرام على ذكور امتي حل لإناثها وأما المباحات فيثاب على ترك فضولها وهو مالا يحتاج إليه لمصلحة دينه كما ان الإسراف في المباحات منهي عنه كما قال تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا { الفرقان 67 } وقال تعالى عن اصحاب النار { إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ {45} وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ {46} الواقعة 45-46 وقال تعالى { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا { الإسراء 29 } }

وقال تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا {26} إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {27} } الإسراء 26-27 والإسراف في المباحات هو مجاوزة الحد وهو من العدوان المحرم وترك فضولها هو من الزهد المباح وأما الإمتناع من فعل المباحات مطلقا كالذى يمتنع من أكل اللحم وأكل الخبز أو شرب الماء أو لبس الكتان والقطن ولا يلبس إلا الصوف ويمتنع من نكاح النساء ويظن أن هذا من الزهد المستحب فهذا جاهل ضال من

¹مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 32

جنس زهاد النصارى قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } {87} وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ } {88} المائدة 87-88 نزلت هذه الآية بسبب أن جماعة من الصحابة كانوا قد عزموا على ترك أكل الطيبات كاللحم ونحوه وترك النكاح وفي الصحيحين عن أنس أن النبي قال ما بال رجال يقول احدهم أما أنا فأصوم ولا أفطر ويقول الآخر أما أنا فأقوم ولا أنام ويقول الآخر أما أنا فلا أكل اللحم لكنى أصوم وأفطر واقوم وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني وفي صحيح البخارى أن النبي رأى رجلاً قائماً فى الشمس فقال ما هذا قالوا هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي مروه أن يستظل وأن يتكلم وأن يجلس ويتم صومه وقد قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } البقرة 172 فأمر بالأكل من الطيبات والشكر له والطيب هو ما ينفع الإنسان وحرمة الخبائث وهو ما يضره وأمر بشكره وهو العمل بطاعته بفعل المأمور وترك المحذور وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال إن الله ليرضى على العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وقال تعالى { كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا } المؤمنون 51 فمن اكل من الطيبات ولم يشكر ولم يعمل صالحاً كان معاقباً على ما تركه من الواجبات ولم تحل له الطيبات فإنه إنما أحلها لمن يستعين بها على طاعته لا لمن يستعين بها على معصيته كما قال تعالى { لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } المائدة 93 وقال الخليل { وَارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } البقرة 126 ولهذا لا يجوز أن يعان الإنسان بالمباحات على المعاصى مثل من يعطى الخبز واللحم لمن يشرب عليه الخمر ويستعين به على الفواحش ومن حرم الطيبات التى أحلها الله من الطعام واللباس والنكاح وغير ذلك وإعتقد أن ترك ذلك مطلقاً هو أفضل من فعله لمن يستعين به على طاعة الله كان معتدياً معاقباً على تحريمه ما أحل الله ورسوله وعلى تعبد الله تعالى بالرهبانية ورغبته عن سنة رسول الله وعلى ما فرط فيه من الواجبات وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وكذلك من أسرف فى بعض العبادات كسر الصوم ومداومة قيام الليل حتى يضعفه ذلك عن بعض الواجبات كان مستحقاً للعقاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو إن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزوجك عليك حقا فآت كل ذى حق حقه فاصل الدين فعل الواجبات وترك المحرمات فما تقرب العبد إلى الله بأفضل من أداء ما افترض عليه ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه فالنوافل المستحبة التى لا تمنع الواجبات مما يرفع الله بها الدرجات وترك فضول المباحات وهو ما لا يحتاج إليها لفعل واجب ولا مستحب مع الإيثار بها مما يثيب الله فاعله عليه ومن تركها لمجرد البخل لا للتقرب إلى الله لم يكن محموداً ومن إمتنع عن نوع من الأنواع التى اباحها الله على وجه التقرب بتركها فهو مخطيء ضال ومن تناول ما اباحه الله من الطعام واللباس مظهراً لنعمة الله مستعينا على طاعة الله كان مثاباً على ذلك وقوله تعالى { ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } التكاثر 8 أي عن شكر النعيم فيطالب العبد بأداء شكر نعمة الله على النعيم فإن الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح وإنما يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور وهذه القواعد الجامعة تبيين المسائل المذكورة وغيرها¹

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 133-137

" ما كان الرفق في شئ إلا زانه ولا كان العنف في شئ إلا شاناه "

قال تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا {26} إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {27} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا {28} } الإسراء 26-28 فليس حسن النية بالرعية والاحسان اليهم ان يفعل ما يهونه ويترك ما يكرهونه فقد قال الله تعالى { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } المؤمنون 71 وقال تعالى للصحابه { وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ } الحجرات 7 وإنما الاحسان اليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه لكن ينبغي له ان يرفق بهم فيما يكرهونه ففي الصحيحين عن النبي انه قال ما كان الرفق في شئ إلا زانه ولا كان العنف في شئ إلا شاناه وقال إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول والله انى لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق فأخاف ان ينفروا عنها فأصبر حتى تجئ الحلوة من الدنيا فأخرجها معها فاذا نفروا لهذه سكنوا لهذه وهكذا كان النبي إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول وسأله مرة بعض أقاربه أن يوليه على الصدقات ويرزقه منها فقال ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد فمنعهم إياها وعوضهم من الفئ وتحاكم اليه على وزيد وجعفر في ابنه حمزة فلم يقض بها لواحد منهم ولكن قضى بها لخالتها ثم إنه طيب قلب كل واحد منهم بكلمة حسنة فقال لعلى أنت منى وأنا منك وقال لجعفر أشبهت خلقى وخلقى وقال لزبد انت أخونا ومولانا فكهذا ينبغي لولى الأمر فى قسمه وحكمه فان الناس دائما يسألون ولى الأمر ما لا يصلح بذله من الولايات والأموال والمنافع والأجور والشفاعة فى الحدود وغير ذلك فيعوضهم من جهة أخرى إن أمكن أو يردهم بميسور من القول مالم يحتج إلى الاغلاظ فان رد السائل يؤلمه خصوصا من يحتاج الى تأليفه وقد قال الله تعالى { وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ } الضحى 10 وقال الله تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا } الإسراء 26 إلى قوله { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا } الإسراء 28 وإذا حكم على شخص فانه قد يتأذى فاذا طيب نفسه بما يصلح من القول والعمل كان ذلك تمام السياسة وهو نظير ما يعطيه الطبيب للمريض من الطب الذى يسوغ الدواء الكريه وقد قال الله لموسى عليه السلام لما أرسله إلى فرعون { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } طه 44 وقال النبي لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعري رضى الله عنهما لما بعثهما إلى اليمن يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا وبال مرة أعرابى فى المسجد فقام أصحابه اليه فقال لاتزرموه ألاتقطعوا عليه بوله ثم أمر بدلو من ماء فصب عليه وقال النبي إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين والحديثان فى الصحيحين وهذا يحتاج اليه الرجل فى سياسة نفسه وأهل بيته ورعيته فان النفوس لاتقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التى هى محتاجة اليها فتكون تلك الحظوظ عباده لله وطاعة له مع النية الصالحة ألا ترى ان الأكل والشرب واللباس واجب على الانسان حتى لو اضطر الى الميتة وجب عليه الأكل عند عامة العلماء فان لم يأكل حتى مات دخل النار لأن العبادات لاتؤدى غلا بهذا ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولهذا كانت نفقة الإنسان على نفسه وأهله مقدمه على غيرها ففي السنن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله تصدقوا فقال رجل يارسول

الله عندي دينار فقال تصدق به على نفسك قال عندي آخر قال تصدق به على زوجتك قال عندي آخر قال تصدق به على ولدك قال عندي آخر قال تصدق به على خادمك قال عندي آخر قال انت أبصر به وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجر الذي أنفقته على أهلك وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى وهذا تأويل قوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ } البقرة 219 أى الفضل وذلك لأن نفقة الرجل على نفسه وأهله فرض عين بخلاف النفقة في الغزو والمساكين فإنه في الأصل إما فرض على الكفاية وإما مستحب وإن كان قد يصير متعيناً إذا لم يقم غيره به فإن إطعام الجائع واجب ولهذا جاء في الحديث لو صدق السائل لما أفلح من رده ذكره الإمام أحمد وذكر أنه إذا علم صدقه وجب إطعامه وقد روى أبو حاتم البستي في صحيحه حديث أبي ذر رضى الله عنه الطويل عن النبي الذى فيه من أنواع العلم والحكمة وفيه أنه كان في حكمة آل داود عليه السلام حق على العاقل ان تكون له أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها بأصحابه الذين يخبرونه بعيوبه ويحدثونه عن ذات نفسه وساعة يخلو فيها بلذته فيما يحل ويجمل فان في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات فبين أنه لا بد من اللذات المباحة الجميلة فإنها تعين على تلك الأمور ولهذا ذكر الفقهاء ان العدالة هي الصلاح في الدين والمروءة باستعمال ما يجمله ويزينه وتجنب ما يدينسه ويشينه وكان ابو الدرداء رضى الله عنه يقول إني لأستجم نفس بالشئ من الباطل لأستعين به على الحق والله سبحانه إنما خلق اللذات والشهوات في الأصل لتمام مصلحة الخلق فإنه بذلك يجتلبون ما ينفعهم كما خلق الغضب ليدفعوا به ما يضرهم وحرم من الشهوات ما يضر تناوله وذم من اقتصر عليها فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة ولهذا جاء في الحديث الصحيح ان النبي قال في بضع أحدكم صدقة قالوا يارسول الله آياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه وزر قالوا بلى قال فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك والآثار في هذا كثيرة فالمؤمن إذا كانت له نية أنت على عامة أفعاله وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته والمنافق لفساد قلبه ونيته يعاقب على ما يظهره من العبادات رياء فان في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب وكما ان العقوبات شرعت داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات فقد شرع أيضاً كل ما يعين على ذلك فينبغى تيسير طريق الخير والطاعة والاعانة عليه والترغيب فيه بكل ممكن مثل أن يبذل لولده وأهله أو رعيته ما يرغبهم في العمل الصالح من مال أو ثناء أو غيره ولهذا شرعت المسابقة بالخيول والابل والمناضلة بالسهام وأخذ جعل عليها لما فيه من الترغيب في إعداد القوة ورباط الخيل للجهاد في سبيل الله حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يسابق بين الخيل هو وخلفاؤه الراشدون ويخرجون الأسباق من بيت المال وكذلك عطاء المؤلفة قلوبهم فقد

روى أن الرجل كان يسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجئ آخر النهار إلا والاسلام أحب اليه مما طلعت عليه الشمس¹

لا بد من اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه

قال تعالى {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} {29} إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {30} {الإسراء 29-30} سمي الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الأسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الإضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} {البقرة 255} وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} {الروم 19} وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم الله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} {الروم 19} اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان إذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه ببسط اليدين فقال {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} {المائدة 64} ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} {الإسراء 29} وليس اليد كاليد ولا البسط كالبسط وإذا كان المراد بالبسط الاعطاء والجود فليس اعطاء الله كاعطاء خلقه ولا جوده كجودهم فلا بد من اثبات ما اثبته الله لنفسه ونفى مماثلته بخلقه²

مفهوم المخالفة ودليل الخطاب

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 364-367 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 114

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 15

قال تعالى { **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** }
الإسراء 31 خص الله ورسوله اشياء بالذكر لوقوعها في ذلك الزمان مثل قوله { **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ**
خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ } **الإسراء 31** وقوله { **مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**
{ المائدة 54 ونحو ذلك ومثل تعيين النبي قبائل من الانصار وتخصيصه اسلم وغفار وجهينة وتميم
واسد وغطفان وغيرهم باحكام لمعان قامت بهم وكل من وجدت فيه تلك المعانى الحق بهم لان
التخصيص بالذكر لم يكن لاختصاصهم بالحكم بل لحاجة المخاطبين اذ ذاك الى تعيينهم هذا اذا لم
تكن الفاظه شاملة لهم¹

قال تعالى { **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** }
الإسراء 31 نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق لأنه هو الواقع وان كان قتلهم لا يجوز مع عدم
خشية الاملاق²

قال الله تعالى { **وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ** } {8} **بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** } {9} التكوير 8-9 وفى الصحيحين عن
ابن مسعود عن النبي أنه قيل له أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى قال أن
تقتل ولدك خشية أن يطعم معك وإذا كان الله قد حرم قتل الولد مع الحاجة وخشية الفقر فلأن يحرم
قتله بدون ذلك أولى وأحرى³

قوله تعالى { **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ** } **الإسراء 31** فإنه خص هذه الصورة بالنهي لأنها هي
الواقعة لا لأن التحريم يختص بها وكذلك قوله { **وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ**
{ البقرة 283 فذكر الزمن في هذه الصورة للحاجة مع أنه قد ثبت سائل أن النبي صلى الله عليه وسلم
مات ودرعه مرهونة فهذا رهن في الحضر⁴

فإن تخصيص بعض العام بالذكر إذا كان له سبب يقتضي التخصيص لم يدل على أن ما سوى
المذكور مخالفة وهذا الذي يسمى مفهوم المخالفة ودليل الخطاب والناس كلهم متفقون على أن
التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن للاسم اللقب مفهوم
بل ولا للصفة كقوله قال تعالى { **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ**
خِطْئًا كَبِيرًا } **الإسراء 31** فإنه نهاهم عن ذلك لأنه هو الذي كانوا يفعلونه وقد حرم في موضع
آخر قتل النفس بغير الحق سواء كان ولدا أو غيره ولم يكن ذلك مناقضا لتخصيص الولد بالذكر⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 476-477

²مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 332

³مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 162

⁴الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 413-414

⁵مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 380-381

اسم الخاطيء فلم يجيء في القرآن الا للائم بمعنى الخطيئة

قال تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } الإسراء 31 ولفظ الخطأ يستعمل في العمد وفي غير العمد قال تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } الإسراء 31 والا كثرون يقرؤون خطأ على وزن رداً وعلماً وقرأ ابن عامر خط على وزن عملاً كلفظ الخطأ في قوله { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا } النساء 92 وقرأ ابن كثير خطأ على وزن هجاء وقرأ ابن رزين خطأ على وزن شراباً وقرأ الحسن وقتادة خطا على وزن قتلا وقرأ الزهري خطا بلا همز على وزن عدى قال الاخفش خطى يخطأ بمعنى أذنب وليس معنى أخطأ لان اخطأ في ما لم يصنعه عمدا يقول فيما اتيته عمدا خطيت وفيما لم يتعمده أخطأت وكذلك قال أبو بكر ابن الانباري الخطأ الاثم يقال قد خطا يخطا اذا اثم وأخطأ يخطيء اذا فارق الصواب وكذلك قال ابن الانباري في قوله { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ } يوسف 91 فان المفسرين كابن عباس وغيره قالوا لمذنبين آثمين في أمرك وهو كما قالوا فانهم قالوا { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } يوسف 97 وكذلك قال العزيز لامرأته { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يوسف 29 قال ابن الانباري ولهذا اختير خاطئين على مخطئين وان كان اخطأ على ألسن الناس اكثر من خطا يخطى لان معنى خطا يخطى فهو خاطيء اثم ومعنى أخطأ يخطيء ترك الصواب ولم ياتم قال عبادك يخطئون وأنت رب تكفل المنايا والحنوم وقال الفراء الخطأ الاثم الخطا والخطا والخطا ممدود ثلاث اللغات قلت يقال في العمد خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر فيقال لغير المتعمد أخطأت كما يقال له خطيت ولفظ الخطيئة من هذا ومنه قوله تعالى { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا } نوح 25 وقول السحرة { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ } الشعراء 51 ومنه قوله في الحديث الصحيح الالهي يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي أنه كان يقول في دعائه اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول قال أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد والذين قالوا كل مجتهد مصيب والمجتهد لا يكون على خطأ وكرهوا أن يقال للمجتهد إنه أخطأ هم وكثير من العامة يكره أن يقال عن إمام كبير إنه أخطأ وقوله أخطأ لأن هذا اللفظ يستعمل في الذنب كقراءة بن عامر إنه كان خطأ كبيرا ولأنه يقال في العامد أخطأ يخطيء كما قال يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم فصار لفظ الخطا والخطأ قد يتناول النوعين كما يخض غير العامل وأما لفظ الخطيئة فلا يستعمل إلا في الاثم والمشهور أن لفظ الخطأ يفارق العمد كما قال تعالى { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ } النساء 92 الآية ثم قال بعد ذلك { وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ } النساء 93 وقد بين الفقهاء أن الخطأ ينقسم إلى خطأ في الفعل وإلى خطأ في القصد فالأول أن يقصد الرمي إلى ما

يجوز رميه من صيد وهدف فيخطيء بها وهذا فيه الكفارة والدية والثاني أن يخطى في قصده لعدم العلم كما أخطأ هناك لضعف القوة وهو أن يرمى من يعتقده مباح الدم ويكون معصوم الدم كمن قتل رجلا في صفوف الكفار ثم تبين أنه كان مسلما والخطأ في العلم هو من هذا النوع ولهذا قيل في أحد القولين إنه لا دية فيه لأنه مأمور به بخلاف الأول وأيضاً فقد قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } الأحزاب 5 ففرق بين النوعين وقال تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 وقد ثبت في الصحيح ان الله تعالى قال قد فعلت فلفظ الخطأ وأخطأ عند الاطلاق يتناول غير العائد وإذا ذكر مع النسيان أو ذكر في مقابلة العائد كان نصا فيه وقد يراد به مع القرينة العمد أو العمد والخطأ جميعا كما في قراءة ابن عامر وفي الحديث الالهي إن كان لفظه كما يرويه عامة المحدثين تخطئون بالضم واما اسم الخاطيء فلم يجيء في القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة كقوله { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يوسف 29 وقوله { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ } يوسف 91 وقوله { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } يوسف 97 وقوله { لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ } الحاقة 37 قال تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } {30} وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } {31} الإسراء 30-31¹

الله سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش

قال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } الإسراء 32 قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم فعلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال فإن كان الظاهر مزيئا مجملا بحال الباطن أحبه الله وإن كان مقبحا مدنسا بقبح الباطن أبغضه الله فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش وأهل جمال الصورة يبتلون بالفاحشة كثيرا واسمها ضد الجمال فإن الله سماه فاحشة وسوءا وفسادا وخبيثا فقال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } الإسراء 32²

الأفعال فيها صفات تقتضي الحسن والقبح باعتبار ملاءمتها ومنافرتها

قال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } الإسراء 32 أن الأحكام للأفعال ليست من الصفات اللازمة بل هي من العارضة للأفعال بحسب ملاءمتها ومنافرتها فالحسن والقبح بمعنى كون الشيء محبوبا ومكروها ونافعا وضارا وملائما ومنافرا وهذه صفة ثبوتية للموصوف لكنها تنتوع بتنوع أحواله فليست لازمة له ومن قال إن الأفعال ليس فيها صفات تقتضي الحسن والقبح فهو

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 20

²الاستقامة ج: 1 ص: 357

بمنزلة قوله ليس في الأجسام صفات تقتضي التسخين والتبريد والإشباع والإرواء فسلب صفات الأعيان المقتضية للآثار كسلب صفات الأفعال المقتضية للآثار وأما جمهور المسلمين الذين يثبتون طبائع الأعيان وصفاتها فهكذا يثبتون ما في الأفعال من حسن وقبح باعتبار ملاءمتها ومنافرتها كما قال تعالى { يَاْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } الأعراف 157 فدل ذلك على أن الفعل في نفسه معروف ومنكر والمطعم طيب وخبيث ولو كان لا صفة للأعيان والأفعال إلا بتعلق الأمر والنهي لكان التقدير يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم ويحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم والله منزه عن مثل هذا الكلام¹

أن الله بين في كتابه و على لسان رسوله حكمته في خلقه و أمره كقوله { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } الإسراء 32 فعلل التحريم بأنها فاحشة بدون النهي و أن ذلك علة للنهي عنها و قوله { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ } الأعراف 28 فذكر براءته من هذا على وجه المدح له بذلك وتنزيهه عن ذلك فدل على أن من الأمور ما لا يجوز أن يضاف إلى الله الأمر به ليست الأشياء كلها مستوية في أنفسها و لا عنده و أنه لا يخصص المأمور على المحذور لمجرد التحكم بل يخصص المأمور بالأمر و المحذور بالحظر لما اقتضته حكمته²

و الفاحشة أريد بها كشف السوءات فيستدل به على أن في الأفعال السيئة من الصفات ما يمنع أمر الشرع بها فإنه اخبر عن نفسه في سياق الإنكار عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء فدل ذلك على أنه منزه عنه فلو كان جائزا عليه لم ينتزه عنه فعلم أنه لا يجوز عليه الأمر بالفحشاء وذلك لا يكون إلا إذا كان الفعل في نفسه سيئا فعلم أن كلما كان في نفسه فاحشة فإن الله لا يجوز عليه الأمر به وهذا قول من يثبت للأفعال في نفسها صفات الحسن والسوء كما يقوله أكثر العلماء كالتميمين وأبي الخطاب خلاف قول من يقول إن ذلك لا يثبت قط إلا بخطاب وكذلك قوله { وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } الإسراء 32 علل النهي عنه بما إشتهل عليه من أنه فاحشة وأنه ساء سبيلا فلو كان إنما صار فاحشة وساء سبيلا بالنهي لما صح ذلك لأن العلة تسبق المعلول لا تتبعه ومثل ذلك كثير في القرآن وأما في الأمر فقوله { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 216 دليل على أنه أمر به لأنه خير لنا ولأن الله علم فيه ما لم نعلمه ومثله قوله في آية الطهور { وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } المائدة 6 دليل على أنه أمر بالطهور لما فيه من الصلاح لنا وهذا أيضا في القرآن كثير³

النظر إلى العورات حرام

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 178

² مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 181

³ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 8-9

قال تعالى { **وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** } الإسراء 32 والنظر إلى العورات حرام داخل في قوله تعالى { **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ** } الأعراف 33 وفي قوله { **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ** } الأنعام 151 فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المباشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك وكما في قصة لوط { **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** } الأعراف 80 { **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** } النمل 54 وقوله { **وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** } الإسراء 32 فالفاحشة أيضا تتناول كشف العورة وإن لم يكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى { **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا** } الأعراف 28 وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة وكانوا يقولون لا نطوف بثياب عصينا الله فيها إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون في ثيابهم وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها وإلا طاف عريانا وإن طاف بثيابه حرمت عليه فألقاها فكانت تسمى لقاء وكذلك المرأة إذا لم يحصل لها ثياب جعلت يدها على فرجها ويدها الأخرى على دبرها وطافت تقول اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله وقد سمي الله ذلك فاحشة وقوله في سياق ذلك { **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ** } الأعراف 33 يتناول كشف العورة أيضا وإبداءها ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشا فكشف الأعضاء والفعل للبصر ككشف ذلك للسمع وكل واحد من الكشفين يسمى وصفا كما قال عليه السلام لا تنعت المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها ويقال فلان يصف فلانا وثوب يصف البشرة ثم إن كل واحد من إظهار ذلك للسمع والبصر يباح للحاجة بل يستحب إذا لم يحصل المستحب أو الواجب إلا بذلك كقول النبي لما عز أنكتها وكقوله من تعزى الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا والمقصود أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح وتتناول إظهار الفعل وأعضائه وهذا كما أن ذلك يتناول ما فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى { **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا** } النساء 22 فأخبر أن هذا النكاح فاحشة وقد قيل أن هذا من الفواحش الباطنة فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة كما تتناول المباشرة بالفاحشة فإن قوله { **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ** } النساء 22 يتناول العقد والوطء وفي قوله { **مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ** } الأعراف 33 عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقا بقوله { **وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** } النور 30 وبقوله { **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ** } 5 { **إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } 6 { **المؤمنون 5-6 الآيات وقال** } { **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** } الأحزاب 35 فحفظ الفرج مثل قوله { **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** } التوبة 112 وحفظها هو صرفها عما لا يحل¹

القتل ثلاثة أنواع

قال تعالى { **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا** } الإسراء 33 وأما الحدود والحقوق التي لأدمي معين فمنها النفوس قال الله تعالى { **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } الأنعام 151 وقال تعالى { **وَمَا كَانَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 384

لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْنًا { النساء 92 الى قوله { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا { النساء 93 وقال تعالى { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا { المائدة 32 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء فالقتل ثلاثة أنواع أحدها العمد المحض وهو ان يقصد من يعلمه معصوما بما يقتل غالبا سواء كان يقتل بحده كالسيف ونحوه او بقتله كالسندان وكودين القصار او بغير ذلك كالتحريق والتغريق والالقاء من مكان شاهق والخنق إمساك الخصيتين حتى تخرج الروح وغم الوجه حتى يموت وسقى السموم ونحو ذلك من الأفعال فهذا إذا فعله وجب فيه القود وهو ان يمكن أولياء المقتول من القاتل فإن أحبوا قتلوا وإن أحبوا عفوا وإن أحبوا أخذوا الدية وليس لهم ان يقتلوا غير قاتله قال الله تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا { الإسراء 33 قيل فى التفسير لا يقتل غير قاتله وروى عن أبى شريح الخزاعى رضى الله عنه قال قال رسول الله من أصيب بدم او خبل الخبل الجراح فهو بالخيار بين إحدى ثلاث فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ان يقتل او يعفو او يأخذ الدية فمن فعل شيئا من ذلك فعاد فان له جهنم خالدا فيها أبدا رواه أهل السنن قال الترمذى حديث حسن صحيح فمن قتل بعد العفو او أخذ الدية فهو أعظم جرما ممن قتل ابتداء حتى قال بعض العلماء انه يجب قتله حدا ولا يكون أمره لأولياء المقتول قال الله تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ { البقرة 178 قال العلماء إن أولياء المقتول تغلى قلوبهم بالغيظ حتى يؤثروا ان يقتلوا القاتل وأولياءه ربما لم يرضوا بقتل القاتل بل يقتلون كثيرا من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ومقدم الطائفة فيكون القاتل قد اعتدى فى الابتداء وتعدى هؤلاء فى الاستيفاء كما كان يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة فى هذه الأوقات من الأعراب والحاضرة وغيرهم وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيما أشرف من المقتول فيفضى ذلك إلى أن أولياء المقتول يقتلون من قدروا عليه من أولياء القاتل ربما حالف هؤلاء قوما واستعانوا بهم وهؤلاء قوما فيفضى الى الفتن والعداوات العظيمة وسبب ذلك خروجهم عن سنن العدل الذى هو القصاص فى القتل فكتب الله علينا القصاص وهو المساواة والمعادلة فى القتل وأخبر ان فيه حياة فانه يحقن دم غير القاتل من أولياء الرجلين وأيضا فاذا علم من يريد القتل أنه يقتل كفى عن القتل وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وعمر بن شبيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم ألا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أهل السنن فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المسلمين تتكافأ دماؤهم أى تتساوى وتتعدل فلا يفضل عربى على عجمى ولا قرشى او هاشمى على غيره من المسلمين ولا حر اصلى على مولى عتيق ولا عالم او أمير على أمى او مأمور وهذا متفق عليه بين المسلمين بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود فانه كان بقرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم صنفان من اليهود قريظة والنضير وكانت النضير تفضل على قريظة فى الدماء فتحاكموا الى النبي فى ذلك وفى حد الزنا فانهم كانوا قد غيروه من الرجم إلى التحميم وقالوا إن حكم بينكم بذلك كان لكم حجة والا فانتم قد تركتم حكم التوراة فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ { المائدة 41 إلى قوله { فَإِنْ جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ

بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ { المائدة 42 } إلى قوله { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } {44} وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ {45} المائدة 44-45 فبين سبحانه وتعالى أنه سوى بين نفوسهم ولم يفضل منهم نفساً على أخرى كما كانوا يفعلونه إلى قوله { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ } المائدة 48 إلى قوله { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة 50 فحكم الله سبحانه في دماء المسلمين أنها كلها سواء خلاف ما عليه أهل الجاهلية وأكثر سبب الأهواء الواقعة بين الناس في البوادي والحوضر إنما هو البغى وترك العدل فإن إحدى الطائفتين قد يصيب بعضها بعضاً من الأخرى إما ما لا أو تعلق عليهم بالباطل ولا تنصفها ولا تقتصر الأخرى على استيفاء الحق فالواجب في كتاب الله الحكم بين الناس في الدماء والأموال وغيرها بالقسط الذي أمر الله به ومحو ما كان عليه كثير من الناس من حكم الجاهلية وإذا أصلح مصلح بينهما فليصلح بالعدل كما قال الله تعالى { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } {9} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } {10} الحجرات 9-10 وينبغي أن يطلب العفو من أولياء المقتول فإنه أفضل لهم كما قال تعالى { وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } المائدة 45 قال أنس رضي الله عنه ما رفع إلى رسول الله أمر فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو رواه أبو داود وغيره وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله وهذا الذي ذكرناه من التكافؤ هو في المسلم الحر مع المسلم الحر فأما الذمي فجمهور العلماء على أنه ليس بكفء للمسلم كما أن المستأمن الذي يقدم من بلاد الكفار رسولاً أو تاجراً ونحو ذلك ليس بكفء له وفاقاً ومنهم من يقول بل هو كفء له وكذلك النزاع في قتل الحر بالعبد والنوع الثاني الخطأ الذي يشبه العمد قال النبي إلا إن في قتل الخطأ شبه العمد ما كان في السوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون خلفه في بطونها أولادها سماه شبه العمد لأنه قصد العدوان عليه بالضرب لكنه لا يقتل غالباً فقد تعمد العدوان ولم يتعمد ما يقتل والثالث الخطأ المحض وما يجري مجراه مثل أن يرمى صيداً أو هدفاً فيصيب إنساناً بغير علمه ولا قصده فهذا ليس فيه قود وإنما فيه الدية والكفارة وهنا مسائل كثيرة معروفة في كتب أهل العلم وبينهم¹

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

قال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {الإسراء 34} وقد دلت سنة رسول الله على أن الولاية أمانة يجب أدائها في مواضع مثل ماتقدم ومثل قوله لأبي ذر رضي الله عنه في الامارة إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها رواه مسلم وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 373-378 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 122-124

رضى الله عنه ان النبي قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قيل يا رسول الله وما إضاعتهما قال إذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة وقد أجمع المسلمون على معنى هذا فان وصي اليتيم وناظر الوقف ووكيل الرجل في ماله عليه أن يتصرف له بالأصلح فالأصلح كما قال الله تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} {الأنعام 152} ولم يقل إلا بالتي هي حسنة وذلك لأن الوالى راع على الناس بمنزلة راعى الغنم كما قال النبي كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

فالامام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتهما والولد راع فى مال ابيه وهو مسئول عن رعيته والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته أخرجاه فى الصحيحين وقال ما من راع يستر عيه الله رعيه يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة رواه مسلم¹

اليتيم فى الأدميين من فقد أباه

قال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {الإسراء 34} اليتيم فى الأدميين من فقد أباه لأن أباه هو الذى يهذبه ويرزقه وينصره بموجب الطبع المخلوق ولهذا كان تابعا فى الدين لو والده وكان نفقته عليه وحضانتة عليه والانفاق هو الرزق و الحضانة هى النصر لأنها الايواء ودفع الأذى فإذا عدم أبوه طمعت النفوس فيه لأن الانسان ظلوم جهول والمظلوم عاجز ضعيف فتقوى جهة الفساد من جهة قوة المقتضى ومن جهة ضعف المانع ويتولد عنه فسادان ضرر اليتيم الذى لا دافع عنه ولا يحسن اليه وفجور الأدمى الذى لا وازع له فلهذا أعظم الله أمر اليتامى فى كتابه فى آيات كثيرة مثل قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ} {البقرة 83} وقوله {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} {البقرة 177} الى قوله {وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ نُوحِي الْفُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ} {البقرة 177} وقوله {قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ} {البقرة 215}²

جعل الشرع بلوغ الأشد حدا للتكليف

قال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {الإسراء 34} لأن الله انما علق الأحكام ببلوغ الحلم بقوله تعالى {وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ} {النساء 6} وقوله تعالى {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ} {النور 59} وقوله تعالى { حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } {الأنعام 152} وقول النبي صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن الصبي حتى يحتلم لكن لما كان بلوغ الحلم خفيا عن غير المحتلم وكان ذلك غالبا يكون مع بلوغ خمسة عشر و إنبات

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 250-251 و السياسة الشرعية ج: 1 ص: 13

²مجموع الفتاوى ج: 34 ص: 110

شعر العانة جعل مظنته علامة قائمة مقامه في الأحكام التي تتعلق بغير هذا البالغ من الحدود و القصاص و الجهاد و الحجر و غير ذلك إذ كانوا لا يطلقون على الحقيقة غالباً فأما ما بينه و بين الله فإنه يعلم وقت احتلامه و لأن هذه الأمور تتكرر قبل الإحتلام و بعده فجاز إن يجعل ما يقارب الإحتلام في حكمه احتياطاً و عموماً و هذا لأن الصبي في الأصل لما كان مظنة نقص العقل و ضعف البنية جعل الشرع بلوغ الأشد حداً للتكليف لأن مظنة استكمال شرائطه غالباً¹

الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها

والشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنتهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَاأَخْدُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } {الأعراف 145} وقال { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } {الزمر 55} فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ } {الزمر 18} فاقضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {34} { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوتُوا بِالْقِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } {35} {الإسراء 34-35} ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجباً والثاني محرماً وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسييء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجباً فقوله تعالى { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } {الزمر 55} هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحذور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما أمر بالإحسان في قوله تعالى { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } {البقرة 195} والإحسان منه واجب ومنه مستحب²

عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه

قال تعالى { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {الإسراء 34} قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } {المائدة 1} و العقود هي العهود و قال تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا } {الأنعام 152} و قال تعالى { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } {الإسراء 34} و قال تعالى { وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ } {الأنعام 152}

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 47-48

² الجواب الصحيح ج: 6 ص: 18-19

مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا {الأحزاب15} فقد أمر سبحانه بالوفاء بالعقود و هذا عام و كذلك أمر بالوفاء بعهد الله و بالعهد و قد دخل في ذلك ما عقده المرء على نفسه بدليل قوله {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ {الأحزاب15} فدل على ان عهد الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه و ان لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه قبل العهد كالنذر و البيع إنما أمر بالوفاء به و لهذا قرنه بالصدق في قوله { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا {الأنعام152} لأن العدل في القول خبر يتعلق بالماضي و الحاضر و الوفاء بالعهد يكون في القول المتعلق بالمستقبل كما قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ {75} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ {76} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ {77} التوبة75-77¹

العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال

قال تعالى { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا {34} وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {35} {الإسراء34-35}

والعدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال وإنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط²

بخس المكيال و الميزان فهو من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب

قال تعالى { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا {34} وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {35} {الإسراء34-35} وقال الله تعالى { وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ {1} الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ {2} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ {3} } {المطففين1-3} وقال في قصة شعيب { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ {181} وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ {182} وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ {183} } {الشعراء181-183} وقال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا {النساء107} وقال { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَائِبِينَ {يوسف52} وفي الصحيحين عن حكيم بن حزام قال قال رسول الله ﷺ البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما في بيعها وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام فقال أصابته السماء با رسول الله ﷺ قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غشنا فليس منا وفي رواية من غشني فليس مني فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان الغاش ليس بداخل في مطلق اسم أهل الدين والايمان كما قال لا يزني الزاني حين بزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 138-139

²الصفدية ج: 2 ص: 328

حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فسلبه حقيقة الايمان التي بها يستحق حصول الثواب والنجاة من العقاب وان كان معه أصل الايمان الذي يفارق به الكفار ويخرج به من النار والغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع مثل ان يكون ظاهر المبيع خيرا من باطنه كالذي مر عليه النبي وأنكر عليه ويدخل في الصناعات مثل الذين يصنعون المطعومات من الخبز والطبخ والعدس والشواء وغير ذلك او يصنعون الملابس كالنساجين والخياطين ونحوهم او يصنعون غير ذلك من الصناعات فيجب نهيمهم عن الغش والخيانة والكتمان¹

أما بخس المكيال و الميزان فهو من الأعمال التي أهلك الله بها قوم شعيب و قص علينا قصتهم في غير موضع من القرآن لنعتر بذلك و الاصرار على ذلك من أعظم الكبائر و صاحبه مستوجب تغليظ العقوبة و ينبغي أن يؤخذ منه ما بخسه من أموال المسلمين على طول الزمان و يصرف في مصالح المسلمين اذا لم يمكن إعادته الى أصحابه و الكيال و الوزان الذي يبخر الغير هو ضامن محروم مأثوم و هو من أخسر الناس صفقة اذ باع آخرته بدنيا غيره و لا يحل أن يجعل بين الناس كيالا أو و زانا يبخر أو يحابي كما لا يحل أن يكون بينهم مقوم يحابي بحيث يكيل أو يزن أو يقوم لمن يرجوه أو يخاف من شره أو يكون له جاه و نحوه بخلاف ما يكيل أو يزن أو يقوم لغيرهم أو يظلم من يبغضه و يزيد من يحبه قال الله تعالى { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } الأنعام 152 و قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } النساء 135 و الله أعلم²

القول بلا علم حرام بالنص والإجماع

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 لا يجوز لأحد أن يفقه ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لا يعلم قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 وقال تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّبْغِيَّ بَعِيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 وقال تعالى { أَلَمْ يُوْحَدْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } الأعراف 169 وقال تعالى { لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } النساء 171 وقد قالت الملائكة لما قال لهم { أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {31} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } {32} البقرة 31-32 وقد قال موسى للخضر { أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُدًا } {الكهف 66} وقال

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 71

²مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 474

الحضر لموسى لما نقر العصفور في البحر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر¹

وقد حرم الله على الرجل أن ينفى ما ليس له به علم وجرم عليه أن يقول على الله ما لا يعلم واخبر ان الذي يأمر بالقول بغير علم هو الشيطان فقال {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 169²

والكلام يجب ان يكون بالعلم والقسط فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} الإسراء 36 وفي قوله تعالى { وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ} النساء 135 وفي قوله تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا } الأنعام 152 وفي قوله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} الحديد 25³

فإن الله حرم القول بلا علم عموماً وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال {كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} المائدة 8⁴

والله تعالى قد حرم القول بغير علم فكيف إذا كان المعروف ضد ما قاله⁵

أن القول بلا علم حرام بالنص والإجماع قال تعالى {هَأَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ} آل عمران 66 و قال {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الحج 3 و قال {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا} غافر 35 والسلطان الذي أتاهم هو الحجة الآتية من عند الله كما قال {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} الروم 35 و قال {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ} 156 {فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 230

²مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 192 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 309

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 441

⁴مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 103 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 346

⁵منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 76

صَادِقِينَ {157} الصافات 156- 157 و قال {إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} {النجم 23} فما جاءت به الرسل عن الله فهو سلطان فالقرآن سلطان والسنة سلطان لكن لا يعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء به إلا بالنقل الصادق عن الله فكل من احتج بشيء منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم فعليه أن يعلم صحته قبل أن يعتد به ويستدل به وإذا احتج به على غيره فعليه بيان صحته وإلا كان قائلاً بلا علم¹

ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة ودل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة وما علمه قال به وما لم يعلمه امسك عنه ولا يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لم يعلم فان الله تعالى قد حرم ذلك كله²

التكلف في العلم والقول من المنكر المذموم في الشرع والعقل

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا } {الإسراء 36} وهناك من كلامهم غالبه لا يخلو من تكلف اما في العلم واما في القول فاما ان يتكلفوا علم ما لا يعلمونه فيتكلمون بغير علم او يكون الشيء معلوما لهم فيتكلمون من بيانه ما هو زيادة وحشو وعناء وتطويل طريق وهذا من المنكر المذموم في الشرع والعقل قال تعالى { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } {ص 86} وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال ايها الناس من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل لا اعلم فان من العلم ان يقول الرجل لما لا يعلم لا اعلم وقد ذم الله القول بغير علم في كتابه كقوله تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } {الإسراء 36} لا سيما القول على الله كقوله تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {الأعراف 33} وكذلك ذم الكلام الكثير الذي لا فائدة فيه وامر بأن نقول القول السديد والقول البليغ³

¹ منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 61

² مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 335

³ مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 43

القلوب آنية الله في ارضه فأحبها إلى الله تعالى أرقها واصفاها

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 فقد أخبر أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده ونهاه أن يقول ما ليس له به علم¹

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء كما خلق له العين يرى بها الأشياء والاذن يسمع بها الأشياء كما خلق سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال فاليد للبطش والرجل للسعى واللسان للنطق والقدم للذوق والانف للشم والجلد للمس وكذلك سائر الباطنة والظاهرة فإذا استعمل العضو فيما خلق له واعد لاجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السموات والارض وكان ذلك خيرا وصلاحا لذلك العضو ولربه وللشيء الذي استعمل منه وذلك الانسان الصالح هو الذي استقام حاله و { أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } لقمان 5 وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطلا فذلك خسران وصاحبه مغبون وإن استعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال وصاحبه من الذين بدلوا نعمة كفرا ثم ان سيد الاعضاء ورأسها هو القلب كما سمي قلبا قال النبي صلى الله **إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب (التأكد من نص الحديث)** وقال صلى الله عليه وسلم الاسلام علانيه والايمان في القلب ثم اشار بيده الى صدره وقال الا إن التقوى ها هنا الا إن التقوى ها هنا وإذ قد خلق القلب لان يعلم به فتوجهه نحو الاشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنظر كما ان اقبال الاذن على الكلام ابتغاء سمعه هو الاصغاء والاستماع وانصراف الطرف الى الاشياء طلبا لرؤيتها هو النظر فالفكر للقلب كالاصغاء للأذن ومثله نظر العينين فيما سبق وإذا علم ما نظر فيه فذلك مطلوبه كما أن الأذن كذلك إذا سمعت ما اصغت اليه او العين إذا ابصرت ما نظرت إليه وكم من ناظر مفكر لم ليحصل العلم ولم ينله كما انه كم من ناظر إلى الهلال لا يبصره ومستمع إلى صوت لا يسمعه وعكسه من يؤتى علما بشيء لم ينظر فيه ولم تسبق منه إليه سابقة تفكير فيه كمن فاجأه رؤية الهلال من غير قصد غليه او سمع قولا من غير قصد إليه او سمع قولا من غير أن يصغى إليه وذلك كله لا لأن القلب بنفسه يقبل العلم وإنما الأمر موقوف على شرائط واستعداد قد يكون فعلا من الانسان فيكون مطلوبا وقد يأتي فضلا من الله فيكون موهوبا فصلاح القلب وحقه والذي خلق من أجله هو ان يعقل الاشياء لا اقول أن يعلمها فقط فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلا له بل غافلا عنه ملغيا له والذي يعقل الشيء هو الذي يقيده ويضبطه ويعيه ويثبته في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنيا فيطابق عمله قوله وباطنه ظاهره وذلك هو الذي أوتى الحكمة { وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا } البقرة 269 وقال أبو الدرداء إن من الناس من يؤتى علما ولا يؤتى حكما وان شداد بن أوس ممن أوتى علما وحكما وهذا مع أن الناس متبانيون في نفس عقلم الأشياء من بين كامل وناقص وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك ثم هذه الأعضاء الثلاثة هي امهات ما ينال به العلم ويدرك أعنى العلم الذي يمتاز به البشر سائر الحيوانات

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 218

دون ما يشاركها فيه من الشم والذوق واللمس وهنا يدرك به ما يحب ويكره وما يميز به بين من يحسن إليه ومن يشيء إليه الى غير ذلك قال الله تعالى {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} النحل 78 وقال {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} السجدة 9 وقال {وَلَا تَفْفُؤْا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} الإسراء 36 وقال {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً} الأحقاف 26 وقال {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} البقرة 7 وقال فيما لكل عضو من هذه الاعضاء من العمل والقوة {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا} الأعراف 179 ثم ان العين تقصر عن القلب والأذن وتفارقهما في شيء وهو انها إنما يرى صاحبها بها الاشياء الحاضرة والامور الجسمانية مثل الصور والاشخاص فاما القلب والاذن فيعلم الانسان بهما ما غاب عنه وما لا مجال للبصر فيه من الاشياء الروحانية والمعلومات المعنوية ثم بعد ذلك يفترقان فالقلب يعقل الاشياء بنفسه إذ كان العلم هو غذاء وخاصيته اما الاذن فإنها تحمل الكلام المشتمل على العلم الى القلب فهي بنفسها إنما تحمل القول والكلام فإذا وصل ذلك إلى القلب اخذ منه ما فيه من العلم فصاحب في حقيقة الامر هو القلب وإنما سائر الاعضاء حجب له توصل إليه من الاخبار مالم يكن ليأخذه بنفسه حتى ان من فقد شيئاً من هذه الاعضاء فانه يفقد بفقد من العلم ما كان هو الواسطة فيه فالأصم لا يعلم ما في الكلام من العلم والضرير لا يدري ما تحتوى عليه الاشخاص من الحكمة البالغة وكذلك من نظر الى الاشياء بغير قلب او استمع الى كلمات اهل العلم بغير قلب فانه لا يعقل شيئاً فمداتر الامر على القلب وعند هذا تسيين الحكمة في قوله تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} الحج 46 حتى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السوابق فإن قياس الكلام هنا في امور غائبة وحكمة معقولة من عواقب الامور لا مجال لنظر العين فيها ومثله قوله {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ} الفرقان 44 وتبين حقيقة الامر في قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق 37 فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين اما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه فذلك صاحب القلب او رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤدبه فهذا اصغى {أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق 37 اي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد او أوتي العلم وكان له ذكري وتبين قوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} يونس 42 {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} 42 {وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} 43 {يونس 42-43} وقوله {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} الأنعام 25 ثم إذا كان حق القلب ان يعلم الحق فان الله هو الحق المبين {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} يونس 32 إذ كان كل ما يقع عليه لمحة ناظر او يجول في لفنة خاطر فالله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه لا يحيط علماً إلا بما هو من آياته البينة في ارضه وسمائه واصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شيء ما خلا الله باطل أي ما من شيء من الأشياء إذا نظرت إليه من جهة نفسه إلا وجدته الى العدم وما هو فقير إلى الحي القيوم فإذا نظرت إليه وقد تولته يد العناية بتقدير من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى رأيته حينئذ موجوداً مكسواً حلال الفضل والاحسان فقد استبان ان القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام اظنه سليمان الخواص رحمه الله قال الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا أو كما قال فإذا كان القلب مشغولاً بالله

عاقلا للحق متفكرا في العلم فقد وضع في موضعه كما ان العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها إما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يوع فيه الحق فقد نسي ربه فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج ان نقول قد وضع في موضع غير موضعه بل لم يوضع اصلا فإن موضعه هو الحق وما سوى الحق باطل فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل والباطل ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء احرى أن لا يكون موضعا والقلب هو نفسه لا يقبل الا الحق فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له سنة الله { وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } الفتح 23 وهو مع ذلك ليس بمتروك مخلى فإنه لا يزال في أودية الأفكار وأقطار الأماني لا يكون على حال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق موضوع لا موضع له وهذا من العجب فسبحان ربنا العزيز الحكيم وإنما تتكشف للانسان هذه الحال عند رجوعه إلى الحق اما في الدنيا عند الانابة أو عند المنقلب إلى الآخرة فيرى سوى الحال التي كان عليها وكيف كان قلبه ضالا عن الحق هذا إذا صرف في الباطل فأما لو ترك وحاله التي فطر عليها فارغا عن كل ذكر خاليا عن كل فكر فقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه ويرى الحق الذي لا ريب فيه فيؤمن بربه وينيب إليه فإن كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء لا يحس فيها من جدع { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } الروم 30 وإنما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء ثم الهوى قد يعترض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق كما قيل حبك الشيء يعمى ويصم فيبقى في ظلمة الأفكار وكثيرا ما يكون ذلك عن كبر يمنعه عن ان يطلب الحق { فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } النحل 22 وقد يعرض له الهوى بعد أن عرف الحق فيجده ويعرض عنه كما قال ربنا سبحانه فيهم { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } الأعراف 146 ثم القلب العلم كالاناء للماء والوعاء للغسل والوادي للسيل كما قال تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } الرعد 17 الآية وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثني الله به الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبئت الكأ والعشب الكثير وكانت منها اجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا واصاب منها طائفة إنما قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كالأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما ارسلت به ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به وفي حديث كميل بن زياد عن علي رضي الله عنه قال القلوب او عية فخيرها او عاها وبلغنا عن بعض السلف قال القلوب آنية الله في ارضه فأحبها إلى الله تعالى أرقها واصفاها وهذا مثل حسن فان القلب إذا كان رقيقا لينا كان قبوله للعلم سهلا يسيرا ورسخ العلم فيه وثبت واثر وأن كان قاسيا غليظا كان قبوله للعلم صعبا عسيرا ولا بد مع ذلك أن يكون زكيا صافيا سليما حتى يزكو فيه العلم ويثمر ثمرا طيبا والا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث افسد ذلك العلم وكان كالدغل في الزرع ان لم يمنع الحب من ان ينبت منعه من أن يزكو ويطيب وهذا بين لأولى الأبصار و تلخيص هذه الجملة أنه إذا استعمل في الحق فله وجهان وجه مقبل على الحق ومن هذا الوجه يقال له وعاء واناء لأن ذلك يستوجب ما يوعى فيه ويوضع فيه وهذه الصفة صفة وجود وثبوت و وجه معرض عن الباطل ومن هذا الوجه يقال له زكي وسليم و ظاهر لأن هذه السماء تدل على عدم الشر وانتفاء الخبث والدغل وهذه الصفة صفة عدم ونفي وبهذا يتبين أنه إذا صرف إلى الباطل فله وجهان

كذلك وجه الوجود أنه منصرف إلى الباطل مشغول به و وجه العدم أنه معرض عن الحق غير قابل له وهذا يبين من البيان والحسن والصدق ما في قوله إذا ما وضعت القلب في غير موضع بغير إناء فهو قلب مضيع فإنه لما أراد أن يبين حال من ضيع قلبه فظلم نفسه بأن اشتغل بالباطل وملاً به قلبه حتى لم يبق فيه متسع للحق ولا سبيل له إلى الولوج فيه ذكر ذلك منه فوصف حال هذا القلب بوجهيه ونعته بمذهبيه فذكر أولاً وصف الوجود منه فقال إذا ما وضعت القلب في غير موضع يقول إذا شغلته بما لم فصرفته إلى الباطل حتى صار موضوعاً فيه ثم الباطل على منزلتين أحدهما تشغل عن الحق ولا تعانده مثل الأفكار والهموم التي في علائق الدنيا وشهوات النفس و الثانية تعاند الحق وتصد عنه مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك بل القلب لم يخلق إلا لذكر الله فما سوى ذلك فليس موضعاً له ثم ذكر ثانياً وصف العدم فيه فقال بغير إناء ثم يقول إذا وضعته بغير إناء ضيعته ولا إناء معك كما تقول حضرت المجلس بلا محبرة فالكلمة حال من الواضع لا من الموضوع والله أعلم وبيان هذه الجملة والله أعلم أنه يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع فقد شغل بالباطل ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق وينزل إليه الذكر والعلم الذي هو حق القلب فقلبك إذا مضيع ضيعته من وجهي التضييع وان كانا متحدين من جهة أنك وضعته في غير موضع ومن جهة أنه لا إناء معك يكون وعاء للحق الذي يجب أن يعطاه كما لو قيل لملك قد اقبل على اللهو إذا اشتغلت بغير المملكة وليس في المملكة من يدبرها فهو ملك ضائع لكن الإناء هنا هو القلب بعينه وإنما كان ذلك لأن القلب لا ينوب عنه غيره فيما يجب أن يوضع فيه { وَلَا تَرُرْ وَازِرَةٌ وُزِّرَ أُخْرَى } الأنعام 164 وإنما خرج الكلام في صورة اثنين بذكر نعتين لشيء واحد كما جاء نحوه في قوله تعالى { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ } {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ } {4} آل عمران 3-4 قال قتادة والربيع هو القرآن فرق بين الحلال والحرام والحق والباطل وهذا لأن الشيء الواحد إذا كان له وصفان كبيران فهو مع وصف واحد كالشيء الواحد ومع الوصفين بمنزلة الاثنين حتى لو كثرت صفاته لتتنزل منزلة اشخاص ألا ترى أن الرجل الذي يحسن الحساب والطب يكون بمنزلة حاسب وطبيب والرجل الذي يحسن النجارة والبناء بمنزلة نجار وبناء والقلب لما كان يقبل الذكر والعلم فهو بمنزلة الإناء الذي يوضع فيه الماء وإنما ذكر في هذا البيت الإناء من بين سائر أسماء القلب لأنه هو الذي يكون رقيقاً وصافياً وهو الذي يأتي به المستطعم المستعطى في منزلة البائس الفقير ولما كان ينصرف عن الباطل فهو زكي وسليم فكأنه اثنان وليتبيين في الصورة أن الإناء غير القلب فهو يقول إذا وضعت قلبك في غير موضع وهو الذي يوضع فيه الذكر والعلم ولم يكن معك إناء يوضع فيه المطلوب فمثلك مثل رجل بلغه أن غنياً يفرق على الناس طعاماً وكان له زبدية أو سكرجة فتركها ثم اقبل يطلب طعاماً فقيل له هات إناء نعطيك طعاماً فأما إذا أتيت وقد وضعت زبديتك مثلاً في البيت وليس معك إناء نعطيك فلا تأخذ شيئاً فرجعت بخفي حنين وإذا تأمل من له بصيرة بأساليب البيان وتصاريف اللسان وجد موقع هذا الكلام من العربية والحكمة كليهما موقعا حسناً بليغاً فإن نقيض هذه الحال المذكورة أن يكون القلب مقبلاً على الحق والعلم والذكر معرضاً عن غير ذلك وتلك هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام فإن الحنف هو اقبال القدم وميلها إلى اختها فالحنف الميل عن الشيء بالاقبال على آخر فالدين الحنيف هو الاقبال على الله وحده والأعراض عما سواه وهو الاخلاص الذي

ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا الله اللهم ثبتنا عليها في الدنيا والآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله وهذا آخر ما حضر في هذا الوقت والله أعلم وصلى الله على محمد¹

يحذر الله ممن يتكلم في الشرعيات و العقليات بلا علم

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 فليس لاحد ان يتكلم بلا علم بل يحذر ممن يتكلم في الشرعيات بلا علم وفي العقليات بلا علم فان قوما ارادوا بزعمهم نصر الشرع بعقولهم الناقصة واقبيستهم الفاسدة فكان ما فعلوه مما جرا الملحدين اعداء الدين عليه فلا للاسلام نصروا ولا لاعدائه كسروا واقوام يدعون انهم يعرفون العلوم العقلية وانها قد تخالف الشريعة وهم من اجهل الناس بالعقليات والشرعيات واكثر ما عندهم من العقليات امور قلدوا من قالها لو سئلوا عن دليل عقلي يدل عليها لعجزوا عن بيانه والجواب عما يعارضه ثم من العجائب انهم يتركون اتباع الرسل المعصومين الذين لا يقولون الا الحق ويعرضون عن تقليدهم ثم يقلدون في مخالفة ما جاءوا به من يعلمون هم انه ليس بمعصوم وانه قد يخطيء تارة ويصيب اخرى وهؤلاء عندهم امور معلومة من الحسابيات مثل وقت الكسوف والخسوف ومثل كرية الافلاك ووجود السحاب من البخاري ونحو ذلك من الامور الطبيعية والرياضية فيحتجون بها على من يظن انه من اهل الشرع فيسرع فيسرع ذلك المنتسب الى الشرع برد ما يقولونه بجهله فيكون رد ما قالوه من الحق سببا لتغييرهم عما جاء به الرسول من الحق بسبب مناظرة هذا الجاهل والله تعالى امرنا ان لا نكذب ولا نكذب بحق وانما مدح سبحانه من يصدق فيتكلم بعلم ويصدق ما يقال له من الحق قال تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ } العنكبوت 68 { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } الزمر 33 وهاتان صفتان لنوع واحد وهو من يجي بالصدق ويصدق بالحق اذا جاءه فهذا هو المحمود عند الله واما من كذب او كذب بما جاءه من الحق فذلك مذموم عند الله تعالى وكذلك قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } الإسراء 36 أي لا تقل ما ليس لك به علم { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 وقال تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 وقال تعالى { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } النجم 28 ومثل هذا متعدد في كتاب الله تعالى²

البصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 فان البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس لا يحصل له الاحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 332-337 ومجموع الفتاوى ج: 9 ص: 307-318

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 273-275

الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبية وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل من السمع والتحقيق أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس المخبر كالمعاین لكن السمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر فالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الانسان عن البهائم استطراد ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى { **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** } {الإسراء 36} وقوله تعالى { **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } {النحل 178}

يجب على الإنسان الامساك عما لا يعلم انتفاؤه وثبوته

قال تعالى { **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** } {الإسراء 36} وهذا نهى عن التكلم بلا علم وهو عام في جميع أنواع الأخبار وقد يتناول ما اخبر به الإنسان وما قد يعتقده بغير الأخبار من الدلائل والآيات والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم فلا ينفي شيئاً إلا بعلم ولا يثبتها إلا بعلم ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته وحكي عن بعض الناس أنه قال النافي ليس عليه دليل وفرق بعضهم بين العقلية والشرعية فأوجبه في العقلية دون الشرعية وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب فإن من أثبت شيئاً فقال له آخر أنا لا أعلم هذا ولا أوافقك عليه ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل كان هذا مصيباً ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفى ما أثبته غيره فقال له قولك خطأ والصواب في نفي قولك ولم يكن هذا كذا فإن هذا عليه الدليل على نفيه كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته وإذا لم يأت واحد منهما بدليل كان كلاهما بلا حجة ولهذا كان من أثبت شيئاً أو نفاه وطلب منه الحجة فلم يأت بها كان منقطعاً في المناظرة وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذ كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ولو أقام دليلاً قطعياً فعورض بما لا يفيد القطع كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم والعلم لا يعارضه الظن والبيّنات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام السوفسطائية فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً وخص الكلام على الله بقوله تعالى { **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } {الأعراف 33} ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** } {168} { **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } {169} { **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** } {170} { **البقرة 168-170** } ونهى عن اتباع خطوات الشيطان وأخبر أنه يأمر بالقول على الله بلا علم فقال { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا**

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 96

خَطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {168} إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {169} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ {170} البقرة 168- 170 وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم بقوله تعالى { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } آل عمران 66 وقوله تعالى { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ { الحجرات 6 يتناول خبر كل فاسق وإن كان كافرا لا يجوز تكذيبه إلا ببينة كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وقولوا { آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } العنكبوت 46 وهذا الذي دل عليه الكتاب والسنة من إمساك الإنسان عما لا يعلم انتفاؤه وثبوته هو ماثور عن غيره من الأنبياء كما جاء عن المسيح عليه السلام أنه قال الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين فيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه وعامة عقلاء بني آدم على هذا ولهذا لا يجوز أن يصدق بخبر منقول عن الرسول أو غيره إلا بدلالة تدل على صدقه ولا يجوز أن يكذب إلا بدلالة تدل على كذبه وعلى هذا العلم والدين

وقد تكلم العلماء و صنفوا كتباً كثيرة في الجرح والتعديل في الرجال والأحاديث فمن الناس من يعرف بالصدق والضبط فهذا هو العدل المقبول خبره ومنهم من يكون صدوقاً لكنه قد لا يحفظ ولا يضبط فيقولون في مثل هذا هو صدوق تكلم فيه من قبل حفظه ومنهم من عرف بالكذب وإذا روى الحديث من هو سيء الحفظ أو من قد يكذب لم يحكموا بذلك الحديث ولم يثبتوه ثم تارة يقوم الدليل على كذبه وتارة يتوقفون فيه لا يعلمون أصدق هو أم كذب ومثل هذا لا يعتقد ولا يثبت ولا يحتج به كالشاهد الذي شهد للمدعي وليس بعدل مرضي أو هو خصم أو متهم ظنين فهذا إذا أردت شهادته ولم تقبل لم يكن معنى ذلك الحكم بكذبه أو خطئه بل معنى ذلك أنه لا تقوم به حجة ولا يحكم به لعدم العلم بصدقه لا للعلم بكذبه والمدعى عليه إذا كان صاحب يد أو ذمته بريئة فهو حجة ترجح جانبه وقد ضم إليها الشارع اليمين كما في صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعطى الناس بدعواهم لا دعى رجال دماء قوم وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه فإذا لم يكن مع المدعي إلا مجرد دعواه فجانب المنكر أقوى من جانبه لأن معه أن الأصل في الأيدي أنها محقة والأصل براءة الذمة ولكن قد يكون المدعي صادقاً ولا يكون له حجة وهذا كثير جداً فلا يدفع بمجرد الأصل بل يحلف المنكر فيكون يمينه مع الأصل بحجة فيكون إنكار هذا مقابلاً لدعوى هذا كلاهما خبر لم يعلم صدقه فتعارضاً وترجح المنكر بالأصل فيبقى على ما كان لا يسلم بحجة للمدعى ما ادعاه بمجرد دعواه ولا تنقطع مطالبته للمدعى عليه لأنه لم يأت حجة تدفعه فإذا حلف المنكر كانت يمينه حجة فصلت الخصومة وقطعت الدعوى وإذا لم يأت المنكر باليمين بل نكل عنها ولا أتى المدعى بحجة وقف للأمر عند أكثر العلماء وعند بعضهم يقضي على المنكر بالنكول فيجعل نكوله إما بدلاً لما طلب وإما إقراراً به والأكثر يقولون بل ترد اليمين على المدعى الطالب الذي يقول إنه يعلم صدق نفسه فيما ادعاه وأنه عالم بما ادعاه فيقال له احلف وخذ فإن حلف أخذ وإلا دفعا ثم من العلماء من يرد اليمين في عامة الدعاوي ومنهم من يحكم بالنكول وإن كان المنكر يقول لا أعلم ما ادعى به وكل من الطائفتين يذكر آثاراً عن الصحابة والمنقول عن الصحابة يدل على التفصيل وهو أظهر الأقاويل وهو أنه إن كان المنكر هو العالم دون المدعي كما إذا ظهر في المبيع عيب وقد بيع بالبراءة فقال المشتري أنا لم أعلم به فإنه هنا يقال له كما قال عثمان بن عفان لابن عمر رضي الله عنهما احلف أنك بعتته وما به داء تعلمه فإن حلف وإلا قضى عليه بالنكول كما قضى عثمان على ابن

عمر بالنكول وإن كان المدعي يقول إنه يعلم ما ادعى به كمن ادعى على آخر ديناً أو عينا فقال أنا لا أعلم ما ادعيته احلف وخذ فإن لم يحلف لم يعط شيئاً والبينة في الدعاوي عند أكثر العلماء هي ما يبين الحق ويظهره ويوضحه كالدليل والآية والعلامة فمتى ترجح جانب احدهما حلف مثل أن يقيم المدعي شاهداً فإنه يحلف مع شاهده ويقضي به بشاهد ويمين كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول أكثر العلماء ومنهم من يقول اليمين دائماً في جانب المدعى عليه وكذلك لو كان في دعوى القتل لوث ولطخ وشبهة وهو علامات ترجح جانب المدعي فإن أولياء المقتول يحلفون خمسين يمينا ويقضي لهم بذلك عند أكثر العلماء كما مضت بذلك السنة وكذلك في اللعان إذا حلف الزوج وشهد أربع شهادات الله إنه لمن الصادقين ووكدها بالخامسة فقد أقام بينة على دعواه فإن التعتت المرأة وشهدت أربع شهادات مؤكدة بالخامسة أنه كاذب تعارضت البينتان والشهادتان فلم يحكم بقول واحد منهما لا يحكم بأنه قاذف ولا يحكم بأنها زانية وإن نكلت فلم تحلف فأكثر العلماء يقولون يحكم بأنها زانية وتعذب على ذلك كما دل عليه القرآن لأنه اجتمع شهادة الزوج ونكولها عن المعارضة كما اجتمع في القسامة العلامة والأيمان وكما اجتمع الشاهد واليمين وكما اجتمع في جانب المنكر الأصل واليمين فهذا ونحوه مما جاءت به الشريعة وبسطه له موضع آخر والمقصود هنا أن الخبر إن قام دليل على صدقه أو كذبه وإلا بقي مما لم يصدقه ولم يكذبه وأهل العلم بالحديث إذا قالوا هذا الحديث رواه فلان وهو مجروح أو ضعيف أو سييء الحفظ أو ممن لم تقبل روايته ونحو ذلك فهو كقول القائل هذا الشاهد مجروح أو سييء الحفظ أو ممن لا تقبل شهادته وهذا يفيد أنه لا يحكم به لا يفيد الحكم بأنه كاذب بل قد يمكن أنه صادق فلا يقال إنه كاذب إلا بحجة وإن قالوا عن الحديث إنه ضعيف فهذا مرادهم أي أنه لم يثبت ولا يحتج به ولا يجوز الحكم بصدقه ليس مرادهم أنه بمجرد ذلك يحكم بكذب الناقل وينفي ما نقله ويقول إن هذا لم يكن من غير علم منا بهذا النفي بل إن قام دليل على انتفاء ما أخبر به حكمنا بذلك وإلا سكتنا لم ننفه ولم نثبتته فهذا أصل يجب معرفته فإن كثيراً من الناس لا يميز بين ما ينفية لقيام الدليل على نفيه وبين ما لم يثبت له عدم دليل إثباته بل تراهم ما لم يعلموا إثباته فيكونون قد قفوا ما ليس لهم به علم وقالوا بأفواههم ما ليس لهم به علم وهذا كثير من أهل الاستدلال والنظر وأهل الاسناد والخبر فمن الأولين طوائف يطلبون الدليل على ثبوت الشيء فإذا لم يجدوه نفوه ومعلوم أن عدم العلم ليس علماً بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود إلا إذا كان الطالب ممن يمكنه ذلك إما بعلم أو ظن غالب فمن هؤلاء من يقول في صفات الله ما لم يقم دليل قطعي على إثباته وإلا وجب القطع بنفيه لأن صفات الله لا تثبت إلا بالقطع وخالفهم في ذلك جمهور الناس وقالوا كما لا يجوز القطع في الإثبات إلا بدليل قطعي فلا يجوز القطع في النفي إلا بدليل قطعي على النفي فلما لم يجر أن تثبت إلا بعلم فلا ننفي إلا بعلم والنافي عليه الدليل كما على المثبت الدليل قال هؤلاء هذه المسائل مبناها على القطع فإنه لا يجوز لنا التكلم فيها بالظن فإذا لم يقم القاطع قطعنا بالنفي فقول لهم هذا حجة عليكم فإنكم إذا نفيتم ما لم تعلموا نفيه تكلمتم بالظن وإذا قطعتم من غير قاطع كنتم قد تكلمتم في القطعيات بلا قاطع نفيًا كان الكلام أو إثباتاً وليس يعلم في الأدلة الشرعية أو العقلية أن كل ما لم يقم دليل سمعي أو عقلي على إثباته فإنه يجب عليكم نفيه والقطع بنفيه بل تكلمكم بهذا تكلم بلا علم ومن هنا أخطأ كثير من النظار في نفي كثير من صفات الرب وأحكامه وأفعاله حيث لم يعلموا دليلاً قطعياً يثبتها فنفوها وكانت ثابتة في نفس الأمر وقد يكون عند غيرهم دليل قطعي يثبتها ولو قدر عدم علم الناس كلهم بها فله علم لم يعلمه العباد والله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده لم يعلمها الناس وليس إذا لم يعلم ثبوت الصفة يجب أن يعلم انتفاؤها بل قد يظن ثبوتها أو انتفاؤها وقد يشك في ذلك فلا يعلم ولا يظن واحد منهما والواجب على الإنسان أن يقول لما يعلمه أعلمه ولما يظنه أظنه ولما يشك فيه أشك فيه والله تعالى لم يوجب على الإنسان أن يقطع بانتفاء

شيء إن لم يعلم أنه منتف فمن قال وجب علينا القطع بانتفاء فقد غلط وهذا بخلاف ما يناقض صفات الإثبات فإن هذا يجب نفيه عن الله فقد علم بالأدلة القطعية أن الله موصوف بصفات الكمال المناقضة للنقص مثل إنه حي قيوم بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه خالق كل شيء وربّه ومليكه وأنه غني عن كل ما سواه بكل وجه فكل من قال قولاً يناقض هذا علم أنه باطل كالذين قالوا إن له شريكا أو ولداً أو أنه يشفع عنده الشفعاء بغير إذنه ونحو ذلك مما يناقض الكمال المعلوم له وما كان من الأمور مستلزماً لوازم لو كان موجوداً فإنه يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم كالأمور التي لو كانت موجودة لوجب أن تنقل نقلاً متواتراً شائعاً فإنه يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم كما لو قال قائل إنه بني بين العراق والشام أو بين الحجاز والشام مدينة أعظم من بغداد والموصل وأصبهان ومصر دورها ثلاثة أيام ونحو ذلك فإنه يعلم كذبه فإن هذا مما تتوفر هم الناس على نقله لو كان موجوداً فإذا لم يستفرض هذا وينتشر علم أن المخبر به كاذب وكذا لو ادعى مدع أنه يوم الجمعة أو العيد قتل الخطيب ولم يصل الناس يوم الجمعة ولم يستفرض هذا وينتشر أو ادعى أنه قتل بعض ملوك الناس ولم يستفرض هذا ولم ينتشر أو ادعى أنه بعث نبي بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم أو بعد محمد جاء بكتاب مثل القرآن أو الإنجيل واتبعه خلق كثير وكذبه خلق كثير فإنه يعلم كذب هذا إذ مثل هذا لا بد أن يستفيض وينتشر وكذلك لو ادعى أن قريشاً أو غيرهم عارضوا القرآن وجاؤا بكتاب يماثل القرآن وأنهم أظهروا ذلك وأبطلوا به حجة محمد صلى الله عليه وسلم فهذا مما يقطع بكذبه لأن مثل ذلك لو وقع لكان مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله¹

أدلة الحق لا تتناقض

قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً } {الإسراء 36} قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {الأعراف 33} وقال تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {البقرة 169} وقال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } {الإسراء 36} وقال تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } {النساء 171} وقال تعالى { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } {الأعراف 169} وكما أن الإنسان لا يجوز له أن يثبت شيئاً إلا بعلم فلا يجوز له أن ينفي شيئاً إلا بعلم ولهذا كان النافي عليه الدليل كما أن المثبت عليه الدليل ومما يجب أن يعرف أن أدلة الحق لا تتناقض فلا يجوز إذا أخبر الله بشيء سواء كان الخبر اثباتاً أو نفيًا أن يكون في أخباره ما يناقض ذلك الخبر الأول ولا يكون فيما يعقل بدون الخبر ما يناقض ذلك الخبر المعقول فالأدلة المقتضية للعلم لا يجوز أن تتناقض سواء كان الدليلان سمعيين أو عقليين أو كان أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلاً وليس بدليل كمن يسمع خبراً فيظنه صحيحاً ولا يكون كذلك أو يفهم منه ما لا يدل عليه أو تقوم عنده شبهة يظنها دليلاً عقلياً وتكون باطلة التبس عليه فيها الحق بالباطل فيكذب بها ما أخبر الله به ورسوله وهذا من أسباب

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 458

ضلال من ضل من مكذبي الرسل اما مطلقا كالذين كذبوا جميع الرسل كقوم نوح و ثمود و عاد ونحوهم واما من آمن ببعض وكفر ببعض كمن آمن من اهل الكتاب ببعض الرسل دون بعض ومن آمن من الفلاسفة ببعض ما جاءت به الرسل دون بعض ومن أهل البدع من أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى من اتوا من هذا الوجه فانه قامت عندهم شبهات ظنوا انها تنفي ما أخبرت به الرسل من اسماء الله تعالى وصفاته وظنوا ان الواجب حينئذ تقديم ما رأوه على النصوص لشبهات قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضوع وبين ضلال من ضل من الجهمية المتفلسفة والمعتزلة ومن وافقهم من بعض ضلالهم¹

والله يحرم الكذب لا سيما عليه ويحرمه لكون المتكلم به يتكلم بلا علم كما قال تعالى { **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** } الإسراء 36 فحينئذ فالدليل الشرعي لا يجوز أن يعارضه دليل غير شرعي ويكون مقدما عليه بل هذا بمنزلة من يقول إن البدعة التي لم يشرعها الله تعالى تكون مقدمة على الشرعة التي أمر الله بها أو يقول الكذب مقدم على الصدق أو يقول خبر غير النبي صلى الله عليه وسلم يكون مقدما على خبر النبي أو يقول ما نهى الله عنه يكون خيرا مما أمر الله به ونحو ذلك وهذا كله ممتنع وأما الدليل الذي يكون عقليا أو سمعيا من غير أن يكون شرعيا فقد يكون راجحا تارة ومرجوحا أخرى كما أنه قد يكون دليلا صحيحا تارة ويكون شبهة فاسدة أخرى فما جاءت به الرسل عن الله تعالى إخبارا أو أمرا لا يجوز أن يعارض بشيء من الأشياء وأما ما يقوله الناس فقد يعارض بنظيره إذ قد يكون حقا تارة وباطلا أخرى وهذا مما لا ريب فيه لكن من الناس من يدخل في الأدلة الشرعية ما ليس منها كما أن منهم من يخرج منها ما هو داخل فيها والكلام هنا على جنس الأدلة لا على أعيانها

قال تعالى { **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا** }
الإسراء 37 (مواضيع عن النهي الخيلاء والكبر)²

الله سبحانه يكره ما نهى عنه

وان المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك ولا تكذيب الرسل ولا يرضى ذلك بل هو يبغض ذلك ويمقتة ويكرهه كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات ثم قال تعالى { **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** } الإسراء 38³

قال تعالى { **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** } الإسراء 38 فهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيتته وقدرته وخلقه وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله أمر بالتوحيد والاخلاص ونهى عن الاشرار بالله فأعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك قال الله تعالى { **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** } النساء 48 وقال تعالى { **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 514

²درء التعارض ج: 1 ص: 200

³النبوات ج: 1 ص: 50

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ {البقرة 165} وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله اى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك قلت ثم اى قال ان تزنى بحليلة جارك فانزل الله تصديق ذلك {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا {68} يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا {69} إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {70} الفرقان 68-70} وأمر سبحانه بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى واخبر انه يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب المقسطين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وهو يكره ما نهى عنه كما قال فى سورة سبحان {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا {الإسراء 38} وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين وامر بايتاء ذى القربى الحقوق ونهى عن التبذير وعن التقدير وان يجعل يده مغولة إلى عنقه وان يبسطها كل البسط ونهى عن قتل النفس بغير الحق وعن الزنا وعن قربان مال اليتيم الا بالتي هى احسن الى ان قال تعالى { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا {37} كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا {38} {الإسراء 37-38} وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر والعبد مأمور ان يتوب الى الله تعالى دائما قال الله تعالى { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {النور 31} وفى صحيح البخارى عن النبى انه قال أيها الناس توبوا إلى ربكم فو الذى نفسى بيده انى لا استغفر الله واتوب إليه فى اليوم اكثر من سبعين مرة¹

الله لا يرضى الكفر والفسوق والعصيان مع كون الحوادث كلها بمشيئة الله

تعالى

قال تعالى { كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا {الإسراء 38} وأما جماهير الناس من أهل الكلام والفقهاء والحديث والتصوف فيفرون بين النوعين (بين المحبة والرضا وبين الارادة) وهو قول أنمة الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم وهو قول المثبتين للقدر قبل الأشعري مثل ابن كلاب كما ذكره أبو المعالي الجويني فإن النصوص قد صرحت بأن الله لا يرضى الكفر والفسوق والعصيان ولا يجب ذلك مع كون الحوادث كلها بمشيئة الله تعالى وتأويل ذلك بمعنى لا يرضاها من المؤمنين أو لا يرضاها ولا يحبها ديناً بمعنى لا يريد بها يقتضى أن يقال لا يرضى الإيمان أي من الكافر أو لا يريد غير دين والله تعالى قد أخبر أنه يكره المعاصي بقوله {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا {الإسراء 38} وقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى كره لكم ثلاثاً قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال والأمة متفقة على أن الله يكره المنهيات دون المأمورات ويحب المأمورات دون المنهيات وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنه يمقت الكافرين ويغضب عليهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أحب إليه المدح من الله وما أحد أحب إليه العذر من الله وقال ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته وقال إن الله وتر يحب الوتر إن الله

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 252

اما قول السائل فيما و رد من الأخبار و الآيات فى الرضا بقضاء الله فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله فهو محال و قدح فى التوحيد و إن كانت بقضاء الله تعالى فكرهتها و بغضها كراهة و بغض لقضاء الله تعالى فيقال ليس فى كتاب الله و لا فى سنة رسول الله آية و لا حديث يأمر العباد أن يرضوا بكل مقضى مقدر من أفعال العباد حسنها و سيئها فهذا أصل يجب أن يعتنى به و لكن على الناس أن يرضوا بما أمر الله به فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به قال تعالى {قَلَّا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} النساء65 و قال تعالى {ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد28 و قال {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} التوبة59 و ذكر الرسول هنا يبين أن الإيتاء هو الإيتاء الدينى الشرعى لا الكونى القدرى و قال صلى الله عليه و سلم فى الحديث الصحيح ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا و بالاسلام ديناً و بمحمد نبياً و ينبغى للإنسان أن يرضى مما يقدره الله عليه من المصائب التى ليست ذنوباً مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل و أذى الخلق له فإن الصبر على المصائب و اجب و أما الرضا بها فهو مشروع لكن هل هو و اجب أو مستحب على قولين لأصحاب أحمد و غيرهم أصحهما أنه مستحب ليس بواجب و من المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب فى الله و البغض فى الله و قد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف و نحبه و نرضاه و نحب أهله و نهى عن المنكر و نبغضه و نسخطه و نبغض أهله و نجاهدهم بأيدينا و ألسنتنا و قلوبنا فكيف نتوهم أنه ليس فى المخلوقات ما نبغضه و نكرهه و قد قال تعالى لما ذكر ما ذكر من المنهيات **{كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} الإسراء38** فإذا كان الله يكرهها و هو المقدر لها فكيف لا يكرهها من أمر الله أن يكرهها و يبغضها و هو القائل {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} الحجرات7 فإذا كان الله يكرهها و هو المقدر لها فكيف لا يكرهها من أمر الله أن يكرهها و يبغضها و هو القائل {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} الحجرات7 و قال تعالى {ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} محمد28 و قد قال تعالى {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ} الزخرف55 و قال تعالى {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} الفتح6 و قال تعالى {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ} النساء108 فأخبر أن من القول الواقع مالا يرضاه و قال تعالى {وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ} النور55 و قال تعالى {وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا} المائدة3 و قال {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} الزمر7 فبين أنه يرضى الدين الذى أمر به فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة و فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال لا أحد أغير من الله أن يرضى عبده أوترضى أمته و قال إن الله يغار و المؤمن يغار و غيره الله أن يأتى العبد ما حرم عليه و لا بد فى الغيرة من كراهة ما يغار منه و بغضه و هذا باب و سع¹

لطائف لغوية

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 190-192

1- قال تعالى { وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا } الإسراء 24 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة¹

2- قال تعالى { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا } الإسراء 25 وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } الفتح 14 { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } الفتح 4 ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال²

3- قال تعالى { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا } الإسراء 26 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِنْ تَخَفُوا وَتَوَثَّوْهُمَا فَالْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } البقرة 271 وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ } المائدة 89 والثانى كقوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } التوبة 60 و هذه الأسماء التى تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان و المعروف مع العمل ومع الصدق و المنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص كلفظ الايمان و البر و التقوى و لفظ الفقير و المسكين فأبها أطلق تناول ما يتناوله الآخر³

4- قال تعالى { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا } 29 { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } 30 { الإسراء 29-30 وقبض اليد عبارة عن الإمساك وهي حقيقة عرفية ظاهرة من اللفظ أو هي مجاز مشهور⁴

5- قال تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 30 بصير منزه عن العمى⁵

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 538

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

⁴اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 36

⁵الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

6- قال تعالى { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 30
وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } الفتح 14 { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا } الفتح 4 ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال¹

7- قال تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا
فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } الإسراء 33 السلطان هو الحجة²

8- قال تعالى { وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا
فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا } الإسراء 33 فالاسراف مجاوزة الحد تعدى الحد ومجاوزة
القص³

9- قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْئُورًا } الإسراء 36 قال تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ } البقرة 121 أي يتبعونه
حق اتباعه وقال { وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا } الشمس 2 أي تبعها وهذا قفاه إذا تبعه وقد قال { وَلَا تَقْفُ مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } الإسراء 36⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 538

²الاستقامة ج: 1 ص: 22 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 695

⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75

الاسراء 39-52

{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} {39} أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} {40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} {41} قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} {42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} {43} تَسْبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} {44} وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتَ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} {47} انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} {48} وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} {49} قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} {50} أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} {51} يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} {52}

الرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة

قال تعالى { ذَلِكُمْ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا } {39} أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } {40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا } {41} قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} {الإسراء 39-43} وقال تعالى { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } النساء 59 وهو الرد الى كتاب الله أو الى سنة الرسول بعد موته وقوله { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ } {النساء 59} شرط والفعل نكرة في سياق الشرط فاي شيء تنازعوا فيه ردوه الى الله والرسول ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد اليه والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك في غير موضع وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } البقرة 129 وكان يذكر في بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواج نبيه بذكر ذلك فقال { وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ } الأحزاب 34 فأيات الله هي القرآن اذ كان نفس القرآن يدل على انه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله والحكمة قال غير واحد من السلف هي السنة وقال أيضا طائفة كمالك وغيره هي معرفة الدين والعمل به وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهي تتضمن التمييز بين الأمور والمحظور

والحق و الباطل وتعليم الحق دون الباطل وهذه السنة التي فرق بها بين الحق والباطل وبين الأعمال الحسنة من القبيحة والخير من الشر وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم انه قال تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي الا هالك وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا وهذا كثير فى الحديث والآثار يذكرونه فى الكتب التى تذكر فيها هذه الآثار كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصفونه فى السنة مثل ابن بطه واللالكائى والظلمنكى وقبلهم المصنفون فى السنة كاصحاب احمد مثل عبد الله والاثرم و حرب الكرمانى وغيرهم ومثل الخلال وغيره¹

ثبوت الكمال لله وعلوه عن الأمثال

قال تعالى { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا } {39} أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاتًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } {40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا } {41} قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {42} سُبْحَانَہُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} الإسراء 39- 43 و قد إتفق الناس على أن الله على كل شيء بمعنى أنه قاهر له قادر عليه متصرف فيه كما قال { إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ } {المؤمنون 91} و على أنه عال عن كل عيب و نقص فهو عال عن ذلك منزه عنه كما قال تعالى { ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا } {39} أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاتًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } {40} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا } {41} قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {42} سُبْحَانَہُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} الإسراء 39- 43 و قال تعالى { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } {91} عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } {92} المؤمنون 91-92 و قالت الجن { وَأَنَّہُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا } {الجن 3} و فى دعاء الإستفتاح سبحانك اللهم و بحمدك و تبارك إسمك و تعالى جدك و فى الصحيحين أنه كان يقول فى آخر إستفتاحه تباركت و تعاليت أستغفرك و أتوب إليك فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون و عما يشركون فهو متعال عن الشركاء و الأولاد كما أنه مسبح عن ذلك و تعالیه سبحانه عن الشريك هو تعالیه عن السمي و الند و المثل فلا يكون شيء مثله و قد ذكروا من معاني العلو الفضيلة كما يقال الذهب أعلى من الفضة و نفي المثل عنه يقتضى أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله و هو يتضمن أنه أفضل و خير من كل شيء كما أنه أكبر من كل شيء و فى القرآن { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ } {النمل 59} و يقول { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {النحل 17} و يقول { أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ } {يونس 35} و قالت السحرة { وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } {طه 73} و هو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله فى مواضع كقوله { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } {31}

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 174- 176

فَدَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ {32} كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {33} قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {34} قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ {35} وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ {36} بونس 31-36 وقال تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {17} وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ {18} وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ {19} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ {20} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ {21} النحل 18-21 و كذلك قوله في أثناء السورة {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْآ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {76} النحل 75-76 فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له و يبين ما إختص به من صفات الكمال و إنتقائها عما يعبد من دونه و يبين أنه يتعالى عما يشركون و عما يقولون من إثبات الأولاد و الشركاء له و قال {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا {الإسراء 42} و هم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم و يتقربون بهم لكن كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة و هذا نوع من الشرك فهذا قال تعالى {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ {الزخرف 86} فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله { إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا {الإسراء 42} يقول لإبتغت الحوائج من الله و عن معمر عن قتادة { لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا {الإسراء 42} لإبتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون و عن سعيد عن قتادة لو كان معه آلهة كما يقولون يقول لو كان معه آلهة إذا لعرفوا له فضله و مزيته عليهم و لإبتغوا إليه ما يقربهم إليه و روي عن سفيان الثوري لتعاطوا سلطانه و عن أبي بكر الهذلي عن سعيد بن جبير سبيلا إلى أن يزيلوا ملكه و الهذلي ضعيف فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء و الأولاد فليس كمثلته شيء و هذا يقتضى ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه و أنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال بل هو متعال عن أن يماثله شيء و تضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له قادر عليه نافذة مشيئته فيه و أنه عال على الجميع فوق عرشه فهذه ثلاثة أمور في إسمه العلى و إثبات علوه علوه على ما سواه و قدرته عليه و قهره يقتضى ربوبيته له و خلقه له و ذلك يستلزم ثبوت الكمال و علوه عن الأمثال يقتضى أنه لا مثل له في صفات الكمال و هذا و هذا يقتضى جميع ما يوصف به في الإثبات و النفي ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال و فى النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال و ينزه عن أن يكون له مثل فى صفات الكمال كما قد دلت على هذا و هذا سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} الإخلاص 1-2} وتعالى عن الشركاء يقتضى إختصاصه بالإلهية و أنه لا يستحق العبادة إلا هو و حده كما قال {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا {الإسراء 42} أي و إن كانوا كما يقولون يشفعون عنده بغير إذنه و يقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب و الإله دونهم وكانوا يبتغون إليه سبيلا بالعبادة له و التقرب إليه هذا أصح القولين كما قال { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا {29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ {30} الإنسان 29-30} و قال { إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ {11} فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ {12} عبس 11-12} و قال { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ {الإسراء 57} ثم قال {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا {الإسراء 43} فتعالى عن أن يكون

معه إله غيره أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه فهذا هو الذي كانوا يقولون ولم يكونوا يقولون أن آلهتهم تقدر أن تمنعه أو تغالبه بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك كما قال {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} المؤمنون 91 فقد تبين أن اسمه الأعلى يتضمن إتصافه بجميع صفات الكمال و تنزيهه عما ينافيها من صفات النقص و عن أن يكون له مثل وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه¹

فان الله كفر من جعل له من عباده جزءا²

نفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوجدانية

أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة والصفات السلبية إنما تكون كمالا إذا تضمنت أمورا وجودية ولهذا كان تسييح الرب يتضمن تنزيهه و تعظيمه جميعا فقول العبد سبحان الله يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء و هذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه ليس هو عدما محضا لا يتضمن وجودا فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم و كذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك كقوله تعالى { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثَاءً إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا } الاسراء 40 إلى قوله { إِذَا لَابِتْغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } {44} الاسراء 42-44 و قوله تعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} الصفات 180-181 و غير ذلك فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوجدانية و هو من تمام الكمال فإن ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها و لهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حبا لله من المشركين الذين يحبون غيره الذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 و هذا مبسوط في غير هذا الموضوع قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى و في الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل و لدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني بحليلة جارك و أنزل الله تعالى تصديق ذلك { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ } الفرقان 68 الآية فمن جعل لله ندا كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلهًا آخر وهذا من الشرك الأكبر³

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 121-126

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 195

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 144-147

القرآن هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة

قال تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} {الإسراء 41} وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} {الإسراء 41}¹

اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة

قال تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} {الإسراء 41} كلام الله لا يشتمل الا على حق يقين لا يشتمل على ما تمتاز به الخطابة والجدل عن البرهان بكون المقدمة مشهورة أو مسلمة غير يقينية بل اذا ضرب الله مثلا مشتملا على مقدمة مشهورة أو مسلمة فلا بد وأن تكون يقينية فأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة أو بمجرد كونها مشهورة وان لم تكن صادقة فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله الذي كله حق وصدق وهو أصدق الكلام وأحسن الحديث وليس الأمر كما يتوهمه الجهال الضلال من الكفار المتفلسفة وبعض المتكلمة من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية وعرى عن البرهانية أو اشتمل على قليل منها بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية وتكون تارة خطابية وتارة جدلية مع كونها برهانية والأقيسة العقلية التي اشتمل عليها القرآن هي الغاية في دعوة الخلق إلى الله كما قال {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} {الإسراء 89} في أول سبحان وآخرها وسورة الكهف والمثل هو القياس ولهذا اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم ونزه الله عما يوجد في كلامهم من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال²

قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {الإسراء 42} ((التفصيل في التفسير في هذا الموضوع في تفسير الروم 28 نفس المرجع والصفحات (يستشار))

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 428

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 47

فلا يحصل للعقل من القياس في الرب الا العلم بالسلب والعدم إذا كان القياس صحيحا ولهذا جاءت الأمثال المضروبة في القرآن وهي المقاييس العقلية دالة على النفي في مثل قوله قال تعالى { **قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** } الإسراء 42 وأمثال ذلك من الأمثال وهي القياسات التي مضمونها نفي الملزوم لانتفاء لازمه أو نحو ذلك¹

الله هو الإله المعبود الحق الذي كل ما سواه مفتقر إليه

قال تعالى { **قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** } الإسراء 42 والمشركون كانوا يقولون بهذا التوحيد الذي هو نفي خالقين لم يكن مشركو العرب تنازع فيه ولهذا قال الله لهم { **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** } النحل 17 فكانوا يعترفون بأن الهتهم لا تخلق ولهذا ذكر الله تعالى هذا التقرير بعد قوله { **قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } 84 { **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** } 85 { **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } 86 { **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ** } 87 { **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } 88 { **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ** } 89 { **بَلْ أَنبَأْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** } 90 { **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ** } 91 { **عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } 92 { **المؤمنون 84- 92** ولم يكن إشراكهم أنهم جعلوهم خالقين بل أن جعلوهم وسائط في العبادة فاتخذوهم شفعاء وقالوا { **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللَّهِ زُلْفَىٰ** } الزمر 3 كما قال الله تعالى عنهم { **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } يونس 18 فالذين أثبتوا فاعلا مستقلا غير الله كالفلك والأدميين وجعلوا هذه الحركات الحادثة ليست مخلوقة لله فيهم من الشرك والتعطيل ما ليس في مشركي العرب فإن مشركي العرب كانوا يقولون بالقدر وأن الله وحده خالق كل شيء ولهذا قال في الآية الأخرى { **قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** } الإسراء 42 فهم كانوا يقولون إنهم وسائل ووسائط وشفعاء لم يكونوا يقولون إنهم يخلقون كخالقه فقال تعالى { **لَوْ كَان مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** } الإسراء 42 كما قال في الآية الأخرى { **قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** } 56 { **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } 57 { **الإسراء 56- 57** فتنين أن ما يدعى من دونه من الملائكة والأنبياء وغيرهم يبتغى به الوسيلة إلى الله والتقرب إليه وذلك لأنه هو الإله المعبود الحق الذي كل ما سواه مفتقر إليه من جهة أنه ربه ليس له شيء إلا منه ومن جهة أنه إله لا منتهى لإرادته دونه فلو لم يكن هو المعبود لفسد العالم إذ لو كانت الإرادات ليس لها مراد لذاته والمراد إما لنفسه وإما لغيره والمراد لغيره لا بد أن يكون ذلك الغير مرادا حتى ينتهي الأمر إلى مراد لنفسه فكما أنه يمتنع التسلسل في العلل الفاعلية فيمتنع التسلسل في العلل الغائية وقد يظن أنه بهذا الطريق أثبت قدماء الفلاسفة أرسطو وأتباعه الأول لكنهم أثبتوه من جهة كونه علة غائية فقط لكن أولئك جعلوه علة غائية بمعنى التشبه به ولهذا قالوا الفلاسفة هي التشبهه بالإله على قدر

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 61

الطاقة لم يجعلوه معبودا محبوبا لذاته كما جاءت الرسل بذلك ولهذا كان من تعبد وتصوف على طريقتهم من المتأخرين يقعون في دعوى الربوبية والإلهية وهم في نوع من الفرعونية بل قد يعظم بعضهم فرعون ويفضلونه على موسى عليه السلام كما يوجد ذلك في كلام طائفة منهم والواجب إثبات الأمرين أنه سبحانه رب كل شيء وإله كل شيء فإذا كانت الحركات الإرادية لا تقوم إلا بمراد لذاته وبدون ذلك يفسد ولا يجوز أن يكون مرادا لذاته إلا الله كما لا يكون موجودا بذاته إلا الله علم أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وهذه الآية فيها بيان أنه لا إله إلا الله وأنه لو كان فيهما آلهة غيره لفسدتا وتلك الآية قال فيها { إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } المؤمنون 91 ووجه بيان لزوم الفساد أنه إذا قدر مدبران ما تقدم من أنه يمتنع أن يكونا غير متكافئين لكون المقهور مربوبا لا ربا وإذا كانا متكافئين امتنع التدبير منهما لا على سبيل الاتفاق ولا على سبيل الاختلاف فيفسد العالم بعدم التدبير لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك كما تقدم وهذا من جهة امتناع الربوبية لاثنتين ويلزم من امتناعهما امتناع الإلهية فإن ما لا يفعل شيئا لا يصلح أن يكون ربا يعبد ولم يأمر الله أن يعبد ولهذا بين الله امتناع الإلهية لغيره تارة ببيان أنه ليس بخالق وتارة أنه لم يأمر بذلك لنا كقوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِنِّي لَأَتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } الأحقاف 4 وذلك لأن عبادة ما سوى الله تعالى قد يقال إن الله أذن فيه لما فيه من المنفعة فبين سبحانه أنه لم يشرعه كما قال تعالى { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وهذا مبسوط في موضع آخر والمقصود هنا أن في هذه الآية بيان امتناع الألوهية من جهة الفساد الناشئ عن عبادة ما سوى الله تعالى لأنه لا صلاح للخلق إلا بالمعبود المراد لذاته من جهة غاية أفعالهم ونهاية حركاتهم وما سوى الله لا يصلح فلو كان فيهما معبود غيره لفسدتا من هذه الجهة فإنه سبحانه هو المعبود المحبوب لذاته كما أنه هو الرب خالق بمشيئته وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل ولهذا قال الله في فاتحة الكتاب { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقدم اسم الله على اسم الرب في أولها حيث قال { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الفاتحة 2 فالمعبود هو المقصود المطلوب المحبوب لذاته وهو الغاية والمعين وهو الباريء المبدع الخالق ومنه ابتداء كل شيء والغايات تحصل بالبدايات والبدايات بطلب الغايات فالإلهية هي الغاية وبها تتعلق حكمته وهو الذي يستحق لذاته أن يعبد ويحب ويحمد ويمجد وهو سبحانه يحمد نفسه ويثني على نفسه ويمجد نفسه ولا أحد أحق بذلك منه حامدا ومحمودا¹

فأما العابدون فكلهم في قلوبهم عبادة وتألّه لمن عبده و أما المعبدون فالرحمن له الإلهية و ما سواه لا الهية له بل هو ميت لا يملك لعبديه ضرا و لا نفعا { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 و هو في أصح القولين سبيلا بالتقرب بعبادته و ذكره و لهذا قال بعدها { نُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 332-335

بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} الإسراء 44 فأخبر عن الخلائق كلها أنها تسبح بحمده و قد بسط هذا في موضع آخر¹

لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها

شئ

قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 وقال الامام أبو عبدالله الحارث بن اسماعيل بن أسد المحاسبى فى كتابه المسمى فهم القرآن قال فى كلامه على الناسخ والمنسوخ وأن النسخ لا يجوز فى الأخبار قال لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله وصفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ منها شئ إلى أن قال وكذلك لا يجوز إذا أخبر أن صفاته حسنة عليا أن يخبر بذلك أنها دنية سفلى فيصف نفسه بأنه جاهل ببعض الغيب بعد أن أخبر أنه عالم بالغيب وأنه لا يبصر ما قد كان ولا يسمع الاصوات ولا قدره له ولا يتكلم ولا كلام كان منه وأنه تحت الأرض لا على العرش جل وعلا عن ذلك فإذا عرفت ذلك واستيقنته علمت ما يجوز عليه النسخ وما لا يجوز فان تلوت آية فى ظاهر تلاوتها تحسب أنها ناسخة لبعض اخباره وكذلك قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } الأنعام 18 وقوله { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 وقوله { أَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ } الملك 16 وقوله { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } فاطر 10 وقال { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } السجدة 5 وقال { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 وقال لعيسى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا } آل عمران 55 الآية وقال { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } النساء 158 وقال { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } الأعراف 206 وذكر الألوهة أن لو كان آلهة لابتغوا الى ذى العرش سبيلا حيث هو فقال { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 أى طلبه وقال { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } الأعلى 1 قال أبو عبدالله فلن ينسخ ذلك لهذا أبدا كذلك قوله { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } الزخرف 84 وقوله { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } ق 16 وقوله { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ } الأنعام 3 وقوله { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } المجادلة 7 الآية فليس هذا بناسخ لهذا ولا هذا ضد لذلك وأعلم أن هذه الآيات ليس معناها أن الله أراد الكون بذاته فيكون فى أسفل الأشياء أو ينتقل فيها لانتقالها ويتبعض فيها على أقدارها ويزول عنها عند فنائها جل وعز عن ذلك وقد نزع بذلك بعض أهل الضلال فرعموا أن الله تعالى فى كل مكان بنفسه كائنا كما هو على العرش لا فرقان بين ذلك ثم أحالوا فى النفس بعد تثبيت ما يجوز عليه فى قولهم ما نفوه لأن كل من ثبت شيئا فى المعنى ثم نفاه بالقول لم يغن عنه نفيه بلسانه واحتجوا بهذه الآيات أن الله تعالى فى كل شئ بنفسه كائنا ثم نفوا معنى ما أثبتوه فقالوا لا كالشئ فى الشئ قال ابو عبدالله لنا قوله { حَتَّىٰ نَعْلَمَ } محمد 31 { وَسِيرَىٰ اللَّهُ } التوبة 94 { إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } الشعراء 15 فانما معناها حتى يكون الموجود فيعلمه موجودا ويسمعه مسموعا ويبصره مبصرا لا على استحداث علم ولا سمع ولا بصر وأما قوله { وَإِذَا أَرَدْنَا } الإسراء 16 إذا جاء وقت كون المراد فيه

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 581

وان قوله { عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } الأنعام 18 الآية
 { أَمِنْتُمْ مِّنَ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 { إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 فهذا وغيره
 مثل قوله { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10
 هذا منقطع يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها منزه عن الدخول في خلقه لا يخفى عليه منهم
 خافية لأنه أبان في هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده لأنه قال { أَمِنْتُمْ مِّنَ فِي السَّمَاءِ }
 { يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ } الملك 16 يعني فوق العرش والعرش على السماء لأن من قد كان فوق كل
 شيء على السماء في السماء وقد قال مثل ذلك في قوله { فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ } التوبة 2 يعني على
 الأرض لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله { يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ } المائدة 26 يعني على
 الأرض لا يريد الدخول في جوفها وكذلك قوله { وَلَا صَلَبَاتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ } طه 71 يعني
 فوقها عليها وقال { أَمِنْتُمْ مِّنَ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 ثم فصل فقال { أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ
 الْأَرْضَ } الملك 16 ولم يصل فلم يكن لذلك معنى اذا فصل قوله { مِّنَ فِي السَّمَاءِ } الملك 16 ثم
 استأنف التخويف بالخسف إلا أنه على عرشه فوق السماء وقال تعالى { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ
 إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } السجدة 5 وقال { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } المعارج 4 فبين
 عروج الأمر وعروج الملائكة ثم وصف وقت صعودها بالارتفاع صاعدة اليه فقال { فِي يَوْمٍ كَانَ
 مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } المعارج 4 فقال صعودها إليه وفصله من قوله إليه كقول القائل اصعد الى
 فلان في ليلة أو يوم وذلك أنه في العلو وان صعودك إليه في يوم فاذا صعدوا الى العرش فقد صعدوا
 الى الله عز وجل وان كانوا لم يروه ولم يساوه في الارتفاع في علوه فانهم صعدوا من الأرض
 وعرجوا بالأمر الى العلو قال تعالى { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } النساء 158 ولم يقل عنده¹

الله سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش

قال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 فقد
 أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } هود 7 وقد ثبت في صحيح البخارى وغيره
 عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان الله ولم يكن شيء غيره
 وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض وفي رواية له كان
 الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء
 وفي رواية لغيره صحيحة كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر
 كل شيء وثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
 قال ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه
 على الماء وهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة
 وهو سبحانه وتعالى متمدح بأنه ذو العرش كقوله سبحانه { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا
 لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } الإسراء 42 وقوله تعالى { رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 69

أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ {15} يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ
لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ {16} غافر 15-16¹

{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا }

قال تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا {44} الإسراء 43-44
والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده²

وسورة قل هو الله أحد فيها إثبات الذات وما لها من الأسماء والصفات التي يتميز بها مثبتو الرب الخالق الأحد الصمد عن المعطلين له بالحقيقة نفاة الأسماء والصفات المضاهين لفرعون وأمثاله ممن أظهر التعطيل والجحود للإله المعبود وإن كان في الباطن يقر به كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } النمل 14 وقال موسى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } الإسراء 102 والله سبحانه بعث أنبياءه بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات ومن خالفهم من المعطلة المتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل يقولون ليس كذا لس كذا ليس كذا فإذا أرادوا إثباته قالوا وجود مطلق بشرط النفي أو بشرط الإطلاق وهم يقررون في منطقتهم اليوناني أن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج فليس في الخارج حيوان مطلق بشرط الإطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الإطلاق ولا موجود مطلق بشرط الإطلاق بخلاف المطلق لا بشرط الذي يطلق على هذا وهذا وينقسم إلى هذا وهذا فإن هذا يقال إنه في الخارج لا يكون إلا معيناً مشخفاً أو يقولون إنه الوجود المشروط بنفي كل ثبوت عنه منه فيكون مشاركا لسائر الموجودات في مسمى الوجود متميزا عنها بالعدم وكل موجود متميزا بأمر ثبوتي والوجود خير من العدم فيكون أحقر الموجودات خيرا من العدم وذلك ممتنع لأن المتميز بين الموجودين لا يكون عدما محضا بل لا يكون إلا وجودا فهؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل المتأخرين من الفلاسفة المشائين يقولون في وجود واجب الوجود ما يعلم بصريح المعقول الموافق لقوانينهم المنطقية أنه قول بامتناع وجود الواجب وأنه جمع بين النقيضين وهذا هو في غاية الجهل والضلال وأما الرسل صلوات الله عليهم فطريقتهم طريقة القرآن قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {182} الصافات 180-182 والله تعالى يخبر في كتابه أنه حي قيوم حكيم غفور رحيم سميع بصير علي عظيم خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش وكلم موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا يرضى عن

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 551

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

المؤمنين ويغضب على الكافرين إلى أمثال ذلك من الأسماء والصفات ويقول في النفي ليس كمثلته شيء ولم يكن له كفوا أحد هل تعلم له سميا فلا تجعلوا لله أندادا فنفي بذلك أن تكون صفاته كصفات المخلوقين وأنه ليس كمثلته شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في شيء من صفاته ولا أفعاله {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} {43} تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} {44} الإسراء 43- 44 فالمؤمن يؤمن بالله وما له من الأسماء الحسنی ويدعوه بها ويجتنب الإلحاد في أسمائه وآياته قال تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {الأعراف 180¹}

التحميد مقرون بالتسبيح وتابع له

وقال تعالى { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} {الإسراء 44} وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفي القرآن {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} {الحجر 98} وقالت الملائكة { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} {البقرة 30} وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد والأخرى بالتعظيم فإنما قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال والحمد إنما يكون على المحاسن وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ولا كل محبوب محمودا معظما وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل له المتضمن معنى التعظيم ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن وفيها الذل الناشئ عن عظمته وكبريائه ففيها إجلاله وإكرامه وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام ومن الناس من يحسب أن الجلال هو الصفات السلبية والإكرام الصفات الثبوتية كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظم كقوله { وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} {الحج 64} وقول سليمان عليه السلام { فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} {النمل 40} وكذلك قوله { لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ} {التغابن 1} فإن كثيرا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة فيتضمن إخبار المحاسن المحبوبة محبة له وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك فالأول يهاب ويخاف ولا يحب وهذا يحب ويحمد ولا يهاب ولا يخاف والكمال اجتماع الوصفين كما ورد في الأثر أن المؤمن رزق حلاوة ومهابة وفي نعت النبي صلى الله عليه وسلم كان من رآه بديهة هابه

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 465-467

ومن خالطه معرفة أحبه ففرن التسبيح بالتحميد وقرن التهليل بالتكبير كما في كلمات الأذان ثم أن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا افرد فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوباً بل تتضمن أنه لا يستحق أن يحب كمال الحب إلا هو والحمد لله هو الاخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق فالإلهية تتضمن كمال الحمد ولهذا كان الحمد مفتاح الخطاب وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجزم وسبحان الله فيها إثبات عظمتها كما قدمناه ولهذا قال { فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } الواقعة 74 وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم رواه أهل السنن وقال أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقم أن يستجاب لكم رواه مسلم فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم ففي قوله سبحان الله وبحمده إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده وأما قوله لا إله إلا الله والله أكبر ففي لا إله إلا الله إثبات محامده فإنها كلها داخلة في إثبات إلهيته¹

الله تبارك وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها

فإذا كان تبارك وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها ولم يمنع ذلك أن يكون خالفاً لأفعالها فلأن لا يمنع إضافة الفعل إلى الحيوان وإن كان الله خالقه بطريق الأولى فإن القدرية لا تنازع في أن الله خالق ما في الجمادات من القوى والحركات وقد أخبر الله أن الأرض تنبت وأن السحاب يحمل الماء كما قال تعالى { فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا } الذاريات 2 والريح تنقل السحاب كما قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ } الأعراف 57 وأخبر أن الريح تدمر كل شيء وأخبر أن الماء طغى بقوله تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } الحاقة 11 بل قد أخبر بما هو أبلغ من ذلك من سجد هذه الأشياء وتسبيحها كما في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } الحج 18 وهذا التفصيل يمنع حمل ذلك على أن المراد كونها مخلوقة دالة على الخالق وأن المراد شهادتها بلسان الحال فإن هذا عام لجميع الناس وقد قال تعالى { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ } سبأ 10 وقال { إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ } 18 { وَالطَّيْرَ مَحْسُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ } 19 { ص 18-19 فأخبر أن الجبال تؤوب معه والطير وأخبر أنه سخرها تسبح وقال { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ } النور 41 وقال تعالى { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّيِّعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 وقال { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوَى وَالْأَصَالِ } الرعد 15 وقال { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } البقرة 274

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 313-314 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 241

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 244-245

عبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة الإهيته سبحانه وتعالى

وقال تعالى { تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبد بل قد يجعل معه إلها آخر وأما الملائكة فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبتة وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقها فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيز بها فيقول أعود بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربو بيته وملكه وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك وهم غالطون في هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا فإن المعقول الذي لهم يعرفهم أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية وغائية والذي ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدنا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة الإهيته سبحانه وتعالى وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } الحج 18 فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعا وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبية الله تعالى إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وكذلك في قوله { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوَةِ وَالْأَصَالِ } الرعد 15 وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان

الناس فقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } الحج 17 فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا { وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا } الجن 11 وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا وقال سبحانه { أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظَلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ } 48 { وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ } 49 { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } 50 { النحل 48-50 وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } النور 41 وقال تعالى { سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الحديد 1 { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الجمعة 1¹

وقال تعالى { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 وهذا من معاني ألوهيته وخضوع الكائنات واسلامها له وافتيقارها اليه وسؤالها اياه ودعاء الخلق اياه اما دعاء عبادة واما دعاء مسألة واما دعاؤها جميعا ومن أعرض عنه وقت الاختيار { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 67 { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } النمل 62 ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه فإنه باطل الا وجهه الكريم كما نشهد أنها كلها مفتقرة اليه في مبدئها نشهد أنها مفتقرة اليه في منتهاها والا كانت باطلة²

دلالة الألفاظ على معانيها سمعية عقلية تسمى الفقه

وقال تعالى { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 لا يدل شيء من الالفاظ الا مقرونا بغيره من الالفاظ وبحال المتكلم الذي يعرف عادته بمثل ذلك الكلام والا فنفس استماع بدون المعرفة للمتكلم وعادته لا يدل على شيء اذا كانت دلالتها دلالة قصدية إرادية تدل على ما أراد المتكلم أن يدل بها عليه لا تدل بذاتها فلا بد أن تعرف ما يجب أن يريده المتكلم بها ولهذا لا يعلم بالسمع بل بالعقل مع السمع ولهذا كانت دلالة الألفاظ على معانيها سمعية عقلية تسمى الفقه ولهذا يقال لمن عرفها هو يفقه ولمن لم يعرفها لا يفقه قال تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ قَوْلَ الْكُفْرِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } النساء 78 { وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا } الكهف 93 وقال { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 25-27

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 404

وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ {الإسراء44 ولهذا كان المقصود من اصول الفقه ان يفقه مراد الله ورسوله بالكتاب والسنة¹

جعل الله الجمادات قابلة للحياة ولا يمتنع قبولها لها

وقال تعالى { تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } {الإسراء44} فالقرآن قد سمي الجماد ميتا في غير موضع كقوله تعالى { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } {20} {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } {21} {النحل20-21} الآية فسمى الأصنام أمواتا و هي حجارة و قال {وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا } يس33 و لا نسلم إمتناع قبول هذه الحياة بل الرب تعالى قد جعل الجمادات قابلة للحياة و لا يمتنع قبولها لها فإن الله تعالى قد جعل عصى موسى حية تسعى فدل على أن الخشب يمكن أن يكون حيوانا موسى لما إغتسل جعل ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه و قد أحيا الله الحوت المشوي الذي كان معه و مع فتاه و قد سيج الحسا و الطعام سيج و هو يؤكل و كان حجر يسلم على النبي صلى الله عليه و سلم و حن الجذع و الجبال سبحت مع داود و نظائر هذا كثيرة و قد قال تعالى { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } {الإسراء44}²

قال بعضهم في قوله { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } {الإسراء44} قال تسبيحه دلالة على صانعه فتوجب بذلك تسبيحا من غيره والصواب أن لها تسبيحا وسجودا بحسبها والمقصود أن فقر المخلوقات الى الخالق ودلالاتها عليه وشهادتها له أمر فطرى فطر الله عليه عباده كما فطرهم على الإقرار به³

و قد قال تعالى { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ } {الإسراء44} مذهب أهل السنة أن الله علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره ولها صلاة وتسييح وخشية⁴

سمى الله نفسه حلِيمًا وسمى بعض عباده حلِيمًا و ليس الحلِيم كالحلِيم

قال تعالى { تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } {الإسراء44} أن الله سمي نفسه وصفاته بأسماء وسمى بعض عباده وصفاته عباده بأسماء هي في حقهم نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى فسمى نفسه حلِيمًا بقوله { تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 496-497

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 26

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 47

⁴رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 42

الآية و قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا نَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ أَعْلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } {46} الإسراء 45-46¹

لفظ القرآن يراد به نفس الكلام أكثر مما يراد به فعل المتكلم

قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا نَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ أَعْلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } {46} الإسراء 45-46

اهل السنة متفقون على أن القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق وهو كلام الله الذي تكلم به ولكن تنازعوا في تلاوة العباد له هل هي القرآن نفسه أم هي الفعل لذي يقرأ به القرآن والتحقيق أن لفظ التلاوة يراد به هذا وهذا ولفظ القرآن يراد به المصدر ويراد به الكلام قال الله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } {17} فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } {18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } {19} القيامة 17-19 وفي الصحيحين عن ابن عباس قال إن علينا أن نجعله في قلبك وتقرأه بلسانك وقال أهل العربية يقال قرأت الكتاب قراءة و قرأنا و منه قول حسان ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسيحا و قرأنا وقد قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } النحل 98 و قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } الإسراء 45 و قال تعالى { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا } الأعراف 204 وهم إنما يستمعون الكلام نفسه ولا يستمعون مسمى المصدر الذي هو الفعل فإن ذلك لا يسمع وقال { فَإِذَا قَرَأْتَهُ } القيامة 18 قال ابن عباس أي قراءة جبريل { فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } القيامة 18 فاستمع له حتى يقضي قراءته والمشهور في قوله { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } النحل 98 أنه منصوب على المفعول به لكن فيها معنى المصدر أيضا كما تقدم ففيه معنى المفعول به ومعنى المصدر جميعا وقد يغلب هذا كما في قوله { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } القيامة 17 فالمراد هنا نفس مسمى المصدر وقد يغلب هذا تارة كما في قوله { فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا } الأعراف 204 وقوله { قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله } الإسراء 88 وقوله { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ } الإسراء 9 وغالب ما يذكر لفظ القرآن إنما يراد به نفس الكلام لا يراد به التكلم بالكلام الذي هو مسمى المصدر ومثل هذا كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائما وإما غالبا فيطلق الاسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة وقد يقع على أحدهما مفردا كلفظ النهر و القرية و الميزاب ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالإسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن والسكان ثم تقول حفر النهر فالمراد به المجرى و تقول جرى النهر فالمراد به الماء وتقول جرى الميزاب تعنى الماء ونصب الميزاب تعنى الخشب و قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } النحل 112 والمراد السكان فى المكان وقال تعالى { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 429-430

{الأعراف 4} وقال تعالى {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} يوسف 82 وقال تعالى {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} الكهف 59 وقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ} هود 102 وقال تعالى {لَتَنْذِرْنَا أَمْ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا} الشورى 7 وقال تعالى {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ} الحج 45 و الخاوي على عروشها المكن لا السكان وقال تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا} البقرة 259 لما كان المقصود بالقريه هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله { وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ} الأنعام 6 وقوله { وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا} الكهف 33 فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر و كذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص و سائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم وهذه الأمور لبسطها موضع آخر¹

أنزل الله القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه

قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا } 45 { وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } 46 {الإسراء 45-46}

قال أبو عبدالرحمن السلمى لقد حدثنا الذين كانوا يقرؤونا القرآن كعثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة فى تعلم البقرة ثمانى سنين وانما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه أحدها أن العادة المطردة التى جبل الله عليها بنى آدم توجب اعتناءهم بالقرآن المنزل عليهم لفظا ومعنى بل أن يكون اعتناءهم بالمعنى أوكد فانه قد علم أنه من قرأ كتابا فى الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فانه لا بد أن يكون راغبا فى فهمه وتصور معانيه فكيف بمن قرؤا كتاب الله تعالى المنزل اليهم الذى به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغى فمن المعلوم أن رغبتهم فى فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات بل اذا سمع المتعلم من العالم حديثا فانه يرغب فى فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول فى تعريفهم معانى القرآن أعظم من رغبته فى تعريفهم حروفه فان معرفة الحروف بدون المعانى لا تحصل المقصود اذا اللفظ انما يراد للمعنى الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه فى غير موضع كما قال تعالى { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ } ص 29 وقال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } محمد 24 وقال تعالى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ } المؤمنون 68 وقال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء 82 فاذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 38-39

الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكنا للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم الوجه الثالث أنه ذم من لا يفهمه فقال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} {46} الإسراء 45- 46 وقال تعالى {فَمَا لَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} النساء 78 فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضا لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى به¹

أن الله انزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه وان لم يعلم تأويله ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} الإسراء 45- 46 فقد أخبر ذما للمشركين أنه اذا قرىء عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور وجعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا فلو كان أهل العلم والايمن على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك وقوله {أَنْ يَفْقَهُوهُ} الإسراء 46 يعود الى القرآن كله فعلم أن الله يحب أن يفقه ولهذا قال الحسن البصرى ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت وماذا عنى بها وما استنتى من ذلك لا متشابهها ولا غيره وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من أوله الى آخره مرات أفف عند كل آية وأسأله عنها فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول لا يعلم تأويله الا الله يجيب مجاهدا عن كل آية في القرآن²

السماع الذى أمر الله به سماع فقه وقبول

قال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} الإسراء 45- 46

وقال تعالى {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} المائدة 83 وبهذا السماع أمر الله تعالى كما قال تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الأعراف 204 وعلى أهله أثنى كما فى قوله تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادِ} {17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} {18} الزمر 17-18 وقال فى الآية الأخرى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} المؤمنون 68 فالقول الذى أمروا بتدبره هو القول الذى أمروا باستماعه وقد قال تعالى {أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد 24 وقال تعالى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص 29 وكما أثنى على هذا السماع ذم المعرضين عن هذا السماع فقال تعالى {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 158

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 283-300

مُعْرِضِينَ {49} كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ {50} فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ {51} المدثر 49-51 وقال تعالى
 {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَى
 قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ
 نُفُورًا {46} الإسراء 45-46¹

أصل السماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سماع فقه و قبول و لهذا إنقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه و صنف سمع الصوت و لم يفقه المعنى و صنف فقهه و لكنه لم يقبله و الرابع الذي سمعه سماع فقه و قبول الأول كالذين قال فيهم {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَخْلِفُونَ} فصلت 26 و الصنف الثاني من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنى قال تعالى {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} البقرة 171 {وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} الأنعام 25 و قال تعالى {وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} {42} وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} {43} إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ} {44} يونس 42-44 و قال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} {47} الإسراء 45-47 و قال تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} الكهف 57 و قوله أن يفقهوه يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية و من فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد في الخارج و هو الأعيان و الأفعال و الصفات المقصودة بالأمر و الخير بحيث يراها و لا يعلم أنها مدلول الخطاب مثل من يعلم و صفا مذموما و يكون هو متصفا به أو بعضا من جنسه و لا يعلم أنه داخل فيه²

عاقب الله المعرض عن اتباع ما بعث به رسله بالحجاب الذي في قلوبهم

قال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} الإسراء 45-46

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 557

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 8-9

و أما أهل البدع و الضلالة من الجهمية و نحوهم فإنهم جحدوا ما في كتب الله من المعاني و حرفوا الكلم عن مواضعه أو قالوا نحن كالأمة لا نعلم الكتاب إلا أمانى أو قلوبنا غلف و قالوا لما جاء به الرسول من الكتاب و السنة نظير ما قالته الكفار { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } فصلت 5 و { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ } هود 91 وهكذا قال هؤلاء لا نفقه كثيرا مما يقول الرسول و قالوا كما قال الذين يستمعون للرسول فإذا خرجوا من عنده { قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا } محمد 16 و صاروا كالذين قيل فيهم { وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } 45 { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا } 46 { الإسراء 45- 46 فتدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل من نفي فقههم و تكذيبهم تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله و عن تدبر كتابه و اتبع ما تتلوه الشياطين و ما توحيه إلى أوليائها و الله يهدينا صراطا مستقيما¹

فإن الله عاقب المعرض عن اتباع ما بعث به رسله بالحجاب الذي في قلوبهم²

البصر والسمع هما الأصل في العلم بالمعلومات

قال تعالى { وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا } 45 { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا } 46 { الإسراء 45- 46

فإن البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس لا يحصل له الاحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبية وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل من السمع والتحقيق أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس المخبر كالمعاین لكن السمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر فالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الانسان عن البهائم استطراد ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 وقال تعالى { وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 212

²الاستقامة ج: 2 ص: 46

مَسْتُوراً {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ
وَلَوْ أَنَّ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا {46} الإسراء 45-46¹

شرع الله للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه وهو سماع القرآن

قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا {45} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا {46} الإسراء 45-46

فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه حيث أكمل الدين وأتم عليهم النعمة ورضى لهم الإسلام ديناً وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين حتى كان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم ان يقرأ والباقيون يسمعون وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون وقال النبي ص ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف فقال تعالى {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا { الإسراء 45 (الصفحات السابقة ناقصة الرجوع الى ن م الاستقامة ج: 1 ص: 308)) وكذلك زادوا في الابتداع في إنشاد القصائد فكثيراً ما ينشدون أشعار الفساق والفجار وفيهم كثير ينشدون أشعار الكفار بل ينشدون ما لا يستجيزه أكثر أهل التكذيب وإنما يقوله أعظم الناس كفراً برب العالمين وأشدهم بعداً عن الله ورسوله والمؤمنين وزادوا أيضاً في الآلات التي تستثار بها الأصوات مما يصنع بالأفواه والأيدي كأبواق اليهود ونواقيس النصارى من يبلغ المنكرات كأنواع الشبابات والصفارات وأنواع الصلاصل والأوتار المصوتات ما عظمت به الفتنة حتى ربا فيها الصغير وهرم فيها الكبير وحتى اتخذوا ذلك ديناً وديناً وجعلوه من الوظائف الراتبية بالغداه والعشى كصلاة الفجر والعصر وفي الأوقات والإماكن الفاضلات واعتاضوا به عن القرآن والصلوات وصدق فيهم قوله فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا {59} مريم 259²

القلب الميت لا يسمع ولا يبصر

قال تعالى { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا { الإسراء 46 وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله {لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} يس 70 وفي الحديث الصحيح مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت وفي الصحيح أيضاً اجعلوا من صلواتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً وفي الدعاء

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 97

²الاستقامة ج: 1 ص: 303

المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات قال النبي صلى الله عليه وسلم إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمي الربيع الفصل الذي يلي الشتاء فإن منه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الاوراق على الأشجار و القلب الحي المنور فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر وقال تعالى { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا } الإسراء 46 فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم ولا يسمعون بأذانهم ولا يؤمنون بما رأوه من النور¹

{ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا }

قال تعالى { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } الإسراء 48 فينبغي أن يتدبر هذا الموضوع وتعرف الفروق الكثيرة بين آيات الأنبياء وبين ما يشته به كما يعرف الفرق بين النبي وبين المتنبى وبين ما يجيء به النبي وما يجيء به المتنبى فالفرق الحاصل بين صفات هذا وصفات هذا وأفعال هذا وأفعال هذا وأمر هذا وأمر هذا وخبر هذا وخبر هذا وآيات هذا وآيات هذا إذ الناس محتاجون الى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم الى غيره والله تعالى يبينه وييسره ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البيّنات وكيف يشبهه خير الناس بشر الناس ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر وغيره قال تعالى { انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا } الإسراء 48²

طريقة القرآن في بيان امكان المعاد

قال تعالى { وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 49 { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا } 50 { أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } 51 { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا } 52 { الإسراء 49-52 } وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشئ على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشئ قد يكون ممتنعاً في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشئ في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابدع عن قبول الوجود موجوداً ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 10

²عقيدة الفرقة الناجية ج: 1 ص: 9

القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياءهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } البقرة 55 قال { فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {56} البقرة 55-56 وعن { الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } البقرة 243 وعن { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } البقرة 259 وعن ابراهيم اذ قال { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } البقرة 260 القصة وكما اخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله { إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ } الحج 5 والآية وقوله { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يس 79 { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } الإسراء 51 { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } الروم 27 وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فان خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما في قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } الأحقاف 33 وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما في قوله { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا } الأعراف 57 الى قوله { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } الأعراف 57 فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيرا جدا ولعل ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي في آخر عمره في كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عيلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10 وقرأ في النفي { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } طه 110 ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي¹

يستدل على امكان المعاد بالنشأة الاولى

قال تعالى { وَقَالُوا أَنِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 49 { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا } 50 { أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } 51 { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا } 52 { الإسراء 49-52 وتارة يستدل على امكان المعاد بالنشأة الاولى وان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } الحج 5 وكما في قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } 78 { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } 79 { يس 78-79 }²

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 224-225

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 320

وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيى العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } الروم 27 و يخبر أن الثانى مثل الأول كقوله تعالى { وَقَالُوا أَيُّدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 98 { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ } 99 { الاسراء 98-99 و قال تعالى { وَقَالُوا أَيُّدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 49 { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا } 50 { أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } 51 { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا } 52 { الاسراء 49-52 و قال تعالى { أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 و قال تعالى { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ الْجَبَلُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف 33¹

لطائف لغوية

- 1- قال تعالى { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } الفتح 14 { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } الفتح 4 { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال²
- 2- قال تعالى { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } الإسراء 44 حلیم منزه عن السفه³

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 259

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 538

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الاسراء 52-65

{ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا } 53 { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } 54 { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } 55 { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مَنَّ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } 58 { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } 59 { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا } 60 { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } 61 { قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } 62 { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا } 63 { وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْتِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } 64 { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } 65

المؤمن يبغى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر

قال تعالى { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا } الإسراء 53 وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبغى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذلك صريح الايمان وفى رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فصير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للمعبود إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه

والإتصال به فهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لأنه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر6 ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء82} وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا } التوبة124 وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيز منه قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل98-100 فان المستعيز بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ } {35} وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} فصلت34-36 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته في ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علمائها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماءهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسواس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

الشريعة تأمر بما تترجح مصلحته وتنهى عما ترجحت مفسدته

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 282-285

الشرائع جاء بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فهي تأمر بما تترجح مصلحته وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد وتنتهي عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة كتناول المحرمات من الخمر وغيره ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا فالأحسن إما واجب وإما مستحب قال تعالى { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَاأَئِدُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } الأعراف 145 وقال { وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } الزمر 55 فأمر باتباع الأحسن والأخذ به وقال تعالى { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ } الزمر 18 فاقضى أن غيرهم لم يهده وهذا يقتضي وجوب الأخذ بالأحسن وهو مشكل وقد تكلم الناس فيه ونظيره قوله قال تعالى { وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا } الإسراء 53 ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه أن المأمور به خير وأحسن من المنهي عنه وإن كان الأول واجبا والثاني محرما وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مفسدة مرجوحة والمنهي عنه يشتمل على مصلحة مرجوحة فيكون باعتبار ذلك في هذا خير وحسن وفي هذا شر وسييء لكن هذا خير وأحسن وإن كان واجبا فقوله تعالى { وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } الزمر 55 هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحذور وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب فإن كلاهما أحسن من المحرم والمكروه لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب كما امر بالإحسان في قوله تعالى { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } البقرة 195 والإحسان منه واجب ومنه مستحب¹

الرد على من ينكر صفات الله الاختيارية مثل المشيئة والكلام والارادة

قال تعالى { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا } الإسراء 54 وقال تعالى { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } النمل 30 فقوله تعالى { الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } النمل 30 فإن الرحمن الرحيم هو الذي يرحم العباد بمشيئته وقدرته فإن لم يكن له رحمة النفس ارادة قديمة او صفة أخرى قديمة لم يكن موصوفا بأنه يرحم من يشاء ويعذب من يشاء قال الخليل { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } 20 { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } 21 { العنكبوت 20-21 فالرحمة ضد التعذيب والتعذيب فعله وهو يكون بمشيئته كذلك الرحمة تكون بمشيئته كما قال { وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ } العنكبوت 21 والارادة القديمة اللازمة لذاته أو صفة اخرى لذاته ليست بمشيئته فلا تكون الرحمة بمشيئته وان قيل ليس بمشيئته الا المخلوقات المباينة لزم أن لا تكون صفة للرب بل تكون مخلوقة له وهو انما يتصف بما يقوم به لا يتصف بالمخلوقات فلا يكون هو الرحمن الرحيم وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وفي رواية تسبق غضبي وما كان سابقا لما يكون بعده لم يكن الا بمشيئة الرب وقدرته ومن قال ما ثم رحمة الا ارادة قديمة او ما يشبهها امتنع أن يكون له غضب مسبق بها فان الغضب ان فسر بالارادة فالارادة لم تسبق نفسها وكذلك ان فسر بصفة قديمة العين فالقديم لا يسبق بعضه بعضا وان فسر بالمخلوقات لم يتصف برحمة ولا غضب وهو قد

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 17-18

فرق بين غضبه وعقابه بقوله { فَجَزَأُوهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } النساء 93 وقوله { وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } الفتح 6 وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد عن النبي أنه كان يقول أعوذ لكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون ويدل على ذلك قوله قال تعالى { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } الإسراء 54 فعلق الرحمة بالمشيئة كما علق التعذيب وما تعلق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية¹

أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء

قال تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } الإسراء 55

ودلائل صدق النبي الصادق وكذب المنتبي الكذاب كثيرة جدا فإن من ادعى النبوة وكان صادقا فهو من أفضل خلق الله وأكملهم في العلم والدين فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه وإن كان بعضهم أفضل من بعض كما قال تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } الإسراء 55²

وقد أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وكل نبي من الأنبياء مع إخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض فدم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض³

فضل الله بعض النبيين على بعض

قال تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } الإسراء 55 وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ } الإسراء 55 ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون تارة في الكتب المنزلة عليهم

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 261- 262

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 127

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 371

وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم¹

وقال تعالى { انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِالْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا }
الاسراء 21 فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وان درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل انبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } البقرة 253 وقال تعالى { **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** } الإسراء 55 وفي صحيح مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن القوى خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وان اصابك شىء فلا تقل لو انى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان²

الزبور ذكر مفردا في موضعين من القرآن

قال تعالى { **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** } الإسراء 55 أن الله كثيرا ما يقرن في القرآن بين التوراة والإنجيل وبين القرآن وإنما يذكر الزبور مفردا والزبور ذكره مفردا في موضعين من القرآن في قوله { **وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** } الإسراء 55³

المؤمن يؤمن بالله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ويجتنب طريق المشركين

فالمؤمن يؤمن بالله وما له من الأسماء الحسنى وهو يدعو الله وحده ويعبده وحده ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ويجتنب طريق المشركين الذين قال الله تعالى فيهم { **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } {57} الإسراء 56-57⁴

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 133

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 188-189

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 243

⁴اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 468

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا {57} الإسراء 56- 57 فهو الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ولا يهدى الخلق إلا هو ولا ينصرهم إلا هو ولا يرزقهم إلا هو ولا يغنيهم إلا هو ولا يغفر ذنوبهم إلا هو قال تعالى { وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارُهُونَ } {51} ولله ما في السموات والأرض وله الدين واصبأ أفغير الله تتقون {52} وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون {53} ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون {54} ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون {55} النحل 51-55 والله تعالى قد حرم الشرك كله وإن يجعل له ندا فلا يدعى غيره لا الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحون ولا الشمس ولا القمر ولا الكواكب ولا الأوثان ولا غير ذلك بل قد بين ان من اتخذ الملائكة والنبیین أربابا فهو كافر قال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } {79} ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبیین أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون {80} آل عمران 79- 80 وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا {57} الإسراء 56-57 ذم الله سبحانه وتعالى لمن يدعو الملائكة والأنبياء وغيرهم من الصالحين وبين أن هؤلاء الذين يدعونهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله وأنهم يتقربون إلى الله بالوسيلة وهي الأعمال الصالحة ويرجون رحمته ويخافون عذابه فكيف يدعون المخلوقين ويدررون الخالق وقال تعالى { أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } {الكهف 102} وهو سبحانه وتعالى عليم بأحوال عباده رحيم بهم كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى امرأة من السبي إذا رأت ولدا ألصقته ببطنها فقال أترون هذه واضعة ولدها في النار قالوا لا يا رسول الله قال الله أرحم بعباده من هذه بولدها وهو سبحانه سميع قريب قال الله تعالى { قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ } سبأ 50 وهو تعالى رحيم ودود و الود اللطف والمحبة فهو يود عباده المؤمنين ويجعل لهم الود في القلوب كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } {مريم 96} قال ابن عباس وغيره يحبهم ويحبهم إلى عباده¹

الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحوها نقص في العقل والإعراض عنها بالكلية قدح في الشرع

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 370 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 157

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} الإسراء 56- 57 فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والمعوق له من العبد هو ذنوبه وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سببا للنجاة والسعادة فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا ب الله ولا يخاف من الله أن يظلمه فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون بل يخاف أن يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه وفي الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل على مريض فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وإلى رَبِّكَ فَارْغَبْ {8} الشرح 7- 8 فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } المائدة 23 فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ } {الحج 31} وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى { سَنَلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } آل عمران 151 والخالص من الشرك يحصل له الأمن قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ } الأنعام 82 وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا أينما لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما هذا الشرك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } لقمان 13 وقال تعالى { وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } {165} إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } {166} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } {167} البقرة 165- 167 وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} الإسراء 56- 57 ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بأن لا يعتمد عليها ولا يرجى إلا الله قال تعالى لما أنزل الملائكة { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } آل عمران 126 وقال { إِنَّ

يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
{ آل عمران 160¹

{ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ }

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} {الإسراء 56-57} **رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} {الإسراء 56-57} روى ابن ابي حاتم وغيره بأسانيد ثابتة عن شعبة عن السدي سمع ابا صالح عن ابن عباس في قول الله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة هو عيسى وامه وعزير والملائكة وكذلك في تفسير عطية عن ابن عباس قال كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا وعن اسرائيل عن السدي عن ابي صالح عيسى وعزير والملائكة وكذلك في تفسير أسباط عن السدي قال ذكروا انهم اتخذوا الالهة وهو حين عبدوا الملائكة والمسيح وعزيرا قال الله أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة وفي صحيح البخاري وغيره عن ابن مسعود قال كان ناس من الانس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك الاخرون بعبادتهم فنزلت { **أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ** } {الإسراء 56} وكذلك روى ابن ابي حاتم وغيره إن ابن شوذب عن مطر الوراق قال انزلها الله في حى من العرب كانوا يعبدون حيا من الجن وفي تفسير مقاتل إن المشركين كانوا يعبدون الملائكة ويقولون هي تشفع لنا عند الله فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين قيل لهم ادعوا الذين زعمتم والاية تتناول كل من دعى غير الله وذلك المدعو يبتغى الى الله الوسيلة اى القربى والزلفى ويرجو رحمة الله ويخاف عذابه وهذا يدخل فيه الملائكة والانبياء والصالحون الانس والجن وقد قرأ طائفة اولئك الذين تدعون فبين ان الذين يدعونهم المشركون هم يتقربون الى الله ويرجونه ويخافونه فكيف يجوز دعاؤهم وهذا كقوله { **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ** } {الكهف 102²

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية فى تفسيره أخبر الله تعالى ان هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إليه والتزلف إليه وأن هذه حقيقة حالهم والضمير فى { **رَبِّهِمْ** } {الإسراء 57} للمبتغين أو للجميع و { **الْوَسِيلَةَ** } {الإسراء 57} هى القربة وسبب الوصول إلى البغية وتوسل الرجل إذا طلب الدنو والنيل لأمر ما ومنه قول النبی من سأل الله لي الوسيلة الحديث وهذا الذى ذكره سائر المفسرين نحوه الا أنه برز به على غيره فقال و { **أَيُّهُمْ** } {الإسراء 57} ابتداء وخبره { **أَقْرَبُ** } {الإسراء 57} و { **أَوْلِيكَ** } {الإسراء 57} يراد بهم المعبودون وهو ابتداء وخبره { **يَبْتَغُونَ** } {الإسراء 57} والضمير فى { **يَدْعُونَ** } {الإسراء 57} للكفار وفى { **يَبْتَغُونَ** } {الإسراء 57} للمعبودين والتقدير نظرهم وذكرهم { **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** } {الإسراء 57} وهذا كما قال عمر بن الخطاب

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 315-316

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 528-529 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 302 و رسالة في قنوت الأشياء ج: 1

رضى الله عنه في حديث الراية بخير فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهما يعطاها أي يتبارون في طلب القرب قال رحمه الله وطفف الزجاج في هذا الموضع فتأمله ولقد صدق في ذلك فإن الزجاج ذكر في قوله { أَيُّهُم أَقْرَبُ } {الاسراء 57} وجهين كلاهما في غاية الفساد وقد ذكر ذلك عنه ابن الجوزي وغيره وتابعه المهدي والبعوي وغيرهما ولكن ابن عطية كان أقعد بالعربية والمعاني من هؤلاء واخبر بمذهب سيبوبة والبصريين فعرف تطفيف الزجاج مع علمه رحمه الله بالعربية وسبقه ومعرفته بما يعرفه من المعاني والبيان وأولئك لهم براعة وفضيلة في أمور يبرزون فيها على ابن عطية لكن دلالة الألفاظ من جهة العربية هو بها أخبر وإن كانوا هم أخبر بشيء آخر من المنقولات أو غيرها وقد بين سبحانه وتعالى أن المسيح وإن كان رسولا كريما فإنه عبد الله فمن عبده فقد عبد مالا ينفعه ولا يضره قال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} {72} لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} {73} أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَيَّ اللَّهُ وَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {74} مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} {75} قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {76} المائدة 72-76 وقد أمر تعالى أفضل الخلق أن يقول إنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يملك لغيره ضرا ولا يرشدا فقال تعالى {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} {الأعراف 188} وقال {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} {21} قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} {22} إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} {23} {الجن 21-23} يقول لن يجيرني من الله احد إن عصيته كما قال تعالى {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} {الزمر 13} {وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} {الجن 22} أي ملجأ الجا اليه إلا بلاغا من الله ورسالاته أي لا يجيرني منه احد الا طاعته ان أبلغ ما أرسلت به اليكم فبذلك تحصل الاجاره والأمن وقيل أيضا لا أملك لكم ضرا ولا يرشدا لا املك الا تبليغ ما أرسلت به منه ومثل هذا في القرآن كثير فتبين أن الأمن من عذاب الله وحصول السعادة إنما هو بطاعته تعالى لقوله {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ} {النساء 147} وقال تعالى {قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} {الفرقان 77} أي لو لم تدعوه كما أمر فتطيعوه فتعبدوه وتطيعوا رسله فإنه لا يعبا بكم شيئا وهذه الوسيلة التي امر الله أن تبتغي اليه فقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} {المائدة 35} قال عامة المفسرين كابن عباس ومجاهد وعطاء والفراء الوسيلة القربة قال قتادة تقربوا إلى الله بما يرضيه قال أبو عبيدة توسلت إليه أي تقربت وقال عبد الرحمن بن زيد تحببوا إلى الله والتحبب والتقرب إليه إنما هو بطاعة رسوله فالإيمان بالرسول وطاعته هو وسيلة الخلق إلى الله ليس لهم وسيلة يتوسلون بها البتة إلا الإيمان برسوله وطاعته وليس لاحد من الخلق وسيلة إلى الله تبارك وتعالى إلا بوسيلة الإيمان بهذا الرسول الكريم وطاعته وهذه يؤمر بها الإنسان حيث كان من الأمكنة وفي كل وقت وما خص من العبادات بمكان كالحج أو زمان كالصوم والجمعة فكل في مكانه وزمانه¹

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 431-433

شرك الفلاسفة وكفرهم أعظم من شرك مشركي العرب وكفرهم

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56- 57}** لما صنف طائفة في تقدير الشرك على أصولهم وأثبتوا الشفاعة التي يثبتها المشركون كان شرك هؤلاء شرا من شرك مشركي العرب وغيرهم فان مشركي العرب وغيرهم ممن يقر بأن الرب فاعل بمشيئته وقدرته وأنه خالق كل شيء وأن السموات والأرض مخلوقة لله ليست مقارنة له في الوجود دائمة بدوامه كانوا يعبدون غير الله ليقرّبوهم إليه زلفى ويتخذونهم شفعا يشفعون لهم عند الله بمعنى أنهم يدعون الله لهم فيجيب الله دعاءهم له وهؤلاء المشركون الذين بين القرآن كفرهم وجاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على شركهم قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } يونس 18 وقال تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } {الزمر 3} وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56- 57}** قالت طائفة من السلف كان اقوام يدعون الملائكة والانبيا فقال تعالى هؤلاء الذين تدعونهم يتوسلون الى كما تتوسلون الى ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي وقال تعالى { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {80} آل عمران 79-80 وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } {23} سبأ 22-23 وقال تعالى { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } {النجم 26} وقال تعالى { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ } {الانبيا 28} ومثل هذا في القران كثير والعرب كانوا مع شركهم وكفرهم يقولون ان الملائكة مخلوقون وكان من يقول منهم ان الملائكة بنات يقولون ايضا انهم محدثون ويقولون انه صاهر الى الجن فولدت له الملائكة وقولهم من جنس قول النصارى في أن المسيح ابن الله مع ان مريم امه ولهذا قرن سبحانه بين هؤلاء وهؤلاء وقول هؤلاء الفلاسفة شر من قول هؤلاء كلهم فان الملائكة عند من آمن بالنبوات منهم هي العقول العشرة وتلك عندهم قديمة ازلية والعقل رب كل ما سوى الرب عندهم وهذا لم يقل مثله احد من اليهود والنصارى ومشركي العرب لم يقل احد ان ملكا من الملائكة رب العالم كله ويقولون ان العقل الفعال مبدع لما تحت فلك القمر وهذا ايضا كفر لم يصل اليه احد من كفار اهل الكتاب ومشركي العرب وهؤلاء يقولون ما ذكره ابن سينا واتباعه كصاحب الكتب المضمون بها على غير اهلها ومن وافقهم من القرامطة والباطنية من الملاحدة والجهال الذين دخلوا في الصوفية واهل الكلام كأهل وحدة الوجود وغيرهم يجعلون الشفاعة مبنية على ما يعتقدونه من ان الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته وليس عالما بالجزئيات ولا يفقد ان يغير العالم بل العالم فيض فاض عنه بغير مشيئته وقدرته وعلمه فيقولون اذا توجه المستشفع الى من يعظمه من الجواهر العالية كالعقول والنفوس والكواكب والشمس والقمر او الى النفوس المفارقة مثل بعض الصالحين فانه يتصل بذلك المعظم المستشفع به فاذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على هذا المستشفع من جهة شفيعة ويمثلونه بالشمس اذا طلعت على مرآة فانعكس الشعاع الذي على المرآة على موضع اخر فأشرق

بذلك الشعاع فذلك الشعاع حصل له بمقابلة المرأة وحصل للمرأة بمقابلة الشمس فهذا الداعي المستشفع اذا توجه الى شفيعه اشرق عليه من جهته مقصود الشفاعة وذلك الشفيع يشرق عليه من جهة الحق ولهذا يرى هؤلاء دعاء الموتى عند القبور وغير القبور ويتوجهون اليهم ويستعينون بهم ويقولون ان ارواحنا اذا توجهت الى روح المقبور في القبور اتصلت به ففاضت عليها المقاصد من جهته وكثير منهم ومن غيرهم من الجهال يرون الصلوة والدعاء عند قبور الانبياء والصالحين من اهل البيت وغيرهم افضل من الصلوات الخمس والدعاء في المساجد وافضل من حج البيت العتيق ومعلوم ان كفر هؤلاء بما يقولونه في الشفعاء اعظم من كفر مشركي العرب بما قالوه فيهم لان كلتي الطائفتين عبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله لكن العرب اقرروا بأن الله عالم بهم قادر عليهم يخلق بمشيئته وقدرته وقالوا ان هؤلاء ينفعونا بدعائهم لنا وأما مشركوا الفلاسفة كما ذكره ابن سينا ومن اتبعه فيقولون ان من يستشفع به لا يدعو الله لنا بشئ والله لا يعلم دعاءنا ولا دعاءه ولا ندائه بل ولا يعرف بنا ولا نراه ولا يعرف به فاننا نحن من الجزئيات والله لا يعلم الجزئيات عندهم ولا يقدر على تغيير شئ من العالم ولا يفعل بمشيئته

لكن قالوا لكن نحن إذا توجهنا الى هؤلاء بالدعاء لهم والسؤال منهم بل وبالعبادة لهم فاض علينا ما يفيض منهم وفاض عليهم ما يفيض من جهة الله ثم إن طائفة من أهل الكلام يردون عليهم باطلهم بقول باطل فيردون فاسدا بفساد وإن كان أحدهما أكثر فسادا مثل إنكار كثير منهم لكثير من الامور الرياضية كاستدارة الفلك وغير ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة وأثار السلف مع دلالة العقل أو يفعلون كما فعله الشهرستاني في الملل والنحل حيث اخذ يذكر المفاضلة بين الارواح العلوية وبين الانبياء ويجعل إثبات هذه وسائط أولى من تلك تفضيلا لأقوال الحنفاء على أقوال الصائبة وهذا غلط عظيم فان الحنفاء لا يثبتون بين الله وبين مخلوقاته واسطة في عبادته وسؤاله وإنما يثبتون الوسائط في تبليغ رسالاته فأصل الحنفاء شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا وغيره من الرسل رسل الله وأما الوسائط التي يثبتها المشركون فيجعلون الملائكة معبودين وهذا كفر وضلال وتوسط الملائكة بمعنى تبليغ رسالات الله أو بمعنى أنهم يفعلون ما يفعلونه باذن الله مما اتفق عليه الحنفاء ومعلوم أن المشركين من عباد الاصنام وغيرهم كانت الشياطين تضلمهم فتكلمهم وتقضى لهم بعض حوائجهم وتخبرهم بأمر غائبة عنهم وكان للكهان شياطين تخبرهم وتأمروهم وإن كان الكذب فيما يقولونه أكثر من الصدق وهكذا المشركون في زماننا الذين يدعون غير الله كالشيوخ الغائبين والموتى تتصور لهم الشياطين في صور الشيوخ حتى يظنوا ان الشيخ حضر وأن الله صور على صورته ملكا وأن ذلك من بركة دعائه وإنما يكون الذي تصور لهم شيطان من الشياطين وهذا مما نعرف أنه ابتلى في زماننا وغير زماننا خلق كثير أعرف منهم عددا وأعرف من ذلك وقائع متعددة والشياطين ايضا تضل عباد القبور كما كانت تضل المشركين من العرب وغيرهم وكانت اليونان من المشركين يعبدون الاوثان ويعانون السحر كما ذكروا ذلك عن أرسطو وغيره وكانت الشياطين تضلمهم وبهم يتم سحرهم وقد لا يعرفونهم أن ذلك من الشياطين بل قد لا يقرون بالشياطين بل يظنون ذلك كله من قوة النفس او من أمور طبيعية او من قوى فلكية فان هذه الثلاثة هي اسباب عجائب العالم عند ابن سينا وموافقيه وهم جاهلون بما سوى ذلك من أفعال الشياطين الذين هم أعظم تأثيرا في العالم في الشر من هذا كله وجاهلون بملائكة الله الذين يجرى بسببهم كل خير في السماء والارض وما يدعونه من جعل الملائكة هي العقول العشرة او هي القوى الصالحة في النفس وأن الشياطين هي القوى الخبيثة مما قد عرف فساده بالدلائل العقلية بل

بالضرورة من دين الرسول فإذا كان شرك هؤلاء وكفرهم في نفس التوحيد وعبادة الله وحده أعظم من شرك مشركى العرب وكفرهم فأى كمال للنفس في هذه الجهالات¹

فالذين أثبتوا فاعلا مستقلا غير الله كالفلك والادميين وجعلوا هذه الحركات الحادثة ليست مخلوقة لله فيهم من الشرك والتعطيل ما ليس في مشركي العرب فإن مشركي العرب كانوا يقرون بالقدر وأن الله وحده خالق كل شيء ولهذا قال في الآية الأخرى **{قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} الإسراء 42** فهم كانوا يقولون إنهم وسائل ووسائط وشفعاء لم يكونوا يقولون إنهم يخلقون كخلقه فقال تعالى **{ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} الإسراء 42** كما قال في الآية الأخرى **{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} 56** **{ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} 57** الإسراء 56- 57 فتبين أن ما يدعى من دونه من الملائكة والأنبياء وغيرهم يبتغى به الوسيلة إلى الله والتقرب إليه وذلك لأنه هو الإله المعبود الحق الذي كل ما سواه مفتقر إليه من جهة أنه ربه ليس له شيء إلا منه ومن جهة أنه إله لا منتهى لإرادته دونه فلو لم يكن هو المعبود لفسد العالم²

الله سبحانه ليس له شريك فى ملكه بل هو سبحانه له الملك وله الحمد

قال تعالى **{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} 56** **{ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} 57** الإسراء 56- 57 الحمد لله رب العالمين الدين الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو عبادة الله وحده لا شريك له وإستعانتة والتوكل عليه ودعاؤه لجلب المنافع ودفع المضار كما قال تعالى **{ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} 1** **{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} 2** **{ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} 3** الزمر 1-3 وقال تعالى **{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} الجن 18** وقال تعالى **{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} الأعراف 29** وقال تعالى **{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} 56** **{ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} 57** الإسراء 56- 57 قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة قال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم عبادى كما أنتم عبادى ويرجون رحمتى كما ترجون رحمتى ويخافون عذابى كما تخافون عذابى ويتقربون إلى كما تتقربون إلى فإذا كان هذا حال من يدعو الأنبياء والملائكة فكيف بمن دونهم بل قد ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم وقال تعالى **{ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ**

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 101- 106

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 331

يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا { الكهف 102 وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ { 22 } وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ { 23 } سبأ 22- 23 فبين سبحانه أن من دعى من دون الله من جميع المخلوقات من الملائكة والبشر وغيرهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه وأنه ليس له شريك في ملكه بل هو سبحانه له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وأنه ليس له عون يعاونه كما يكون للملك أعوان وظهراء وإن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن إرتضى ففى بذلك وجوه الشرك وذلك أن من يدعون من دونه إما أن يكون مالكا وإما أن لا يكون مالكا وإذا لم يكن مالكا فأما أن يكون شريكا وإما أن لا يكون شريكا وإذا لم يكن شريكا فأما يكون معاونا وأما أن يكون سائلا طالبا فالأقسام الأول الثلاثة وهى الملك والشركة والمعاونة منتفية وأما الرابع فلا يكون إلا من بعد إذنه ¹

من يدعى من الملائكة والأنبياء وغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا

الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه هم وسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ كلامه وأمره ونهيه ووعده ووعيده وأنبيائه التى أنبأ بها عن أسمائه وصفاته وملائكته وعرشه وما كان وما يكون وليسوا وسائط فى خلقه لعباده ولا فى رزقهم وإحيائهم وإماتتهم ولا جزائهم بالأعمال وثوابهم وعقابهم ولا فى إجابة دعواتهم وإعطاء سؤلهم بل الله هو وحده خالق كل شيء وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه وهو الذى { يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } الرحمن 29 { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ } النحل 53 كما قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } { 56 } أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا { 57 } الاسراء 56-57 ²

فإن الله هو الذى يصيب بالرحمة ويكشف الضر قال تعالى { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } يونس 107 وقال تعالى { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } فاطر 2 وقال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { 40 } بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } { 41 } الأنعام 40-41 وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } { 56 } أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 65 وزيارة القبور ج: 1 ص: 7 و الصفدية ج: 2 ص: 287

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 280

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {57} الإسراء 56- 57 فبين أن من يدعى من الملائكة والأنبياء وغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً¹

قال الله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 ولم يقل إرغب إلى الأنبياء والملائكة وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزيز والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية وهذا رسول الله لم يقل لأحد من أصحابه إذا نزل بك حادث فاستوحى بل قال لابن عمه عبدالله بن عباس وهو يوصيه إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وما يرويه بعض العامة من أنه قال إذا سألت الله فاسأله بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم فهو حديث كذب موضوع لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة في الدين²

وأما قول القائل إذا عثر يا جاه محمد يا للست نفيسة أو يا سيدي الشيخ فلان أو نحو ذلك مما فيه استغاثته وسؤاله فهو من المحرمات وهو من جنس الشرك فإن الميت سواء كان نبياً أو غير نبى لا يدعى ولا يسأل ولا يستغاث به لا عند قبره ولا مع البعد من قبره بل هذا من جنس دين النصارى الذين { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 ومن جنس الذين قال فيهم { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 وقد قال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّيَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } {79} وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {80} آل عمران 79-80 وقد بسط هذا في غير هذا الموضوع³

من سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو

مشرك

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 87

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 125

³مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 146

وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سمياً قال تعالى { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } {مريم 65} وقال تعالى {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } {الإخلاص 4} وقال تعالى { أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } {الشورى 11} وقال تعالى { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {البقرة 22} وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنوب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال ان تزاني بحليلة جارك فأنزل الله تصديق رسوله {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا } {الفرقان 68} الآية وقال تعالى { وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } {البقرة 165} فمن سوى بين الخالق والمخلوق فى الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك والنبي نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة حتى قال من حلف بغير الله فقد أشرك رواه أبو داود وغيره وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد و جاء معاذ بن جبل مرة فسجد له فقال ما هذا يا معاذ فقال يا رسول الله رأيتهم فى الشام يسجدون لأسافقتهم يا معاذ إنه لا يصلح السجود إلا لله ولو كنت أمرا أحدا ان يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها فلهذا فرق النبي بين زيارة أهل التوحيد وبين زيارة أهل الشرك فزيارة أهل التوحيد لقبور المسلمين تتضمن السلام عليهم والدعاء لهم وهى مثل الصلاة على جنائزهم وزيارة أهل الشرك تتضمن أنهم يشبهون المخلوق بالخالق يندرون له ويسجدون له ويدعونه ويحبونه مثل ما يحبون الخالق فيكونون قد جعلوه لله ندا وسووه برب العالمين وقد نهى الله ان يشرك به الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56--57} قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الأنبياء كالمسيح وعزير ويدعون الملائكة فأخبرهم تعالى ان هؤلاء عبيده يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال¹

الدين مبني على اصلين

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56-57} ان الدين مبني على اصلين ان لا يعبد الا الله وحده لا شريك له ولا يعبد الا بما شرع لا نعبد بالبدع كما قال تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } {الكهف 110} ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا لأحد شيئا وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } {هود 7} قال أخلصه وأصوبه قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل واذا كان صوابا ولم يكن

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 339-340

خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ان يكون لله والصواب ان يكون على السنة وقد قال الله تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } الشورى 21 والمقصود بجميع العبادات ان يكون الدين كله لله وحده فالله هو المعبود والمسئول الذي يخاف ويرجى ويسأل ويعبد فله الدين خالصا { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } آل عمران 83 والقرآن مملوء من هذا كما قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والانبيا كاليسوع والمسيح والعزير فأنزل الله تعالى هذه الآية¹

الله سبحانه لم يجعل له أحدا واسطة في شيء من الربوبية والألوهية

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 والله سبحانه لم يجعل له أحدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والألوهية مثل ما ينفرد به من الخلق والرزق وإجابة الدعاء والنصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات بل غاية ما يكون العبد سببا مثل أن يدعو أو يشفع والله تعالى يقول { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 ويقول { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } الأنبياء 28 ويقول { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَى } النجم 26 وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فنهاهم الله عن ذلك في قوله تعالى { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {80} آل عمران 79-80 فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ولهذا كان الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام فالمشركون أثبتوا الشفاعة التي هي شرك كشفاعة المخلوق عند المخلوق كما يشفع عند الملوك خواصهم لحاجة الملوك إلى ذلك فيسألونهم بغير إذنهم وتجيب الملوك سؤالهم لحاجتهم إليهم فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله تعالى مشركون كفار لأن الله تعالى لا يشفع عنده أحد الا بآذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافعين وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ولهذا قال تعالى { مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ } السجدة 4 وقال { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأنعام 51 وقال تعالى { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآئِمًا } المائدة 109 وقال تعالى { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا } {44} الزمر 43-44 وقال تعالى عن صاحب يس { أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ } {23} إني

¹مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 152

إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ {24} إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ {25} يس 23-25 وأما الخوارج والمعتزلة فإنهم أنكروا شفاعَةَ نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته وهؤلاء مبتدعة ضلال مخالفون للسنة المستفيضة عن النبي ولإجماع خير القرون والقسم الثالث هم أهل السنة والجماعة وهم سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم باحسان أثبتوا ما أثبتته الله في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونفوا ما نفاه الله في كتابه وسنة رسوله فالشفاعة التي أثبتوها هي التي جاءت بها الأحاديث كشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذا جاء الناس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتونه عليه السلام قال فأذهب إلى ربي فإذا رأيت ربي خررت له ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا احسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطى واشفع تشفع فهو يأتي ربه سبحانه فيبدأ بالسجود والثناء عليه فإذا اذن له في الشفاعة شفع بأبي هو وامي وأما الشفاعة التي نفاها القرآن كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة فينفيها أهل العلم والإيمان مثل انهم يطلبون من الأنبياء والصالحين الغائبين والميتين قضاء حوائجهم ويقولون إنهم إذا أرادوا ذلك قضوها ويقولون إنهم عند الله تعالى كخواص الملوك عند الملوك يشفعون بغير إذن الملوك ولهم على الملوك أدلال يقضون به حوائجهم فيجعلونهم الله تعالى بمنزلة شركاء الملك وبمنزلة أولاده والله تعالى قد نزه نفسه المقدسة عن ذلك كما قال تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا} الإسراء 111 ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله¹

بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57** والرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعدته ووعيده قال الله تعالى {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} الرعد 40 والله هو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل وهو سبحانه مسبب الأسباب ورب كل شيء ومليكه والأسباب التي تفعلها العباد منها ما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك ومنها ما نهى عنه نهايا خالصا أو كان من البدع التي لم يأذن الله بها فهذا لا يسلك قال الله تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ {23} سبأ 22-23 بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم فبين أن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ثم بين أنه لا شركة لهم ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق كما يقول بعضهم إذا كانت لك حاجة إستوح الشيخ فلانا فإنك تجده أو توجه إلى ضريحه خطوات وناد يا شيخ تقضى حاجتك وهذا غلط لا يحل فعله وإن كان من هؤلاء الداعين لغير الله من يرى صورة المدعو أحيانا فذلك شيطان يمثل له كما وقع مثل هذا لعدد كثير ونظير هذا قول

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 340-343

بعض الجاهل من أتباع الشيخ عدى وغيره كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده والعجب من ذى عقل سليم يستوحى من هو ميت ويستغيث به ولا يستغيث بالحي الذى لا يموت فيقول أحدهم إذا كانت لك حاجة إلى ملك توصلت إليه بأعوانه فهكذا يتوسل إليه بالشيوخ وهذا كلام أهل الشرك والضلال فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته ولا يقدر على قضائها وحده ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له سبب ذلك والله أعلم بكل شىء يعلم السر وأخفى وهو على كل شىء قدير فالأسباب منه وإليه وما من سبب من الأسباب إلا دائر موقوف على أسباب أخرى وله معارضات فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً فلا تحرق السمندل وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهو سبحانه أرحم من الوالدة بولدها يحسن إليهم ويرحمهم ويكشف ضرهم مع غناه عنهم وإفتقارهم إليه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } الشورى 11 فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة فقال { وَلَا تَتَفَعَّلُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَى لَهُ } سبأ 23 وقال { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 فهو الذى يأذن فى الشفاعة وهو الذى يقبلها فالجميع منه وحده وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً لله كانت شفاعة الرسول أقرب إليه قال له أبو هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله قال من قال لا إله إلا الله يبتغى بها وجه الله وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى ويتعلقون بفلان فهؤلاء من جنس المشركين الذين اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى قال الله تعالى { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ } 43 { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً } 44 { الزمر 43-44 وقال الله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ } السجدة 4 وقال { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله تعالى أن هؤلاء الأنبياء والملائكة عباده كما أن هؤلاء عباده هؤلاء يتقربون إلى الله وهؤلاء يرجون رحمة الله وهؤلاء يخافون عذاب الله فالمشركون اتخذوا مع الله أندادا يحبونهم كحب الله واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله ففيهم محبة لهم واشراك بهم وفيهم من جنس ما فى النصرارى من حب المسيح واشراك به والمؤمنون أشد حبا لله فلا يعبدون إلا الله وحده ولا يجعلون معه شيئاً يحبونه كحبه لا أنبياءه ولا غيرهم بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله وأخلصوا دينهم لله وعلموا أن أحدا لا يشفع لهم إلا بإذن الله فأحبوا عبدالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم لحب الله وعلموا أنه عبدالله المبلغ عن الله فأطاعوه فيما أمر وصدقوه فيما أخبر ولم يرجوا إلا الله ولم يخافوا إلا الله ولم يسألوا إلا الله وشفاعته لمن يشفع له بإذن الله ولا ينفع رجأؤنا للشفيع ولا مخافتنا له وإنما ينفع توحيدنا وإخلاصنا لله وتوكلنا عليه فهو الذى يأذن للشفيع فعلى المسلم أن يفرق بين محبة النصرارى والمشركين ودينهم ويتبع اهل التوحيد والإيمان ويخرج عن مشابهة المشركين وعبدة الصليبان وفى الصحيحين عن النبى أنه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } التوبة 24 وقال الله

تعالى { مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } المائدة 54 وهذا باب واسع ودين الإسلام مبنى على هذا الأصل والقرآن يدور عليه¹

لا تجوز الاستعادة بمخلوق

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { الإسرائء 56- 57 } قوله تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ } الإسرائء 56 الآيتين لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة ومنهم من ذكر أنهم من الإنس ومنهم من ذكر أنهم من الجن لفظ السلف يذكرون جنس المراد من الآية على التمثيل كما يقول الترجمان لمن سأله عن الخبز فيريه رغباً والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون الله فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الإستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم ومع هذا فقد نهى عن دعائهم وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله لا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع أو من حال إلى حال كتغيير صفته أو قدره ولهذا قال { وَلَا تَحْوِيلًا } الإسرائء 56 فذكر نكرة تعم أنواع التحويل وقال تعالى { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } الجن 6 كان أحدهم إذا نزل بواد يقول أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه فقالت الجن الإنس تستعيز بنا فزادوهم رهقا وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الإستعادة بمخلوق وهذا مما إستدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه إستعاد بكلمات الله وأمر بذلك فإذا كان لا يجوز ذلك فلأن لا يجوز أن يقول أنت خير مستعان يستعاذ به اولى فالإستعادة والإستجارة والإستغاثة كلها من نوع الدعاء أو الطلب وهى ألفاظ متقاربة ولما كانت الكعبة بيت الله الذى يدعى ويذكر عنده فإنه سبحانه يستجار به هناك وقد يستمسك بأستار الكعبة كما يتعلق المتعلق بأذيال من يستجير به كما قال عمرو بن سعيد إن الحرام لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة وفى الصحيح يعوذ عائذ بهذا البيت والمقصود أن كثيراً من الضالين يستغيثون بمن يحسنون به الظن ولا يتصور أن يقضى لهم أكثر مطالبهم كما ان ما تخبر به الشياطين من الأمور الغائبة يكذبون فى الكثيره بل يصدقون فى واحدة ويكذبون فى اضعافها ويقضون لهم حاجة واحدة ويمنعونهم اضعافها يكذبون فيما أخبروا به وأعانوا عليه لا فساد حال الرجال فى الدين والدنيا ويكون فيه شبهة للمشركين كما يخبر الكاهن ونحوه والله سبحانه جعل الرسول مبلغاً لأمره ونهيه ووعده ووعيده وهؤلاء الرسل والمشائخ يدبرون العالم بقضاء الحاجات وكشف الكربات وليس هذا من دين المسلمين بل النصرارى تقول هذا فى المسيح وحده

¹مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 322-325 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 526-530

بشبهة الإتحاد والحلول ولهذا لم يقوله في إبراهيم وموسى وغيرهم مع أنهم في غاية الجهل في ذلك فإن الآيات التي بعث بها موسى أعظم ولو كان كان هذا ممكنا لم يكن للمسيح خاصية به بل موسى أحق ولهذا كنت انتزل مع علماء النصارى إلى أن أطلبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقا بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم فإن كان حجة في دعوى الإلهية فموسى أحق وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق لا على أن المخلوق أفضل من غيره¹

حكم من إذا أصابته نائبة أو خوف استنجد بشيخه وأما الرجل إذا أصابته نائبة أو خاف شيئا فاستنجد بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع فهذا من الشرك وهو من جنس دين النصارى فإن الله هو الذي يصيب بالرحمة ويكشف الضر قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الأسراء 56-57 فبين أن من يدعى من الملائكة والأنبياء وغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا²

" لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد "

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الأسراء 56-57 فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له ولا نجعل مع الله إلها آخر والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل الشمس والقمر والكواكب والعزير والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ويعوث ويعوق ونسر أو غير ذلك لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلاق أو أنها تنزل المطر أو أنها تنبت النبات وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتمائيل المصورة لهؤلاء أو يعبدون قبورهم ويقولون { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَىٰ اللَّهِ زُلْفَىٰ } {الزمر 3} ويقولون هم { شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } {يونس 18} فأرسل الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الأسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة فقال الله لهم هؤلاء الذين تدعوهم يتقربون إلي كما تتقربون ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي وقال { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } {23} سبأ 22 فأخبر سبحانه أن ما يدعى من دون الله ليس له مثقال ذرة في الملك ولا شرك في الملك وأنه

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 226

²زيارة القبور ج: 1 ص: 45

ليس له من الخلق عون يستعين به وأنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه وقال من حلف بغير الله فقد أشرك وقال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ولهذا اتفق العلماء على أنه ليس لأحد أن يحلف بمخلوق كالكعبة ونحوها ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السجود ولما سجد بعض أصحابه نهاه عن ذلك وقال لا يصلح السجود إلا لله وقال لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها وقال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه أرأيت لو مررت بقبر أكنت ساجدا له قال لا قال فلا تسجد لي ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد فقال في مرض موته لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا قالت عائشة رضي الله عنها ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا وفي الصحيح عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا بيوتي عيدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبليغني ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المسجد على القبور ولا تشرع الصلاة عند القبور بل كثير من العلماء يقول الصلاة عندها باطلة¹

سمى الله آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء كما سماها شركاء

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} {الإسراء 56- 57} سمي الله آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء كما سماها شركاء في غير موضع وجمع بين الشرك والشفاعة في قوله { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ {23} {سبأ 22-23} فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق الأول ملك شيء ولو قل الثاني شركهم في شيء من الملك فلا ملك ولا شركة ولا معاونة يصير بها ندا فإذا انتفت الثلاثة بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة و قال { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} {الإسراء 56- 57}²

والله تعالى لا يرجو أحدا ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغنى والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه فهو سبحانه قد نفى ما من الملائكة والأنبياء إلا من الشفاعة بإذنه والشفاعة هي الدعاء ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك فلا يشفع

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 396

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 115

شفاعة نهى عنها كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة قال تعالى { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } التوبة 113 وقد ثبت في الصحيح أن الله نهى نبيه عن الإستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله { إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } النساء 48¹

الفرق بين حقوق الله التي يختص بها والحقوق التي له ولرسوله

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { الإسراء 56-57 } فإن المسلمين متفقون على ما علموه بالإضطرار من دين الإسلام أن العبد لا يجوز له أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله وأن من عبد ملكا مقربا أو نبيا مرسلا أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل يا جبرائيل أو يا ميكائيل أو يا إبراهيم أو يا موسى أو يا رسول الله اغفر لي أو ارحمني أو ارزقني أو انصرني أو أغثني أو أجرني من عدوي أو نحو ذلك بل هذا كله من خصائص الإلهية وهذه مسائل شريفة معروفة قد بينها العلماء وذكرها الفرق بين حقوق الله التي يختص بها والحقوق التي له ولرسوله كما يميز سبحانه بين ذلك في مثل قوله تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { الإسراء 56-57 }²

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 { الإسراء 56-57 } ومعلوم أن الرسول مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } 7 { وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } 8 { الشرح 7-8 } فهو لا يرغب الى غير الله وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون والإسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه والرقية من نوع الدعاء وكان هو يرقى نفسه وغيره ولا يطلب من أحد أن يرقيه ورواية من روى في هذا لا يرقون ضعيفة غلط فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه فإن من لا يسأل الناس بل لا يسأل إلا الله أفضل ممن يسأل الناس ومحمد سيد ولد آدم ودعاء الغائب للغائب أعظم إجابة من دعاء الحاضر لأنه أكمل إخلاصا وأبعد عن الشرك فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه الى دعاء من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر وفي الحديث أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة الا

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 129-130

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 273

وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به أمين ولك بمثله وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه والمخلوق قادر على دعاء الله ومسالته فهذا كان طلب الدعاء جائزا كما يطلب منه الإعانة بما يقدر عليه والأفعال التي يقدر عليها فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم ولا يجوز أن يقال لغير الله اغفر لي واسقنا الغيث وانصرنا على القوم الكافرين أو اهد قلوبنا ونحو ذلك ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي منافق يؤذى المؤمنين فقال الصديق قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فجاؤا إليه فقال إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله وهذا في الإستغاثة مثل ذلك فأما ما يقدر عليه البشر فليس من هذا الباب وقد قال سبحانه {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} {الأنفال: 9} وفي دعاء موسى عليه السلام اللهم لك الحمد واليك المشتكى واليك المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وقال أبو يزيد البسطامي إستغاثة المخلوق بالمخلوق كإستغاثة الغريق بالغريق وقال أبو عبد الله القرشي إستغاثة المخلوق بالمخلوق كإستغاثة المسجون بالمسجون وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** {57} **الاسراء 56-57**

قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أنتم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون الي كما تتقربون الي فهى سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء مع اخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم وكذلك الأنبياء والصالحون وان كانوا أحياء فى قبورهم وان قدر انهم يدعون للأحياء وان وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ولم يفعل ذلك أحد من السلف لأن ذلك ذريعة الى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى بخلاف الطلب من أحدهم فى حياته فانه لا يفضى الى الشرك ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالامر الكونى فلا يؤثر فيه سؤال السائلين بخلاف سؤال أحدهم فى حياته فانه يشرع اجابة السائل وبعد الموت انقطع التكليف عنهم وقال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّيَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } {79} **وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** {80} آل عمران 79-80 فبين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر¹

إقرار المشرك بأن الله رب كل شيء لا ينجيه ان لم يقترن به اقراره بأنه لا اله

الا لله

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 328-330

رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {57} {الإسراء 56- 57} فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالفه لا ينجيه من عذاب الله ان لم يقترن به اقراره بأنه لا اله الا الله فلا يستحق العبادة أحد الا هو وأن محمدا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعا بدون اذن الله قال تعالى {قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {57} {الإسراء 56-57}** قال طائفة من السلف كان قوم يدعون العزيز والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون الى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى¹

قطب رحي الدين

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {57} {الإسراء 56- 57}** فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحي الدين وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحى هي من جنس النعيم واللذة والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلا بد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثانى أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحى فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثانى من معنى الربوبية إذ الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } هود 88 وقوله { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله {

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 106

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ { الممتحنة 4 } وقوله تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ } الفرقان 58 وقوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } الرعد 30 وقوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً } { 8 } رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } { 9 } المزمّل 8-9 فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين¹

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } { 56 } **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } { 57 } الإسراء 56-57** لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } { الشعراء 213 } وقال تعالى { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } { المؤمنون 117 } وقال تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } { القصص 88 } وقال { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } { الجن 19 } وقال { إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } { النساء 117 } ولفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة وفي الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولاً لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } { البقرة 186 } وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضاً راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } { الأنبياء 90 } وقال تعالى { تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } { السجدة 16 } ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع²

الدعاء لله وحده

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 21

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 240

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسألة والإستعانة كما قال تعالى {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} {الأنعام 52} وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} {الإسراء 56-57} روى عن ابن مسعود أن قوما كانوا يدعون الملائكة والمسيح وعزيرا فقال الله هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله ويرجونه ويتقربون إليه كما تخافونه أنتم وترجونه وتتقربون إليه¹

قال تعالى {اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} {7} الفاتحة 6-7 وقد صح عن النبي أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكتاب الله يدل على ذلك فى مواضع مثل قوله تعالى {وَبَاؤُوا بِغَضَبِ مِّنَ اللَّهِ وَصُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ} {آل عمران 112} وقال فى النصارى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} {الإسراء 56-57}²

من جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم فهو كافر

قال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} {الإسراء 56-57} فمن اعتقد أنه لا بد من واسطة فى جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجون إليه فيه فهذا من أعظم الشرك الذى كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حتى قال {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} {الأنعام 51} وقال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} {الإسراء 56-57} وقال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ} {22} {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} {23} {سبأ 22-23} وقالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 65

ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79- 80 فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكرب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين¹

" من حلف بغير الله فقد أشرك "

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56- 57}** وإن قال قائل بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره كما جوز بعضهم الحلف بذلك أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم قيل له بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ولا يقسم بمخلوق كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت وقال لا تحلفوا إلا بالله وفي السنن عنه أنه قال من حلف بغير الله فقد أشرك فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت معظمة قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56- 57}** قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة فقال تعالى هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون الي كما تتقربون الي فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات في هذه الأحكام لم يجعل لأحد من المخلوقين سواء كان نبيا أو ملكا أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى²

الشرك نوعان شرك في ربوبيته وشرك في الألوهية

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} {الإسراء 56- 57}** ومن رحمة الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا كدعاء

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 124

غيره أن يفعل أو دعائه أن يدعو الله ونحو ذلك لا يحصل به غرض صاحبه ولا يورث حصول الغرض شبهة إلا في الأمور الحقيرة فأما الأمور العظيمة كإنزال الغيث عند القحوط وكشف العذاب النازل فلا ينفع فيه هذا الشرك كما قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {الإسراء 56-57} فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيب فيها إلا هو سبحانه دل على توحيده وقطع شبهة من أشرك به وعلم بذلك أن ما دون هذا أيضا من الإجابات إنما حصولها منه وحده لا شريك له وإن كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة كما أن خلقه للسموات والأرض والرياح والسحاب وغير ذلك من الأجسام العظيمة دل على وحدانيته وأنه خالق كل شيء وأن ما دون هذا بأن يكون خلقا له أولى إذ هو حاصل عن مخلوقاته العظيمة فخالق السبب التام خالق للمسبب لا محالة وجماع الأمر أن الشرك نوعان شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير إما كما قال سبحانه { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } {سبأ 22} فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالاً ولا يشركونه في شيء من ذلك ولا يعينونه على ملكه ومن لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عوناً فقد انقطعت علاقته وشرك في الألوهية بأن يدعو غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} الفاتحة فكما أن إثبات المخلوقات أسباب لا تقدر في توحيد الربوبية ولا تمنع أن الله خالق كل شيء ولا توجب أن يدعي مخلوق دعاء عبادة أو دعاء استغاثة كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره أسبابا لا يقدر في توحيد الإلهية ولا يمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص ولا يوجب أن تستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك إذ كان الله يسخط ذلك ويعاقب العبد عليه وتكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعتة إذ قد جعل الله الخير كله في أنا لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا إياه وعمامة آيات القرآن تثبت هذا الأصل الأصيل حتى إنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه كقوله سبحانه { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } {البقرة 255} ¹

من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {الإسراء 56-57} أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهاً آخر مساويا له في الصفات والأفعال بل ولا كانوا يقولون إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ولا أن الأصنام تخلق شيئا من العالم ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين أو أن الخليل عليه السلام لما قال هذا ربي أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين كما قال تعالى { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 357

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ { الأنعام 79 ولم يقل من المعطلين فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين فلم يكونوا جاحدين للصانع بل عدلوا به وجعلوا له أندادا في العبادة والمحبة والدعاء وهكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام في كتاب سر بطرس الذي يسمى بشمعون وسمعان والصفا وبترس والأربعة لمسمى واحد عندهم عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم وهذا فيه عندهم عن المسيح فالذي تفعله النصارى اصل عبادة الأوثان وهكذا قال عالمهم الكبير الذي يسمونه فم الذهب وهو من أكبر علمائهم لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار قال وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس أشخاصا يعظم بعضهم بعضا فوق المقدر الذي ينبغي الأحياء منهم والأموات وقد قال تعالى {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} {55} قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} الإسراء 55 57 قال طائفة من العلماء كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح وغيرهما فبين الله تبارك وتعالى أن هؤلاء عباده كما أنتم عباده يرجون رحمته كما ترجون رحمته ويخافون عذابه كما تخافون عذابه ويتقربون إليه كما تتقربون إليه وقال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {80} سورة آل عمران الآيتان 79 80 فبين تعالى أن من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون¹

" أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله "

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {57} الإسراء 56-57 والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته بل أنكروا طائفة من أهل البدع انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه عنه وأنكروا الشفاعة بقوله تعالى { مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ } البقرة 254 وبقوله تعالى { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } غافر 18 وغير ذلك وأما سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة فأثبتوا ما جاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم من شفاعته لأهل الكبائر من أمته وغير ذلك من أنواع شفاعاته وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة وقالوا إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد وأقروا بما جاءت به السنة من انتفاع الإنسان بدعاء غيره وشفاعته والصدقة عنه بل والصوم عنه في أصح قول العلماء كما ثبتت به السنة الصحيحة الصريحة وما كان في معنى الصوم وقالوا إن الشفيع يطلب من الله ويسأله ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه قال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 وقال { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } الأنبياء 28 وقال { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } النجم 26 وقد ثبت في الصحيح أن سيد الشفعاء صلى الله عليه وسلم إذا طلبت منه الشفاعة بعد أن تطلب من آدم وأولي

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 359

العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيردونها إلى محمد صلى الله عليه وسلم العبد الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال فأذهب إلى ربي فإذا رأيت خررت له ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول رب أمتي رب أمتي فيجد لي حدا فأدخلهم الجنة وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزيز والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية وقد أخبر فيها أن هؤلاء المسؤولين كانوا يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه وقد ثبت في الصحيح أن أبا هريرة قال يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة قال يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله فكلما كان الرجل أتم إخلاصا لله كان أحق بالشفاعة وأما من علق قلبه بأحد من المخلوقين يرجوه ويخافه فهذا من أبعد الناس عن الشفاعة فشفاعة المخلوق عند المخلوق تكون بإعانة الشافع للمشفوع له بغير إذن المشفوع عنده بل يشفع إما لحاجة المشفوع عنده إليه وإما لخوفه منه فيحتاج أن يقبل شفاعته عنده والله تعالى غني عن العالمين وهو وحده سبحانه يدبر العالمين كلهم فما من شفيع إلا من بعد إذنه فهو الذي يأذن للشفيع في الشفاعة وهو يقبل شفاعته كما يلهم الداعي الدعاء ثم يجيب دعاءه فالأمر كله له فإذا كان العبد يرجو شفيعا من المخلوقين فقد لا يختار ذلك الشفيع أن يشفع له وإن اختار فقد لا يأذن الله له في الشفاعة ولا يقبل شفاعته وأفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ثم إبراهيم وقد امتنع النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لعمه أبي طالب بعد أن قال لأستغفرن لك ما لم أنه عنك وقد صلى على المنافقين ودعا لهم فقيل له { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } التوبة 84 وقال الله له أولا { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } التوبة 80 فقال لو أعلم اني لو زدت على السبعين يغفر لهم لزدت فانزل الله { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } المنافقون¹

الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يعبدون المسيح والعزيز والملائكة فبين الله أنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله كما بين أنهم لا يملكون الشفاعة وهذا لا استثناء فيه وإن كان الله يجيب دعاءهم ثم قال أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا فبين أن هؤلاء المزعومين الذين يدعونهم من دون الله كانوا يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال الصالحة

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 445

كسائر عبادة المؤمنين وقد قال تعالى {وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 80 وللناس في الشفاعة أنواع من الضلال قد بسطت في غير هذا الموضوع فكثير منهم يظن أن الشفاعة هي بسبب اتصال روح الشافع بروح المشفوع له كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره ويقولون من كان أكثر صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كان أحق بالشفاعة من غيره وكذلك من كان أحسن ظنا بشخص وأكثر تعظيما له كان أحق بشفاعته وهذا غلط بل هذا هو قول المشركين الذين قالوا تتولى الملائكة ليشفَعوا لنا يظنون أن من أحب أحدا من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولاه كان ذلك سببا لشفاعته له وليس الأمر كذلك بل الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها له فكل من كان أعظم إخلاصا كان أحق بالشفاعة كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة فإن الشفاعة من الله مبدؤها وعلى الله تمامها فلا يشفع أحد إلا بإذنه وهو الذي يأذن للشافع وهو الذي يقبل شفاعته في المشفوع له إنما الشفاعة سبب من الأسباب التي بها يرحم الله من يرحم من عباده وأحق الناس برحمته هم أهل التوحيد والإخلاص له فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص لا إله إلا الله علما وعقيدة وعملا وبراءة وموالاتة ومعاداة كان أحق بالرحمة والمذنبون الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم خفت موازينهم فاستحقوا النار من كان منهم من أهل لا إله إلا الله فإن النار تصيبه بذنوبه ويميته الله في النار إماتة فتحرقه النار إلا موضع السجود ثم يخرج الله من النار بالشفاعة ويدخله الجنة كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة فبين أن مدار الأمر كله على تحقيق كلمة الإخلاص وهي لا إله إلا الله لا على الشرك بالتعلق بالموتى وعبادتهم كما ظنه الجاهليون¹

لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56 { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57 {الإسراء 56-57} فالوسيلة التي امر الله ان تبتغى اليه واخبر عن ملائكته وانبيائه انهم يبتغونها اليه هي ما يتقرب اليه من الواجبات والمستحبات فهذه الوسيلة التي امر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به امر ايجاب او استحباب وأصل ذلك الايمان بما جاء به الرسول فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل اليه باتباع ما جاء به الرسول لا وسيلة لأحد الى الله الا ذلك والثاني لفظ الوسيلة في الاحاديث الصحيحة كقوله سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة وقوله من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته انك لا تخلف الميعاد حلت له الشفاعة فهذه الوسيلة للنبي خاصة وقد امرنا ان نسأل الله له هذه الوسيلة وأخبر انها لا تكون الا لعبد من عباد الله وهو يرجو ان يكون ذلك العبد وهذه الوسيلة امرنا ان نسألها للرسول وأخبر أن من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل فلما دعوا للنبي استحقوا ان يدعوا هو لهم فان الشفاعة نوع من الدعاء كما قال انه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا وأما التوسل بالنبي والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 153

يراد به الإقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة فأما المعنيان الأولان الصحيحان باتفاق العلماء فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم فهذان جائزان بإجماع المسلمين ومن هذا قول عمر بن الخطاب اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا أي بدعائه وشفاعته وقوله تعالى { وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } المائدة 35 أي القربة إليه بطاعته وطاعة رسوله طاعته قال تعالى { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } النساء 80 فهذا التوسل الأول هو أصل الدين وهذا لا ينكره أحد من المسلمين وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر فإنه توسل بدعائه لا بذاته ولهذا عدلوا عن التوسل به (بعد مماته عليه السلام) إلى التوسل بعمه العباس ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له فإنه مشروع دائماً فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان أحدها التوسل بطاعته فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به والثاني التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته والثالث التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ولا في حياته ولا بعد مماته ولا عند قبره ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك قال أبو الحسين القنوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول بمعاهد العز من عرشك أو بحق خلقك وهذا قول أبي يوسف قال أبو يوسف بمعهد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام¹

الوسيلة التي أمر الله بابتغائها إليه تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته

فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها إليه تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها وبدعاء أحياء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم في الاستسقاء وغيره وقول عمر رضي الله عنه إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا معناه نتوسل إليك بدعائه وشفاعته وسؤاله ونحن نتوسل إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته ليس المراد به إنا نقسم عليك به أو ما يجري هذا المجرى مما يفعله المبتدعون بعد موته وفي مغيبه كما يقول بعض الناس أسألك بجاه فلان عندك ويقولون إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ويروون حديثاً موضوعاً إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عريض فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه كما ذكر عمر رضي الله عنه لفعلوا ذلك به بعد موته ولم يعدلوا عنه إلى العباس مع علمهم أن السؤال به والإقسام به أعظم من العباس فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكره هو مما يفعله الأحياء دون الأموات وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم فإن الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء لا دعاء ولا غيره وكذلك حديث الأعمى فإنه طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ليرد الله عليه بصره فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعته نبيه فيه

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 199-203

فهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع فيه وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته وأن قوله أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة أي بدعائه وشفاعته في الحديثين بمعنى واحد ثم قال يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها اللهم فشفعه في فطلب من الله أن يشفع فيه نبيه وقوله يا محمد يا نبي الله هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب فيخاطب لشهوده بالقلب كما يقول المصلي السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا يخاطب من يتصوره في نفسه إن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به فيه إجمال وإشتراك غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة يراد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا مثلا أو لكون الداعي مجيبا له مطيعا لأمره مقتديا به فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته فلا يكون التوسل بشيء منه ولا بشيء من السائل بل بذاته أو لمجرد الإقسام به على الله فهذا الثاني هو الذي كرهه ونهوا عنه وكذلك لفظ السؤال بشيء قد يراد به المعنى الأول وهو التسبب به لكونه سببا في حصول المطلوب وقد يراد به الإقسام ومن الأول حديث الثلاثة الذين أوامهم المبيت إلى الغار وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما فإن الصخرة انطبقت عليهم فقالوا ليدعوا كل رجل منكم بأفضل عمله فقال أحدهم اللهم إنه كانت لي ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء وأنها طلبت مني مائة دينار فلما أتيتها بها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تقض الخاتم إلا بحقه فتركت الذهب وانصرفت فإن كنت إنما فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فأفرجت فانفرجت لهم فرجة رأوا منها السماء وقال الآخر اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فناء بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجرا فأعطيتم أجركم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منها الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت أنا لا استهزئ بك فأخذته كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون فهؤلاء دعوا الله سبحانه بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله تعالى ويتوجه به إليه ويسأله به لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 وهؤلاء دعوه بعبادته وفعل ما أمر به من العمل الصالح وسؤاله والتضرع إليه ومن هذا ما يذكر عن الفضيل بن عياض أنه أصابه عسر البول فقال بحبي إياك إلا ما فرجت عني ففرج عنه وكذلك دعاء المرأة المهاجرة التي أحيا الله أبنها لما قالت اللهم إني أمنت بك وبرسولك وهاجرت في سبيلك وسألت الله أن يحيي ولدها وأمثال ذلك وهذا كما قال المؤمنون { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ } {193} رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } {194} آل عمران 193-194 فسؤال الله والتوسل إليه بامثال أمره واجتناب نهيه وفعل ما يحب من العبودية والطاعة هو من جنس فعل ذلك رجاء لرحمة الله وخوفا من عذابه وسؤال الله بأسمائه وصفاته كقوله أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض وبأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ونحو ذلك يكون من باب التسبب فإن كون المحمود المنان يقتضي منته على عباده وإحسانه الذي يحمد عليه وكونه الأحد الصمد يقتضي

توحده في صمديته فيكون هو السيد المقصود الذي يصمد الناس إليه في كل حوائجهم المستغنى عما سواه وكل ما سواه مفتقرون إليه لا غنى بهم عنه وهذا سبب لقضاء المطلوبات وقد يتضمن ذلك معنى الإقسام عليه بأسمائه وصفاته وأما قوله في حديث أبي سعيد أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فهذا الحديث رواه عطية العوفي وفيه ضعف لكن بتقدير ثبوته فهو من هذا الباب فإن حق السائلين عليه سبحانه أنه يجيبهم وحق المطيعين له أن يثيبهم فالسؤال له والطاعة سبب لحصول إجابته وإثابته فهو من التوسل به والتوجه به ولو قدر أنه قسم لكان قسما بما هو من صفاته فإن إجابته وإثابته من أفعاله وأقواله فصار هذا كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك والاستعاذة لا تصح بمخلوق كما نص عليه الإمام أحمد وغيره من الأئمة وذلك مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق ولأنه قد ثبت في الصحيح وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق قالوا والاستعاذة لا تكون بمخلوق¹

خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم هو من أعظم أنواع الشرك

القرآن ينفي أن تكون الملائكة أربابا أو أن تكون آلهة ويكون لها غير ما للرسول الذي لا يفعل إلا بعد أمر مرسله ولا يشفع إلا بعد أن يؤذن له في الشفاعة وقد رد الله ذلك على من زعمه من العرب والروم وغيرهم من الأمم²

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله كما أن الذين يعبدونهم عباد الله وبيّن أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباد الصالحين والمشركون من هؤلاء قد يقولون إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا فإذا صورنا تمثاله والتمثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى في كنائسهم قالوا فمقصودنا بهذه التماثيل تذكّر أصحابها وسيرهم ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله فيقول أحدهم يا سيدي فلان أو يا سيدي جرجس أو بطرس أو ياستى الحنونة مريم أو يا سيدي الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك اشفع لي إلى ربك وقد يخاطبون الميت عند قبره سل لي ربك أو يخاطبون الحي وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها يا سيدي فلان أنا في حسبك أنا في جوارك اشفع لي إلى الله سل الله لنا أن ينصرنا لي عدونا سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة أشكوا إليك كذا وكذا فسل الله أن يكشف هذه الكربة أو يقول أحدهم سل الله أن يغفر لي فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 415-419

² مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 133

³ قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 158-159 ورسالة في التوبة ج: 1 ص: 265

ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم فإن هذا شرك أو ذريعة الى الشرك بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضى الى ذلك فإن أحدا من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته فإنه ينهى من يفعل ذلك بخلاف دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة الى الشرك بهم وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة الى الشرك فمن رأى نبيا أو ملكا من الملائكة وقال له ادع لي لم يفض ذلك الى الشرك به بخلاف من دعاه في مغيبه فإن ذلك يفضى الى الشرك به كما قد وقع فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك بل إذا تعلق القلوب بدعائه وشفاعته أفضى ذلك الى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين¹

و مما ذكره سعيد بن البطريق المعظم عند النصارى من أخبارهم أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلى كنيسة مبنية لصنم من الأصنام يعبده المشركون فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقا أعظم منه كملك من الملائكة أو نبي من الأنبياء كما كان بالاسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه ميكائيل فجعلها النصارى كنيسة باسم ميكائيل الملك وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ويذبحون له وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق إلى الشرك بمخلوق أعلى منه أولئك كانوا يبنون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب كالشمس والزهرة وغير ذلك فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة أو بعض الأنبياء ولهذا قال تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {80} ال عمران 79-80 وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} الإسراء 56-57²

من عبد الله بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد

قال تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {الإسراء 57} أن العبد ينبغي له ان تكون همته فعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقذور فمتى أعين على هذه الثلاثة جاءت بعد ذلك من المطالب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولو تعلقت همته بمطلوب فدعا الله به فإن الله يعطيه إحدى خصال ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له من الخير مثلها وإما أن يصرف عنه من

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 178

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 382

الشر مثلها ويأس الإنسان أن يصل إلى ما يحبه الله ويرضاه من معرفته وتوحيده كبيرة من الكبائر بل عليه أن يرجو ذلك ويطمع فيه لكم من رجا شيئاً يطلبه ومن خاف من شيء هرب منه وإذا اجتهد واستعان ب الله تعالى ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن يؤتية الله من فضله ما لم يخطر ببال وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره ولا يحصل له حلاوة الإيمان ونور الهداية فليكثر التوبة والاستغفار وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان فإن الله يقول {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } العنكبوت 69 و عليه بإقامة الفرائض ظاهراً وباطناً ولزوم الصراط المستقيم مستعينا بالله متبركاً من الحول والقوة إلا به ففي الجملة ليس لأحد أن ييأس بل عليه أن يرجو رحمة الله كما أنه ليس له أن لا ييأس بل عليه أن يخاف عذابه قال تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } الإسراء 57 قال بعضهم من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد¹

بقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده

قال تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } الإسراء 57 وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة وكل عمل لا يراد به وجه فهو باطل فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله بل لا يكون إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب كما قال { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف 110 فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى كما قال تعالى {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 112 وقال النبي صلى الله عليه وسلم من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد وقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه وهذا الأصل هو أصل الدين وبحسب تحقيقه يكون الدين وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وإليه دعا الرسول وعليه جاهد وبه أمر وفيه رغب وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه والشرك غالب على النفوس وهو كما جاء في الحديث وهو في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وفي حديث آخر قال أبو بك الجواب يا رسول الله كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بك الجواب ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم وكان عمر

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 341 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 390-391

من يقول إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته و يحتجون بحديث إسرائيلي فيه أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت و هذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة و الحديث و ليسوا من العلماء بذلك كأبي علي الأهوازي و أمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة و الموضوعية و ما يحتج به و ما لا يحتج به بل يروون كلما فى الباب محتجين و قد حكى هذا طائفة قولاً فى مذهب أحمد أو رواية عنه و ظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبته كما تقبل توبة الداعي إلى الكفر و توبة من فتن الناس عن دينهم و قد تاب قادة الأحزاب مثل أبى سفيان بن حرب و الحارث ابن هشام و سهيل بن عمرو و صفوان بن أمية و عكرمة بن أبى جهل و غيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل و كانوا من أحسن الناس إسلاماً و غفر الله لهم قال تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ} {الأنفال 38} و عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر و الإيذاء للمسلمين و قد قال له النبي صلى الله عليه و سلم لما أسلم يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما كان قبله و فى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله {أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَنْتَعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} {الإسراء 57} قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم أولئك الجن و الإنس يعبدونهم ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم و إن كانوا هم أضلوهم أولاً و أيضاً فالداعي إلى الكفر و البدعة و إن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا و أتبعه و هذا عليه و زرر و وزر من إتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره و لا ما حمله هو لأجل إضلالهم و أما هم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد و لكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى كما تاب كثير من الكفار و أهل البدع و صاروا دعاة إلى الإسلام و السنة و سحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا و ختم الله لهم بخير¹

الخوف والرجاء يستلزم المحبة

وإذا كانت المحبة اصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها فان الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب قال تعالى {أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَنْتَعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} {الإسراء 57} وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلِيكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {البقرة 218} و رحمته اسم جامع لكل خير وعذابه اسم جامع لكل شر ودار الرحمة الخالصة هي الجنة ودار العذاب الخالص هي النار واما الدنيا فدار امتزاج فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم واعلاه النظر الى وجه الله كما فى صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن ابى ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه فيقولون ما هو الم يبيض وجوهنا الم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينحينا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما اعطاهم شيئا احب اليهم من النظر اليه وهو الزيادة ومن هنا يتبين زوال الاشتباه فى قول من قال ما عبدتك شوقا الى جنتك ولا خوفا من نارك وانما عبدتك شوقا الى رؤيتك فان هذا

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 23-25

القائل ظن هو ومن تابعه ان الجنة لا يدخل في مسماها الا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماح ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية او من يقربها ويزعم انه لا تمتع بنفس رؤية الله كما يقوله طائفة من المتفهمة فهؤلاء متفقون على ان مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه الا التمتع بالمخلوقات ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ } آل عمران 152 قال فأين من يريد الله وقال آخر في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ } التوبة 111 قال اذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر اليه وكل هذا لظنهم ان الجنة لا يدخل فيها النظر و التحقيق ان الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم واعلى ما فيها النظر الى وجه الله وهو من النعيم الذى ينالونه فى الجنة كما اخبرت به النصوص وكذلك اهل النار فانهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار مع ان قائل هذا القول اذا كان عارفا بما يقول فانما قصده انك لو لم تخلق نارا او لو لم تخلق جنة لكان يجب ان تعبد ويجب التقرب اليك والنظر اليك ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق واما عمل الحى بغير حب ولا ارادة اصلا فهذا ممتنع وان تخيله بعض الغالطين من النساك وظن ان كمال العبد ان لا تبقى له ارادة اصلا فذاك لانه تكلم فى حال الفناء والفانى الذى يشتغل بمحبوبه له ارادة ومحبة ولكن لا يشعر بها فوجود المحبة شىء والارادة شىء والشعور بها شىء آخر فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها وهو غلط فالعبد لا يتصور ان يتحرك قط الا عن حب وبغض و ارادة ولهذا قال النبى صلبالله عليه وسلم اصدق الاسماء حارث وهمام فكل انسان له حرث وهو العمل وله هم وهو اصل الارادة ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه الى طاعته ومن اجلاله والحياء منه ما ينهيه عن معصيته كما قال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيبي لو لم يخف الله لم يعصه اى هو لم يعصه ولو لم يخفه فكيف اذا خافه فان اجلاله و اكرامه لله يمنعه من معصيته فالراجى الخائف اذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعيم بتجليه له فمعلوم ان هذا من توابع محبته له فالمحبة هي التى اوجبت محبة التجلى والخوف من الاحتجاب وان تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعيم به فهذا انما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته ثم اذا وجد حلاوة محبة الله وجدها احلى من كل محبة ولهذا يكون اشتغال اهل الجنة بذلك اعظم من كل شىء كما فى الحديث ان اهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه الى محبة الله التى هي الأصل وهذا كله ينبى على اصل المحبة فيقال قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين كما فى قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 وقوله تعالى { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة 54 وقوله تعالى { أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ } التوبة 24 وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما وأن يجب المرء لا يحبه الا الله وان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار¹

قرب الرب من عابديه وداعيه هو مقيد مخصوص لا مطلق عام لجميع الخلق

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 62-64 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 65-66 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 66

قال تعالى { **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } الإسراء 57 وقوله من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتاني يمشى أتيته هرولة فقرب الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه لكن قد يكون قرب الثاني هو اللازم من قرب الاول ويكون منه ايضا قرب بنفسه فالاول كمن تقرب الى مكة أو حائط الكعبة فكلما قرب منه قرب الآخر منه من غير أن يكون منه فعل والثاني كقرب الانسان الى من يتقرب هو اليه كما تقدم في هذا الاثر الالهى فتقرب العبد الى الله وتقريبه له نطقت له نصوص متعددة مثل قوله { **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** } الإسراء 57 { **فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ** } الواقعة 88 { **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ** } المطففين 28 { **وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ** } النساء 172 { **وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ** } آل عمران 45 وما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه الحديث وفي الحديث اقرب ما يكون العبد من ربه فى جوف الليل الآخر وقد بسطنا الكلام على هذه الاحاديث ومقالات الناس فى هذا المعنى فى جواب الاسئلة المصرية على الفتيا الحموية فهذا قرب الرب نفسه الى عبده وهو مثل نزوله الى السماء الدنيا وفى الحديث الصحيح ان الله يدنو عشية عرفة الحديث فهذا القرب كله خاص وليس فى الكتاب والسنة قط قرب ذاته من جميع المخلوقات فى كل حال فعلم بذلك بطلان قول الحلولية فانهم عمدوا الى الخاص المقيد فجعلوه عاما مطلقا كما جعل اخوانهم الاتحادية ذلك فى مثل قوله كنت سمعته وفى قوله فيأتئهم فى صورة غير صورته وان الله قال على لسان نبيه سمع الله لمن حمده وكل هذه النصوص حجة عليهم فاذا فصل تبين ذلك فالداعى والساجد يوجه روحه الى الله والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب فكون الله عز وجل منها قريبا قربا يلزم من قربها ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة وفى جوف الليل والى من تقرب منه شبرا تقرب منه ذراعا وفى الزهد لأحمد عن عمران القصير ان موسى عليه السلام قال يا رب اين أبغيك قال أبغى عند المنكسرة قلوبهم انى أدنو منهم كل يوم باعا لولا ذلك لانهدموا فقد يشبه هذا قوله قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين الى آخره وظاهر قوله { **فَأَنِّي قَرِيبٌ** } البقرة 186 يدل على أن القرب نعتة ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعى والساجد ودنوه عشية عرفة هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء والذكر والتوبة والا فلو قدر أن أحدا لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو اليهم فانه يباهى الملائكة بأهل عرفة فاذا قدر أنه ليس هناك أحد لم يحصل فدل ذلك على قربهم بسبب قربهم تقربهم منهم كما دل عليه الحديث الآخر والناس فى آخر الليل يكون فى قلوبهم من التوجه والتقرب والرقعة ما لا يوجد فى غير ذلك الوقت وهذا مناسب لنزوله الى السماء الدنيا وقوله هل من داع هل من سائل هل من تائب ثم ان هذا النزول هل هو كدنوه عشية عرفة معلق بأفعال فان فى بلاد لكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول كما ان دنوه عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج فى سائر البلاد اذ ليس لها وقوف مشروع ولا مباهاة الملائكة وكما أن تفتيح ابواب الجنة وتغليق ابواب النار وتصفيد الشياطين اذا دخل شهر رمضان انما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة وكذلك اطلاعه يوم بدر وقوله لهم اعملوا ما شئتم كان مختصا بأولئك أم هو عام فيه كلام ليس هذا موضعه والكلام فى هذا القرب من جنس الكلام فى نزوله كل ليلة ودنوه عشية عرفة وتكليمه لموسى من الشجرة وقوله ان بورك من فى النار ومن حولها وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وذكرنا ما قاله السلف فى ذلك كحماد بن زيد واسحاق وغيرهما من أنه ينزل الى السماء الدنيا ولا يخلو منه العرش وبيننا أن هذا هو الصواب وان كان طائفة ممن يدعى السنة يظن خلو العرش منه وقد صنف أبو القاسم عبدالرحمن

بن منده فى ذلك مصنفا وزيف قول من قال انه ينزل ولا يخلو منه العرش وضعف ما نقل فى ذلك عن أحمد فى رسالة مسدد وقال انها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها البردعى أحمد بن محمد وقال انه مجهول لا يعرف فى اصحاب أحمد وطائفة تقف لا تقول يخلو ولا لا يخلو وتكرر على من يقول ذلك منهم الحافظ عبدالغنى المقدسى واما من يتوهم أن السموات تنفرج ثم تلتحم فهذا من أعظم الجهل وان وقع فيه طائفة من الرجال وأما من لا يعتقد أن الله فوق العرش فهو لا يعتقد نزوله لا يخلو ولا يغير خلو وقال بعض أكابرهم لبعض المثبتين ينزل أمره فقال من عند من ينزل أنت ليس عندك هناك أحد أثبت أنه هناك ثم قل ينزل أمره وهذا نظير قول اسحاق بن راهوية بحضرة الامير عبدالله بن طاهر والصواب قول السلف أنه ينزل ولا يخلو منه العرش وروح العبد فى بدنه لا تزال ليلا ونهارا الى أن يموت ووقت النوم تعرج وقد تسجد تحت العرش وهى لم تفارق جسده وكذلك اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وروحه فى بدنه وأحكام الارواح مخالف لأحكام الأبدان فكيف بالملائكة فكيف برب العالمين والليل يختلف فيكون ثلثه بالمشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب ونزوله الذى أخبر به رسوله الى سماء هؤلاء فى ثلث ليلهم والى سماء هؤلاء فى ثلث ليلهم لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربه من الداعى المتقرب اليه والساجد لكل واحد بحسبه حيث كان واين كان والرجال يسجدان فى موضع واحد ولكل واحد قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر¹

فى تمام الكلام فى القرب والرب سبحانه لا يشغله سمع عن سمع ولا تغطه المسائل بل هو سبحانه يكلم العباد يوم القيامة ويحاسبهم لا يشغله هذا عن هذا قيل لابن عباس كيف يكلمهم يوم القيامة كلهم فى ساعة واحدة قال كما يرزقهم فى ساعة واحدة وقد قال ما منكم من أحد الا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر والله سبحانه فى الدنيا يسمع دعاء الداعين ويجيب السائلين مع اختلاف اللغات وفنون الحاجات والواحد منا قد يكون له قوة سمع يسمع كلام عدد كثير من المتكلمين كما أن بعض المقرئين يسمع قراءة عدة لكن لا يكون الا عددا قليلا قريبا منه والواحد منا يجد فى نفسه قربا ودنوا وميلا الى بعض الناس الحاضرين والغائبين دون بعض تفاوت ذلك الدنو والقرب والرب تعالى واسع عليم وسع سمعه الاصوات كلها وعطاؤه الحاجات كلها ومن الناس من غلط فظن أن قربه من جنس حركة بدن الانسان اذا مال الى جهة انصرف عن الاخرى وهو يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس من غير أن ينصرف قريبا الى هذا عن قريبا الى هذا وكذلك يجد فى نفسه خضوعا لبعض الناس ومحبة ويجد فيها نأيا وبعدا عن آخرين وارتقاعا واقبالا على قوم واعراضا عن قوم غير ما هو قائم بالبدن ففى الجملة ما نطق به الكتاب والسنة من قرب الرب من عابديه وداعيه هو مقيد مخصوص لا مطلق عام لجميع الخلق فبطل قول الحلوية كما قال {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} البقرة 186 فهذا قربه من داعيه واما قربه من عابديه ففى مثل قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} الإسراء 57 وقوله ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه وقال من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا فهذا قربه الى عبده وقرب عبده اليه ودنوه عشية عرفة الى السماء الدنيا لا يخرج عن القسمين فانه قال افضل الدعاء دعاء يوم عرفة فدنوه لدعائهم وأما نزوله الى سماء الدنيا كل ليلة فان كان لمن يدعوه ويسأله ويستغفره فان ذلك الوقت يحصل فيه

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 241-243 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 129-131

من قرب الرب الى عابديه ما لا يحصل في غيره فهو من هذا وان كان مطلقا فيكون بسبب الزمان لكونه يصلح لهذا وان لم يقع فيه ونظيره ساعة الاجابة يوم الجمعة روى انها مقيدة بفعل الجمعة وهي من حين يصعد الامام على المنبر الى أن تنتضى الصلاة ولهذا تكون مقيدة بفعل الجمعة فمن لم يصل الجمعة لغير عذر ويعتقد وجوبها لم يكن له فيها نصيب وأما من كانت عادته الجمعة ثم مرض أو سافر فانه يكتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم وكذلك المحبوس ونحوه فهؤلاء لهم مثل أجر من شهد الجمعة فيكون دعاؤهم كدعاء من شهدها وقد تكون الرحمة التي تنزل على الحاج عشية عرفة وعلى من شهد الجمعة تنتشر بركاتها الى غيرهم من اهل الأعدار فيكون لهم نصيب من اجابة الدعاء وحظ مع من شهد ذلك كما في شهر رمضان فهذا موجود لمن يحبهم ويحب ما هم فيه من العبادة فيحصل لقلبه تقرب الى الله ويود لو كان معهم وأما الكافر والمنافق الذي لا يرى الحج برا ولا الجمعة فرضا وبراً بل هو معرض عن محبة ذلك وارانته فهذا قلبه بعيد عن رحمة الله فان { رَحِمَتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ } الأعراف 56 وهذا ليس منهم وروى في ساعة الجمعة أنها آخر النهار فيكون سببها الوقت وقد ثبت في الصحيح أن في الليل ساعة يستجاب الدعاء فيها كما في يوم الجمعة وذلك كل ليلة واقرب ما يكون العبد من ربه في جوف الليل الآخر¹

وصف الله انه يقرب اليه من يقربه من الملائكة والبشر

قال تعالى { **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } الإسراء 57 قال الله تعالى { **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** } البقرة 186 فهنا هو نفسه سبحانه وتعالى القريب الذي يجيب دعوة الداع لا الملائكة وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته انكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا ان الذي تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته وذلك لأن الله سبحانه قريب من قلب الداعي فهو اقرب اليه من عنق راحلته وقربه من قلب الداعي له معنى متفق عليه بين أهل الاثبات الذين يقولون ان الله فوق العرش ومعنى آخر فيه نزاع فالمعنى المتفق عليه عندهم يكون بتقريبه قلب الداعي اليه كما يقرب اليه قلب الساجد كما ثبت في الصحيح أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فالساجد يقرب الرب اليه فيدنو قلبه من ربه وان كان بدنه على الأرض ومتى قرب أحد الشئيين من الآخر صار الآخر اليه قريبا بالضرورة وان قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته كما أن من قرب من مكة قربت مكة منه وقد وصف الله انه يقرب اليه من يقربه من الملائكة والبشر فقال { **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** } النساء 172 وقال { **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** } 10 { **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** } 11 { الواقعة 10-11 وقال تعالى { **فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ** } 88 { **فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ** } 89 { الواقعة 88-89 وقال تعالى { **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** } المطففين 28 وقال تعالى { **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } الإسراء 57 وقال تعالى { **وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** } مريم 52 وأما قرب الرب قربا يقوم به بفعله القائم بنفسه فهذا تنفيه الكلابية ومن يمنع قيام الأفعال الاختيارية بذاته وأما السلف وأئمة الحديث

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 246-248

والسنة فلا يمنعون ذلك وكذلك كثير من اهل الكلام فنزوله كل ليلة الى السماء الدنيا ونزوله عشية عرفة ونحو ذلك هو من هذا الباب ولهذا حد النزول بأنه الى السماء الدنيا وكذلك تكليمه لموسى عليه السلام فانه لو أريد مجرد تقريب الحجاج وقوام الليل اليه لم يخص نزوله بسماء الدنيا كما لم يخص ذلك في اجابة الداعى وقرب العابدين له قال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} البقرة 186 وقال من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه بزيادة تقريبه للعبد اليه جزاء على تقربه باختياره فكلما تقرب العبد باختياره قد شبر زاده الرب قربا اليه حتى يكون كالمتقرب بذراع فكذلك قرب الرب من قلب العابد وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب والايامن به وهو المثل الأعلى وهذا أيضا لا نزاع فيه وذلك ان العبد يصير محيا لما أحب الرب مبغضا لما ابغض مواليا لمن يوالى معاديا لمن يعادى فيتحده مراده مع المراد المأمور به الذى يحبه الله ويرضاه وهذا مما يدخل فى موالاة العبد لربه وموالاة الرب لعبده فان الولاية ضد العداوة والولاية تتضمن المحبة والموافقة والعداوة تتضمن البغض والمخالفة وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى أنه قال يقول الله تعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب الى عبدى أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت فى شيء انا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فأخبر سبحانه وتعالى أنه يقرب العبد بالفرائض ولا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه الله فيصير العبد محبوبا لله كما قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} آل عمران 31 وقال تعالى {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} المائدة 54 وقال تعالى {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} البقرة 195 وقال تعالى {فَأْتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدْتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} التوبة 4 وقال {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} التوبة 7 وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} البقرة 222 وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانًا مَّرْصُومًا} الصف 4 وقال تعالى {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ} التوبة 108 وقال تعالى {وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} آل عمران 146¹

ابتغاء الوسيلة إليه هو طلب ما يتوصل به أى يتوصل ويتقرب به إليه سبحانه

قال تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} الإسراء 57 وقوله سبحانه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} المائدة 35 فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو طلب ما يتوصل به أى يتوصل ويتقرب به إليه سبحانه سواء كان على وجه العبادة والطاعة وامتنال الأمر أو كان على وجه السؤال له والاستعاذة به رغبة إليه في جلب المنافع ودفع المضار ولفظ الدعاء فى القرآن

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 509- 512

يتناول هذا وهذا هو الدعاء بمعنى العبادة والدعاء بمعنى المسألة وإن كان كل منهما يستلزم الآخر لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجاته وتفريج كربته فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع وإن كان ذلك من العبادة والطاعة ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب من الرزق والنصر والعافية مطلقاً ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عز وجل ومعونته ومحبته والتنعيم بذكره ودعائه ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدراً عنده من تلك الحاجة التي همته وهذا من رحمة الله بعباده يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية وقد يفعل العبد ابتداء ما أمر به لأجل العبادة لله والطاعة له ولما عنده من محبته والإنابة إليه وخشيته وامتنال أمره وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية وقد قال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } { غافر 60 وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أهل السنن أبو داود وغيره الدعاء هو العبادة ثم قرأ قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } { غافر 60 وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين قيل ادعوني أي اعبدوني وأطيعوا أمري استجب دعاءكم وقيل سلوني أعطكم وكلا النوعين حق¹

من رحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمداً أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال

قال تعالى { وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } {58} وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {59} {الاسراء 58-59} وكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسول بعذاب الاستئصال عذاباً عاجلاً يهلك الله به جميع المكذبين كما أهلك قوم نوح وكما أهلك عاداً وثلمود وأهل مدين وقوم لوط وكما أهلك قوم فرعون وأظهر آيات كثيرة لما أرسل موسى ليبقى ذكرها وخبرها في الأرض إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال بل قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } {القصص 43} بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصي يعذب بعضهم ويبقى بعضهم إذ كانوا لم يتفقوا على الكفر ولهذا لم يزل في الأرض أمة من بني إسرائيل باقية قال تعالى لما ذكر بني إسرائيل { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } {الأعراف 168} وكان من حكمته ورحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمداً أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم بل عذب بعضهم بأنواع العذاب كما عذب طوائف ممن كذبه بأنواع من العذاب كالمستهزئين الذين قال الله فيهم { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } {95} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } {96} {الحجر 95-96} فعذب الله كل واحد بعذاب معروف وكالذي دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلط عليه كلباً من كلابه فكان يحترس بقومه فجاءه الأسد وأخذه من بينهم فقتله وأمثال ذلك وقد تقدم ذلك وقال تعالى { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ } {التوبة 52} فأخبر أنه يعذب الكفار تارة بأيدي عباده المؤمنين بالجهاد

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 412

وإقامة الحدود وتارة بعذاب غير ذلك فكان يعذبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم كما جرى لقريش وغيرهم فإنهم لما كذبوه لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومن قبلهم لبادتا وانقطعت المنفعة به عنهم ولم يبق لهم ذرية تؤمن به بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب ولو بالهزيمة والأسر وقتل بعضهم كما عذبوا يوم بدر فإن في هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم مع بقائهم والنفوس إذا كانت قادرة على كمال أغراضها فلا تكاد تنصرف عنها بخلاف ما إذا عجزت عن كمال أغراضها فإن ذلك مما يدعوها إلى التوبة كما يقال من العصمة أن لا تقدر فكان ما وقع بهم تعجيزاً وزاجراً وداعياً إلى التوبة ولهذا آمن عامتهم بعد ذلك لم يقتل منهم إلا قليل وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم في هذه الأمة كفرعون في تلك الأمة كما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن أبي جهل هذا فرعون هذه الأمة وقد ذكر الله لموسى في التوراة إني أقسي قلب فرعون فلا يؤمن بك لتظهر آياتي وعجائبي بين أن في ذلك من الحكمة انتشار آياته الدالة على صدق أنبيائه في الأرض إذ كان موسى قد أخبر بتكليم الله له وبكتابة التوراة له فأظهر الله من الآيات ما يبقي ذكرها في الأرض وكان في ضمن ذلك من تقسيته قلب فرعون ما أوجب أن أهلكه وقومه أجمعين وفرعون كان جاحداً للصانع منكرًا لربوبيته لا يقر به فلذلك أتى من الآيات بما يناسب حاله وأما بنو إسرائيل مع المسيح فكانوا مقرين بالكتاب الأول فلم يحتاجوا إلى مثل ما احتاج إليه موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن محتاجاً إلى تقرير جنس النبوة إذ كانت الرسل قبله جاءت بما ثبت ذلك وقومه كانوا مقرين بالصانع وإنما كانت الحاجة داعية إلى تثبيت نبوته ومع هذا فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات من قبله وأعظم ومع هذا فلم يأت بآيات الاستئصال التي يستحق مذبها العذاب العام العاجل كما استحقه قوم فرعون وهود وصالح وشعيب وغيرهم فهذا يبين الله في القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لا تنفعهم إذ كانوا لا يؤمنون بها ولكن تضرهم إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذ ومع وجود المانع وعدم المقتضي لا يصلح الفعل على قول الجمهور القائلين بالحكمة لا يصلح الفعل على قول الجمهور القائلين بالحكمة ومن لم يعلل فلا يطلب سبباً ولا حكمة بل يرد الأمر إلى محض المشيئة قال تعالى { وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } {58} وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {59} الاسراء 58-59 وهو يعلم أن قلوب هؤلاء كقلوب أولئك الأولين فيكذبون بها فيستحقون بها ما استحقه أولئك كقوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم¹

الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه

قال تعالى { وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } {58} وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {59} الاسراء 58-59 ومعلوم أن معجزات الأنبياء خارقة عن القوانين الطبيعية مثال ذلك إخراج صالح الناقة من هضبة من الهضاب فإن هذا خارج عن قوى النفس والطبيعية لأن الهضبة لا يمكن أن تخرج ناقة حية تاكل وتشرب منها منها ولا يمكن في القوى

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 443-445

الطبيعية أن تخرجها لا بقوى نفس ولا بسحر ولا غير ذلك بل الساحر غايته أن يتصرف في الأعراض بفعل ما يحدث عنه الأمراض والقتل ونحو ذلك مما يقدر عليه سائر آدميين فإن الإنسان يمكنه أن يضرب غيره حتى يمرضه أو يقتله بالساحر والعائن وغيرهما ممن يتصرف بقوى الأنفس يفعل في المنفصل ما يفعله القادر في المتصل فهذا من أفعال العباد المعروفة المقدرة وأما قلب الأعيان إلى ما ليس في طبعها الانقلاب إليه فأخراج صالح الناقة من هضبة من الهضاب فليس هذا من جنس مقدور البشر لا معتادا ولا نادرا ولا يحصل بقوى نفس أصلا وهذه الحادثة الخارقة للعادة فيها إثبات الصانع وإثبات نبوة أنبيائه فإن حدوث هذا الحادث على هذا الوجه في مثل ذلك المقام يوجب علما ضروريا أنه من القادر المختار لتصديق صالح عليه السلام¹

{ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا }

قال تعالى { وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } {58} وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {59} {الاسراء 58-59} وقد ثبت بالأخبار الصحيحة التي اتفق عليها العلماء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه امر بالصلاة عند كسوف الشمس والقمر وامر بالدعاء والاستغفار والصدقة والعنق وقال ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته وفي رواية آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده هذا قاله ردا لما قاله بعض جهال الناس ان الشمس كسفت لموت ابراهيم بن النبي فانها كسفت يوم موته وظن بعض الناس لما كسفت ان كسوفها كان لأجل موته وان موته هو السبب لكسوفها كما يحدث عن موت بعض الأكابر مصائب في الناس فبين النبي ان الشمس والقمر لا يكون كسوفهما عن موت احد من اهل الأرض ولا عن حياته ونفى ان يكون للموت والحياة اثرا في كسوف الشمس والقمر وأخبر أنهما من آيات الله وانه يخوف عباده فذكر أن من حكمة ذلك تخويف العباد كما يكون تخويفهم في سائر الآيات كالرياح الشديدة والزلازل والجذب والأمطار المتواترة ونحو ذلك من الاسباب التي قد تكون عذابا كما عذب الله امما بالرياح والصيحة والطوفان وقال تعالى { فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا } {العنكبوت 40} وقد قال { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {الاسراء 59} وإخباره بانه يخوف عباده بذلك يبين انه قد يكون سببا لعذاب ينزل كالرياح العاصفة الشديدة وانما يكون ذلك اذا كان الله قد جعل ذلك سببا لما ينزل في الارض فمن أراد بقوله ان لها تأثيرا ما قد علم بالحس وغيره من هذه الامور فهذا حق ولكن الله قد امر بالعبادات التي تدفع عنا ما ترسل به من الشر كما امر النبي صلى الله عليه وسلم عند الخسوف بالصلاة والصدقة والدعاء والاستغفار والعنق وكما كان اذا هبت الرياح اقبل وادبر وتغير وامر ان يقال عند هبوبها اللهم انا نسألك خير هذه الرياح وخير ما ارسلت به ونعوذ بك من شر هذه الرياح وشر ما ارسلت به وقال ان الرياح من روح الله وانها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوا ولكن سلوا الله من خيرها وتعودوا بالله من شرها فأخبر انها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب وأمر أن نسأل الله من خيرها ونعوذ بالله من شرها فهذه السنة

¹الصفدية ج: 1 ص: 138

في أسباب الخير والشر ان يفعل العبد عند اسباب الخير الظاهرة والأعمال الصالحة ما يجلب الله به الخير وعند اسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر فأما ما يخفى من الاسباب فليس العبد مأمور بان يتكلف معرفته بل اذا فعل ما أمر به وترك ما حظر كفاه الله مؤنة الشر ويسر له اسباب الخير { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } 2 { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } 3 { الطلاق 2-3 }¹

الاعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه

قال تعالى { وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } 58 { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } 59 { الإسراء 58-59 } والعلماء متفقون على اثبات حكمة الله في خلقه وامره واثبات الاسباب والقوى كما قد ذكرنا اقوالهم في موضعها وليس من السلف من انكر كون حركات الكواكب قد تكون من تمام اسباب الحوادث كما ان الله جعل هبوب الرياح ونور الشمس والقمر من اسباب الحوادث وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الشمس والقمر ايتان من آيات الله لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته ولكنهما ايتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده فاذا رايتوهما فافزعوا الى الصلوة وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الكسوف بالصلوة والذكر والدعاء والصدقة والعقاقة والاستغفار وكذلك عند سائر الايات التي يخوف الله بها عباده وقوله لا تنكسفان لموت احد ولا لحياته رد لما كان قد توهمه بعض الناس من ان كسوف الشمس كان لاجل موت ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد مات وكسفت الشمس فتوهم بعض الجهال من المسلمين ان الكسوف كان لاجل هذا فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم ان الكسوف لا يكون سببه موت احد من اهل الارض ونفى بذلك ان يكون الكسوف معلولا عن ذلك وظنوا ان هذا من جنس اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ كما ثبت ذلك في الصحيح فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وبين ان ذلك من آيات الله التي يخوف بها عباده والتخويف انما يكون بما يكون سببا للشر قال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } 59 { الإسراء 59 } فلو كان الكسوف وجوده كعدمه بالنسبة الى الحوادث لم يكن سببا لشر وهو خلاف نص الرسول وايضا في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم نظر الى القمر وقال لعائشة يا عائشة تعوذني بالله من شر هذا فان هذا هو الغاسق اذا وقب والاستعاذة انما تكون مما يحدث عنه شر وامر صلى الله عليه وسلم عند انعقاد اسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلوة والدعاء والذكر والاستغفار والتوبة والاحسان بالصدقة والعقاقة فان هذه الاعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه كما في الحديث ان الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض فيعتلجان وهذا كما لو جاء عدو فانه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهاد له واذا هجم البرد يدفع باتخاذ الدفء فكذلك الاعمال الصالحة والدعاء وهذا ما اتفق عليه الملل واساطين الفلاسفة حتى يذكر عن بطلميوس انه قال واعلم ان ضجيج الاصوات في هياكل العبادات بفتون اللغات يحلل ما عقدته الافلاك الدائرات وكسوف الشمس انما يكون وقت استتسار القمر اخر الشهر وخسوف القمر انما يكون ليالي الابدار الثالث عشر

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 387-400 و مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 168-183

والرابع عشر والخامس عشر كما ان الهلال قد يكون ليلة الثلاثين او الحادي والثلاثين هذا الذي اجرى الله به عادته في حركات الشمس والقمر¹

وقوله { يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ } الزمر 16 كقول النبي صلى الله عليه وسلم في الشمس والقمر إنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده وقد قال تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } الإسراء 59 والآيات التي خوف الله بها عباده تكون سببا في شر ينزل بالناس فمن اتقى الله بفعل ما أمر به وفي ذلك الشر ولو كان مما لا حقيقة له أصلا لم يخف أحد إذا علم أنه لا شر في الباطن وإنما يبقى التخويف للجاهل القدم كما يفزع الصبيان بالخيال وقد قال تعالى { ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ } الزمر 16 فخوف العباد مطلقا وأمرهم بتقواه لئلا ينزل المخوف وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين والإنذار هو الإعلام بما يخاف منه وقد وجدت المخوفات في الدنيا وعاقب الله على الذنوب أما كثيرة كما قصه في كتابه وكما شوهد من من الآيات وأخبر عن دخول أهل النار في غير موضع من القرآن وقال تعالى { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } فاطر 28 ولو كان الأمر كما يتوهمه الجاهل لكان إنما يخشاه من عباده الجهال الذين يتخيلون ما لا حقيقة له²

الآيات السماوية قد تكون سبب عذاب

قال تعالى { وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا } 58 { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } 59 { الإسراء 58-59 } فإن الله إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه وعصوا رسله وإنما يخاف الناس مما يضرهم قال تعالى { وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } الإسراء 59³

قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت احد ولا لحياته لكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده والتخويف انما يكون بوجود سبب الخوف فعلم ان كسوفهما قد يكون سببا لأمر مخوف وقوله لا يخسفان لموت احد ولا لحياته رد لما توهمه بعض الناس فان الشمس خسفت يوم موت ابراهيم فاعتقد بعض الناس أنها خسفت من اجل موته تعظيما لموته وان

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 270-275

² منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 299

³ مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 259

موته سبب خسوفها فأخبر النبي انه لا ينخسف لاجل انه مات احد ولا لأجل انه حيي احد وهذا كما في الصحيحين عن ابن عباس قال حدثني رجال من الأنصار انهم كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فرمي بنجم فاستنار فقال ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية فقالوا كنا نقول ولد الليلة عظيم او مات عظيم فقال انه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن الله اذا قضى بالقضاء سبح حملة العرش الحديث فأخبر النبي أن الشهب التي يرمى بها لا يكون عن سبب حدث في الارض وانما يكون عن أمر حدث في السماء وان الرمي بها لطرد الشياطين المسترقة وكذلك الشمس والقمر هما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده كما قال الله **{ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا** {الإسراء: 59} فعلم ان هذه الآيات السماوية قد تكون سبب عذاب ولهذا شرع النبي عند وجود سبب الخوف ما يدفعه من الاعمال الصالحة فأمر بصلاة الكسوف الصلاة الطويلة وأمر بالعتق والصدقة وأمر بالدعاء والاستغفار كما قال ان البلاء والدعاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والارض فالدعاء ونحوه يدفع البلاء النازل من السماء¹

قد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال

قال تعالى **{ وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا {58} وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا {59} الإسراء: 58-59}** ومما ينبغي ان يعلم أن الله إذا أرسل نبيا وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة وظهرت بها المحجة فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابته إلى ذلك بل وقد لا ينبغي ذلك لأنه إذا جاء بآية ثانية طوبى بثالثة وإذا جاء بثالثة طوبى برابعة وطلب المتعنتين لا أمد له ومعلوم أنه قامت عليه حجة في مسألة علم أو حق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها وقال أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة كان ظالما متعديا ولم يجب إجابته إلى ذلك ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك بل إذا قامت البيينة بحق المدعي حكم له بذلك ولو قال المطلوب أريد بيينة ثانية وثالثة ورابعة لم يجب إلى ذلك فحق الله الذي اوجبه على عباده من توحيدهِ والإيمان به وبرسله أولى إذا أقام بيينة أوجببت على الخلق الإيمان برسله أن لا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة فيتتابع تعالى بين الآيات كما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة وتقسي قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات اية بعد آية لينتشر ذلك ويظهر ويبلغ ذلك قوما آخرين فيكون ذلك سببا لإيمانهم كما فعل بآيات موسى وآيات محمد كما ذكر في التوراة أنه يقسي قلب فرعون لتظهر عجائبه وآياته وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمد حتى يمانعوه ويسعوا في معارضته والقده في آياته فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه بخلاف ما لو اتبع ابتداء بدون ذلك فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته وكذلك أيضا يكون في ذلك على يقينه وصبره وجهاده ويقين من آمن به وصبرهم وجهادهم ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال كما ذكره الله في كتابه من أن

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 190

الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاؤوا بها فتارة يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة وتارة لا يجيبهم لما فيه في ذلك من المصرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم الذين يقولون إنه يفعل للحكمة ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلى محض المشيئة ويقول إقترن بالمراد والمفسدة عادة وسنة من الله وإن لم يفعل هذا لهذا وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ربما طلب تلك الآيات رغبة منه في إيمانهم بها فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى بل تستلزم إقامة الحجة وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر كما فعل بفرعون وأبي لهب وغيرهما لما في ذلك من الحكمة العظيمة كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرهما وقد بين أنه لا يظهرها لانتفاء الحكمة فيها أو لوجود المفسدة قال تعالى **{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا }** الإسراء 59 بين سبحانه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها الذي استحقوا بها الهلاك فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال وهذا المعنى مذكور في عامة كتب التفسير والحديث وغيرها من كتب المسلمين وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان فقد ذكر المفسرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهاباً وأن ينحي عنهم الجبال حتى يزرعوا قال فقليل له إن شئت تستأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم قال لا بل أستأني بهم فأنزل الله هذه الآية **{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا }** الإسراء 59 وروى ابن أبي حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال سمعت الحسن البصري في قوله **{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ }** الإسراء 59 قال رحمة لكم ايتها الأمة أنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها اصابكم ما اصاب من قبلكم وفي الإنجيل أن اليهود طلبوا من المسيح آية من السماء فقال لهم المسيح الأمة الفاجرة تطلب آية ولا تعطى إلا مثل آية نونان وقد كانت الآيات يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم آية بعد آية فلا يؤمنون بها¹

" هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به "

كذلك مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به فهذا لا يقدر عليه الجن وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى ولهذا قال تعالى **{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا }** الإسراء 60 قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به وهذا كما قال في الآية **{ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ } 10 { مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى } 11 { أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى } 12 { وَقَدْ**

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 429

رَأَهُ نَزَلَتْ أُخْرَى {13} عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى {14} عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى {15} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى {16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَى {17} لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى {18} النجم 10-18¹

الكفر يتبعض ويزيد وينقص

قال تعالى { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا } {الإسراء: 60} النفاق يتبعض والكفر يتبعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبعض ويزيد وينقص قال الله تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } {التوبة: 37} وقال { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } {125} {التوبة: 124-125} وقال { وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا } {المائدة: 68}²

آدم كرم على من سجد له

قال تعالى { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } {61} قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } {62} قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا } {63} { وَاسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } {64} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } {65} {الإسراء: 61-65}

اسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } {ص: 73} فهذه ثلاث صيغ مقرررة للعموم وللإستغراق فإن قوله { الْمَلَائِكَةُ } {ص: 73} يقتضى جميع الملائكة فان اسم الجمع المعروف بالالف واللام يقتضى العموم كقوله رب الملائكة والروح فهو رب جميع الملائكة الثانى { كُلُّهُمْ } {ص: 73} وهذا من ابلغ العموم الثالث قوله { أَجْمَعُونَ } {ص: 73} وهذا توكيد للعموم ولم يكن في المأمورين بالسجود أحد من الشياطين لكن أبوهم إبليس هو كان مأمورا فامتنع وعصى وجعله بعض الناس من الملائكة لدخوله في الأمر بالسجود وبعضهم من الجن لأن له قبيلة وذرية ولكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور والتحقيق أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا غيرهما³

¹ عقيدة الفرقة الناجية ج: 1 ص: 7

² مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 188

³ مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 345

فإن الإسم المجموع المعرف بالألف واللام يوجب إستيعاب الجنس قال تعالى **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الإسراء 61** فسجود الملائكة يقتضى جميع الملائكة هذا مقتضى اللسان الذى نزل به القرآن فالعدول عن موجب القول العام إلى الخصوص لابد له من دليل يصلح له وهو معدوم وهذا ما استدل به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء به أهل السنة على ان آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة لأن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراما له ولهذا قال ابليس **{ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ} الإسراء 62** فدل على ان آدم كرم على من سجد له¹

وقد قال بعض الأغبياء ان السجود انما كان لله وجعل آدم قبلة لهم يسجدون اليه كما يسجد الى الكعبة وليس فى هذا تفضيل له عليهم كما ان السجود الى الكعبة ليس فيه تفضيل للكعبة على المؤمن عند الله بل حرمة المؤمن عند الله افضل من حرمتها وقالوا السجود لغير الله محرم بل كفر والجواب أن السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه بإجماع من يسمع قوله ويدل على ذلك وجوه احدها قوله لآدم ولم يقل الى آدم وكل حرف له معنى ومن التمييز فى اللسان ان يقال سجدت له وسجدت اليه كما قال تعالى **{ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} فصلت 37** وقال **{ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الرعد 15** واجمع المسلمون على ان السجود لغير الله محرم واما الكعبة فقد كان النبي يصلى الى بيت المقدس ثم صلى الى الكعبة وكان يصلى الى عنزة ولا يقال لعنزة والى عمود وشجرة ولا يقال لعمود ولا لشجرة والساجد للشىء يخضع له بقلبه ويخشع له بفؤاده واما الساجد اليه فانما يولى وجهه وبدنه اليه ظاهرا كما يولى وجهه الى بعض النواحي اذا امه كما قال **{ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} البقرة 150** والثانى ان آدم لو كان قبله لم يمتنع ابليس من السجود او يزعم انه خير منه فان القبلة قد تكون أحجارا وليس فى ذلك تفضيل لها على المصلين اليها وقد يصلى الرجل الى عنزة وبغير والى رجل ولا يتوهم انه مفضل بذلك فمن اى شىء فر الشيطان هذا هو العجب العجيب والثالث انه لو جعل آدم قبلة فى سجدة واحدة لكانت القبلة وبيت المقدس افضل منه بالآف كثيرة اذ جعلت قبلة دائمة فى جميع انواع الصلوات فهذه القصة الطويلة التى قد جعلت علما له ومن أفضل النعم عليه وجاءت الى العالم بان الله رفعه بها وامتن عليه ليس فيها اكثر من انه جعله كالكعبة فى بعض الاوقات مع أن بعض ما أوتيته من الايمان والعلم والقرب من الرحمن افضل بكثير من الكعبة والكعبة انما وضعت له ولذريته افيجعل من جسيم النعيم عليه او يشبهه به فى شىء نزر قليل جدا هذا مالا يقوله عاقل واما قولهم لا يجوز السجود لغير الله فيقال لهم ان قيلت هذه الكلمة على الجملة فهى كلمة عامة تنفى بعمومها جواز السجود لآدم وقد دل دليل خاص على انهم سجدوا له والعام لا يعارض ما قابله من الخاص وثانيها ان السجود لغير الله حرام علينا وعلى الملائكة اما الاول فلا دليل واما الثانى فما الحجة فيه وثالثها انه حرام امر الله به او حرام لم يأمر به والثانى حق ولا شفاء فيه واما الاول فكيف يمكن ان يحرم بعد ان امر الله تعالى به وابعها أبو يوسف وإخوته خروا له سجدا ويقال كانت تحيتهم فكيف يقال إن السجود حرام مطلقا وقد كانت البهائم تسجد

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 363

للنبي والبهائم لا تعبد الله فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته وقد قال النبي ولو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها ومعلوم أنه لم يقل لو كنت أمرا أحدا أن يعبد وسابعا وفيه التفسير أن يقال أما الخضوع والقنوت بالقلوب والإعتراف بالربوبية والعبودية فهذا لا يكون على الإطلاق إلا الله سبحانه وتعالى وحده وهو غيره ممتنع باطل وأما السجود فشرعية من الشرائع إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله عز وجل إذ أحب أن نعظم من سجدنا له ولو لم يفرض علينا السجود لم يجب البتة فعله فسجود الملائكة لآدم عبادة للهِت وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه وهو لآدم تشریف وتكريم وتعظيم وسجود أخوة يوسف له تحية وسلام ألا ترى أن يوسف لو سجد لأبويه تحية لم يكره له ولم يأت أن آدم سجد للملائكة بل لم يؤمر آدم وبنوه بالسجود إلا الله رب العالمين ولعل ذلك والله أعلم بحقائق الأمور لأنهم أشرف الأنواع وهم صالحوا بنى آدم ليس فوقهم أحد يحسن السجود له إلا الله رب العالمين وهم أكفاء بعضهم لبعض فليس لبعضهم مزية بقدر ما يصلح له السجود ومن سواهم فقد سجد لهم من الملائكة للأب الأقوم ومن البهائم للإبن الإكرم وأما قوله لم يسبق لآدم ما يوجب الإكرام له بالسجود فلغو من القول هذى به بعض من اعتزل الجماعة فإن نعم الله تعالى وأيديه وآلائه على عباده ليست بسبب منهم ولو كانت بسبب منهم فهو المنعم بذلك السبب فهو المنعم به ويشكرهم على نعمه وهو أيضا باطل على قاعدتهم لا حاجة لنا إلى بيانه ههنا¹

الإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهد ما يضره

قال تعالى {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} {الإسراء 62} الشياطين منهم من يختار الكفر والشرك ومعاصي الرب وإبليس وجنوده من الشياطين يشتهدون الشر ويلتذون به ويطلبونه ويحرصون عليه بمقتضى خبث أنفسهم وان كان موجبا لعذابهم وعذاب من يغوونه كما قال إبليس {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {82} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} {ص 82-83} وقال تعالى {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} {الإسراء 62} وقال تعالى {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} {سبأ 20} والإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهد ما يضره ويلتذ به بل يعشق ذلك عشقا يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله²

المعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله كان عذابا على صاحبه

قال تعالى {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} {الإسراء 62} فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أنكروه وسواء

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 358-361

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 34

علموا ذلك أو جهلوه لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له مستكبراً على ربه ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجد له كان عذاباً على صاحبه كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } النمل 14 وقال تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } البقرة 146 وقال تعالى { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } الأنعام 33 فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار ولا يصير بها الرجل مؤمناً كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } يوسف 106 فإن المشركين كانوا يقولون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } لقمان 25 وقال تعالى { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {85} المؤمنون 84-85 إلى قوله { قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } المؤمنون 89 وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر البر والفاجر وإبليس معترف بهذه الحقيقة وكذلك أهل النار قال إبليس { أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } الأعراف 14 وقال { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } الحجر 39 وقال { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لِأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 82 وقال { أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } الإسراء 62 وأمثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك أهل النار { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } المؤمنون 106 وقال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } الأنعام 30 فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بالهيته وطاعة أمره وأمر رسوله كان من جنس إبليس وأهل النار وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من أشر أهل الكفر والإلحاد¹

من اكتفى بالحقائق الكونية ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس

قال تعالى { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِن أُخْرَتِنِ إِلَى يَوْمِ الْفِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 62 فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار ولا يصير بها الرجل مؤمناً كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } يوسف 106 فإن المشركين كانوا يقولون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 365

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ { لقمان 25 وقال تعالى { قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {85} المؤمنون 84-85 الى قوله { قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } { المؤمنون 89 وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة ويشهدا هذه الحقيقة وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر وابليس معترف بهذه الحقيقة واهل النار قال ابليس { رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } الحجر 36 وقال { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } الحجر 39 وقال { فَبِعِزَّتِكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 82 وقال { أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } الإسراء 62 وامثال هذا من الخطاب الذى يقر فيه بان الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك اهل النار قالوا { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } { المؤمنون 106

وقال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا } { الأنعام 30 فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقر بما امر به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بالهية وطاعة امره وامر رسوله كان من جنس ابليس واهل النار وان ظن مع ذلك انه خواص اولياء الله واهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهى الشرعيان كان من اشر اهل الكفر والالحاد ومن ظن ان الخضر وغيره سقط عنهم الامر لمشاهدة الارادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر اقوال الكافرين بالله ورسوله حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد وهو العبد العابد فيكون عبدا لله لا يعبد الا اياه فيطيع امره وامر رسله ويوالى اولياءه المؤمنين المتقين ويعادى اعداءه وهذا العبادة متعلقة بالهية ولهذا كان عنوان التوحيد لا اله الا الله بخلاف من يقر بوبوبيته ولا يعبد او يعبد معه الها آخر فالاله الذى يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والاجلال والاکرام والخوف والرجاء ونحو ذلك وهذه العبادة هى التى يحبها الله ويرضاها بها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله وأما العبد بمعنى المعبد سواء اقر بذلك او أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة فى عبادة الله ودينه وامره الشرعى التى يحبها ويرضاها ويوالى اهلها ويكرمهم بجنته وبين الحقائق الكونية التى يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التى من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع ابليس اللعين والكافرين برب العالمين ومن اكتفى بها فى بعض الأمور دون بعض أو فى مقام او حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون وكره فيه الاشتباه على السالكين حتى زلق فيه من اكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيد والعرفان مالا يحصيهم الا الله الذى يعلم السر والاعلان والى هذا اشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذكر عنه فبين ان كثيرا من الرجال إذا وصلوا الى القضاء والقدر أمسكوا الا انا فإنى انفتحت لى فيه روزنة فنازعت اقدار الحق بالحق والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا للقدر والذى ذكره الشيخ رحمه الله هو الذى امر الله به ورسوله لكن كثير من الرجال غلطوا فإنهم قد يشهدون ما يقدر على احدهم من المعاصى والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ويشهدون ان هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدرة داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } { الأنعام 148 وقالوا { أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ } يس 47 وقالوا { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ } { الزخرف 20 ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا ان نرضى به ونصبر على موجبها فى المصائب التى تصيبنا كالفقر والمرض والخوف قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } { التغابن 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم

وقال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ {23} الحديد 22-23 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال احتج آدم وموسى فقال أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر قان هذا لايقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لآمه لأجله المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر وفتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 وقال تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل عمران 120 وقال { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقال يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب في الله ويبغض في الله¹

لا يعذب الله إلا من بلغته الرسالة ولا يعذب إلا من خالف الرسل

قال تعالى { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُوراً } الإسراء 63 الذي عليه السلف والأئمة إنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة قال تعالى لإبليس { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُوراً } الإسراء 63²

ما يبئلى به من الذنوب فهو عقوبة له على عدم فعل ما خلقه الله له

قال تعالى { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُوراً } الإسراء 63 إن ما يبئلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقا لله فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له وفطره عليه فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ودله على الفطرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وقال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 30 فهو لما لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه وما أمر به من معرفة الله وحده وعبادته وحده عوقب على ذلك بأن

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 158-160

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 297

زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي قال تعالى للشيطان { قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَأُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا } {63} وَأَسْتَفْزِرُ مِمَّنْ اسْتَقْتَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } {64} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } {65} الإسراء 63-65. وقال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 99-100 الآية وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } {201} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } {202} الأعراف 201-202 فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فكان إلهامه لفجوره عقوبة له وعدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال إن الله خلقه ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَانَمَا يَصَعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } {الأنعام 125} الآية وقال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } {الصف 5} وقال { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى } {8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } {9} فَسَنِيسِرُّهُ لِلْعُسْرَى } {10} الليل 8-10 وهذا و أمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محذور وترك مأمور ولا بد لهم من حركة وإرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلا من الله كما قيل نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتي القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون خلقها لذلك و التعذيب لهم ظلم يقال لهم إنما أوقعهم فيها وطبع على قلوبهم عقوبة لهم فما ظلمهم و لكن ظلموا أنفسهم يقال ظلمته إذا نقصته حقه قال تعالى { كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ لَمَّا أَكَلَا وَ لَمْ تَظْلِمْنَا مِنْهُ شَيْئًا } {الكهف 33} وكثير منهم يسلمون أن الله خلق من الأعمال ما يكون جزاء على عمل متقدم و يقولون خلق طاعة المطيع لكن ما خلق شيئا من الذنوب ابتداء بل جزاء فيقولون أول ما يفعل العبد لم يحدثه الله وما ذكرنا يوجب أن يكون الله خالق كل شيء لكن أولها عقوبة على عدم فعله لما خلق له والعدم لا يضاف الى الله فما أحدثه فأوله عقوبة على هذا العدم وسائرهما قد يكون عقوبة على ما وجد وقد يكون عقوبة على إستمراره على العدم فما دام لا يخلص لله لا يزال مشركا والشيطان مسلط عليه ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن إستعمله ابتداء فيما خلق له تخصيص بفضله و هذا منه لا يوجب الظلم و لا يمنع العدل ولهذا يقول تعالى { وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ } {البقرة 105} وكذلك الفضل هو أعلم به كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها و بسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية وغير ذلك من حكمته و تحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب و مما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قوله تعالى { وَنَقَلْنَا أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ } {الأنعام 110} هذا من تمام قوله { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } {الأنعام 109} فذكر أن هذا التقليل يكون لمن لم يؤمنوا به أول مرة و هذا عدم الإيمان لكن يقال هذا بعد دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم و قد كذبوا و تركوا الإيمان و هذه أمور وجودية لكن الموجب هو عدم الإيمان و ما ذكر شرط في التعذيب كإرسال الرسول فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح لا يستحق به العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان ومن الناس من يقول ضد الإيمان هو تركه وهو أمر وجودي لا ضد له إلا ذلك¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 222-224 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 92

الأصوات من أعظم المحركات

قال تعالى { **وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** } الإسراء 64 روى الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي أن الشيطان قال يارب اجعل لي بيتا قال بيتك الحمام قال اجعل لي قرانا قال قرأتك الشعر قال يارب اجعل لي مؤذنا قال مؤذتك المزمار وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطبا للشيطان قال تعالى { **وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** } الإسراء 64 وقد فسر ذلك طائفة من السلف بصوت الغناء وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله وروى عن النبي انه قال إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان وصوت لطم خدود أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية كقولهم والههفاه واكبداه وانصيراه¹

مما لا ريب فيه فإن الأصوات توجب الحركات الإرادية بحسنها وهي في الأصل ناشئة عن حركات إرادية ويختلف تأثيرها باختلاف نوع الصوت وقدره بل هي من أعظم المحركات أو أعظمها وإذا اتفق قوة المؤثر واستعداد المحل قوى التأثير فالنفوس المستعدة لصغر أو انوثة أو جزع ونحوه أو لفراغ وعدم شغل أو ضعف عقل إذا اتصل بها صوت عظيم حسن قوى أزعجها غاية الإزعاج لكن هذا لا يدل على جواز ذلك ولا فيه ما يوجب مدحه وحسنه بل مثل هذا أدل على الذم والنهي منه على الحمد والمدح فإن هذا يفسد النفوس أكثر مما يصلحها ويضرها أكثر مما ينفعها وإن كان فيه نفع فائمة أكثر من نفعه وقد قال الله للشيطان **واستفزر من استطعت منهم بصوتك** سورة الإسراء 64 فالصوت الشيطاني يستفز بني آدم وقال النبي ص إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة لهو، ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، لطم وجوه، وشق جيوب، ورتة شيطان، وذكر صوت النعمة وصوت المعصية ووصفهما بالحمق والفجور وهو الظلم والجهل قال تعالى { **وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** } الإسراء 64²

بين الله ان عباده هم الذين ينجون من السيئات

قال تعالى { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا** } الإسراء 65

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى { **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** }

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 641

²الاستقامة ج: 1 ص: 379

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ {19} يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ {20} {الأنبياء 19-20} وقال تعالى {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} النساء 172 الى قوله { وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } النساء 173 وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة واذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى وقد بين ان عباده هم الذين ينجون من السيئات قال الشيطان {بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {39} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {40} الحجر 39-40 الى قوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } {42} الحجر 42 وقال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } {الإسراء 65} ¹

فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا وقال تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وقال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} الجن 19 وقال تعالى فيما حكاه عن إبليس قال { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } {83} ص 82-83 قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } {الإسراء 65} وقال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 وقال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 99-100 و عبادته طاعة أمره وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا ²

الشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين

قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } {الإسراء 65}

فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيها عبادة لله وعملا صالحا وثبت عنه أنه قال المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها وهو الى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية والصبر في هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد كما قال والمهاجر من هجر السيئات ثم هذا لا يكون محمودا فيه الا اذا غلب بخلاف الأول فإنه من يقتل أو يغلب فسوف نؤتيه اجرا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 176-178

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 546

عظيما ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة الخ وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه فحصل له من الايمان ما يعينه على الجهاد فإذا غلب كان لضعف ايمانه في كون مفرطا بترك المأمور بخلاف العدو الكفار فإنه قد يكون بدنه أقوى فالذنوب انما تقع اذا كانت النفس غير ممثلة لما أمرت به ومع امتثال المأمور لا تفعل المحذور فإنهما ضدان قال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} يوسف 24 الآية وقال {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} الإسراء 65 فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان والغى خلاف الرشد وهو اتباع الهوى فإن ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السيئات فإذا كان تائباً فإن كان ناقصاً فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحياً لها بعد الوقوع فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم ويرفعه بعد حصوله وكالغذاء من الطعام والشراب¹

فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين²

أئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب

قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } الإسراء 65

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن بينلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفي رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة أي حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فصيير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس في الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهجه بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين

1

الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 69

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 220

الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر6 ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء82 وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا } التوبة124 وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيز منه قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل98-100 فان المستعيز بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا لَوْ حَظَّ عَظِيمٌ } {35} وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} فصلت34-36 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنة وعندما يأمره الشيطان بالسينات ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علمائها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علمائهم فعلمائهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلمائهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسواس التى تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 282-285

قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا } الإسراء 65

أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي إليه تصير الحادثات فهو الأصل الجامع فالعلم به أصل كل علم وجامعه وذكره أصل كل كلام وجامعه والعمل له أصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة وإما أمر مضر ثم من العلم به تنتشعب أنواع العلوم ومن عبادته وقصده تنتشعب وجوه المقاصد الصالحة والقلب بعبادته والإستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق واعتصم بالدليل الهادي والبرهان الوثيق فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان وإما في السلامة عن الجهل والكفر وبهذا جاءت النصوص الإلهية في أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور وضرب مثل المؤمن وهو المقر بربه علماً وعملاً بالحقى والبصير والسميع والنور والظل وضرب مثل الكافر بالميت والأعمى والأصم والظلمة والحرور وقالوا في الوسواس الخناس هو الذى اذا ذكر الله خنس واذا غفل عن ذكر الله وسوس فتبين بذلك أن ذكر الله أصل لدفع الوسواس الذى هو مبدأ كل كفر وجهل وفسق وظلم وقال الله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } الحجر 42 وقال { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } النحل 99 وقال { وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } آل عمران 101 ونحو ذلك من النصوص¹

الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول

قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا } الإسراء 65

فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة والزكاة حق الخلق فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد للعباد في المعاش والمعاد فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ } النساء 36 وهذا أمر بمعالي الأخلاق وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها وقد روى عنه أنه قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق رواه الحاكم في صحيحه وقد ثبت عنه في الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال اليد العليا خير من اليد السفلى وقال اليد العليا هي المعطية واليد السفلى السائلة وهذا ثابت عنه في الصحيح فأين الإحسان إلى عباد الله من إيدائهم بالسؤال والشحاذة لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراف به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التي تصلح أمور أصحابها في الدنيا والآخرة ونهى عن الأنواع الثلاثة التي تفسد أمور أصحابها

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 16-17

ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول قال تعالى { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا** } {الإسراء: 65¹}

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ومع إمتثال المأمور لا تفعل المحذور فإنهما ضدان قال تعالى { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } يوسف 24 الآية وقال { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } الحجر 42 فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان و الغي خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه الى محرم فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السيئات²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** } {الإسراء: 53} ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها³

2- قال تعالى { **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } {الإسراء: 56- 57} و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة وإما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه ومن ذلك قوله تعالى { **وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة وبالعبادة وقوله تعالى { **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** } {الإسراء: 56⁴}

3- قال تعالى { **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** } {56} **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } {الإسراء: 56- 57} وقال تعالى { **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** } فاطر 43 وذكر لفظ التبديل والتحويل كقوله تعالى { **فَلَا يَمْلِكُونَ** }

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 196

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 637

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

⁴شرح العمدة ج: 4 ص: 28

كَشَفَ الصُّرَّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا {الإسراء 57} فالتبديل أن تبدل بخلافه والتحويل أن تحول من محل إلى محل مثل استفزازه من الأرض ليخرجوه فإنهم لا يلبثون خلفه إلا قليلا ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرج وهم اللابثون بل متى أخرجوه خرجوا خلفه ولو مكث لكان هذا استصحاب حال بخلاف ظهور الكفار فإنه كان تبديلا لظهور المؤمنين وظهور الكفار إذ كان لا بد من أحدهما وأما أهل المكر السيء والكفار فهي سنة تبديل لا بد لهم من العقوبة لا يبدلون بها غيرها ولا نتحول عنهم إلى المؤمنين وهو وعيد لأهل المكر السيء أنه لا يحيق إلا بأهله ولن يتبدلوا به خيرا يتضمن نفيا وإثباتا فلهذا نفى عنه التبديل والتحويل¹

4- قال تعالى { **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** } {الإسراء 57} والوسيلة هي الأعمال الصالحة²

5- قال تعالى { **وَإِنْ مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا** } {الإسراء 58} لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثلة هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى { **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً** } {النحل 112} وقوله { **وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** } {4} **فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** } {5} الأعراف 4-5 وقال في آية أخرى { **أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** } {الأعراف 97} فجعل القرى هم السكان وقال { **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** } {محمد 13} وهم السكان وكذلك قوله تعالى { **وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا** } {الكهف 59} وقال تعالى { **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** } {البقرة 259} فهذا المكان لا السكان لكن لا بد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعته فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقولته { **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** } {يوسف 82} مثل قوله { **قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً** } {النحل 112} فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضمار ولا حذف³

¹رسالة في لفظ السنة في القرآن ج: 1 ص: 55

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 337

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

- 6- فإن الإسم المجموع المعرف بالألف واللام يوجب إستيعاب الجنس قال تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} الإسراء 61 فسجود الملائكة يقتضى جميع الملائكة هذا مقتضى اللسان الذى نزل به القرآن فالعدول عن موجب القول العام إلى الخصوص لابد له من دليل يصلح له وهو معدوم¹
- 7- قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا } الإسراء 65 ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها²

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 363

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 43

{ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا {68} أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا {69} وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا {70} يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَمُونَ فَتِيلًا {71} وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا {72} وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا {73} وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا {74} إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا {75} وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا {76} سُنَّةً مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا {77}

ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق ؟

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا {68} أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا {69} {الإسراء 66- 69}

وأما قول السائل ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه ب الله فيقال سبب هذا تحقيق التوحيد توحيد الربوبية و توحيد الإلهية فتوحيد الربوبية أنه لا خالق إلا الله فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } {28} وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {29} التكويد 28- 29 وقال تعالى { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } {29} وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا {30} { يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } {31} {الانسان 29- 31} وقال { فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ } {55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } {56} {المدثر 55- 56} والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق وذلك المخلوق عاجز عنه ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد ثم إن وحده العبد توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة وإن كان ممن قيل فيه { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ

يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {يونس 12} وفي قوله {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {الإسراء 67} كان ما حصل له من وحدانيته حجة عليه كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بأنه خالق كل شيء ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له قال تعالى {قُلْ لَمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {85} قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {87} قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {88} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} {89} المؤمنون 85-89 وقال تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ {العنكبوت 61} وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضع فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضرر وما يلجئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحدا سواه وتتعلق قلوبهم به لا لغيره فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذوق طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف أو الجذب أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة فإن ذلك لذات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال أو يستحضر تفصيله بال ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه ولهذا قال بعض السلف يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك وقال بعض الشيوخ إنه ليكون لي إلى الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك لأن النفس لا تريد إلا حظها فإذا قضى انصرفت وفي بعض الإسرائيليات يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك وهذا المعنى كثير وهو موجود مذوق محسوس بالحس الباطن للمؤمن وما من مؤمن إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه فإن ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه إلا من كان له ذوق وحس بذلك¹

مستحضر توحيد الربوبية وتوحيد السؤال والتوكل عليه معرض عن توحيد الإلهية

ان قول القائل {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ} {الأنبياء 87} فيه افراد الإلهية لله وحده وذلك يتضمن التصديق لله قولا وعملا فالمشركون كانوا يقرون بان الله رب كل شيء لكن كانوا يجعلون معه آلهة اخرى فلا يخصصونه بالالهية وتخصيصه بالالهية يوجب ان لا يعبد الا اياه وان لا يسأل غيره كما في قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفاحة 5} فان الانسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه لكن في امور لا يحبها الله بل يكرهها وينهى عنها فهذا وان كان مخلصا له في سؤاله والتوكل عليه لكن ليس هو مخلصا في عبادته وطاعته وهذا حال كثير من اهل التوجيهات الفاسدة اصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لامر الله ورسوله فانهم يعانون على هذه الامور وكثير منهم يستعين الله عليها لكن لما لم تكن موافقة لامر الله ورسوله حصل لهم نصيب من العاجلة وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة قال تعالى {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 331-333

وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {الإسراء 67} وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ {يونس 12} وطائفة اخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم لكنهم مخدولون فيما يقصدونه اذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه ولهذا يبئلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة وبالاعجاب اخرى فان لم يحصل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فان حصل مراده نظر الى نفسه وقوته فحصل له اعجاب وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل قال تعالى { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } التوبة 25 الى قوله { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } التوبة 27 وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الاشرار بالخلق والعجب من باب الاشرار بالنفس وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} {الفتح 5} والمعجب لا يحقق قوله { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {الفتح 5} فمن حقق قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} {الفتح 5} خرج عن الرياء ومن حقق قوله { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {الفتح 5} خرج عن الاعجاب وفي الحديث المعروف ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وشر من هؤلاء وهؤلاء من لا تكون عبادته لله ولا استعانته بل يعبد غيره ويستعين غيره وهؤلاء المشركون من الوجهين ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين كاصحاب الاحوال الشيطانية فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين ويعزمون بالعزائم التي تطيعها الشياطين مما فيها اشراك بالله كما قد بسط الكلام عليهم فى مواضع اخر وهؤلاء قد يحصل لهم من الخوارق ما يظن انه من كرامات الاولياء وانما هو من احوال السحرة والكهان ولهذا يجب الفرق بين الاحوال الايمانية القرآنية والاحوال النفسانية والاحوال الشيطانية واما القسم الرابع فهم اهل التوحيد الذين اخلصوا دينهم لله فلم يعبدوا الا اياه ولم يتوكلوا الا عليه وقول المكروب { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ } {الأنبياء 87} قد يستحضر فى ذلك احد النوعين دون الآخر فمن أتم الله عليه النعمة استحضر التوحيد فى النوعين فان المكروب همته منصرفة إلى دفع ضره و جلب نفعه فقد يقول لا اله الا الله مستشعرا أنه لا يكشف الضر غيرك ولا يأتي بالنعمة إلا أنت فهذا مستحضر توحيد الربوبية ومستحضر توحيد السؤال والطلب والتوكل عليه معرض عن توحيد الالهية الذى يحبه الله ويرضاه ويأمر به وهو أن لا يعبد الا اياه ولا يعبد الا بطاعته وطاعة رسوله فمن استشعر هذا فى قوله { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ } {الأنبياء 87} كان عابدا لله متوكلا عليه وكان ممتثلا قوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } {هود 123} وقوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } {هود 88} وقوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } {8} { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } {9} { المزملة 8-9 } ثم ان كان مطلوبه محرما أتم وان قضيت حاجته وان كان طالبا مباحا لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله و عبادته لم يكن أتما ولا مثابا وان كان طالبا ما يعينه على طاعة الله و عبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثابا مأجورا¹

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 276 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

كثير من المتكلمين والمتصوفة في نوع من الحقائق الكونية لا في الحقائق الدينية الشرعية

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُيُنًا أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عُيُنًا بِهِ تَبِيعًا } {69} الإسراء 66- 69 ولما كان علم النفوس بحاجتهم و فقرهم الى الرب قبل علمهم بحاجتهم و فقرهم الى الاله المعبود و قصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الأجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته و كان الدعاء له و الاستعانة به و التوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له و الانابة اليه ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله و حده لاشريك له الذي هو المقصود المستلزم للاقرار بالربوبية و قد أخبر عنهم أنهم { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } الزخرف 87 و انهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 67 و قال { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } لقمان 32 فأخبر أنهم مقرون بربوبيته و أنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم و استعانتهم ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحداية من جهة الربوبية و أما الرسل فهم دعوا اليها من جهة الألوهية و كذلك كثير من المتصوفة المتعبدة و أرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون و هؤلاء من جنس الملوك و قد ذم الله عز و جل في القرآن هذا الصنف كثيرا فتدبر هذا فإنه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون في الحقائق و يعملون عليها و هم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الألهيية و قد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة و هو أصل عظيم يجب الأعتناء به و الله سبحانه أعلم و ذلك أن الانسان بل و جميع المخلوقات عباد الله تعالى فقراء إليه مماليك له و هو ربهم و مليكهم و إلههم لا إله إلا هو فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلا بل نفسه و صفاته و أفعاله و ما ينتفع به أو يستحقه و غير ذلك إنما هو من خلق الله و الله عزوجل رب ذلك كله و مليكه و بارئه و خالقه و مصوره¹

الكافر إنما يخضع لله عند رغبة ورهبة فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه

المؤمن يسلم لله طوعا فيحبه و يطيع أمره و الكافر إنما يخضع له عند رغبة و رهبة فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه كما قال { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ } يونس 12 و قال { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67 و فقر المخلوق و عبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك و الحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات و بذلك هي أنها لخالقها و فاطرها إذ لا قيام لها بدونها و إنما يفترق الناس في شهود هذا الفقر و الاضطرار و عزوبه عن قلوبهم و أيضا فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال و تعظيم فهو غاية مطلوبه و مراده و منتهى همته و لا صلاح له إلا بهذا و أصل الحركات الحب و

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 14

الذي يستحق المحبة لذاته هو الله فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك و حبه فساد و إنما الحب الصالح النافع حب الله و الحب لله و الإنسان فقير إلى الله من جهة عبادته له و من جهة استعانتة به للاستسلام و الانقياد لمن أنت إليه فقير و هو ربك و الهك و هذا العلم و العمل أمر فطري ضروري فإن النفوس تعلم فقرها الى خالقها و تدل لمن افتقرت إليه و غناه من الصمدية التي انفرد بها فإنه يسأله من فى السموات و الأرض و هو شهود الربوبية بالاستعانة و التوكل و الدعاء و السؤال ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم و العمل و ذلك هو عبادته و الإنابة إليه فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه و كماله و لذته و فرحه و سروره فى أن يعبد ربه و ينيب إليه و ذلك قدر زائد على مسألتة و الافتقار إليه فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته قائمة بقدرته و كلمته محتاجة إليه فقيرة إليه مسلمة له طوعاً و كرها فإذا شهد العبد ذلك و أسلم له و خضع فقد آمن بربوبيته أى حاجته و فقره إليه صار سائلاً له متوكلاً عليه مستعيناً به إما بحاله أو بقاله بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألتة قال سبحانه و تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } البقرة 186 أخبر سبحانه أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعى إذا دعاه فهذا إخبار عن ربوبيته لهم و إعطائهم سؤلهم و إجابة دعائهم فانهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم و إن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر و فساقاً أو عصاة قال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67 و قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } يونس 12 و نظائره فى القرآن كثيرة ثم أمرهم بأمرين فقال { فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } البقرة 186 ف الأول أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة و الاستعانة و الثانى الإيمان بربوبيته و ألوهيته و أنه ربههم و إلههم ولهذا قيل إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد و عن كمال الطاعة لأنه عقب آية الدعاء بقوله { فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي } البقرة 186 و الطاعة و العبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته و نجاته و أما إجابة دعائه و إعطاء سؤاله فقد يكون منفعة و قد يكون مضرة قال تعالى { وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } الإسراء 11¹

حال الإنسان عند السراء والضراء

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } 66 { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } 67 { أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا } 68 { أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنًا بِهِ تَبِيعًا } 69 { الإسراء 66- 69 حال الإنسان عند السراء والضراء وذلك أن الإنسان هو كما وصفه الله بقوله تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ كَفُورٌ } 9 { وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } 10 { هود 9-10 وقال تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } هود 11 فأخبر أنه

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 32-34

عند الضراء بعد السراء بيأس من زوالها في المستقبل ويكفر بما أنعم الله به عليه قبلها وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود الضراء في المستقبل وينسي ما كان فيه بقوله { ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ } هود 10 علي غيره يفخر عليهم بنعمة الله عليه وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً } 21 { الماعارج 19-21 فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه منوع عند الخير يبخل به وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } إبراهيم 34 وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } العاديات 6 وقال تعالى { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب 72 وقال تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا } الإسراء 100 وقال { وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤُوسٌ قَنُوطٌ } فصلت 49 وقال تعالى { فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67 وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون في البأساء والضراء وحين البأس والصابرون في النعماء أيضا بقوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } هود 11 والصبر في السراء قد يكون أشد ولهذا قال من قال من الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وكان النبي يستعيز بالله من فتنة القبر وشر فتنة الغني وقال لأصحابه والله ما الفقر أخشي عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علي من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم¹

ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } النساء 79 أوجب هذا أن لا يطلب العبد الحسنات - والحسنات تدخل فيها كل نعمة - إلا من الله وأن يعلم أنها من الله وحده فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره ويعلم أنه لا إله إلا هو فهذا يوجب على العبد شكره وعبادته وحده والإنسان إنما يجار إذا مسه الضر وأما في حال النعمة فهو ساكن إما شاكرا وإما كفورا وهذا المعنى قد ذكره الله في غير موضع يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه وإسباغ النعماء عليه فيضيف العبد بعد ذلك الإنعام إلى غيره ويعبد غيره تعالى ويجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67²

أنهم يضطرون إليه وقت حوائجهم فيسألونه ويخضعون له وإن كانوا إذا أجابهم أعرضوا عنه قال الله تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ } يونس 12 وقال تعالى وقال { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67 وهو أخبر أنهم كلهم قانتون فإذا قنتوا له فدعوه وتضرعوا إليه عند حاجتهم كانوا قانتين له وإن كان إذا كشف الضر عنهم نسوا ما كانوا يدعون إليه وجعلوا له أندادا³

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 172-173

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 122

³رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 25

الدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ أَمْنًا أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } {69} الإسراء 66- 69 والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسئلة والإستعانة كما قال تعالى { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } غافر 14 ودم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ } الإسراء 67¹

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسئلة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } الشعراء 213 وقال تعالى { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } المؤمنون 117 وقال تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } القصص 88 وقال { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } الجن 19 وقال { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا } النساء 117 ولفظ الصلاة في اللغة اصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسئلة وفي الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولا لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعا بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضا راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتنال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضا راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء 90 وقال تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغبة والرهب من الخوف والطمع²

قال تعالى { وَبِاللَّهِ يَسْتَجِدُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } الرعد 15 وهذا من معاني ألوهيته وخضوع الكائنات واسلامها له وافتقارها اليه وسؤالها اياه ودعاء الخلق اياه اما دعاء عبادة واما دعاء مسألة واما دعاؤهما جميعا ومن عرض عنه وقت الاختيار { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ } الإسراء 67 { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 70

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 240

دَعَاَهُ { النمل 62 ونشهد أن كل معبود سواه من لدن عرشه الى قرار أرضه فإنه باطل الا وجهه الكريم كما نشهد أنها كلها مفتقرة اليه في مبدئها نشهد أنها مفتقرة اليه في منتهاها والا كانت باطلة¹

تحصل إجابة الدعوة بكمال الطاعة لألوهيته وبصحة الإيمان بربوبيته

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ أَمْنًا أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } {69} {الإسراء 66- 69} وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } {البقرة 186} وقد روى أن بعض الصحابة قال يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله هذه الآية فأخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ثم أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به كما قال بعضهم فليستجيبوا لي إذا دعوتهم وليؤمنوا بي إذا دعوتهم قالوا وبهذين الشيين تحصل إجابة الدعوة بكمال الطاعة لألوهيته وبصحة الإيمان بربوبيته فمن استجاب لربه بامتنال أمره ونهيه حصل مقصوده من الدعاء وأجيب دعاؤه كما قال تعالى { وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } {الشورى 26} أي يستجيب لهم يقال استجاب له واستجاب له فمن دعاه موقنا أن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه أجابه وقد يكون مشركا وفاسقا فإنه سبحانه هو القائل { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {يونس 12} وهو القائل سبحانه { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {الإسراء 67} وهو القائل سبحانه { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {40} بَلْ إِلَاهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } {41} {الأنعام 40-41} ولكن هؤلاء الذين يستجاب لهم لإقرارهم بربوبيته وأنه يجيب دعاء المضطر إذا دعاه إذا لم يكونوا مخلصين له الدين في عبادته ولا مطيعين له ولرسوله كان ما يعطيهم بدعائهم متاعا في الحياة الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق وقال تعالى { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا } {18} { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا } {19} { كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } {20} {الإسراء 18} وقد دعا الخليل عليه الصلاة والسلام بالرزق لأهل الإيمان فقال { وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ النَّمْرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } {البقرة 126} فقال الله تعالى { وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } {البقرة 126} فليس كل من متعه الله برزق

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 405

ونصر إما إجابة لدعائه وإما بدون ذلك يكون ممن يحبه الله ويواليه بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤلهم في الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق¹

قطب رحي الدين

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا } {68} أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا } {69} الإسراء 66- 69 فتوحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة وإستعانة هي قطب رحي الدين وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة والمضرة هي من جنس الألم والعذاب فلا بد له من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به والثاني هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود والثاني أمر مكروه مبغض مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه أحدها أن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه فهو سبحانه الجامع للأمر الأربعة دون ما سواه وهذا معنى قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب فالأول من معنى الألوهية والثاني من معنى الربوبية إذ الاله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما والرب هو الذي يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله من العبادة وغيرها وكذلك قوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ } هود 88 وقوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله { عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } الممتحنة 4 وقوله تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ } الفرقان 58 وقوله تعالى { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ } الرعد 30 وقوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } {8} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } {9} المزملة 8-9 فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين²

بين الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراف به

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 413

² مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا {68} أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ تَبِيعًا {69} الإسراء 66-69 أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون انها تماثيل الأنبياء والصالحين وأنها وسائل يتقربون بها الى الله وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث قال { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 وقال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 67 وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراف به حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل الا عليه وقال تعالى { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } المائدة 44¹

ومن رحمة الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا كدعاء غيره أن يفعل أو دعائه أن يدعو الله ونحو ذلك لا يحصل به غرض صاحبه ولا يورث حصول الغرض شبهة إلا في الأمور الحقيرة فأما الأمور العظيمة كإنزال الغيث عند القحوط وكشف العذاب النازل فلا ينفع فيه هذا الشرك كما قال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67 فكون هذه المطالب العظيمة لا يستجيب فيها إلا هو سبحانه دل على توحيده وقطع شبهة من أشرك به وعلم بذلك أن ما دون هذا أيضا من الإجابات إنما حصولها منه وحده لا شريك له وإن كانت تجري بأسباب محرمة أو مباحة كما أن خلقه للسماوات والأرض والرياح والسحاب وغير ذلك من الأجسام العظيمة دل على وحدانيته وأنه خالق كل شيء وأن ما دون هذا بأن يكون خلقا له أولى إذ هو حاصل عن مخلوقاته العظيمة فخالق السبب التام خالق للمسبب لا محالة وجماع الأمر أن الشرك نوعان شرك في ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير إما كما قال سبحانه { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } سبأ 22 فبين أنهم لا يملكون مثقال ذرة استقلالاً ولا يشركونه في شيء من ذلك ولا يعينونه على ملكه ومن لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عوناً فقد انقطعت علاقته وشرك في الألوهية بأن يدعو غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } {5} الفاتحة فكما أن إثبات المخلوقات أسباب لا تقدر في توحيد الربوبية ولا تمنع أن الله خالق كل شيء ولا توجب أن يدعي مخلوق دعاء عبادة أو دعاء استغاثة كذلك إثبات بعض الأفعال المحرمة من شرك أو غيره أسبابا لا يقدر في توحيد الإلهية ولا يمنع أن يكون الله هو الذي يستحق الدين الخالص ولا يوجب أن تستعمل الكلمات والأفعال التي فيها شرك إذ كان الله يسخط ذلك ويعاقب العبد عليه وتكون مضرة ذلك على العبد أكثر من منفعة إذ قد جعل الله الخير كله في أنا

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 135

لا نعبد إلا إياه ولا نستعين إلا إياه وعامة آيات القرآن تثبت هذا الأصل الأصيل حتى إنه سبحانه قطع أثر الشفاعة بدون إذنه كقوله سبحانه { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255¹

قد يجيب الله دعاء الكفار

قال تعالى { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } {66} وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {67} أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا } {68} أَمْ آمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ تَبِيعًا } {69} الإسراء 66- 69 و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 67²

والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم وقد يجيب الله دعاء الكفار فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم قال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67³

فقد علم المسلمون كلهم أن ما ينزل بالمسلمين من النوازل في الرغبة والرغبة مثل دعائهم عند الاستسقاء لنزول الرزق ودعائهم عند الكسوف والاعتداد لرفع البلاء وأمثال ذلك إنما يدعون في ذلك الله وحده لا شريك له لا يشركون به شيئاً لم يكن للمسلمين قط أن يرجعوا بحوائجهم إلى غير الله عز وجل بل كان المشركون في جاهليتهم يدعونه بلا واسطة فيجيبهم الله أفترأهم بعد التوحيد والإسلام لا يجيب دعاءهم إلا بهذه الوسطة التي ما أنزل الله بها من سلطان قال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } الإسراء 67⁴

ما خلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه من محمد

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 357

² شرح العمدة ج: 4 ص: 28

³ مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 206

⁴ زيارة القبور ج: 1 ص: 66

قال تعالى { **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** } الإسراء 70

(ناقص ن م) فدل على أنهم لم يفضلوا على الجميع وقوله { **مَّمَّنْ** } الإسراء 70 للتبويض فإن قلت هذا الإستدلال مفهوم للمخالف وأنت مخالف لهذا منازع فيه فيقال لك تخصيص الكثير بالذكر لا يدل على مخالفة غيره بنفى ولا إثبات وأيضا فإن مفهومه أنهم لم يفضلوا على ما سوى الكثير فاذا لم يفضلوا فقد يساؤون بهم وقد يفضل أولئك عليهم فإن الاحوال ثلاثة إما ان يفضلوا على من بقى او يفضل أولئك عليهم او يساؤون بهم قال واختلاف الحقائق والذوات لا بد أنها تؤثر فى اختلاف الأحكام والصفات واذا اختلفت حقيقة البشر والملك فلا بد ان يكون أحد الحقيقتين أفضل فإن كونهما متماثلتين متفاضلتين ممتنع وإذا ثبت ان أحدهما أفضل بهذه القضية المعقولة وثبت عدم فضل البشر بتلك الكلمة الإلهية ثبت فضل الملك وهو المطلوب وقد ذكر جماعة من المنتسبين الى السنة أن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة وذهبت المعتزلة الى تفضيل الملائكة على البشر وأتباع الأشعري على قولين منهم من يفضل الأنبياء والأولياء ومنهم من يقف ولا يقطع فيهما بشيء وحكى عن بعض متأخريهم أنه مال الى قول المعتزلة وربما حكى ذلك عن بعض من يدعى السنة ويواليها وذكر لى عن بعض من تكلم فى أعمال القلوب أنه قال أما الملائكة المدبرون للسموات والارض وما بينهما والموكلون ببني آدم فهؤلاء أفضل من هؤلاء الملائكة واما الكروبيون الذين يرتفعون عن ذلك فلا أحد أفضل منهم وربما خص بعضهم نبينا واستثنأوه من عموم البشر أما تفضيلا على جميع أعيان الملائكة أو على المدبرين منهم أمر العالم هذا ما بلغنى من كلمات الآخرين فى هذه المسألة وكنت أحسب أن القول فيها محدث حتى رأيتها اثرية سلفية صحابية فانبعثت الهمة الى تحقيق القول فيها فقلنا حينئذ بما قاله السلف فروى ابو يعلى الموصلى فى كتاب التفسير المشهور له عن عبد الله بن سلام وكان عالما بالكتاب الأول والكتاب الثانى اذ كان كتابيا وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بحسن الخاتمة ووصية معاذ عند موته وانه أحد العلماء الأربعة الذين يبتغى العلم عندهم قال ما خلق الله خلقا اكرم عليه من محمد الحديث عنه قلت ولا جبرائيل ولا ميكائيل قال يا ابن اخى أوتدرى ماجبرائيل وميكائيل انما جبرائيل وميكائيل خلق مسخر مثل الشمس والقمر وما خلق الله تعالى خلقا اكرم عليه من محمد وروى عبد الله فى التفسير وغيره عن معمر بن زيد بن اسلم انه قال قالت الملائكة ياربنا جعلت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون فاجعل لنا الآخرة فقال وعزتى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان وكذلك قصة سجود الملائكة كلهم أجمعين لادم ولعن الممتنع عن السجود له وهذا تشریف وتكريم له¹

يوم القيامة تنشر الدواوين وهى صحائف الأعمال

قال سبحانه وتعالى { **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** } الإسراء 71 وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله وأجمع عليها

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 355-357

المسلمون فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق فتتصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما قال سبحانه وتعالى { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } الإسراء 71 ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها¹

قال سبحانه وتعالى { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } الإسراء 71 وقوله { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ } الإسراء 71 إذ الإمام هو الذي يؤتم به أي يقتدي به²

الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى

قال سبحانه وتعالى { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } الإسراء 71 والظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى باتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئا قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته (ذكر مواضيع أكثر عن الظلم)³

ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا

قال تعالى { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا } الإسراء 72 قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهدى في الآخرة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ } 23 { وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ } 24 { الْحَجَّ 23-24 } وقال { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ } يونس 9 فقوله { يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ } يونس 9 كقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ } الطور 21 على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه

¹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 33

²منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 143

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى {احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} {22} من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} {23} الصافات 22-23 وقال تعالى { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } {الإسراء72} وقال { فَأَمَّا يَا تِيبُكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 123-126 وقال { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا } {الإسراء97} الآية فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً وبكماً وصمماً {الإسراء97} الآية فأخبر أن الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحم من في السماء وقال من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار¹

الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر الله وفي شرعه فان هذا من العدل الذي تقوم به السماء والأرض كما قال الله تعالى {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} {النساء149} وقال {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} {النور22} وقال النبي من لا يرحم ولا يرحم وقال ان الله وتر يحب الوتر وقال ان الله جميل يحب الجمال وقال ان الله طيب لا يقبل الا طيباً وقال ان الله نظيف يحب النظافة ولهذا شرع قطع يد السارق وشرع قطع يد المحارب ورجله وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبشار فاذا أمكن ان تكون العقوبة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع بحسب الامكان مثل ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه في شاهد الزور انه أمر باركابه دابة مقلوبا وتسويد وجهه فانه لما قلب الحديث قلب وجهه ولما سود وجهه بالكذب سود وجهه وهذا قد ذكره في تعزيز شاهد الزور طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم ولهذا قال الله تعالى { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } {الإسراء72} وقال تعالى { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 124-126 وفى الحديث يحشر الجبارون والمتكبرون على صور الذر يطأهم الناس بارحهم فانهم لما أدلوا عباد الله أذلهم الله لعباده كما أن من تواضع لله رفعه الله فجعل العباد متواضعين له²

لا يهلك الله أمة ونبيها بين أظهرها

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 424 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 175-176

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 119-120

قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا } {73} وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّ كَدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا } {74} إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } {75} وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا } {76} سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } {77} الأسراء 77-73 وقال تعالى { وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِفِرْزَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مِمَّا يَكُونُ لِي أَوْ أَبَدَلْتَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ } {15} فُلٌ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {16} يونس 15-16 فبين أنه لبث فيهم عمرا من قبله وهو لا يتلو شيئا من ذلك ولا يعلمه ولا يعلمهم به فليس الأمر من جهته ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم ولا أدراهم به وتلاوته عليهم وإدراؤهم به هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبي وبين أن ذلك من الإرسال الذي يحبه الله ويرضاه لا من الكوني الذي قدره وهو لا يحبه ولا يرضاه كإرسال الشياطين ولهذا كان يعرضون عليه أن يصير ملكا عليهم وأن يعطوه حتى يكون من أغناهم وأن يزوجه ما شاء من نسائهم فيقول لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر لم أستطع أن أدعه وهذه الثلاث هي مطلوبا النفوس من الدنيا السلطان والمال والنساء فيعرض عن قبول الدنيا التي هي غاية أمانها وببين أنه لا يقدر على أن يدع ما أمر به من تبليغ الرسالة وقال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا } {73} وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّ كَدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا } {74} إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } {75} وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا } {76} سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } {77} الأسراء 77-73 بين سبحانه إنهم كادوا أن يمنعوه بكل طريق فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته فمع الإدارة الجازمة والقدرة التامة يجب وجود المقدر وإذا تعذر أحدهما امتنع فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم فيغير ما أوحى إليه فعصمه الله وثبته ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزه ويخرجه حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة أسوة من تقدمه من الرسل فإن الله كان إذا أراد إهلاك أمة أخرج نبيها منها ثم أهلكها ولا يهلكها وهو بين أظهرها كما قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } {الأنفال 33} وهذا بعد قوله { وَإِذَا قَالُوا لِلَّهِمْ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } {الأنفال 32} قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } {الأنفال 33} فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم بدر وغيره فقوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } الأسراء 73 إشارة إلى سعيهم في إفساد إرادته وقوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ } الأسراء 76 إشارة إلى سعيهم في تعجيزه¹

المؤمن يختار الأذى في طاعة الله على الأكرام مع معصيته

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 335

قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لاتَّخَذُوا خَلِيلاً {73} وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً {74} إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً {75} وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً {76} سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً {77} الأسراء 77-73 } وإختيار النبي صلى الله عليه وسلم له ولأهله الإحتباس فى شعب بنى هاشم بضع سنين لا يبايعون ولا يشارون وصبيانهم يتضاغون من الجوع قد هجرهم وقلاهم قومهم وغير قومهم هذا أكمل من حال يوسف عليه السلام فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك وأن يقول على الله غير الحق يقول ما أرسلنى ولا نهى عن الشرك وقد قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لاتَّخَذُوا خَلِيلاً {73} وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً {74} إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً {75} وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً {76} سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً {77} الأسراء 77-73 } وكان كذب هؤلاء على النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من الكذب على يوسف فإنهم قالوا أنه ساحر وأنه كاهن وأنه مجنون وأنه مفتر وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد فإن يوسف كذب عليه فى أنه زنى وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة فكان الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من الكذب على يوسف وكذلك الكذب على أولى العزم مثل نوح وموسى حيث يقال عن الواحد منهم أنه مجنون وأنه كذاب يكذب على الله وما لقي النبي وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس فإن يوسف حبس وسكت عنه والنبي وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة وهذا معنى الحبس فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه فى السجن بل المراد منعه من التصرف المعتاد والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له حبس ولا لأبى بكر بل أول من إتخذ السجن عمر وكان النبي يسلم الغريم إلى غريمه ويقول ما فعل أسيرك فيجعله أسيراً معه حتى يقضيه حقه وهذا هو المطلوب من الحبس والصحابة رضى الله عنهم منعه من التصرف بمكة أذى لهم حتى خرج كثير منهم إلى أرض الحبشة فاختاروا السكنى بين أولئك النصارى عند ملك عادل على السكنى بين قومهم والباقيون أخرجوا من ديارهم وأمواهم أيضاً مع ما آذوهم به حتى قتلوا بعضهم وكانوا يضربون بعضهم ويمنعون بعضهم ما يحتاج إليه ويضعون الصخرة على بطن أحدهم فى رمضاء مكة إلى غير ذلك من أنواع الأذى وكذلك المؤمن من أمة محمد يختار الأذى فى طاعة الله على الأكرام مع معصيته كأحمد بن حنبل إختار القيد والحبس والضرب على موافقة السلطان وجنده على أن يقول على الله غير الحق فى كلامه وعلى أن يقول ما لا يعلم أيضاً فإنهم كانوا يأتون بكلام يعرف أنه مخالف للكتاب والسنة فهو باطل وبكلام مجمل يحتاج إلى تفسير فيقول لهم الإمام أحمد ما أدري ما هذا فلم يوافقهم على أن يقول على الله غير الحق ولا على أن يقول على الله ما لا يعلم¹

استعمال لفظ الذوق فى إدراك الملائم والمنافر كثير

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 134-137

قال تعالى { **وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً** } {74} **إِذَا لَأَذُقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** } {75} الإسراء 74-75

ولفظ الذوق وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر كما أن لفظ الإحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن وأما في اللغة فأصله الرؤيا كما قال { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ } {مريم 98} والمقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذُقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } {النحل 112} فجعل الخوف والجوع مذوقا وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لابس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { فَذُوقُوا الْعَذَابَ } آل عمران 106 وقال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } {الدخان 49} وقال تعالى { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } {القمر 48} وقال { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } {الدخان 56} وقال تعالى { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } {24} { إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا } {25} {النبا 24-25} وقال { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } {السجدة 21} وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضي ب الله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فاستعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير¹

سنة الله لا تتبدل ولا تتحول

قال تعالى { **سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** } {الإسراء 77} وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } {يوسف 111} والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال { فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } {الحشر 2} وقال { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } {يوسف 111} أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى { قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ } آل عمران 137²

سنة الله في أوليائه إكرامهم وسنته في الكافرين إهانتهم وعقوبتهم

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 20

قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإِلَيْكَ لَتَتَّقِرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَأَتَّخَذُوكَ خَلِيلًا } {73} **وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّتْ وَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** {الإسراء74} قال تعالى { إِذْ يُوجِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ } {الأنفال12} و قال تعالى { يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ النَّاسِطِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } إبراهيم27 و التثبت جعل الإنسان ثابتاً لأمر تابه و ذلك بإلقاء ما يثبتته من التصديق بالحق و الوعد بالخير كما قال ابن مسعود لمة الملك و عد بالخير و تصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه و إذا علم أن الله قد و عده بالتصديق و ثق بوعد الله فثبت فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان في أمر اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه و يخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت و قد يكون التثبت بالفعل بأن يمسه القلب حتى يثبت كما يمسه الإنسان الإنسان حتى يثبت و في الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم من سأل القضاء و استعان عليه و كل إليه و من لم يسأل القضاء و لم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده فهذا الملك يجعله شديد القول بما يلقي في قلبه من التصديق بالحق و الوعد بالخير و قد قال تعالى { هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } {الأحزاب43} فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور و قد ذكر إخراجهم للمؤمنين من الظلمات إلى النور في غير آية كقوله { اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ } البقرة257¹

كذلك سنته في الأنبياء الصادقين و أتباعهم من المؤمنين و في الكذابين بالحق إن هؤلاء ينصرهم و يبقى لهم لسان صدق في الآخرين و أولئك ينتقم منهم و يجعل عليهم اللعنة فهذا و أمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذاباً بالمعجزة لا معارض لها لأن في ذلك من الفساد و الضرر بالعباد ما تمنعه رحمته و فيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته و فيه من نقص سنته المعروفة و عادته المطردة ما تعلم به مشيئته قال تعالى قال تعالى { **وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَفَدَّتْ وَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** } {74} **إِذَا لَأَدْفَنَّاكَ فِي حَيَاةٍ ضِعْفٍ وَضِعْفٍ أَمَمَاتٍ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا** } {75} {الإسراء74-75}²

اعلم أنه قد ذكر الله تعالى لفظ سننه في مواضع من كتابه فقال تعالى { **سُنَّةً مِّن قَدِّ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** } {الإسراء77} فهذه كلها تتعلق بأوليائه كمطيعيه و عصاته كالمؤمنين و الكافرين فسننه في هؤلاء إكرامهم و سنته في هؤلاء إهانتهم و عقوبتهم فأما هنا فإنها تتعلق بالرسول لأنه لا حرج عليهم فيما فرض الله تعالى لهم إنهم لو استفزوه فأخرجوه لم يلبثوا خلفه إلا قليلاً كسنة من أرسل قبله من الرسل فإما أن يقال وقع هذا الإخراج بالهجرة و لم يلبثوا خلفه إلا قليلاً و هو ما أصابهم يوم بدر و إما أن يقال لم يقع³

لطائف لغوية

1- قال تعالى { **رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِنَبْتَعُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** } {الإسراء66} و قال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى { **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** } {الفتح14} **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** } {الفتح4} و نحو ذلك قال كان و لم يزل و لا يزال⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 535

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 202

³رسالة فى لفظ السنة فى القرآن ج: 1 ص: 49

⁴مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 538

2- قال تعالى { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا } الإسراء 72 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلْفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ } {71} الصافات 69- 71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنَا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67- 68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 وفى قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } القمر 47¹

3- قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا } {73} وَلَوْلَا أَنْ نُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكُنَّ إِلَيْهِمْ شِينًا قَلِيلًا } الإسراء 73-74 وقال تعالى { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } الأنفال 12 وقال تعالى { بُيِّنْتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } إبراهيم 27 والتثبت جعل الإنسان ثابتا لأمر تابا وذلك بإلقاء ما يثبتته من التصديق بالحق والوعد بالخير كما قال ابن مسعود لمة الملك وعد بالخير وتصديق بالحق فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه وإذا علم أن الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان فى أمر يضطرب فيه بأن يخبره بصدقه ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت وقد يكون التثبت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت²

4- قال تعالى { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } الإسراء 77 وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول فى غير موضع والسنة هى العادة التى تتضمن أن يفعل فى الثانى مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشىء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال { فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } الحشر 2 وقال { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب فى أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } آل عمران 137³

5- قال تعالى { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } الإسراء 77 اعلم أنه قد ذكر الله تعالى لفظ سننه فى مواضع من كتابه فقال تعالى { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } الإسراء 77 فهذه كلها تتعلق بأوليائه كمطيعيه وعصاته كالمؤمنين والكافرين فسنته فى هؤلاء إكرامهم وسنته فى هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم فأما هنا فإنها تتعلق بالرسول لأنه لا حرج عليهم فيما فرض الله تعالى لهم إنهم لو استفزوه

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 535

³مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 20

فأخرجوه لم يلبثوا خلفه إلا قليلا كسنة من أرسل قبله من الرسل فإما أن يقال وقع هذا الإخراج بالهجرة ولم يلبثوا
خلفه إلا قليلا وهو ما أصابهم يوم بدر وإما أن يقال لم يقع¹

¹رسالة في لفظ السنة في القرآن ج: 1 ص: 49

{ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } {78} وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } {79} وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيراً } {80} وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } {81} وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً } {82} وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً } {83} قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً } {84} وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً } {85} وَلئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً } {86} إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } {87} قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً } {88} وَلقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فآبى أكثرُ الناس إلا كفوراً } {89} وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً } {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجيراً } {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً } {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلئن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً } {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً } {94} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً } {95} قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً } {96}

الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان

قال تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } {78} وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً } {79} {الإسراء 78-79} وأما الوقت فالأصل في ذلك ان الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان وقت إختيار ورفاهية ووقت حاجة وضرورة أما الأول فالأوقات خمسة وأما الثاني فالأوقات ثلاثة فصلاتا الليل وصلاتا النهار وهما اللتان فيهما الجمع والقصر بخلاف صلاة الفجر فإنه ليس فيها جمع ولا قصر لكل منهما وقت مختص وقت الرفاهية والإختيار والوقت مشترك بينهما عند الحاجة والإضطراب لكن لا تؤخر صلاة نهار إلى ليل ولا صلاة ليل إلى نهار ولهذا وقع الأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى صلاة العصر وقال النبي فيها من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وقال فكأنما وتر أهله

وماله وقد دل على هذا الأصل ان الله في كتابه ذكر الوقوت تارة ثلاثة وتارة خمسة أما الثلاثة ففي قوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114 وفي قوله { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ** } الإسراء 78 وقوله { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ } 48 { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ } 49-48 الطور وأما الخمس فقد ذكرها أربعة في قوله { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } 17 { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } 18 { الروم 17-18 } وقوله { فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وقوله { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ } 39 { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ } 40 { ق 39-40 } والسنة هي التي فسرت ذلك وبينته وأحكمته وذلك أنه قد ثبت بالنقل المتواتر عن النبي أنه كان يصلي الصلوات الخمس في خمس مواقيت في حال مقامه بالمدينة وفي غالب أسفاره حتى أنه في حجة الوداع آخر أسفاره كان يصلي كل صلاة في وقتها ركعتين وإنما جمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين العشاءين بمزدلفة ولهذا قال ابن مسعود ما رأيت رسول الله صلى صلاة لغير وقتها إلا المغرب ليلة جمع والفجر بمزدلفة وإنما قال ذلك لأنه غلس بها تغليسا شديدا وقد بين جابر في حديثه انه صلاها حين طلع الفجر ولهذا إتفق المسلمون على الجمع بين الصلاتين بعرفة ومزدلفة لأن جمع هاتين الصلاتين في حجة الوداع دون غيرهما مما صلاه بالمسلمين بمنى أو بمكة هو من المنقول نقلا عاما متواترا مستفيضا وثبت عنه أنه بين مواقيت الصلاة بفعله لمن سأله عن المواقيت بالمدينة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى وحديث بريدة بن الحصيب وبين له جبريل المواقيت بمكة كما رواه جابر وابن عباس وروى مسلم في صحيحه المواقيت من كلام النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبدالله بن عمر وهو أحسن أحاديث المواقيت لأنه بيان بكلام النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال وقت الفجر مالم تطلع الشمس ووقت الظهر مالم يصر ظل كل شيء مثله ووقت العصر مالم تصفر الشمس ووقت المغرب مالم يسقط نور الشفق ووقت العشاء إلى نصف الليل وقد روى نحو ذلك من حديث أبي هريرة مرفوعا وفيه نظر وعلى هذه الأحاديث إعتد الإمام أحمد لكثرة إطلاعه على السنن وأما غيره من الأئمة فبلغه بعض هذه الأحاديث دون بعض فاتبع ما بلغه ومن إتبع ما بلغه فقد أحسن وما على المحسنين من سبيل¹

المواقيت لأهل الأعدار ثلاثة ولغيرهم خمسة

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** } 78 { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا } 79 { الإسراء 78-79 } وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي جمع بين الصلاتين في سفرة سافرهما في غزوة تبوك فجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال سعيد بن جبيرة قلت لابن عباس ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يخرج أمته وكذلك في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل قال جمع رسول الله في غزوة تبوك بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال فقلت ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يخرج أمته بل قد ثبت عنه أنه جمع في المدينة كما في الصحيحين عن ابن

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 84-85

عباس قال صلى لنا رسول الله الظهر والعصر جميعا من غير خوف ولا سفر وفي لفظ في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى بالمدينة سبعا وثمانيا جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء قال أيوب لعله في ليلة مطيرة وكان أهل المدينة يجمعون في الليلة المطيرة بين المغرب والعشاء ويجمع معهم عبد الله بن عمر وروى ذلك مرفوعا إلى النبي وهذا العمل من الصحابة وقولهم أراد ان لا يخرج أمته يبين انه ليس المراد بالجمع تأخير الأولى إلى آخر وقتها وتقديم الثانية في أول وقتها فان مراعاة مثل هذا فيه حرج عظيم ثم أن هذا جائز لكل أحد في كل وقت ورفع الحرج انما يكون عند الحاجة فلا بد أن يكون قد رخص لأهل الأعدار فيما يرفع به عنهم الحرج دون غير أرباب الأعدار وهذا ينبنى على أصل كان عليه رسول الله وهو أن المواقيت لأهل الأعدار ثلاثة ولغيرهم خمسة فإن الله تعالى قال { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114 فذكر ثلاثة مواقيت والطرف الثاني يتناول الظهر والعصر والزلف يتناول المغرب والعشاء وكذلك قال { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } الإسراء 78 والدلوك هو الزوال في أصح القولين يقال دلكت الشمس وزالت وزاغت ومالت فذكر الدلوك والغسق وبعد الدلوك يصلى الظهر والعصر وفي الغسق تصلى المغرب والعشاء ذكر أول الوقت وهو الدلوك وآخر الوقت وهو الغسق والغسق اجتماع الليل وظلمته ولهذا قال الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وغيره ان المرأة الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب والعشاء وإذا طهرت قبل غروب الشمس صلت الظهر والعصر وهذا مذهب جمهور الفقهاء كمالك والشافعي¹

حكم الجمع في الصلاة

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } 78 { **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً** } 79 { الإسراء 78-79 }
 وفعل كل صلاة في وقتها أفضل إذا لم يكن حاجة عند الأئمة كلهم وهو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبيهما بل تنازعوا في جواز الجمع على ثلاثة أقوال فمذهب أبي حنيفة أنه لا يجمع إلا بعرفة ومزدلفة ومذهب مالك وأحمد في إحدى الروايتين أنه لا يجمع المسافر إذا كان نازلا وإنما يجمع إذا كان سائرا بل عند مالك إذا جد به السير ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى أنه يجمع المسافر وإن كان نازلا وسبب هذا النزاع ما بلغهم من أحاديث الجمع فإن أحاديث الجمع قليلة فالجمع بعرفة ومزدلفة متفق عليه وهو منقول بالتواتر فلم يتنازعوا فيه وأبو حنيفة لم يقل بغيره لحديث ابن مسعود الذي في الصحيح أنه قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لغير وقتها إلا صلاة الفجر بمزدلفة وصلاة المغرب ليلة جمع وأراد بقوله في الفجر لغير وقتها التي كانت عادته أن يصلّيها فيه فإنه جاء في الصحيح عن جابر أنه صلى الفجر بمزدلفة بعد أن برق الفجر وهذا متفق عليه بين المسلمين أن الفجر لا يصلّى حتى يطلع الفجر لا بمزدلفة ولا غيرها لكن بمزدلفة غلس بها تغليسا شديدا وأما أكثر الأئمة فبلغتهم أحاديث في الجمع صحيحة كحديث أنس وابن عباس وابن عمر ومعاذ وكلها من الصحيح ففي الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 24-25

ثم نزل فصلاهما جميعا وإذا ارتحل بعد أن تزيغ الشمس صلى الظهر والعصر ثم ركب وفي لفظ في الصحيح كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يجمع بين الصلاتين في السفر أخر الظهر حتى يدخل أول وقت العصر ثم يجمع بينهما وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا عجل به السير جمع بين المغرب والعشاء وفي لفظ في الصحيح أن ابن عمر كان إذا جد به السير جمع بين المغرب والعشاء بعد أن يغيب الشفق ويقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جد به السير جمع بين المغرب والعشاء وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين الصلاتين في سفرة سافر بها في غزوة تبوك فجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال سعيد بن جبي الجواب قلت لابن عباس ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يخرج أمته وكذلك في صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء قال قلت ما حمله على ذلك قال أراد أن لا يخرج أمته بل قد ثبت عنه أنه جمع في المدينة كما في الصحيحين عن ابن عباس قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر جميعا من غير خوف ولا سفر وفي لفظ في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بالمدينة سبعا وثمانية جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء قال أيوب لعله في ليلة مطيرة وكان أهل المدينة يجمعون في الليلة المطيرة بين المغرب والعشاء ويجمع معهم عبد الله بن عمر وروى ذلك مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهذا العمل من الصحابة وقولهم أراد أن لا يخرج أمته يبين أنه ليس المراد بالجمع تأخير الأولى إلى آخر وقتها وتقديم الثانية في أول وقتها فإن مراعاة مثل هذا فيه حرج عظيم ثم إن هذا جائز لكل أحد في كل وقت ورفع الحرج إنما يكون عند الحاجة فلا بد أن يكون قد رخص لأهل الأعداء فيما يرفع به عنهم الحرج دون غير أرباب الأعداء وهذا ينبنى على أصل كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن المواقيت لأهل الأعداء ثلاثة ولغيرهم خمسة فإن الله تعالى قال { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ } هود 114 فذكر ثلاثة مواقيت والطرف الثاني يتناول الظهر والعصر والزلف يتناول المغرب والعشاء وكذلك قال { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } الإسراء 78 والدلوك هو الزوال في أصح القولين يقال دلكت الشمس وزالت وزاغت ومالت فذكر الدلوك والغسق وبعد الدلوك يصلى الظهر والعصر وفي الغسق تصلى المغرب والعشاء ذكر أول الوقت وهو الدلوك وآخر الوقت وهو الغسق والغسق اجتماع الليل وظلمته ولهذا قال الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وغيره إن المرأة الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب والعشاء وإذا طهرت قبل غروب الشمس صلت الظهر والعصر وهذا مذهب جمهور الفقهاء كمالك والشافعي وأحمد وأيضا فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بعرفة ومزدلفة يدل على جواز الجمع بغيرهما للعدو فإنه قد كان من الممكن أن يصلي الظهر ويؤخر العصر إلى دخول وقتها ولكن لأجل النسك والاشتغال بالوقوف قدم العصر ولهذا كان القول المرضي عند جماهير العلماء أنه يجمع بمزدلفة وعرفة من كان أهله على مسافة القصر ومن لم يكن أهله كذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى صلى معه جميع المسلمين أهل مكة وغيرهم ولم يأمر أحدا منهم بتأخير العصر ولا بتقديم المغرب فمن قال من أصحاب الشافعي وأحمد إن أهل مكة لا يجمعون فقوله ضعيف في غاية الضعف مخالف للسنة البينة الواضحة التي لا ريب فيها وعذرهم في ذلك أنهم اعتقدوا أن سبب الجمع هو السفر الطويل والصواب أن الجمع لا يختص بالسفر الطويل بل يجمع للمطر ويجمع للمرض كما جاءت بذلك السنة في جمع المستحاضة فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالجمع في

حديثين وأيضا فكون الجمع يختص بالطويل فيه قولان للعلماء وهما وجهان في مذهب أحمد أحدهما يجمع في القصير وهو المشهور ومذهب الشافعي لا والأول أصح لما تقدم والله أعلم¹

" يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك "

الظهر أربع ركعات بالنقل العام المستفيض والإجماع المستيقن في حق المقيم فأما المسافر فيذكر إن شاء الله في موضعه وتسمى الظهر والهجير والأولى وأول وقتها هو زوال الشمس عن كبد السماء وهذا مما أجمعت عليه الأمة وجاءت به السنة المستفيضة من ذلك ما روى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فقال قم فصله فصلى الظهر حين زالت الشمس ثم جاءه العصر فقال قم فصله فصلى العصر حين صار كل ظل شيء مثله ثم جاء المغرب فقال قم فصله فصلى المغرب حين وجبت الشمس ثم جاءه العشاء فقال قم فصله فصلى العشاء حين غاب الشفق ثم جاء الفجر فقال قم فصله فصلى الفجر حين برق الفجر أو قال سطع ثم جاءه من الغد للظهر فقال قم فصله فصلى الظهر حين صار ظل كل شيء مثله ثم جاءه العصر فقال قم فصله فصلى حين صار ظل كل شيء مثليه ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل أو قال ثلث الليل فصلى العشاء ثم جاءه حين أسفر جدا فقال قم فصله فصلى الفجر ثم قال ما بين هذين وقت رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال البخاري هو اصح شيء في المواقيت وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أماني جبريل عند البيت مرتين فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفجر مثل الشراك ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وافرط الصائم ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم وصلى المرة الثانية الظهر حين صار ظل كل شيء مثل لوقت العصر بالأمس ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه ثم صلى المغرب لوقته الأول ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض ثم التفت إلى جبريل فقال يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك الوقت فيما بين هذين الوقتين رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن وقد دل على ذلك قوله تعالى **{ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ } الإسراء 78** وقوله **{ وَحِينَ تَطْهَرُونَ }** الروم 18 وقوله تعالى **{ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ }** طه 130 ومعنى زوال الشمس أن تحاذي رأس المصلي ثم تميل عنه يقال زالت وزاغت ودلكت ودحضت ويعرف ذلك بازدياد الظل بعد كمال نقصانه²

وأما وقت الإدراك و الضرورة فيمتد إلى طلوع الفجر الثاني لما روى يحيى بن آدم عن ابن عباس قال لا يفوت وقت الظهر حتى يدخل وقت العصر و لا يفوت وقت العصر حتى يدخل وقت المغرب و لا يفوت وقت المغرب إلى العشاء و لا يفوت وقت العشاء إلى الفجر و روى الخليل أيضا عن ابن

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 149

²شرح العمدة ج: 4 ص: 151

عباس لا يفوت وقت العشاء إلى الفجر و سنذكر إن شاء الله عن عبد الرحمن بن عوف و أبي هريرة و ابن عباس انهم قالوا في الحائض إذا طهرت قبل طلوع الفجر صلت المغرب و العشاء و لم ينقل عن صحابي خلافه بل وافقهم التابعون على إن العشاء تجب بالطهر قبل الفجر مع قوله في حديث أبي قتادة لما ناموا أما أنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى رواه احمد و مسلم و أبو داود فانه يقتضي امتداد كل صلاة إلى وقت التي تليها و إنما استثنى منه الفجر لظهور وقتها و ظاهر القرآن في قوله تعالى { وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ } {هود 114} و قوله سبحانه { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** } {78} { **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** } {الإسراء 78-79} و قوله تعالى { **وَمِنَ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ** } طه 130 يعم ذلك الجملة و تأخير الصلاة إلى هذا الوقت لغير عذر لا يجوز كما تقدم في صلاة العصر¹

أن الصلاة تجب بأول الوقت وجوبا موسعا كقوله تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ** } {الإسراء 78} ففي المبادرة إلى فعلها إبراء لذمته عن الواجب كالمبادرة إلى فعل الواجبات المطلقة من الحج و غيره و تحصل المبادرة المشروعة بأن يشتغل عقب دخول الوقت بالوضوء و الصلاة لأن الله تعالى امر بالوضوء عند القيام إلى الصلاة و إن توضحا قبل الوقت فهو مبادر أيضا هذا ما لم يشق على غيره²

صلاة الفجر أول وقتها من طلوع الفجر الثاني

و تسمى صلاة الصبح هذه الصلاة الفجر لقوله تعالى { **وَقُرْآنِ الْفَجْرِ** } {الإسراء 78} و قوله { **مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ** } {النور 58} و قوله { **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ** } {البقرة 187} و الصبح لقول النبي صلى الله عليه و سلم من أدرك ركعة من الصبح و صلاة الغداة لقوله عليه السلام لو يعلم المتخلفون عن صلاة العشاء و صلاة الغداة ما فيهما لأتوهما و لو حبوا و قال الرجل له إنني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا و المستحب تسميتها الفجر و الصبح و لا يكره تسميتها بالغداة في المشهور و أول وقتها من طلوع الفجر الثاني كما تقدم في أحاديث المواقيت كلها مع قوله { **طَرَفِي النَّهَارِ** } {هود 114} و قوله { **وَقُرْآنِ الْفَجْرِ** } {الإسراء 78} و قوله { **وَحِينَ تُصْبِحُونَ** } {الروم 17} و قوله { **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** } طه 130 و غير ذلك و هما فجران فالأول المستند للمستطيل في طول السماء كذنب السرحان و هو الذئب و يسمى الفجر الأول و لا عبرة به في شيء من الأحكام ثم يسود الأفق بعده ثم يطلع الفجر الصادق بعده معترضا في الأفق منتشرا لا ظلما بعده و لذلك قال صلى الله عليه و سلم لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال و لا الفجر المستطيل و لكن الفجر المستطير في الأفق و قد تقدم و قد روى أبو حفص و الدارقطني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال الفجر فجران فجر

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 180

² شرح العمدة ج: 4 ص: 194

تحل فيه الصلاة و يحرم فيه الطعام و فجر تحرم فيه الصلاة و يحل فيه الطعام أما الذي يكون كذنب السرحان فلا تحل الصلاة فيه و لا يحرم فيه الطعام و أما الذي يذهب مستطيلا في الأفق فإنه يحل الصلاة و يحرم الطعام و يمتد وقتها في حال الاختيار و الاضطرار إلى طلوع الشمس فإذا بدا حاجب الشمس خرج وقتها هذا ظاهر المذهب و هو المنصوص عنه¹

إن وجوه المشقة على المأمومين يمنع استحباب التأخير وشرعه و على هذا بنيت قاعدة الصلاة

و عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم إن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه رواه احمد و ابن ماجة و الترمذي و قال حديث حسن صحيح و لأن في تأخيرها فوائد علمنا منها إن تصلى في جوف الليل و يقرب من آخره و هو الوقت الذي ينزل الله فيه إلى سماء الدنيا فيقول من يدعوني فاستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له و قد روى عبد الله بن مسعود قال آخر رسول الله صلى الله عليه و سلم صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم فأنزلت هذه الآية {لَيْسُوا سَوَاءً مَّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ} آل عمران 113 حتى بلغ {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} {115} آل عمران 115 رواه احمد و الترمذي و لذلك استحباب تأخير الوتر إلى آخره قال سبحانه {**أَقِمِ الصَّلَاةَ**} الإسراء 78 و معلوم أنه إذا اشتدت الظلمة و بعد عن النهار كان هذا المعنى ابليغ و إنما لم يشرع و الله اعلم تأخيرها إلى النصف الثاني لأنه مضاف إلى اليوم الذي يليه فالتأخير إليه تأخير لما يقرب منه النهار و لأن فيه تغريرا بها إذ كانت السنة إن يصلي قبل النوم لئلا يستمر النوم إلى الفجر ولأن الجمع بين استحباب تأخيرها إلى النصف الثاني و بين كراهة النوم قبلها متعذر فإنه يقتضي سهر أكثر الليل و ذلك مفض إلى غلبة النعاس و تفويت مقصود الصلاة و منها أنه إذا انتظرها فان العبد في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه و إلى هذا أشار صلى الله عليه و سلم بقوله أنكم لتنتظرون صلاة ما ينتظرها أهل دين غيركم فان أهل الكتاب ليست لهم صلاة في جوف الليل و إنما يصلون قبل طلوع الشمس و بعد زوالها و بعد غروبها و هذا المعنى لا يحتاج إليه في غيرها فإنه يقدر إن يصليها في أول الوقت و يجلس ينتظر التي بعدها فان انتظار الصلاة قبل وقتها لا سيما بعد صلاة أخرى يستحب بخلاف العشاء فإنه لا صلاة بعدها تنتظر و منها أنه إذا آخرها ختم عمله بالصلاة و نام عليها و لم يتحدث بعدها فختم عمله بخير و أمن من كراهة السمر بعدها و منها إن الأصوات تكون قد هدأت و العيون قد رقدت و ذلك اقرب إلى نزول السكينة و اجتماع الهم على الصلاة و الخشوع فيها و بعدها عن الشواغل و ما يلهي المصلي و منها إن يبعد العهد بأعمال النهار و حركاته و الأفكار و الوسوس الحاصلة بسبب ذلك و يستحب تأخيرها بكل حال في إحدى الروايتين على ظاهر الحديث المتقدم عن أبي برزة و جابر بن سمرة و لأن قوله في حديث ابن عباس و أبي هريرة لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم إن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه إنما نفي به امر الإيجاب فان السنة إنما تحصل بالإيجاب دون الاستحباب و هو يقتضي قوة استحباب التأخير إذ كان المقتضي للوجوب قائما لولا وجود المانع و سواء شق عليهم التأخير أو لم يشق فان ذلك لا يمنع

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 182

الاستحباب كما في قوله عليه السلام لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة وقوله لولا إن اشق على أمتي لأمرتهم بالوضوء عند كل صلاة والرواية الثانية إن المستحب التأخير الذي لا يشق على المأمومين غالباً فإن آخرها تأخيراً يشق عليهم غالباً كره لما روى زيد بن خالد الجهني إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لولا إن اشق على أمتي لأخرت صلاة العشاء إلى ثلث الليل رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح وكذلك في حديث ابن عمر لولا إن تنقل على أمتي لصليت بهم هذه الساعة وقوله في حديث أبي سعيد لولا سقم السقيم وضعف الضعيف وحاجة ذي الحاجة لأخرت هذه الصلاة إلى شطر الليل وقد تقدم وكذلك قوله في حديث عائشة أنه لو قتها لولا إن اشق على أمتي فإن هذه الأحاديث تدل على إن وجوه المشقة على المأمومين يمنع استحباب التأخير وشرعه وعلى هذا بنيت قاعدة الصلاة فإن الإمام يكره إن يطول على المأمومين تطويلاً يفتنهم به وإن كان التطويل عبادة محضة فالتأخير الذي يفتنهم وتفوتهم الصلاة جماعة أو توجب إن يصلوها أكثر هين متضجرين أولى إن يكرهه وما في التأخير من الفضيلة إنما يقصد لو لم يفت ما هو أفضل منه وإن أفضل منه لكثرة الجماعة وتحصيل الجماعة للمصلين ونشاط القلوب للصلاة وتحبيب الله إلى عباده ولأن المشقة قسمان أحدهما في خاصة الإنسان فله إن يحتمل هو المشقة لتحصل فضيلة التأخير وهذه المشقة هي المانعة من الإيجاب والثاني يتعدى إلى المأمومين وليس للإمام إن يحمل الناس مشقة لم تجب عليهم وهذه هي المانعة من استحباب التأخير قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة والعصر والشمس نفية والمغرب إذا وجبت والعشاء أحياناً وأحياناً إذا رأهم اجتمعوا عجل وإذا رأهم قد ابطنوا آخر والصبح كان يصلها بغلس متفق عليه وروى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في مغازيه عن عبد الرحمن بن غنم قال حدثنا معاذ بن جبل قال لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال أظهر كبير الإسلام وصغيره وليكن من أكثرها الصلاة فإنها رأس الأمر بعد الإقرار بالدين إذا كان الشتاء فصل صلاة الفجر في أول الفجر ثم اطل القراءة على قدر ما يطيق الناس ولا تملهم وتكره إليهم امر الله ثم عجل الصلاة الأولى قبل إن تميل الشمس وصل العصر والمغرب في فصل الشتاء على ميقات واحد العصر والشمس بيضاء مرتفعة والمغرب حين تغيب الشمس وتوارى بالحجاب وصل العشاء فأعتم بها فإن الليل طويل فإذا كان الصيف فأسفر بالصبح فإن الليل قصير وإن الناس ينامون فأمهلهم حتى يدركوها وصل الظهر بعد إن ينقضي الظل وتحرك الرياح فإن الناس يقولون فأمهلهم حتى يدركوها وصل العتمة فلا تعتم بها ولا تصلها حتى يغيب الشفق¹

صلاة الفجر لما سميت قرأنا خصت بقرآن زائد

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79 أن صلاة الفجر لما سميت قرأنا خصت بقرآن زائد وجعل طول القراءة فيها عوضاً عن الركعتين في الصلاة الرباعية²

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 213-218

² مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 224

النهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79

ولفظ الليل والنهار في كلام الشارع إذا أطلق فالنهار من طلوع الفجر كما في قوله سبحانه وتعالى { **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِّنَ اللَّيْلِ** } {هود 114} وكما في قوله صم يوماً وافطر يوماً وقوله كالذي يصوم النهار ويقوم الليل ونحو ذلك فانما أراد صوم النهار من طلوع الفجر وكذلك وقت صلاة الفجر واول وقت الصيام بالنقل المتواتر المعلوم للخاصة والعامه والاجماع الذي لا ريب فيه بين الامة وكذلك في مثل قوله صلاة الليل مثني مثني فاذا خفت الصبح فأوتر بركعة ولهذا قال العلماء كالامام أحمد بن حنبل وغيره ان صلاة الفجر من صلاة النهار وأما اذا قال الشارع نصف النهار فانما يعني به النهار المبتدىء من طلوع الشمس لا يريد قط لا في كلامه ولا في كلام أحد من علماء المسلمين بنصف النهار النهار الذي أوله من طلوع الفجر فان نصف هذا يكون قبل الزوال ولهذا غلط بعض متأخري الفقهاء لما رأى كلام العلماء ان الصائم المتطوع يجوز له ان ينوي التطوع قبل نصف النهار وهل يجوز له بعده على قولين هما روايتان عن أحمد ظن أن المراد بالنهار هنا نهار الصوم الذي أوله طلوع الفجر وسبب غلظه في ذلك أنه لم يفرق بين مسمى النهار اذا أطلق وبين مسمى نصف النهار فالنهار الذي يضاف اليه نصف في كلام الشارع وعلماء امته هو من طلوع الشمس والنهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر والنبى لما أخبر بالنزول اذا بقى ثلث الليل فهذا الليل المضاف إليه الثلث يظهر أنه من جنس النهار المضاف اليه النصف وهو الذي ينتهي الى طلوع الشمس وكذلك لما قال النبى صلى الله عليه وسلم وقت العشاء الى نصف الليل أو الى الثلث فهو هذا الليل وكذلك الفقهاء اذا أطلقوا ثلث الليل ونصفه فهو كاطلاقهم نصف النهار وهكذا أهل الحساب لا يعرفون غير هذا وقد يقال بل هو الليل المنتهى بطلوع الفجر كما في الحديث الصحيح افضل القيام قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه واليوم المعتاد المشروع الى طلوع الشمس بل الى طلوع الفجر فان كان المراد بالحديث هذا وحينئذ فاذا قدر ثلث الليل في أول المشرق يكون قبل طلوع الشمس عليهم بأربع ساعات وقد قال النبى ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له حتى يطلع الفجر فقد اخبر بدوامه الى طلوع الفجر وفي رواية الى أن ينصرف القارئ من صلاة الفجر وقد قال تعالى { **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {الإسراء 78} تشهد ملائكة الليل والنهار وقد قيل يشهده الله وملائكته¹

أكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا فالمراد جنس الدلوك

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 471-473

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79 قوله تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ** } الإسراء 78 فالمراد جنس الدلوك فهو مأمور بإقامة الصلاة له وكذلك قوله { **وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** } طه 130 فهو متناول لكل طلوع وغروب وليس المراد طلوعا واحدا فكأنه قال قبل كل طلوع لها وقبل كل غروب وأقم الصلاة عند كل دلوك¹

فقوله تعالى { **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** } البقرة 186 يتناول نوعي الدعاء وبكل منها فسرت الآية قيل أعطيه إذا سألني وقيل أتيه إذا عبدني والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معينه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعا فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل ما يفتن له وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا فهي من هذا القبيل مثال ذلك قوله تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } الإسراء 78 فسر الدلوك بالزوال وفسر بالغروب وليس بقولين بل اللفظ يتناولهما معا فإن الدلوك هو الميل ودلوك الشمس ميلها ولهذا الميل مبتدأ ومنتهى فمبتداه الزوال ومنتهاه الغروب واللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار ومثاله أيضا تفسيره { **وَمِنَ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** } الفلق 3 الغاسق بالليل وتفسيره بالقمر فإن ذلك ليس باختلاف بل يتناولهما لتلازمهما فإن القمر آية الليل ونظائر كثيرة²

إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79 وان الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة و ذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع { **أَقِيمُوا الصَّلَاةَ** } وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع و السجود فإني أراكم من بعد ظهري و في رواية أنتموا الركوع و السجود و سيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم و عليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 380

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 12

والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم اجلس حتى تطمئن جالساً ثم اقل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر وقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالساً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم اقل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية له ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تستوي قائماً وبقية مثله وفي رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاع بن رافع رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثني عليه وقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راکعاً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائماً ثم يسجد حتى يطمئن ساجداً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعد ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفي رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخي ثم يكبر فيستوي قاعداً على مقعدته وقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبي داود وفي رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك وتمد ظهرك وقال إذا سجدت فمكّن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز وجل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن وافترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتّم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقراً به وإلا فاحمد الله عز وجل وكبره وهله وقال فيه وإن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر ذلك المصلي في صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضاً قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منفيًا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة¹

تأخير الصلاة عن الوقت المضروب عمداً من الكبائر

¹القواعد النورانية ج: 1 ص: 26

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79

و لا يحل تأخيرها عن وقتها إلا لناو جمعها أو مشتغل عنها بشرطها أما فعلها في الوقت المضروب لها ففرض و تأخيرها عنه عمدا من الكبائر لقوله تعالى { **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى** } البقرة 238 و المحافظة عليها فعلها في الوقت لأن سبب نزول الآية تأخير الصلاة يوم الخندق دون تركها لأن السلف فسروها بذلك و لأن المحافظة خلاف الإهمال و الإضاعة و من أخرها عن وقتها فقد أهملها و لم يحافظ عليها و قوله تعالى { **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا** } مريم 59 و أضاعتها تأخيرها عن وقتها كذلك فسرها ابن مسعود و إبراهيم و القاسم بن محمد و الضحاك و غيرهم من غير مخالف لهم قال ابن مسعود إضاعتها صلاتها لغير وقتها لأن الشيء الضائع ليس هو معدوما إنما هو مهمل غير محفوظ و قوله تعالى { **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ** } {4} **الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** } {5} الماعون 4-5 و المشهور منها إضاعة الوقت كذلك فسر هذه المواضع جماهير الصحابة و التابعين و هو معقول من الكلام و قال تعالى { **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً** } النساء 103 و أمر سبحانه الخائف إن يصلي مع الإخلال بكثير من الأركان و كذلك المتيمم و نحوه و لو جاز التأخير لما احتاج ذلك إلى شيء من ذلك و سائر الآيات الموجبة فعلها في الوقت المحدود مثل قوله { **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى** } طه 130 و قوله تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ** } الإسراء 78 دليل مفصل على ذلك وكذلك الأحاديث عن أبي ذر رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا ذر إنها ستكون عليكم أئمة يميئون الصلاة فإن ادركتموهم فصلوا الصلاة لوقتها واجعلوا صلاتكم معهم نافلة رواه احمد ومسلم وعن أبي قتادة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في النوم تقريط إنما التقريط في اليقظة إن يؤخر صلاة إلى وقت الصلاة الأخرى رواه مسلم والنصوص في ذلك كثيرة و هو مجمع عليه¹

أعمال النهار فواتيح وأعمال الليل خواتيم

وقت الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بدأ الشيخ (ابي محمد ابن قدامة المقدسي) رحمه الله بالظهر وكذلك جماعة من أصحابنا منهم الخرقى والقاضي في بعض كتبهم لأن جبريل لما أقام للنبي صلى الله عليه وسلم المواقيت بدأ بها وكذلك تسمى الأولى ولأنه بدأ بها في حديث عبد الله ابن عمرو وأبي هريرة فأقندي به في ذلك وقال بعض أصحابنا هي أول ما فرض الله من الصلوات ولأن الله سبحانه بدأ بها في قوله { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } الإسراء 78 ومنهم من يبدأ بالفجر كابن أبي موسى وأبي الخطاب والقاضي في بعض كتبه وهذا أجود إن شاء الله لأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر وإنما تكون وسطى إذا كانت الفجر الأولى ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال المغرب وتر النهار فاوتروا صلاة الليل رواه احمد من حديث ابن عمر فجعل جميع الصلوات متوترة فلو كانت الظهر هي الأولى لخرجت الفجر عن أن تكون داخلة في وتر النهار أو وتر الليل وذلك لا يجوز ولأن الفجر

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 54

هي المفعولة في أول النهار فحقيقة الابتداء موجود فيها ولان النبي صلى الله عليه وسلم لما بين المواقيت في المدينة بفعله في حديث أبي موسى وبريدة وجابر ووصيته لمعاذ بدأ بالفجر وهذا متأخر عن حديث جبريل وناسخ له إذ كان بمكة وفي هذا جواب عن الاحتجاج بقصة جبريل ولان بيان جبريل للمواقيت كان صبيحة ليلة الإسراء وهو صلى الله عليه وسلم لم يخبر الناس بها حتى أصبح وفات الفجر فلعله أخر البيان إلى وقت الظهر ليعلم المسلمون ويأتوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان ياتم هو بجبريل ولأن أكثر آيات القرآن بدأت بالفجر مثل قوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ} هود 114 وقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} طه 130 وقوله {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} ق 39 وإنما بدأ بالظهر تارة كما بدأ في المغرب في قوله تعالى {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} الروم 17 الآية فتارة يبدأ أول النهار وتارة بأوسطه وتارة بأول الليل ولان النائم إذا استيقظ بأول النهار كان بمنزلة الخلق الجديد فإن الانتباه حياة بعد الموت ونشور بعد السكون فما فعله حينئذ كان أول أعماله وبهذا يتبين أن أعمال النهار سابقة لأعمال الليل وان أعمال النهار فواتيح وأعمال الليل خواتيم وان كان الليل هو المتقدم على النهار خلقا وإبداعا¹

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}

قال تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } {78} {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {79} {الإسراء 78-79} قد ذكر الله قيام الليل في عدة آيات تارة بالمدح وتارة بالأمر أمر ايجاب ثم نسخه بأمر الاستحباب اذا لم تدخل صلاة العشاء فيه بل أريد القيام بعد النوم فانه قد قال سعيد بن المسيب وغيره من صلى العشاء في جماعة فقد أخذ بنصيبه من قيام ليلة القدر فقد جعل ذلك من القيام وقد روى عن عبيدة السلماني أن قيام الليل واجب لم ينسخ ولو كحلب شاة وهذا اذا أريد به ما يتناول صلاة الوتر فهو قول كثير من العلماء والدليل عليه أن في حديث ابن مسعود لما قال اوتروا يا اهل القرآن قال أعرابي ما يقول رسول الله فقال انها ليست لك ولا لأصحابك فقد خاطب أهل القرآن من قيام الليل بما لم يخاطب به غيرهم وعلى هذا قوله {فَأَقْرُوا مَا نَيَّسَ مِنْهُ} {المزمل 20} فسر بقراءته بالليل لئلا ينساه وقال نظرت في سيئات امتي فوجدت فيها الرجل يؤتيه الله آية فينام عنها حتى ينساها وفي الصحيح عن النبي أنه قال من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله أي الصبح مع العشاء فهذا يدل على أنهما ليسا من قيام الليل ولكن فاعلهما كمن قام الليل قال تعالى {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} {15} {أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} {16} {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} {17} {وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} {18} {الذاريات 15-18} وقال {الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ} {أل عمران 17} وهذا على أصح الأقوال معناه كانوا يهجعون قليلا ف قليلا منصوب يهجعون و ما مؤكدة وهذا مثل قوله {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} {البقرة 88} وقوله {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} {الذاريات 17} هو مفسر في سورة

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 147-149

المزمل بقوله {قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا} {2} نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا} {3} أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} {4} المزمل 2-4 فهذا المستثنى من الأمر هو القليل المذكور في تلك السورة وهو قليل بالنسبة الى مجموع الليل والنهار فانهم اذا هجعوا ثلثه أو نصفه أو ثلثاه فهذا قليل بالنسبة الى ما لم يهجعوه من الليل والنهار وسواء ناموا بالنهار أو لم يناموا وقد قيل لم يأت عليهم ليلة الا قاموا فيها فالمراد هجوع جميع الليلة وهذا ضعيف لأن هجوع الليل محرم فان صلاة العشاء فرض وقال تعالى {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} {15} تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {16} فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {17} السجدة 15-17 وفي حديث معاذ الذي قال فيه يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال لقد سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلى {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} {السجدة 16 حتى بلغ {يعملون} السجدة 17 ثم قال لا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ثم قال الا اخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى قال فأخذ بلسانه فقال اكف عنك هذا فقالت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم الا حصائد السنتهم وقال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ} {الزمر 9 وقال تعالى {مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} آل عمران 113 وقال تعالى بعد قوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} {78} وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {79} الإسراء 78-79 وقال في سورة المزمل {قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا} {المزمل 2} الى قوله {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً} {المزمل 6} واذا نسخ الوجوب بقى الاستحباب قال أحمد وغيره و الناشئة لا تكون الا بعد نوم يقال نشأ اذا قام وقال تعالى {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} {63} وَالَّذِينَ يَبِيئُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} {64} الفرقان 63-64 وقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} {23} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} {24} وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} {25} وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} {26} الإنسان 23-26 فان هذا يتناول صلاة العشاء والوتر وقيام الليل لقوله {وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} {الإنسان 26} وقوله تعالى {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} {97} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} {98} الحجر 97-98 مطلق لم يخصه بوقت آخر والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وأصحابه وسلم تسليماً¹

هذا أمر يتناول الامام والمأموم والمنفرد

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 85-88

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79 فان الله سبحانه لما قال { **وَإِذَا فُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } الأعراف 204 وقال { **وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** } الأعراف 205 وهذا أمر للنبي ولأمته فانه ما خوطب به خوطبت به الأمة ما لم يرد نص بالتخصيص كقوله { **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** } ق 39 وقوله { **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً مِّنَ اللَّيْلِ** } هود 114 وقوله { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } الإسراء 78 ونحو ذلك وهذا أمر يتناول الامام والمأموم والمنفرد بأن يذكر الله في نفسه بالغدو والآصال وهو يتناول صلاة الفجر والظهر والعصر فيكون المأموم مأموراً بذكر ربه في نفسه لكن إذا كان مستمعا كان مأموراً بالاستماع وإن لم يكن مستمعا كان مأموراً بذكر ربه في نفسه والقرآن أفضل الذكر كما قال تعالى { **وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ** } الأنبياء 50¹

العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً** } {79} الإسراء 78-79 أن العبادة إذا سميت ما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها كقوله { **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ** } الإسراء 78 وقوله { **قُمِ اللَّيْلَ** } المزمل²

إن من الفقهاء من قد يقول التسبيح ليس بواجب وهذا القول يخالف ظاهر الكتاب والسنة فإن ظاهرهما يدل على وجوب الفعل والقول جميعاً فإذا دل دليل على عدم وجوب القول لم يمنع وجوب الفعل وأما من يقول بوجوب التسبيح فيستدل لذلك بقوله تعالى { **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** } طه 130 وهذا أمر بالصلاة كلها كما ثبت في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال كنا جلوساً عند النبي إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ { **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** } طه 130 وإذا كان الله عز وجل قد سمي الصلاة تسبيحاً فقد دل ذلك على وجوب التسبيح كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى { **قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً** } المزمل 2 دل على وجوب القيام وكذلك لما سماها قرآناً في قوله تعالى { **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ** } الإسراء 78 دل على وجوب القرآن فيها ولما سما وسجوداً في مواضع دل على وجوب الركوع والسجود فيها وذلك أن تسميتها بهذه الأفعال دليل على أن هذه الأفعال لازمة لها فإذا وجدت هذه الأفعال فتكون من الأبعاض اللازمة كما أنهم يسمون الإنسان بإبعاضه اللازمة له فيسمونه رقبة ورأساً ووجهاً ونحو ذلك كما في قوله تعالى { **فَتَحْرِيرُ** }

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 284

²شرح العمدة ج: 3 ص: 542

رَقَبَةٌ { النساء 92 ولو جاز وجود الصلاة بدون التسبيح لكان الأمر بالتسبيح لا يصلح ان يكون أمرا بالصلاة فإن اللفظ حينئذ لا يكون دالا على معناه ولا على ما يستلزم معناه¹

تجب الصلاة بادراك آخر جزء من الوقت

و تجب الصلاة أيضا بادراك آخر جزء من الوقت فإذا أسلم الكافر أو طهرت الحائض أو النفساء في آخر جزء من وقت صلاة ولو أنه بقدر تكبيرة فعليهما فعلها أداء إن أمكن و ألا فقضاء من غير خلاف في المذهب لأنهما أدركا بعض الوقت على وجه يصح بناء ما بعده عليه فأشبهه من أمكنه فعل الجميع في الوقت و كذلك إن بلغ الصبي و عقل المجنون و قلنا لا صلاة عليهما و إن كان الإدراك في وقت الثانية من المجموعتين وجبت الأولى أيضا لما ذكره الإمام احمد و غيره عن عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قالوا إذا طهرت الحائض قبل مغيب الشمس صلت الظهر و العصر و إذا رأت الظهر قبل أن يطلع الفجر صلت المغرب و العشاء و روى حرب عن أبي هريرة قال إذا طهرت قبل أن يطلع الفجر صلت المغرب و العشاء و هذا لأن مواقيت الصلاة خمسة في حال الاختيار و ثلاثة في حال العذر و الضرورة بدليل قوله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ} {هود 114} وقوله سبحانه و {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ} {الإسراء 78} و إن السنة مضت بذلك في حال العذر حتى جاز إن يصلي الظهر و العصر ما بين الزوال إلى غروب الشمس و يصلي المغرب و العشاء ما بين الغروب إلى طلوع الفجر و هو الجمع بين الصلاتين إذا آخر الأولى بنية الجمع ثم حدث له عذر أخرهما بسببه إلى وقت الضرورة و هذا وقت الضرورة فلذلك كان مدركا للأولى بما أدرك به الثانية و إن كان الإدراك في وقت الأولى بأن تحيض المرأة في وقت الظهر أو المغرب أو يجن الرجل فهل يجب عليهما قضاء العصر و العشاء على روايتين إحداهما يجب القضاء لأن وقتها واحد و الثانية لا يجب و هي المنصورة عند أصحابنا لأن وقت الأولى إنما يكون وقتا للثانية إذا فعل الأولى فتكون الثانية تابعة لها بخلاف وقت الثانية فإنه يكون وقتا للأولى فعلها أو لم يفعلها²

إذا طهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعا

قال تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } {78} وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا {79} {الإسراء 78-79}

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 550-551

²شرح العمدة ج: 4 ص: 230-231

وإذا فوت الصلاة حتى خرج الوقت بأن يؤخر صلاة الليل إلى النهار والنهار إلى الليل فإنه يأثم بذلك كما قال النبي في الحديث الصحيح من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله وقد جوز بعض العلماء تأخير الصلاة في بعض الأوقات كحال المسايقة كقول أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين والذي عليه أكثر العلماء أنه لا يجوز تأخير الصلاة بحال وهو قول مالك والشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه لكن يجوز الجمع بين الصلاتين لعذر عند أكثر العلماء كما جمع النبي بين الظهر والعصر بعرفة وبين المغرب والعشاء بمزدلفة والجمع في هذين الموضعين ثابت بالسنة المتواترة واتفاق العلماء وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه كان يجمع في السفر إذا جد به السير وأنه صلى بالمدينة ثمانيا جمعا الظهر والعصر وسبعا المغرب والعشاء أراد بذلك أن لا يخرج أمته لقوله تعالى { مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } الحج 78 فهذا كان مذهب الإمام أحمد وغيره من العلماء كطائفة من أصحاب مالك وغيره أنه يجوز الجمع بين الصلاتين إذا كان عليه حرج في التفريق فيجمع بينهما المريض وهو مذهب مالك وطائفة من أصحاب الشافعي ويجوز الجمع بين المغرب والعشاء في المطر عند الجمهور كمالك والشافعي وأحمد وقال أحمد يجوز إذا كان له شغل وقال القاضي أبو يعلى إذا كان له عذر يبيح له ترك الجمع والجماعة جاز الجمع فمذهب فقهاء الحجاز وفقهاء الحديث كمالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وابن المنذر وغيرهم يجوز الجمع بين الصلاتين في الجملة ولا يجوز التقويت بأن يؤخر صلاة النهار إلى الليل وصلاة الليل إلى النهار ومذهب طائفة من فقهاء الكوفة كأبي حنيفة وغيره أنه لا يجوز الجمع إلا بعرفة ومزدلفة وكذلك إذا تعذر فعلها في الوقت آخرها عن الوقت وقول من أمر بالجمع بين الصلاتين من غير تقويت أرجح من قول من أمر بالتقويت ولم يأمر بالجمع فإن الكتاب والسنة يدلان على أن الله أمر بفعل الصلاة في وقتها وأمر بالمحافظة عليها كما قال تعالى { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى } البقرة 238 هذه ناسخة لتأخير الصلاة يوم الخندق وقال النبي صلوا الصلاة لوقتها وقد دل الكتاب والسنة على أن المواقيت خمسة في حال الاختيار وهي ثلاثة في حال العذر ففي حال العذر إذا جمع بين الصلاتين بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء فإنما صلى الصلاة في وقتها لم يصل واحدة بعد وقتها ولهذا لم يجب عليه عند أكثر العلماء أن ينوي الجمع ولا ينوي القصر وهذا قول مالك وأبي حنيفة وأحمد في نصوصه المعروفة وهو اختيار أبي بكر عبدالعزيز ولهذا كان عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد إذا طهرت الحائض في آخر النهار صلت الظهر والعصر جميعا وإذا طهرت في آخر الليل صلت المغرب والعشاء جميعا كما نقل ذلك عن عبدالرحمن بن عوف وأبي هريرة وابن عباس لأن الوقت مشترك بين الصلاتين في حال العذر فإذا طهرت في آخر النهار فوقت الظهر باق فتصلها قبل العصر وإذا طهرت في آخر الليل فوقت المغرب باق في حال العذر فتصلها قبل العشاء ولهذا ذكر الله المواقيت تارة خمسا ويذكرها ثلاثا تارة كقوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً مِّنَ اللَّيْلِ } هود 114 الآية وهو وقت المغرب والعشاء وكذلك قال الله تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78 والدلوك هو الزوال وغسق الليل هو اجتماع ظلمة الليل وهذا يكون بعد مغيب الشفق فأمر الله بالصلاة من الدلوك إلى الغسق فرض في ذلك الظهر والعصر والمغرب والعشاء ودل ذلك على أن هذا كله وقت الصلاة فمن الدلوك إلى المغرب وقت الصلاة ومن المغرب إلى غسق الليل وقت الصلاة وقال { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78 لأن الفجر خصت بطول القراءة فيها ولهذا جعلت

ركعتين في الحضر والسفر فلا تقصر ولا تجمع إلى غيرها فإنه عوض بطول القراءة فيها عن كثرة العدد¹

السمع الذي شرعه الله تعالى للمسلمين

قال تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {78} { **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً** } {79} {الإسراء 78-79} وقال تعالى { **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** } {123} { **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** } {124} { **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا** } {125} { **قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ** } {126} طه 126-123 ومثل هذا في القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ويأمرهم بسماع ذلك وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين في المغرب والعشاء والفجر قال تعالى { **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {الإسراء 78} وبهذا مدح عبد الله بن رواحة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال وفيما رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذ استنقلت بالكافرين المضاجع أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات²

وشرع الله سبحانه وتعالى لنا الصلوات الخمس وقراءة القرآن فيها والاستماع له والاجتماع لسماع القرآن خارج الصلاة أيضا فأول سورة أنزلها على نبيه (أقرأ باسم ربك الذي خلق) {1} {العلق 1} أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود بقوله تعالى { **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** } {19} {العلق 19} ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة قراءة القرآن وأعظم الأفعال السجود لله وحده لا شريك له وقال تعالى { **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً** } {الإسراء 78} وقال تعالى { **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } {الأعراف 204} وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقي يستمعون وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى رضي الله عنهما ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ومر النبي بأبي موسى رضي الله عنه وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته فقال يا أبا موسى مررت بك البارحة فجعلت أستمع لقراءتك فقال لو علمت لحبرته لك تحبيراً وقال الله أشد أذنا أي استماعاً إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الأمة وأكابر المشائخ كمعروف الكرخي والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ونحوهم وهو سماع المشائخ المتأخرين الأكابر كالشيخ عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر والشيخ أبي مدين وغيرهم من المشائخ رحمهم الله وأما المشركون فكان سماعهم كما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله تعالى { **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** } {الأنفال 35} قال السلف المكاء الصغير والتصديع التصفيق باليد فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام يصفقون ويصوتون يتخذون ذلك عبادة وصلاة فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه فمن اتخذ نظير هذا السماع عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم

¹مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 435

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 628-629

وكذلك لم تفعله القرون الثلاثة التي أتت عليها النبي ولا فعله أكابر المشائخ وأما سماع الغناء على وجه اللعب فهذا من خصوصية الأفراح للنساء والصبيان كما جاءت به الآثار فإن دين الإسلام واسع لا حرج فيه وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة¹

هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة؟

قال تعالى { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا } {78} وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا {79} {الإسراء 78-79} وبسبب الكلام في مسألة الايمان تتنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في اسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 426-430

وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقولهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } {9} عَبْدًا إِذَا صَلَّى } {10} {العلق 9-10} وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتني يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } {9} {عَبْدًا إِذَا صَلَّى } {10} {العلق 9-10} فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاء وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد¹

التطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله

قال تعالى {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {الإسراء 79} أنه قد جاء في غير حديث أن أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة الصلاة فان أكملها والا قيل أنظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع أكملت به الفريضة ثم يصنع بسائر أعماله كذلك ومعلوم أن ذلك النقص المكمل لا يكون لترك مستحب فان ترك المستحب لا يحتاج الى جبران ولأنه حينئذ لا فرق بين ذلك المستحب المتروك والمفعول فعلم أنه يكمل نقص الفرائض من التطوعات وهذا لا ينافى من أن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة مع أن هذا لو كان معارضا للأول لوجب تقديم الأول لأنه أثبت وأشهر وهذا غريب رفعه وانما المعروف أنه في وصية أبي بكر لعمر وقد ذكره أحمد في رسالته في الصلاة وذلك لأن قبول النافلة يراد به الثواب عليها ومعلوم أنه لا يثاب على النافلة حتى تؤدي الفريضة فانه اذا فعل النافلة مع نقص الفريضة كانت جبرا لها واكمالا لها فلم يكن فيها ثواب نافلة ولهذا قال بعض السلف النافلة لا تكون الا لرسول الله لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وغيره يحتاج الى المغفرة وتأول على هذا قوله {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {الإسراء 79} وليس اذا فعل نافلة وضيع فريضة تقوم النافلة مقام الفريضة مطلقا بل قد يكون عقوبته على ترك الفريضة أعظم من ثواب النافلة فان قيل العبد اذا نام عن صلاة أو نسيها كان عليه أن يصليها اذا ذكرها بالنص والاجماع فلو كان لها بدل من التطوعات لم يجب القضاء قيل هذا خطأ فان قيل هذا يقال في جميع مسقطات العقاب فيقال اذا كان العبد يمكنه رفع العقوبة بالتوبة لم يمه عن الفعل ومعلوم أن العبد عليه أن يفعل المأمور ويترك

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

المحذور لأن الاخلال بذلك سبب للذم والعقاب وان جاز مع اخلاله أن يرتفع العقاب بهذه الأسباب كما عليه أن يحتمى من السموم القاتلة وان كان مع تناوله لها يمكن رفع ضررها بأسباب من الأدوية والله عليم حكيم رحيم أمرهم بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم ثم اذا وقعوا في أسباب الهلاك لم يؤيسهم من رحمته بل جعل لهم أسبابا يتوصلون بها الى رفع الضرر عنهم ولهذا قيل ان الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرنهم على معاصى الله ولهذا يؤمر العبد بالتوبة كلما أذنب قال بعضهم لشيخه إني أذنب قال تب قال ثم أعود قال تب قال ثم أعود قال تب قال الى متى قال الى أن تحزن الشيطان وفي المسند عن علي عن النبي أنه قال ان الله يحب العبد المفتن التواب وأيضا فان من نام عن صلاة أو نسيها فصلاته اذا استيقظ أو ذكرها كفارة لها تبرا بها الذمة من المطالبة ويرتفع عنه الذم والعقاب ويستوجب بذلك المدح والثواب وأما ما يفعله من التطوعات فلا نعلم القدر الذى يقوم ثوابه مقام ذلك ولو علم فقد لا يمكن فعله مع سائر الواجبات ثم اذا قدر أنه أمر بما يقوم مقام ذلك صار واجبا فلا يكون تطوعا والتطوعات شرعت لمزيد التقرب الى الله كما قال تعالى فى الحديث الصحيح ما تقرب الى عبدى بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه الحديث فاذا لم يكن العبد قد أدى الفرائض كما أمر لم يحصل له مقصود النوافل ولا يظلمه الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة بل يقيمها مقام نظيرها من الفرائض كمن عليه ديون لأناس يريد أن يتطوع لهم بأشياء فان وفاهم وتطوع لهم كان عادلا محسنا وان وفاهم ولم يتطوع كان عادلا وان أعطاهم ما يقوم مقام دينهم وجعل ذلك تطوعا كان غالطا فى جعله بل يكون من الواجب الذى يستحقونه ومن العجب أن المعتزلة يفتخرون بأنهم أهل التوحيد و العدل وهم فى توحيدهم نفوا الصفات نفيا يستلزم التعطيل والإشراك وأما العدل الذى وصف الله به نفسه فهو أن لا يظلم مثقال ذرة وأنه {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} {7} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} {8} الزلزلة 7-8 وهم يجعلون جميع حسنات العبد وإيمانه حابطا بذنب واحد من الكبائر وهذا من الظلم الذى نزه الله نفسه عنه فكان وصف الرب سبحانه بالعدل الذى وصف به نفسه أولى من جعل العدل هو التكذيب بقدر الله¹

المقام المحمود هو الشفاعة

قال تعالى {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {الإسراء 79} فقد حدث العلماء المرضيون وأولياؤه المقبولون أن محمدا رسول الله يجلسه ربه على العرش معه روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد فى تفسير {عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} {الإسراء 79} وذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة وغير مرفوعة قال ابن جرير وهذا ليس مناقضا لما استفاضت به الاحاديث من ان المقام المحمود هو الشفاعة باتفاق الائمة من جميع من ينتحل الاسلام ويدعيه لا يقول ان اجلاسه على العرش منكر وانما أنكره بعض الجهمية ولا ذكره فى تفسير الآية منكر²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 491-493

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 374

قال قتادة في قوله {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 قال كان أهل العلم يقولون إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى عنه {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} الإسراء 79 هو شفاعته يوم القيامة وقوله {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} طه 109 إن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض¹

{ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا }

قال تعالى { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } الإسراء 80 فان السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله وهو كلماته الدينية والقدرية والكونية عند الله بكلماته الكونيات ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين فانها حجة على النبوة من الله وهي قدرية وابلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد فانه هو شرع الله وكلماته الدينيات وهو حجة محمد على نبوته ومجيئه من الخوارق للعادات فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة²

قال تعالى { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } الإسراء 80 فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه كما قال تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } الإسراء 81 وأبان الله سبحانه وتعالى من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقا³

كل معبود من دون الله باطل

قال تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا } الإسراء 81 ان فقر الاشياء الى خالفها لازم لها لا يحتاج الى علة كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى الى علة وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر الى علة بل هو فقير لذاته لا تكون ذاته الا فقيرة فقرا لازما لها ولا يستغنى الا بالله وهذا من معاني الصمد وهو الذي يفتقر اليه كل شيء ويستغنى عن كل شيء بل الاشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الهيته فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم وهذا تحقيق قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 فلو لم يخلق شيئا بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء وكل الأعمال ان لم تكن لأجله فيكون هو المعبود

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 136

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 324 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 98

المقصود المحبوب لذاته والا كانت أعمالا فاسدة فان الحركات تنفقر الى العلة الغائية كما افتقرت الى العلة الفاعلية بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا ولولا ذلك لم يفعل فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد وهذا معنى قوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} {الأنبياء: 22} ولم يقل لعدمنا وهذا معنى قول لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل وهو كالدعاء المأثور أشهد أن كل معبود من لدن عرشك الى قرار أرضك باطل الا وجهك الكريم ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع كقول النبي كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل الا رمية بقوسه وتاديبه فرسه وملاعبته لزوجه فانهم من الحق وقوله عن عمر رضي الله عنه ان هذا الرجل لا يحب الباطل ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال اذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل في ايهما يجعل الغناء قال السائل من الباطل قال فماذا بعد الحق الا الضلال ومنه قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} {الحج: 62} فان الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع والمقصود منها لا يحصل فهو باطل واعتقاد الوهيتها باطل اي غير مطابق واتصافها بالالهية في أنفسها باطل لا بمعنى أنه معدوم ومنه قوله تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} {الأنبياء: 18} وقوله {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} {الإسراء: 81} فان الكذب باطل لأنه غير مطابق وكل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة فقول النبي أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل هذا معناه ان كل معبود من دون الله باطل كقوله {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ} {لقمان: 30} وقال تعالى {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {31} {فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} {32} {يونس: 31-32} وقد قال قبل هذا {وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} {يونس: 30} كما قال في الانعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ} {الأنعام: 61} وقال {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ} {محمد: 3} ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود وهو مريض فقال كيف تجدك قال أجدني مردودا الى الله مولاى الحق قال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {24} {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} {النور: 24-25} وقد اقرروا بوجوده في الدنيا لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه ولهذا قال {هُوَ الْحَقُّ} {النور: 25} بصيغة الحصر فانه يومئذ لا يبقى أحد يدعى فيه الالهية ولا أحد يشرك بربه احدا¹

سنة الله في الأنبياء الصادقين وأتباعهم وفي الكذابين بالحق

قال تعالى {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} {الإسراء: 81} كذلك سنته في الأنبياء الصادقين وأتباعهم من المؤمنين وفي الكذابين بالحق إن هؤلاء ينصرهم ويبقى لهم لسان صدق في الآخرين وأولئك ينتقم منهم ويجعل عليهم اللعنة فبهذا وأمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذابا بالمعجزة لا معارض لها لأن في ذلك من الفساد

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 515-517

والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته وفيه من نقص سنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته¹

" تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة "

قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء: 82}

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 123-126 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { الم } {1} { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {2} { البقرة 1-2 } وقال { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } { آل عمران 138 } وقال { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } {201} { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } {202} { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {203} { الاعراف 201-203 }²

و قال النبي ص في الحديث الصحيح ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة و تنزلت عليهم السكينة و حفتهم الملائكة و ذكرهم الله فيمن عنده و قد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن كما قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء: 82}³

قراءة القرآن تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 202

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 80

³الاستقامة ج: 1 ص: 396

قال تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }
 {الإسراء 82}

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبنتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أهدنا ليجد في نفسه ما لنن يخر من السماء الى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذلك صريح الايمان وفي رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد و الصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيبها فصيير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة الى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهجاه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين الى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا } فاطر 6 ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى { وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء 82} وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران 138 وقال تعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا } التوبة 124 وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيز منه قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} { النحل 98-100 } فان المستعيز بالله مستجير به لاجىء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } {34} { وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } {35} { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} { فصلت 34-36 } وفى الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنة وعندما يأمره الشيطان بالسئآت ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علمائها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم

خيارهم وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسواس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

هذا الرسول الأُمى العربى بعث بأفصح اللغات وأبين الاسنة والعبارات

قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }
 {الإسراء 82}

فانه سبحانه وتعالى جعل القرآن نورا وهدى وبيانا للناس وشفاء لما فى الصدور وأرسل الرسل ليبين للناس على الله حجة بعد الرسل ثم هذا الرسول الأُمى العربى بعث بأفصح اللغات وأبين الاسنة والعبارات ثم الامة الذين أخذوا عنه كانوا أعرق الناس علما وأنصحهم للأمة وأبينهم للسنة فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره الا وقد نصب دليلا يمنع من حمله على ظاهره اما أن يكون عقليا ظاهرا مثل قوله { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } النمل 23 فان كل أحد يعلم بعقله أن المراد اوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها وكذلك { خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } الأنعام 102 يعلم المستمع ان الخالق لا يدخل فى هذا العموم أو سمعيا ظاهرا مثل الدلالات فى الكتاب والسنة التى تصرف بعض الظواهر ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفى لا يستنبطه الا افراد الناس سواء كان سمعيا أو عقليا لأنه اذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى واعاده مرات كثيرة وخاطب به الخلق كلهم وفيهم الذكى والبليد والفقير وغير الفقيه وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه ويتفكروا فيه ويعتقدوا موجه ثم أوجب أن لا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئا من ظاهره لأن هناك دليلا خفيا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره كان هذا تدليسا وتلبيسا وكان نقيض البيان وضد الهدى وهو يالألغاز والاحاجى أشبه منه بالهدى والبيان فكيف اذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره اقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفى على أن الظاهر غير مراد أم كيف اذا كان ذلك الخفى شبهة ليس لها حقيقة²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 282-285

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 361

النفاق والكفر يتبعض ويزيد وينقص

قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء 82 الله تعالى حبيب إلى المؤمنين الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فكل حسنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة والتوبة تتضمن الندم على ما مضى والعزم على أن لا يعود إلى مثله في المستقبل والندم يتضمن ثلاثة أشياء اعتقاد قبح ما ندم عليه وبغضه وكرهه وألم يلحقه عليه فمن اعتقد قبح ما أمر الله به أمر إيجاب أو استحباب أو أبغض ذلك وكرهه بحيث يتألم على فعله ويتأذى بوجوده ففيه من النفاق بحسب ذلك وهو إما نفاق أكبر يخرج من أصل الإيمان وإما نفاق أصغر يخرج من كماله الواجب عليه¹

ان الأمور المذمومة في الشريعة كما ذكرناه هو ما ترجح فساده على صلاحه كما أن الأمور المحمودة ما ترجح صلاحه على فساده فالحسنات تغلب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاصد والحسنات درجات بعضها فوق بعض والسيئات بعضها أكبر من بعض فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين وكل من هؤلاء هم درجات عند الله ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب وإن انتقل إلى ما هو دونها كان في التأخر والرجوع وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب وقد قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء 82²

النفاق يتبعض والكفر يتبعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبعض ويزيد وينقص قال الله تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37 وقال { وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } {125} التوبة 124-125 وقال { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء 82³

السمع الذي أمر الله به سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم

سماع فقه وقبول

¹رسالة في التوبة ج: 1 ص: 248

²الاستقامة ج: 1 ص: 462

³مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 188

قال تعالى { **وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** } الإسراء 82 أصل السماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سماع فقه و قبول و لهذا إنقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه و صنف سمع الصوت و لم يفقه المعنى و صنف فقهه و لكنه لم يقبله و الرابع الذي سمعه سماع فقه و قبول و الصنف الرابع الذين سمعوا سماع فقه و قبول فهذا هو السماع المأمور به كما قال تعالى { **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** } المائدة 83 و قال تعالى { **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } الأنفال 2 و قال تعالى { **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } {125} التوبة 124-125 و قال تعالى { **وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** } الإسراء 82 و كذلك قوله { **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** } فصلت 44 و مثله قوله { **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** } آل عمران 138 فالبيان يعم كل من فقهه و الهدى و الموعدة للمتقين و كذلك قوله { **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** } فصلت 44 و مثله قوله { **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** } آل عمران 138 فالبيان يعم كل من فقهه و الهدى و الموعدة للمتقين و قوله { **هَذَا بَصَائِرٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** } الجاثية 20 و قوله { **الم** } {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } {2} البقرة 1-2 و هنا لطيفة تزيل إشكالا يفهم هنا و هو أنه ليس من شرط هذا المتقى المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فإن هذا أولا ممتنع إذ لا يكون مؤمنا متقيا من لم يسمع شيئا من القرآن و ثانيا أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدما زمانيا كاستقبال القبلة في الصلاة و ثالثا أن المقصود أن يبين شيئا أحدهما أن الإنتفاع به بالإهداء و الإعطاء و الرحمة هو و إن كان موجبا له لكن لا بد مع الفاعل من القابل إذ الكلام لا يؤثر فيمن لا يكون قابلا له و إن كان من شأنه أن يهدى و يعظ و يرحم و هذا حال كل كلام الثانى أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون و يستدل بعدم الإهداء به على عدم الإيمان و التقوى كما يقال المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء و إن لم يكونوا أطباء قبل تعلمه بل بتعلمه و كما يقال كتاب سيبويه كتاب عظيم المنفعة للنحاة و إن كانوا إنما صاروا نحاة بتعلمه و كما يقال هذا مكان موافق للرماة و الركاب¹

مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسر به تصويره وإرادته

قال تعالى { **وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** } الإسراء 82 وقال الله تعالى عن المنافقين { **فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** } البقرة 10 وقال تعالى { **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ** } الحج 53 وقال

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 14-15

{لَيْنَ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} الأحزاب 60 وقال { وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } المدثر 31 وقال تعالى { قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } يونس 57 وقال { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } {14} وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ {15} التوبة 14-15 و مرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية فادراكه إما ان يذهب كالعمى والسمم واما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرا وكما يخيل اليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج وأما فساد حركته الطبيعية فمثل ان تضعف قوته عن الهضم او مثل ان يبغض الأغذية التي يحتاج اليها ويحب الأشياء التي تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الارادية في الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية او الكيفية فالأول اما نقص المادة فيحتاج الى غذاء واما بسبب زيادتها فيحتاج الى استفراغ و الثاني كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى فصل وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسر به تصورهِ وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله في قلوبهم مرض اي شك وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله فيطمع الذي في قلبه مرض ولهذا صنف الخرائطي كتاب اعتلال القلوب اي مرضها واراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤدي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض والمرض في الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوى والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمريض يقوى بمثل سببه ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد ضعف قوته حتى ربما يهلك وان حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس و مرض القلب ألم يحصل في القلب كالغيط من عدو استولى عليك فان ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } {14} وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ {15} التوبة 14-15 فشفأؤهم يزوال ما حصل في قلوبهم من الألم ويقال فلان شفى غيظه وفي القود استشفاء اولياء المقتول ونحو ذلك فهذا شفاء من الغم والغيط والحزن وكل هذه الآم تحصل في النفس وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العي السؤال والشاك في الشئ المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق قد شفاني بالجواب والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفأؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فهذا مرض القلب اذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وان حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه قال تعالى {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ} الحج 53 لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم لبيسها فاولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ما لقي الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان فصار فتنة لهم وقال {لَيْنَ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} الأحزاب 60 كما قال { وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } المدثر 31 لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك { فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } الأحزاب 32 وهو مرض الشهوة فان القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت اليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما

يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فذا خضعن بالقول طمع الذى فى قلبه مرض والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات فيه من البينات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والادراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد ان كان مريدا للغي مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطبيعى ويغتنى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتنى البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استقراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } النور 21 وقال تعالى { وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ } النور 28 وقال { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْسَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } النور 30 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } 14 { وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } 15 { الأعلى 14-15 وقال تعالى { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى } عيس 3 وقال تعالى { فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى } 18 { وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى } 19 { النازعات 18-19 فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ } 6 { الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } 7 { فصلت 6-7 وهى التوحيد والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر¹

طب الاديان يحتذى حذو طب الابدان

قال تعالى { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء 82}

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 92-97 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 3-5

قد ذكرنا في غير موضع ان صلاح حال الانسان في العدل كما ان فساده في الظلم وان الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه وصحة جسمه وعافيته من اعتدال اخلاطه واعضائه ومرض ذلك الانحراف والميل وكذلك استقامة القلب واعتداله واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة وقد ذكر الله مرض القلوب وشفاءها في مواضع من كتابه وجاء ذلك في سنة رسوله كقوله تعالى عن المنافقين { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } البقرة 10 وقال { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ } المائدة 52 وقال تعالى { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } 14 { وَيَذْهَبُ عَظِيمُ قُلُوبِهِمْ } 15 { التوبة 14-15 وقال { قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ } يونس 57 وقال تعالى { **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** } الإسراء 82 وقال تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ } فصلت 44 وقال تعالى { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } الأحزاب 32 وقال { لِّئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ } الأحزاب 60 وقال { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا } الأحزاب 12 وقال النبي صلى الله عليه وسلم هلا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال وقال الرشيد الأن شفينتى يا مالك وفي صحيح البخارى عن ابن مسعود ان احدا لا يزال بخير ما اتقى الله واذا شك في تفسير شئ سأل رجلا فشفاه واوشك ان لا يجده والذى لا اله الا هو وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها وحياتها واسمعها وبصرها وعلقها وصممها وبكمها وعمها وعمى القلب وبكمه ان يبصر الحقائق ويميز ما ينفعه ويضره كعمى الجسم وخرسه عن ان يبصر الامور المرتبة ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره وكما أن الضرير إذا ابصر وجد ان الراحة والعافية والسرور امرا عظيما فبصر القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه الا الله وانما الغرض هنا تشبيه احد المرضيين بالآخر فطب الاديان يحتذى حذو طب الابدان وقد كتب سليمان الى ابي الدرداء اما بعد فقد بلغنى انك قعدت طبيبا فاياك ان تقتل والله انزل كتابه شفاء لما في الصدور وقال تعالى { **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** } الإسراء 82 ذلك ان الشفاء انما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال إما بشهوة مالا يحصل أو يفقد الشهوة النافعة وينفر به عما يصلح ويفقد النفرة عما يضر ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال وهي الأهواء التي قال الله فيها القصص ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وقال الروم بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم كما يكون الجسد خارجا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهييه الجسم بلا قول الطبيب ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا يحتمون ولا يصبرون على الأدوية الكريهة لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره او يعجل الهلاك فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لا يصلح له فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات إما في الدنيا وإما في الآخرة ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم و التقوى هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضا استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيا بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك ولهذا كانت العاقبة للتقوى وللمتقين لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة وإن وجدوا ألما في الابتداء لتناول الدواء والإحتماء كفعل الأعمال الصالحة المكروهة كما قال تعالى البقرة كتب عليكم

القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة قال تعالى النازعات وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى وكما قال الانفال وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره في العاقبة ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو أصلح ممن احتتمى حمية كاملة ولم يتناول إلا شيئاً يسيراً فإن الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات وقد قدمنا في قاعدة كبيرة أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء وبيننا أن هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره وكما أن الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله وإزالته بعد حصوله فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداءً وإلى إعادتها إن عرض له المرض دواما والصحة تحفظ بالمثل والمرض يزول بالضد فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها وهو ما يقوى العلم والايمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة وتزول بالضد فتزال الشبهات بالبينات وتزال محبة الباطل ببيغضه ومحبة الحق¹

لا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس

قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء 82} ان القرآن بيان وهدى وشفاء وان ضل به من ضل فانه من جهة تفريطه كما قال تعالى { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى } {فصلت 44}² جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشيء من كتب الله وكلام أنبيائه كان في نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما أنطق به أنبيائه فإنه جعل ذلك هدى وبيانا للخلق وشفاء لما في الصدور فلا بد أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل والصدق والكذب لكن الناس يؤتون من قبل أنفسهم لا من قبل أنبياء الله تعالى إما من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه وإما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به³

قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها و لا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل و الحس الا و في القرآن بيان معناه فان القرآن جعله الله شفاء لما في الصدور و بيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك لكن قد تخفى

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 139-143 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 30-31

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 400

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 43

أثار الرسالة في بعض الأمكنة و الأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم إما أن لا يعرفوا اللفظ و إما أن يعرفوا اللفظ و لا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة و من ههنا يقع الشرك و تفريق الدين شيعا كالفتن التي تحدث السيف فالفتن القولية و العملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك بن أنس اذا قل العلم ظهر الجفاء و اذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم و لهذا قال أحمد في خطبته الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدي الحاصل لأهل الأرض انما هو من نور النبوة كما قال تعالى { فَأَمَّا يَا تِئْتِكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 فأهل الهدي و الفلاح هم المتبعون للأنبياء و هم المسلمون المؤمنون في كل زمان و مكان و أهل العذاب و الضلال هم المكذبون للأنبياء¹

الناظر يحتاج إلى أن يظفر بالدليل الهادي وإلى أن يهتدي به وينتفع

قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء 82

فإذا كان النظر في دليل هاد كالقرآن و سلم من معارضات الشيطان تضمن ذلك النظر العلم و الهدي ولهذا أمر العبد بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند القراءة و إذا كان النظر في دليل مضل و الناظر يعتقد صحته بأن تكون مقدمته أو إحداهما متضمنة للباطل أو تكون المقدمات صحيحة لكن التآليف ليس بمستقيم فإنه يصير في القلب بذلك اعتقاد فاسد و هو غالب شبهات أهل الباطل المخالفين للكتاب و السنة من المتفلسفة و المتكلمين و نحوهم فإذا كان الناظر لا بد له من منظور فيه و النظر في نفس المتصور المطلوب حكمه لا يفيد علما بل ربما خطر له بسبب ذلك النظر أنواع من الشبهات يحسبها أدلة لفرط تعطش القلب إلى معرفة حكم تلك المسألة و تصديق ذلك التصور و أما النظر المفيد للعلم فهو ما كان في دليل هاد و الدليل الهادي على العموم و الإطلاق هو كتاب الله و سنة نبيه فإن الذي جاءت به الشريعة من نوعي النظر هو ما يفيد و ينفع و يحصل الهدي و هو بذكر الله و ما نزل من الحق فإذا أراد النظر و الاعتبار في الأدلة المطلقة من غير تعيين مطلوب فذلك النظر في كتاب الله و تدبره كما قال تعالى { قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } 15 { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 16 { المائدة 15-16 و قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 52 { صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } 53 { الشورى 52-53 } و أما النظر في مسألة معينة و قضية معينة أطلب حكمها و التصديق بالحق فيها و العبد لا يعرف ما يدل على هذا أو هذا فمجرد هذا النظر لا يفيد بل قد يقع له تصديقات يحسبها حقا و هي باطل و ذلك من إلقاء الشيطان و قد يقع له تصديقات تكون حقا و ذلك من إلقاء الملك و كذلك إذا كان النظر في الدليل الهادي و هو

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 307-312

القرآن فقد يضع الكلم مواضعه ويفهم مقصود الدليل فيهتدي بالقرآن وقد لا يفهمه أو يحرف الكلم عن مواضعه فيضل به ويكون ذلك من الشيطان كما قال تعالى **{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}** {الإسراء: 82} وقال **{يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}** {البقرة: 26} وقال **{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** {124} **{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَرَزَدْتُهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ}** {125} {التوبة: 124-125} وقال **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}** {فصلت: 44} وقال **{هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}** {آل عمران: 138} فالناظر في الدليل بمنزلة المترائي للهِلال قد يراه وقد لا يراه لعشي في بصره وكذلك أعمى القلب وأما الناظر في المسألة فهذا يحتاج إلى شيين إلى أن يظفر بالدليل الهادي وإلى أن يهتدي به وينتفع فأمره الشرع بما يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ويصرف عنه الأسباب المعوقة وهو ذكر الله تعالى والغفلة عنه فإن الشيطان وسواس خناس فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا غفل عن ذكر الله وسوس وذكر الله يعطي الإيمان وهو أصل الإيمان والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه وهو معلم كل علم وواهبه فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود فذكره والعلم به أصل لكل علم وذكره في القلب والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبدالله البجلي وغيره من الصحابة تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازدنا إيماناً ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق {1} فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال (باسم ربك الذي خلق {1} خلق الإنسان من علق {2} اقرأ وربك الأكرم {3} الذي علم بالقلم {4} علم الإنسان ما لم يعلم {5} فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان وأنه المعلم للعلم عموماً وخصوصاً للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب وحقيقة الأمر أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى طالب سائل فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله ويبدله كما قال يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ومما يوضح ذلك أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال والتفكير والتدبر لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيد العلم بالمدلول عليه ومتى كان العلم مستفاداً بالنظر فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر فيكون ذلك المعلوم أصلاً وسبباً للتفكير الذي يطلب به معلوماً آخر ولهذا كان الذكر متعلقاً بالله لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكير في مخلوقاته كما قال الله تعالى **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** {آل عمران: 191} وقد جاء الأثر تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة والمقاييس وذلك يكون في الأمور المتشابهة وهي المخلوقات وأما الخالق جل جلاله سبحانه وتعالى فليس له شبيه ولا نظير فالتفكير الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه وإنما هو معلوم بالفطرة فيذكره العبد وبالذكر وبما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير أعني من العلم به نفسه فإنه الذي لا تفكير فيه فأما العلم بمعاني ما أخبر به ونحو ذلك فيدخل فيها التفكير والتقدير كما جاء به الكتاب والسنة ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرؤن بملازمة الذكر ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك وكثير من أرباب النظر والكلام يأمرؤن بالتفكير والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق والنظر صحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم فكل من الطريقين فيها حق لكن يحتاج إلى

الحق الذي في الأخرى ويجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل وذلك كله باتباع ما جاء به المرسلون وقد بسطنا الكلام في هذا غير هذا الموضوع وبيننا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر وطريق أهل والنظر والاستدلال وما في كل منهما من مقبول ومردود وبيننا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق وليس هذا موضع بسط ذلك¹

سعادة العبد في كمال افتقاره الى ربه واحتياجه اليه

أن سعادة العبد في كمال افتقاره الى ربه واحتياجه اليه أي في أن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع والافتقار كالمحتاجون لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى كما قال تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً } {83} قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا {84} {الإسراء 83-84}²

لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به

جميعا

قال تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً } {83} قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا {84} {الإسراء 83-84}

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا³

آيات نزلت بمكة ثم جرى بالمدينة سبب يقتضى الخطاب فأنزلت مرة ثانية

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 36

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 50

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

قال تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 85

ناقص ن م مثل قوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } الإسراء 85 وقوله { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ } هود 114 وغير ذلك من الآيات التي نزلت بمكة ثم جرت بالمدينة سبب يقتضى الخطاب فأُنزلت مرة ثانية¹

{ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }

قال تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 85

قوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } المائدة 31 و قوله لما سأله عن الروح { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 85 فهذا فيه إخبارنا بأن الله مخلوقات لا نعلمها أو نعلم جنسهم و لا نعلم قدرهم أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض²

لا يجوز لأحد أن يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لا يعلم قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 وقال تعالى { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 وقال تعالى { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } الأعراف 169 وقد قالت الملائكة لما قال لهم { أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {31} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } {32} البقرة 31-32 وقد قال موسى للحضر { أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا } {الكهف 66} وقال الحضر لموسى لما نفر العصفور في البحر ما نقص علمي و علمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر وليس في الكتاب والسنة أن المسلمين نهوا أن يتكلموا في الروح بما دل عليه الكتاب والسنة لا في ذاتها ولا في صفاتها وأما الكلام بغير علم فذلك محرم في كل شيء ولكن قد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي كان في بعض سكك المدينة فقال بعضهم سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه فيسمعكم ما تكرهون قال فسألوه وهو متكئ على العسيب فأنزل الله هذه الآية فبين بذلك أن ملك الرب عظيم وجنوده وصفة ذلك وقدرته أعظم من أن يحيط به الآدميون وهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا فلا يظن من يدعي العلم أنه يمكنه أن يعلم كل ما سئل عنه ولا كل ما في الوجود فما يعلم جنود ربك إلا هو³

روح الأدمي مخلوقة مبدعة

¹السياسة الشرعية ج: 1 ص: 71 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 317

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 421

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 231 و مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 427

قال تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 85

روح الأدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكي إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو أعلم أهل زمانه بالإجماع والإختلاف أو من أعلمهم وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في كتاب اللقط لما تكلم على خلق الروح قال النسب الأرواح قال واجمع الناس على أن الله خالق الجنة وباريء النسمة أي خالق الروح وقال أبو اسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة قال هذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب إلى أن قال والروح من الأشياء المخلوقة وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء المشائخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتابا كبيرا في الروح والنفس وذكر فيه من الأحاديث والآثار شيئا كثيرا وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره والشيخ أبو يعقوب الخراز وأبو يعقوب النهر جوري والقاضي أبو يعلى وغيرهم وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد تكبيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى بن مريم لا سيما في روح غيره كما ذكره أحمد في كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فقال في أوله الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح اثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا الوية البدعة وأطلقوا عقال الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين وتكلم على ما يقال إنه متعارض من القرآن إلى أن قال وكذلك الجهم وشيعته دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث وأضلوا بشرا كثيرا فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان من أهل الترمذ وكان صاحب خصومات وكلام كان أكثر كلامه في الله فلقى أناسا من المشركين يقال لهم السمنية فعرفوا الجهم فقالوا له نكلمك فإن ظهرت حججتنا عليك دخلت في ديننا وإن ظهرت حججتك علينا دخلنا في دينك فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا ألسنت تزعم أن لك إلها قال الجهم نعم فقالوا له فهل رأيت إلهك قال لا قالوا فهل سمعت كلامه قال لا قالوا فهل شمتت له رائحته قال لا قالوا له فوجدت له مجسا قال لا قالوا فما يدريك أنه اله قال فتحير الجهم فلم يدر من يعبد أربعين يوما ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى هو روح الله من ذاته فإذا أراد أن يحدث امرا دخل في بعض خلقه فتلكم على لسان خلقه فيأمر بما شاء وينهى عما شاء وهو روح غائب عن الأبصار فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة فقال للسمني ألسنت تزعم أن فيك روحا قال نعم قال فهل رأيت روحك قال لا قال فهل سمعت كلامه قال لا قال فوجدت له حسا ومجسا قال لا قال كذلك الله لا يرى له وجه ولا يسمع له صوت ولا يشم له رائحة وهو غائب عن الأبصار ولا يكون في مكان دون مكان وساق الإمام أحمد الكلام في القرآن والرؤية وغير ذلك إلى أن قال ثم إن الجهم ادعى أمرا فقال إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على القرآن أنه مخلوق فقلنا أي آية قال قول الله { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ } النساء 171 وعيسى مخلوق فقلنا إن الله منعك الفهم في القرآن عيسى تجري عليه ألفاظ لا تجري على القرآن لأنه يسميه مولودا وطفلا وصيبا وغلاما يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهي يجري عليه الوعد والوعيد ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم ولا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى هل سمعتم الله يقول في القرآن

ما قال في عيسى ولكن المعنى في قول عيسى هل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ولكن المعنى في قول الله { إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ } النساء 171 فالكلمة التي ألفاها إلى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن وليس عيسى هو الكن ولكن بالكن كان فالكن من الله قول وليس الكن مخلوقا وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكمة مخلوقة وقالت النصارى عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذات الله كما يقال إن هذه الخرقه من هذا الثوب وقلنا نحن إن عيسى بالكلمة كان وليس كان وليس هو الكلمة قال وقول الله وروح منه يقول من أمره كان الروح فيه كقوله { وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ } الجاثية 13 يقول من أمره وتفسير روح الله أنها روح بكلمة الله خلقها الله كما يقال عبد الله وسماء الله فقد ذكر الإمام أحمد أن زنادقة النصارى هم الذي يقولون ان روح عيسى من ذات الله وبين أن إضافة الروح إليه إضافة ملك وخلق كقولك عبد الله وسماء الله لا إضافة صفة إلى موصوف فكيف بارواح سائر الادميين وبين أن هؤلاء الزنادقة الطولية يقولون بأن الله إذا أراد ان يحدث أمرا دخل في بعض خلقه وقال الشيخ أبو سعيد الخراز أحد اكابر المشائخ الإثمة من أقران الجنيد فيما صنفه في أن الارواح مخلوقة وقد احتج بأمور منها لو لم تكن مخلوقة لما أقرت بالربوبية وقد قال لهم حين أخذ الميثاق وهم أرواح في أشباح كالذر { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } الأعراف 172 وإنما خاطب الروح مع الجسد وهل يكون الرب إلا لمربوب قال ولأنها لو لم تكن مخلوقة ما كان على النصارى لوم في عبادتهم عيسى ولا حين قالوا إنه ابن الله وقالوا هو الله قال ولأنه لو كان الروح غير مخلوق ما دخلت النار ولأنها لو كانت غير مخلوقة لما حجبت عن الله ولا غيبت في البدن ولا ملكها ملك الموت ولما كانت صورة توصف ولأنها لو لم تكن مخلوقة لم تحاسب ولم تعذب ولم تتعبد ولم تخف ولم ترج ولأن أرواح المؤمنين تتلأأ وأرواح الكفار سود مثل الحمم وقال أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترتع في الجنة وتأوي في فناء العرش وأرواح الكفار في برهوت وقال الشيخ أبو يعقوب النهر جوري هذه الأرواح من أمر الله مخلوقة خلقها الله من الملكوت كما خلق آدم من التراب وكل عبد نسب روحه إلى ذات الله أخرجه ذلك إلى التعطيل والذين نسبوا الأرواح إلى ذات الله هم أهل الحلول الخارجون إلى الإباحة وقالوا إذا صفت أرواحنا من أقدار نفوسنا فقد اتصلنا وصرنا أحرارا ووضعنا عنا العبودية وأبيح لنا كل شيء من اللذات من النساء والاموال وغير ذلك وهم زنادقة هذه الامة وذكر عدة مقالات لها وللزنادقة قلت واعلم أن القائلين بقدر الروح صنفان صنف من الصائبة الفلاسفة يقولون هي قديمة أزلية لكن ليست من ذات الرب كما يقولون ذلك في العقول والنفوس الفلكية ويزعم من دخل من أهل الملل فيهم انها هي الملائكة وصنف من زنادقة هذه الامة وضلالها من المتصوفة والمتكلمة والمحدثه يزعمون أنها من ذات الله وهؤلاء اشر قولاً من أولئك وهؤلاء جعلوا الأدمي نصفين نصف لاهوت وهو روحه ونصف ناسوت وهو جسده نصفه رب ونصفه عبد وقد كفر الله النصارى بنحو من هذا القول في المسيح فكيف بمن يعم ذلك في كل احد حتى في فرعون وهامان وقارون وكلما دل على أن الإنسان عبد مخلوق مربوب وأن الله ربه وخالقه ومالكة وإلهه فهو يدل على أن روحه مخلوقة فإن الإنسان عبارة عن البدن والروح معا بل هو بالروح أخص منه بالبدن وإنما البدن مطية للروح كما قال أبو الدرداء إنما بدني مطيتي فإن رفقت بها بلغتني وإن لم ارفق بها لم تبلغني وقد رواه ابن منده وغيره عن ابن عباس قال لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلق حتى تختصم الروح والبدن فتقول الروح للبدن أنت عملت السيئات فيقول البدن للروح أنت أمرتني فيبعث الله ملكا يقضي بينهما فيقول إنما مثلكما كمثل مقعد وأعمى دخلا بستانا فرأى المقعد فيه ثمرا معلقا فقال للأعمى إني أرى ثمرا ولكن لا أستطيع النهوض إليه

وقال الأعمى لكني أستطيع النهوض إليه ولكني لا أراه فقال له المقعد تعال فاحملني حتى أقطفه فحملة وجعل يأمره فيسير به إلى حيث يشاء فقطع الثمرة قال الملك فعلى أيهما العقوبة فقالا عليهما جميعا قال فذلك أنتما وأيضا فقد استفاضت الأحاديث عن النبي بأن الأرواح تقبض وتنعم وتعذب ويقال لها أخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي أيتها الروح الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ويقال للاولى ابشري بروح وريحان ويقال للثانية أبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج وأن أرواح المؤمنين تعرج إلى السماء وإن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان يصعدان بها قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريه فينطلق به إلى ربه ثم يقول انطلقوا به لى آخر الأجل قال وأن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد وذكر من ننتها وذكر لعنا فيقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الارض قال فيقال انطلقوا به إلى آخر الاجل قال أبو هريرة رضي الله عنه فلما ذكر رسول الله النتن رد على أنفه ريطة كانت عليه وفي حديث المعراج الصحيح أن النبي رأى آدم وأرواح بنيه عن يمينه وشماله قال رسول الله فلما علونا السماء فإذا رجل عن يمينه اسودة وعن شماله اسودة قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى بكى قال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بينه فأهل اليمين أهل الجنة والاسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى وقد ثبت أيضا أن أرواح المؤمنين والشهداء وغيرهم في الجنة قال الإمام أحمد في رواية حنبل أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة والابدان في الدنيا يعذب الله من يشاء ويرحم بعفوه من يشاء وقال عبد الله بن أحمد سألت أبي عن أرواح الموتى أنكون في أفنية قبورها أم في حواصل طير أم تموت كما تموت الأجساد فقال قد روى عن النبي أنه قال نسمة المؤمن إذا مات طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وقد روى عن عبد الله بن عمر وأنه قال أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر كالزرزير يتعارفون فيها ويرزقون من ثمرها قال بعض الناس أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تأوى إلى قناديل في الجنة معلقة بالعرش وقد روى مسلم في صحيحه عن مسرور قال سألتنا عبد الله يعني ابن مسعود عن هذه الآية {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ} آل عمران 169 فقال إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله فقال إن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث تشاء ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلعه فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا وقد قال الله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {27} ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً {28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي {29} وَادْخُلِي جَنَّتِي {30} } الفجر 27-30 فخاطبها بالرجوع إلى ربها وبال دخول في عبادته ودخول جنته وهذا تصريح بأنها مربوبة والنفس هنا هي الروح التي تقبض وإنما تتنوع صفاتها كما قال النبي في الحديث الصحيح لما ناموا عن صلاة الفجر في السفر قال إن الله قبض أرواحنا حيث شاء وردها حيث شاء وفي رواية قبض أنفسنا حيث شاء وقال تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ {الزمر 42} والمقبوض المتوفى هي الروح كما في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت دخل رسول الله على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على

ما تقولون ثم قال اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهدين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه 2 وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله ألم تروا أن الإنسان إذا مات شخص بصره قالوا بلى قال فكذلك حين يتبع بصره نفسه فسماه تارة روحا وتارة نفسا وروى أحمد بن حنبل وابن ماجة عن شداد بن أوس قال قال رسول الله إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإن البصر يتبع الروح وقولوا خيرا فإنه يؤمن على ما يقول أهل الميت ودلائل هذا الأصل وبيان مسمى الروح والنفس وما فيه من الإشتراك كثير لا يحتمله هذا الجواب وقد بسطنا في غير هذا الموضوع فقد بان بما ذكرناه أن من قال إن أرواح بني آدم قديمة غير مخلوقة فهو من أعظم أهل البدع الحلوية الذين يجر قولهم إلى التعطيل بجعل العبد هو الرب وغير ذلك من البدع الكاذبة المضلة وأما قوله تعالى **{ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي }** الإسراء 85 فقد قيل إن الروح هنا ليس هو روح الآدمي وإنما هو ملك في قوله **{ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا }** النبأ 38 وقوله **{ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }** المعارج 4 وقوله **{ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ }** القدر 4 وقيل بل هو روح الآدمي والقولان مشهوران وسواء كانت الآية تعمهما أن تتناول أحدهما فليس فيها ما يدل على أن الروح غير مخلوقة لوجهين أحدهما أن الأمر في القرآن يراد به المصدر تارة ويراد به المفعول تارة أخرى وهو المأمور به كقوله تعالى **{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ }** النحل 1 وقوله **{ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْذُورًا }** الأحزاب 38 وهذا في لفظ غير الأمر كلفظ الخلق والقدرة والرحمة والكلمة وغير ذلك ولو قيل إن الروح بعض أمر الله أو جزء من أمر الله ونحو ذلك مما هو صريح في أنها بعض أمر الله لم يكن المراد بلفظ الأمر إلا المأمور به لا المصدر لأن الروح عين قائمة بنفسها تذهب وتجيء وتنعم وتعذب وهذا لا يتصور أن يكون مسمى مصدر أمر يأمر أمرا وهذا قول سلف الأمة وأئمتها وجمهورها ومن قال من المتكلمين إن الروح عرض قائم بالجسم فليس عنده مصدر أمر يأمر أمرا والقرآن إذا سمي أمر الله فالقرآن كلام الله والكلام اسم مصدر كلم يكلم تكليما وكلاما وتكلم تكلمًا وكلاما فإذا سمي أمرا بمعنى المصدر كان ذلك مطابقا لا سيما والكلام نوعان أمر وخبر أما الأعيان القائمة بأنفسها فلا تسمى أمرا لا بمعنى المفعول به وهو المأمور به كما سمي المسيح كلمة لأنه مفعول بالكلمة وكما يسمى المقذور قدر قدرة والجنة رحمة والمطر رحمة في مثل قوله **{ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }** الروم 50 وفي قول النبي فيما يرويه عن ربه أنه قال للجنة أنت رحمتي ارحم بك من شئت وقوله إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ونظائر ذلك كثيرة وهذا جواب أبي سعيد الخراز قال فإن قيل قد قال تعالى **{ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي }** الإسراء 85 وأمره منه قيل أمره تعالى هو المأمور به المكون بتكوين المكون له وكذلك قال ابن قتيبة في كتاب المشكل أقسام الروح فقال هي روح الاجسام التي يقبضها الله عند الممات والروح جبريل قال تعالى **{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ }** الشعراء 193 وقال **{ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }** البقرة 87 أي جبريل والروح فيما ذكره المفسرون وملك عظيم من ملائكة الله تعالى يقوم وحده فيكون صفا وتقوم الملائكة صفا وقال تعالى **{ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي }** الإسراء 85 قال ونسب الروح إلى الله لأنه بأمره أو لأنه بكلمته والوجه الثاني أن لفظة من في اللغة قد تكون لبيان الجنس كقولهم باب من حديد وقد تكون لابتداء الغاية كقولهم خرجت من مكة فقوله تعالى **{ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي }** الإسراء 85 ليس نصا في أن الروح بعض الأمر ومن جنسه بل قد تكون لابتداء الغاية إذا كونت بالأمر وصدرت عنه هذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله وروح منه حيث قال **{ وَرُوحٌ مِّنْهُ }** النساء 171 يقول من أمره كان الروح منه كقوله **{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ }** الجاثية 13

ونظير هذا أيضا قوله { وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل 53 فإذا كانت المسخرات والنعمة من الله ولم تكن بعض ذاته بل منه صدرت لك يجب أن يكون معنى قوله في المسيح روح منه أنها بعض ذات الله ومعلوم أن قوله { وَرُوحٌ مِّنْهُ } النساء 171 أبلغ من قوله الروح أمر ربي فإذا كان قوله وروح منه لا يمنع أن يكون مخلوقا ولا يوجب أن يكون بعضا له فقوله { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } الإسراء 85 أولى بأن لا يمنع أن يكون مخلوقا ولا يوجب أن يكون ذلك بعضا له بل ولا بعضا من أمره وهذا الوجه يتوجه إذا كان الامر هو الامر الذي هو صفة من صفات الله فهذان الجوابان كل منهما مستقل ويمكن أن يجعل منهما جواب مركب فيقال قوله { الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } الإسراء 85 إما أن يراد بالامر المأمور به أو صفة الله تعالى وأن أريد به الأول أمكن أن تكون الروح بعض ذلك فتكون مخلوقة وأن أريد بالأمر صفة الله كان قوله { الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } الإسراء 85 كقوله { وَرُوحٌ مِّنْهُ } النساء 171 وقوله جميعا منه ونحو ذلك وإنما نشأت الشبهة حيث ظن الظان أن الامر صفة لله قديمة وأن روح بني آدم بعض تلك الصفة ولم تدل الآية على واحد من المقدمتين والله سبحانه أعلم لا يجوز لأحد أن يقفو ما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لا يعلم قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } الإسراء 36 وقال تعالى { قُلِ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 وقال تعال { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } الأعراف 169 وقد قالت الملائكة لما قال لهم { أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {31} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } {32} البقرة 31-32 وقد قال موسى للخضر { أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عُلِّمْتَ رَسُولًا } الكهف 66 وقال الخضر لموسى لما نقر العصفور في البحر ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر وليس في الكتاب والسنة أن المسلمين نهوا أن يتكلموا في الروح بما دل عليه الكتاب والسنة لا في ذاتها ولا في صفاتها وأما الكلام بغير علم فذلك محرم في كل شيء ولكن قد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي كان في بعض سلكك المدينة فقال بعضهم سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه فيسمعكم ما تكرهون قال فسألوه وهو متكئ على العسيب فأنزل الله هذه الآية فبين بذلك أن ملك الرب عظيم وجنوده وصفة ذلك وقدرته أعظم من أن يحيط به الآدميون وهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا فلا يظن من يدعي العلم أنه يمكنه أن يعلم كلما سئل عنه ولا كلما في الوجود فما يعلم جنود ربك إلا هو¹

لم يلزم من اتفاق الاسمين اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص

قال تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } الإسراء 85 سمي الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 216

قطعت عن الإضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الإضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فقال {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} البقرة 255 أنزله بعلمه وسمى صفة المخلوق علما فقال {وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} الإسراء 85¹

ومما يبين امتناع تماثل العلمين أن الرب بكل شيء عليم سواء قيل إنه عالم بعلم واحد أو بعلم غير متناهية وليس علم العبد لا هكذا ولا هكذا بل هذا ممتنع فيه ولو قال القائل علم الرب بالشيء المعين كعلم العبد به كان ممتنعا فإن الرب يعلمه علم إحاطة به والعبد لا يحيط به وأيضا فإننا نعلم بالضرورة أن الله أعلم وأقدر من خلقه كما قال تعالى {وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} الإسراء 85 وهذا أوضح في المنقول والمعقول وأعظم من أن يحتاج إلى شواهد فكيف يجوز أن يظن التماثل مع ثبوت التفاضل²

القرآن بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة

قال تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} الإسراء 85 والقرآن نفسه قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين مثال ذلك إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا أو يكون ممن تلقاه عن نبي وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ولا من أهل الكتاب ولا غيرهم وهذا نوعان منه ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب لينظر هل هو نبي أم لا وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب البعيدين عنهم مثل من كان بالمدينة وغيرها من أهل الكتاب يطلبون منهم ما يسألونه عنه فيرسلون إليهم ليسألوه عن ذلك ويمتنحون بذلك هل هو نبي أم لا ومنه ما كان الله يخبره به ابتداء ويجعله علما وآية لنبوته وبرهاننا لرسالته مع ما في ذكر هذه

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

²الصفدية ج: 2 ص: 15

القصص من الاعتبار لأمر أخرى فكان كل من هذين النوعين دليلاً وعبرة على نبوته من طريقين فكان دليلاً وعبرة على نبوته من جهة إخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا نبي وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله وحكم الشيء حكم نظيره فإذا كان من كان مثله ومثل من اتبعه سعيداً وحال من خالف مثله ومثل من اتبعه شقياً كان في هذا دلالة وعبرة توجب اتباعه وتنتهي عن مخالفته وهذا أيضاً دليلاً على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه ولا تشاعر لم يأخذوا عنه ولم يأخذ عنهم وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطؤ وتشاعر وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة علم أن كلا من المخبرين صادق وقال تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً} {الإسراء: 85}¹

قال محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم أسألوه عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا إنكم أهل التوراة وقد جنناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال فقالت لهم أحبار يهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجلا طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالوا يا معشر قريش قد جنناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله فقالوا يا محمد خبرنا فسألوه عما أمرهم به فقال لهم رسول الله أخبركم وجاءه جبريل من الله بسورة الكهف فيها خبر ما سأله عنه من أمر الفتية الرجل الطواف وقول الله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً} {الإسراء: 85}²

الصفات الاختيارية

قال تعالى {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً} {الإسراء: 86} والصفات الاختيارية هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلاً كلامه وسمعه وبصره وإرادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه وإحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه وإتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة والآيات التي تدل على الصفات الاختيارية كثيرة جداً وكذلك في الإرادة والمحبة كقوله

¹ الجواب الصحيح ج: 5 ص: 322

² الجواب الصحيح ج: 5 ص: 381

تعالى {وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا} {الإسراء 86} وامثال ذلك في القرآن العزيز فان جواز الفعل المضارع ونواصبه تخلصه للاستقبال مثل إن و أن وكذلك اذا طرف للمستقبل من الزمان فقوله اذا اراد و ان شاء الله ونحو ذلك يقتضى حصول ارادة مستقبلة ومشئنة مستقبلة¹

الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر

قال تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {الإسراء 88} فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولاً بالتواتر وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد أخبر بالغيوب المستقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {الإسراء 88} فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن²

وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير وكان كما أخبر و وعد³

الإنس والجن لا يقدران على معارضة القرآن بمثله

قال تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {الإسراء 88} ولما زعموا أن هذا القرآن هو ألفه قال الله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ } {33} فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ {34} {الآيتان 33 34}

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 225

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 409

³الجواب الصحيح ج: 6 ص: 72

سورة الطور ثم تحداهم بعشر سور فقال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {13} فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } {14} سورة هود الآيتان 13 14 ثم تحداهم بسورة واحدة فقال { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {23} فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } {24} سورة البقرة الآيتان 23 24 وقال تعالى أيضا { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {38} سورة يونس الآية 38 فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله { قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {88} سورة الإسراء الآية 88 فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدر على معارضة القرآن بمثله مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنًا والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عداوتهم وحرصهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم¹

التحدى والتعجيز ثابت في لفظه ونظمه ومعناه

قال تعالى { قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {88} والإسراء 88 والقرآن نفسه هو قول الله وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول وإنزاله على محمد وإتيان محمد به هو آية وبرهان وذلك من فعل الله إذ كان البشر لا يقدر على مثله لا يقدر عليه أحد من الأنبياء ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم كما قال تعالى { قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {الإسراء 88} ومحمد أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة سبحان وهي مكية صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس وقد أخبر خبرا وأكده بالقسم عن جميع الثقليين إنهم وجنبهم أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله بل يعجزون عن ذلك وهذا فيه آيات لنبوته منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة بأنهم لا يفعلون هذا بل يعجزون عنه هذا لا يقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصده وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم المؤمن بمحمد والكافر به على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم ييسهم أحد بمثلها ثم جعله هذا في القرآن المثلو المحفوظ إلى يوم القيامة الذي يقرأ به في الصلوات ويسمعه العام والخاص والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر وإلا لو كان شاكا في ذلك لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدق الناس فمن يقصد أن يصدق الناس لا يقول مثل هذا

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 427 و مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 276 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 76 و

مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 542

ويظهره هذا الإظهار ويشيعه هذه الإشاعة ويخلده هذا التخليد إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه ولا يتصور أن بشرا يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة هو من أعظم دلائل كونه معجزا وكونه آية على نبوته فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة تامة علم عجز جميع الأمم عند معارضته وهذا برهان ثان يعلم به صدق هذا الخبر وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز فإن ذلك آية مستقلة لنبوته وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر معلومة لكل أحد وهي من أعظم الآيات فإن كونه معجزا يعلم بأدلة متعددة والإعجاز فيه وجوه متعددة فتنوعت دلائل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه وكل وجه من الوجوه هو دال على إعجازه وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل ولهذا قال تعالى {وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} {50} أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {51} العنكبوت 50-51 فهو كاف في الدعوة والبيان وهو كاف في الحجة والبرهان¹

قال تعالى { قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} {الإسراء 88} قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ} {هود-13} الى قوله { فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} {هود-14} فلما تحداهم بالاثني عشر سور مثله مفتريات هم و جميع من يستطيعون من دونه كان في مضمون تحديه ان هذا لا يقدر أحد على الاثني عشر سور مثله من دون الله كما قال { قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} {الإسراء 88} و حينئذ فعلم ان ذلك من خصائص من أرسله الله و ما كان ومن بين الجنس خاتمهم لا يمكن أن يأتي به غيره و كان ذلك برهانا بينا على أن الله أنزله و أنه نزل بعلم الله هو الذي أخبر بخبره و أمر بما أمر به كما قال { لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ} {النساء 166} الآية و ثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد و أنه لا إله إلا الله من جهة أن الرسول أخبر بذلك و من جهة أنه لا يقدر احد على الاثني عشر سور بهذا القرآن إلا الله فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله إلى غير ذلك من وجوه البيان فيه كما قد بسط ونبه عليه في غير هذا الموضوع²

وكون محمد كان نبيا أميا هو من تمام كون ما أتى به معجزا خارقا للعادة و من تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ} {العنكبوت 48} فغيره يعلم ما كتبه غيره و هو علم الناس ما يكتبونه و علمه الله ذلك بما أوحاه إليه و هذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية و برهان على نبوته فإنه لا يقدر عليه الإنس و الجن { قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 408-411

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 106-107

لِبَعْضِ ظَهِيرًا {الإسراء 88} {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {يونس 38} و في الآية الأخرى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {13} فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {14} هود 13-14¹

ومن آيات ما بعث به الرسول أنه إذا ذكر مع غيره على الوجه المبين ظهر النور والهدى على ما بعث به وعلم أن القول الآخر دونه فإن خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وقد قال سبحانه وتعالى **{قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {الإسراء 88}** وهذا التحدى والتعجيز ثابت فى لفظه ونظمه ومعناه²

الإعجاز فى معناه أعظم وأكثر من الإعجاز فى لفظه

قال تعالى **{ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {الإسراء 88}** قال تعالى فى سورة البقرة وهى مدنية {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {البقرة 23} ثم قال **{ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ {24}** البقرة 24 فذكر أمرين أحدهما قوله **{ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ {24}** البقرة 24 يقول إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق فخافوا الله أن تكذبوه فيحقيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين وهذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة وهو جدالهم بالتي هي أحسن والثانى قوله **{ وَلَنْ تَفْعَلُوا {24}** البقرة 24 ولن لنفى المستقبل فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول فى سورة سبحان وهى سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة ما يبين بذلك بقوله **{ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {الإسراء 88}** فعم بالخبر جميع الخلق معجزا لهم قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك وهذا التحدى والدعاء هو لجميع الخلق وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ومن حين بعث وإلى اليوم الأمر على ذلك مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفارا قبل أن يبعث ولما بعث إنما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق يمكن تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسئلونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها كما سأله عن قصة يوسف وأهل الكهف وذي القرنين كما تقدم وتارة يجتمعون فى مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه وصاروا يضربون له الأمثال فيشبهونه بمن ليس مثله لمجرد شبه ما مع ظهور الفرق فتارة يقولون مجنون وتارة يقولون ساحر وتارة يقولون كاهن وتارة يقولون شاعر إلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه فإذا كان قد

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 266-267

²مجموع الفتاوى ج: 33 ص: 43

تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهي تبطل دعوته فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفلوها فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض فهذا القدر يوجب علما بينا لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى فإن هذا لم يأت أحد بنظيره وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملأئكته وغير ذلك ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا تناقض في ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها أو بسلب القدرة التامة أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبا عاما مثل قوله تعالى لذكريا { أَيَّتُكَ آلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } مريم 10 وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادة بمنزلة من يقول إني أخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم وأضربهم جميعهم وأجوعهم وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله أو إلى ولي الأمر وليس فيهم مع ذلك من يشتكي فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة ولو قدر أن واحدا صنف كتابا يقدر أمثاله على تصنيف مثله أو قال شعرا يقدر أمثاله أن يقولوا مثله وتحدهم كلهم فقال عارضوني وإن لم تعارضوني فأنتم كفار مأواكم النار ودماءكم لي حلال امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد فإذا لم يعارضوه كان هذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم أنا رسول الله إليكم جميعا ومن آمن بي دخل الجنة ومن لم يؤمن بي دخل النار وقد أبيح لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم ووجب عليهم كلهم طاعتي ومن لم يطعني كان من أشقى الخلق ومن آياتي هذا القرآن فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله وأنا أخبركم أن أحدا لا يأتي بمثله فيقال لا يخلوا إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين فإن كانوا قادرين ولم يعارضوه بل صرف الله دواعي قلوبهم ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم أو بسلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد فهذا من أبلغ الخوارق وإن كانوا عاجزين ثبت أنه خارق للعادة فثبت كونه خارقا على تقدير النقيضين النفي والإثبات فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر فهذا غاية التنزل والا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبذل سورة من القرآن بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى تدبر كما قد أخبر الله به في قوله { قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } الإسراء 88

وأیضا فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ولو كانوا قادرين لعارضوه وقد انتدب غير واحد لمعارضته لكن جاء بكلام فضح به نفسه وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله مثل قرآن مسيلمة الكذاب كقوله

يا ضفدع بنت ضفدعين نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك في الماء وذنبتك في الطين وكذلك أيضا يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له إنه كان قصده أن يصدقه الناس ولا يكذبوه وكان مع ذلك من أعدل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ينال مقصوده سواء قيل إنه صادق أو كاذب فإن من دعى الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً وكرهاً وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار هو من عظماء الرجال على أي حال كان فإقدامه مع هذا القصد في أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله لا في ذلك العصر ولا في سائر الأعصار المتأخرة لا يكون إلا مع جزمه بذلك وتيقنه له وإلا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه وإذا كان جازماً بذلك متيقناً له لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدر أن يأتوا بمثل كلامه إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً فإننا نعلم ذلك وإن لم يكن علمنا بذلك خارفاً للعادة ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم وإلا كان العلم جهلاً فثبت أنه على كل تقدير يستلزم كونه خارفاً للعادة وأما التفصيل فيقال نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الخطابة ولا الرسائل ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل يعرفه من له نظر وتدبر ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر لا نبي ولا غير نبي وكذلك ما أخبر به عن الملائكة والعرش والكرسي والجن وخلق آدم وغير ذلك ونفس ما أمر به القرآن من الدين والشرائع كذلك ونفس ما أخبر به من الأمثال وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه وما في التوراة والإنجيل ولو قد أنه مثل القرآن لا يقدح في المقصود فإن تلك كتب الله أيضاً ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي كما أتى المسيح بإحياء الموتى وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ظهر له إعجازه من هذا الوجه ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية فيها الظاهر البين لكل أحد كالحوادث المشهودة مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك وفيها ما يختص به من عرفه مثل دقائق التشريح ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسله وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله وجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً فلما كانت حاجتهم إلى النفس أكثر من حاجتهم إلى الماء وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل كان سبحانه قد جاء بالهواء جوداً عاماً في كل مكان وزمان لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت

وأيسر لأن الحاجة إليه أشد فكذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات ثم دلائل النبوة فهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما لا يحتاج إليه العامة مثل تماثل الأجسام واختلافها وبقاء الأعراض أو فنائها وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء¹

القرآن أفضل الكتب الثلاثة

فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعها كلام الله مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة قال تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } المائدة 48 وقال تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } الحجر 9 وقال تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } الإسراء 88 وقال تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ } الزمر 23 فأخبر أنه أحسن الحديث فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة وقال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ } الحجر 87 وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له إختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك وقد سمى الله القرآن كله مجيدا و كريما وعزيزا وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه فقال { فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ } الطور 34 وقال { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ } هود 13 وقال { فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ } البقرة 23 وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ولا بدون قراءته ولا يصلي بلا قرآن فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه²

فرق النبي صلى الله عليه وسلم بين القرآن وبين السنة من وجوه

قال تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } الإسراء 88 أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمدا كان يقول إنه كلام الله لا كلامه وأنه مبلغ له عن الله وكان يفرق بين القرآن وبين ما يتكلم به من السنة وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقا وعملا فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلم أمته الكتاب والحكمة وقال النبي ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه فكان يعلم أمته الكتاب وهو القرآن العزيز الذي أخبرهم أنه كلام الله لا كلامه وهو الذي قال عنه { قُلْ لَئِنِ

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 426-428

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 11-12

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا {الإسراء 88} وهو الذي شرع لأمته أن تقرأه في صلاتهم فلا تصح صلاة إلا به وعلمهم مع ذلك الحكمة التي أنزلها الله عليه وفرق بينها وبين القرآن من وجوه منها أن القرآن معجز ومنها أن القرآن هو الذي يقرأ في الصلاة دونها ومنها أن ألفاظ القرآن العربية منزلة على ترتيب الآيات فليس لأحد أن يغيرها باللسان العربي باتفاق المسلمين ولكن يجوز تفسيرها باللسان العربي وترجمتها بغير العربي وأما تلاوتها بالعربي بغير لفظها فلا يجوز باتفاق المسلمين بخلاف ما علمهم من الحكمة فإنه ليس حكم ألفاظها حكم ألفاظ القرآن ومنها أن القرآن لا يمسه إلا طاهر ولا يقرأه الجنب كما دلت عليه سنته عند جماهير أمته بخلاف ما ليس بقرآن والقرآن تلقته الأمة منه حفظاً في حياته وحفظ القرآن جميعه في حياته غير واحد من أصحابه وما من الصحابة إلا من حفظ بعضه وكان يحفظ بعضهم ما لا يحفظه الآخر فهو جميعه منقول سماعاً منه بالنقل المتواتر وهو يقول إنه مبلغ له عن الله وهو كلام الله لا كلامه وفي القرآن ما يبين أنه كلام الله نصوص كثيرة وكان الذين رأوا محمداً ونقلوا ما عاينوه من معجزاته وأفعاله وشريعته وما سمعوه من القرآن وحديثه ألوفاً مؤلفة أكثر من مائة ألف رأوه وآمنوا به¹

فلما كان القرآن متميزاً بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي باين به كلام الناس كما قال تعالى **{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** {الإسراء 88} وكان منقولاً بالتواتر لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه وكان طمع الشيطان أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد فأقام الله تعالى الجهادة النقاد أهل الهدى والسداد فدحروا حزب الشيطان وفرقوا بين الحق من البهتان وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان²

إعجاز القرآن يعلم بطريقتين جملي وتفصيلي

أما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فإنها تعرف بطرق كثيرة منها المعجزات ومعجزاته منها القرآن ومنها غير القرآن والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه وإعجازه يعلم بطريقتين جملي وتفصيلي أما الجملي فهو أنه قد علم بالتواتر أن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ادعى النبوة وجاء بهذا القرآن وأن في القرآن آيات التحدي والتعجيز بل أخبر أن جميع الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يأتون بمثله فقال **{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** {الإسراء 88} وقد علم أيضاً بالتواتر أنه دعا قريشا خاصة والعرب عامة وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وأذوه وأذوا الصحابة وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هو ساحر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل على عجزهم عن معارضته لأن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة ومعلوم أن إرادتهم كانت من أشد الإرادات على تكذيبه وإبطال حجته وأنهم كانوا أحرص الناس على ذلك حتى قالوا فيه ما يعلم أنه باطل بأدنى نظر وفيلسوفهم الكبير الوحيد فكر وقدر ثم نظر ثم عيس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر وليس هذا موضع ذكر جزئيات القصص إذ المقصود ذكر ما علم بالتواتر من أنهم

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 20

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 20

كانوا من أشد الناس حرصا ورغبة على إقامة حجة يكذبونه بها ثم انتشرت دعوته في أرض العرب ثم في سائر الأرض إلى هذا الوقت وآيات التحدي قائمة متلوة وما قدر أحد أن يعارضه بما يظن أنه مثل¹

قال تعالى { **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** } الإسراء 89 بعد أدلة التوحيد والنبوة والتحدي بالقرآن²

اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة البرهانية

قال تعالى { **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** } الإسراء 89 كلام الله لا يشتمل الا على حق يقين لا يشتمل على ما تمتاز به الخطابة والجدل عن البرهان يكون المقدمة مشهورة أو مسلمة غير يقينية بل اذا ضرب الله مثلا مشتملا على مقدمة مشهورة أو مسلمة فلا بد وأن تكون يقينية فأما الاكتفاء بمجرد تسليم المنازع من غير أن تكون المقدمة صادقة أو بمجرد كونها مشهورة وان لم تكن صادقة فمثل هذه المقدمة لا يشتمل عليها كلام الله الذي كله حق وصدق وهو أصدق الكلام وأحسن الحديث وليس الأمر كما يتوهمه الجهال الضلال من الكفار المتفلسفة وبعض المتكلمة من كون القرآن جاء بالطريقة الخطابية وعرى عن البرهانية أو اشتمل على قليل منها بل جميع ما اشتمل عليه القرآن هو الطريقة البرهانية وتكون تارة خطابية وتارة جدلية مع كونها برهانية والأقيسة العقلية التي اشتمل عليها القرآن هي الغاية في دعوة الخلق إلى الله كما قال تعالى { **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا** } الإسراء 89 في أول سبحان وآخرها وسورة الكهف والمثل هو القياس ولهذا اشتمل القرآن على خلاصة الطرق الصحيحة التي توجد في كلام جميع العقلاء من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم ونزه الله عما يوجد في كلامهم من الطرق الفاسدة ويوجد فيه من الطرق الصحيحة ما لا يوجد في كلام البشر بحال³

فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من مسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدو إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضى لنا بالإسلام ديننا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يوسف 111 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا { **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا**

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 208

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 67

³مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 46

في أصحاب السعير { الملك 10 } وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفهمة والمتصوفة وأما دلائل هذه المسائل الأصولية فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر ويجعلون ما يبني عليه صدق المخبر معقولات محضة فقد غلطوا في ذلك غلطا عظيما بل ضلوا ضلالا مبينا في ظنهم أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد بل الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها **{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ { الإسراء 89 }** فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمي الله آيتي موسى برهانيين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي فيه الأصل والفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شمولاً كما قال تعالى **{ وَبَلِّغِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى { النحل 60 }** مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه وهو ما كان كمالا للموجود غير مستلزم للعدم فالواجب القديم أولى به وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق المربوب المعلول المدبر فإنما استفادته من خالقه وربّه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب في نفسه وهو ما تضمن سلب هذا الكمال إذا وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود وأما الأمور العدمية فالممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام ويمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات والمعاد ونحو ذلك¹

الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح في المحاربات

قال تعالى **{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا { الإسراء 89 }** وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 295- 296

وملائكته وغير ذلك ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة¹

والله تعالى قد أرسل نبيه محمدا إلى جميع العالمين وضرب الأمثال فيما أرسله به لجميعهم كما قال تعالى **{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}** {الإسراء: 89} فأخبر أنه ضرب لجميع الناس في هذا القرآن من كل مثل ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح في المحاربات فإذا كان عدو المسلمين في تحصنهم وتسلحهم على صفة غير الصفة التي كانت عليها فارس والروم كان جهادهم بحسب ما توجهه الشريعة التي مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع وهو الأصلح في الدنيا والآخرة وقد يكون الخبير بحروبهم أقدر على حربهم ممن ليس كذلك لا لفضل قوته وشجاعته ولكن لمجانسته لهم كما يكون الأعجمي المتشبه بالعرب وهم خيار العجم أعلم بمخاطبة قومه الأعاجم من العربي وكما يكون العربي المتشبه بالعجم وهم أدنى العرب أعلم بمخاطبة العرب من العجمي فقد جاء في الحديث خيار عجمكم المتشبهون بعربكم وشرار عربكم المتشبهون بعجمكم ولهذا لما حاصر النبي الطائف رماهم بالمنجنيق وقتلهم قتالا لم يقاتل غيرهم مثله في المزاخفة كيوم بدر وغيره وكذلك لما حوصر المسلمون عام الخندق اتخذوا من الخندق ما لم يحتاجوا إليه في غير الحصار وقيل إن سلمان أشار عليهم بذلك فسلموا ذلك له لأنه طريق إلى فعل ما أمر الله به ورسوله وقد قررنا في قاعدة السنة والبدعة أن البدعة في الدين هي ما لم يشره الله ورسوله وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية فهو من الدين الذي شرعه الله وإن تنازع أولو الأمر في بعض ذلك وسواء كان هذا مفعولا على عهد النبي أو لم يكن فما فعل بعده بأمره من قتال المرتدين والخوارج المارقين وفارس وفارس والروم والترك وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وغير ذلك هو من سنته ولهذا كان عمر بن عبدالعزيز يقول سن رسول الله سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا فسنة خلفائه الراشدين هي مما أمر الله به ورسوله وعليه أدلة شرعية مفصلة ليس هذا موضعها فكما أن الله بين في كتابه مخاطبة أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم بما بينه من أعلام رسالة محمد وبما في كتبهم من ذلك وما حرفوه وبدلوه من دينهم وصدق بما جاءت به الرسل قبله حتى إذا سمع ذلك الكتابي العالم المنصف وجد ذلك كله من أبين الحجة وأقوم البرهان والمناظرة والمحااجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه وهو المسفست والمقرمط أو يمتنع عن الاستمتاع والنظر في طريق العلم وهو المعرض عن النظر والاستدلال فكما أن الإحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث بل طالب العلم يجتهد في طلبه من طرقه ولهذا سمي مجتهدا كما يسمى المجتهد في العبادة وغيرها مجتهدا كما قال بعض السلف ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيهم وقال أبي بن كعب وابن مسعود اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة وقد قال النبي إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 428

اجتهد فأخطأ فله أجر وقال معاذ بن جبل ويروى مرفوعاً وهو محفوظ عن معاذ عليكم بالعلم فإن تعليمه حسنة وطلبه عبادة ومذكراته تسييح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قرابة فجعل الباحث عن العلم مجاهداً في سبيل الله¹

الآيات التي اقترحوها هي مما لا يصلح الإتيان بها

قال تعالى (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً {89} وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خَلَالَهَا تَفْجِيراً {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسَافاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشِيراً رَسُولاً {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشِيراً رَسُولاً {94} قُلْ لَوْ كَانُ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً {95} الإسراء 89- 95**) ومما ينبغي ان يعلم أن الله إذا أرسل نبياً وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة وظهرت بها المحجة فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابته إلى ذلك بل وقد لا ينبغي ذلك لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة وإذا جاء بثالثة طولب برابعة وطلب المتعنتين لا أمد له ومعلوم أنه قامت عليه حجة في مسألة علم أو حق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها وقال أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة كان ظالماً متعدياً ولم يجب إجابته إلى ذلك ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك بل إذا قامت البينة بحق المدعي حكم له بذلك ولو قال المطلوب أريد بينة ثانية وثالثة ورابعة لم يجب إلى ذلك فحق الله الذي أوجبه على عباده من توحيده والإيمان به وبرسله أولى إذا أقام بينة أوجب على الخلق الإيمان برسله أن لا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة فيتابع تعالى بين الآيات كما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة وتقسي قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات اية بعد آية لينتشر ذلك ويظهر ويبلغ ذلك قوماً آخرين فيكون ذلك سبباً لإيمانهم كما فعل بآيات موسى وآيات محمد كما ذكر في التوراة أنه يقسي قلب فرعون لتظهر عجائبه وآياته وكما صد المكذابين عن الإيمان بمحمد حتى يمانعوه ويسعوا في معارضته والقبح في آياته فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه بخلاف ما لو اتبع ابتداء بدون ذلك فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته وكذلك أيضاً يكون في ذلك على يقينه وصبره وجهاده ويقين من آمن به وصبرهم وجهادهم ما ينالون به عظيم الدرجات في الدنيا والآخرة وقد تقتضي الحكمة أن لا يرسل بالآيات التي توجب عذاب الاستئصال كما ذكره الله في كتابه من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التي جاؤوا بها فتارة يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة وتارة لا يجيبهم لما فيه من ذلك من المضرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم الذين يقولون إنه يفعل للحكمة ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلى محض المشيئة ويقول إقترن بالمراد

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 108-109

والمفسدة عادة وسنة من الله وإن لم يفعل هذا لهذا وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ربما طلب تلك الآيات رغبة منه في إيمانهم بها فيجاب بأن الآيات لا تستلزم الهدى بل تستلزم إقامة الحجة وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر كما فعل بفرعون وأبي لهب وغيرهما لما في ذلك من الحكمة العظيمة كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرهما وقد بين أنه لا يظهرها لانتهاء الحكمة فيها أو لوجود المفسدة قال تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } {109} { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرُؤُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } {110} { وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ } {111} { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } {112} { الانعام 109-112 } قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {الإسراء 59} بين سبحانه أنما منعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها الذي استحقوا بها الهلاك فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال وهذا المعنى المذكور في عامة كتب التفسير والحديث وغيرها من كتب المسلمين وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان فقد ذكر المفسرون ما رواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحي عنهم الجبال حتى يزرعوا قال فقيل له إن شئت تسنأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألو فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم قال لا بل أسنأني بهم فأنزل الله هذه الآية { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } {الإسراء 59} وروى ابن أبي حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال سمعت الحسن البصري في قوله { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } {الإسراء 59} قال رحمة لكم أيتها الأمة أنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم وفي الإنجيل أن اليهود طلبوا من المسيح آية من السماء فقال لهم المسيح الأمة الفاجرة تطلب آية ولا تعطى إلا مثل آية نونان وقد كانت الآيات يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم آية بعد آية فلا يؤمنون بها وقد كانت الآيات يأتي بها محمد صلى الله عليه وسلم آية بعد آية فلا يؤمنون بها قال تعالى { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } {4} { فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {5} { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ } {6} { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } {7} { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ } {8} { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ } {9} { وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {10} { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } {11} سورة الأنعام 4-11 وأخبر سبحانه بأن الآيات تأتيهم { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } {الأنعام 4} وأنهم بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التي هي تكذيب الرسول فإن الله يقول { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْفَرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِهِمْ رُسُلًا يَلْتَمِسُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْفَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } {القصص 59} وأخبر بشدة كفرهم بأنه { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } {الأنعام 11}

{ الأنعام 7 وبين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكا لجعله على صورة الرجل إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة في صورهم وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أن الرسول بشر لا ملك وقال تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا {89} وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَهُ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا {94} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا {95} سورة الإسراء الآيات من 89 95 وهذه الآيات التي اقترحوها لو أُجيبوا بها ولم يؤمنوا أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم وأيضا فهي مما لا يصلح الإتيان بها فإن قولهم حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا يقتضي تفجير الينبوع بأرض مكة فيصير واديا ذا زرع والله من حكمته جعل بيته بواد غير ذي زرع لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا فيكون حجهم للدنيا لا لله وإذا كان له جنة من نخيل وأعناب يفجر الأنهار خلالها تفجيرا كان في هذا من التوسع في الدنيا ما يقتضي نقص درجته وانخفاض منزلته وكذلك إذا كان له بيت من زخرف والزخرف الذهب وأما إسقاط السماء كسفا فهذا لا يكون إلى يوم القيامة وهو لم يخبرهم أن هذا لا يكون إلا يوم القيامة فقولهم كما زعمت كذب عليه إلا أن يريدوا التمثيل فيكون القياس فاسدا وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلة فهذا لما سأل قوم موسى ما هو دونه أخذتهم الصاعقة قال تعالى { وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم مِّنَ الصَّاعِقَةِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {56} البقرة 55-56 } وأما إنزال الكتاب فقد قال تعالى { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا {153} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا {154} فِيمَا نَقَضَهُمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفِّرَهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا {155} وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا {156} وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّثْنَهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا {157} بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا {158} وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا {159} فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا {160} وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {161} سورة النساء الآيات 153 161 بين سبحانه أن المشركين سألوه إنزال كتاب وأن أهل الكتاب سألوه ذلك وبين سبحانه أن الطائفتين لا تؤمن إذا جاءهم ذلك وإنما سألوه تعنتا فقال عن المشركين { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ { الأنعام 7 } وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألو موسى أكبر من ذلك وهو رؤية الله جهرة فقال { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا {153} وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا {154} } فهم مع هذا نقضوا الميثاق وكفروا بآيات الله وقتلوا النبيين بغير حق إلى أمثال ذلك وأنه سبب ظلمهم وصددهم عن سبيل الله حرم عليهم طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ فكان في هذا من الاعتبار

لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة المكذبة بك الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التي اقترحوها لم يك في مجيئها منفعة لهم بل فيها ما يوجب استحقاقهم عقوبة الاستئصال إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها وتغليظ الأمر عليهم فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة وقد عرض الله على محمد صلى الله عليه وسلم أن يهلك قومه لما كذبه فقال بل استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذا عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما اردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلنتني فغذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي وقال إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعثني إليك لتأمرني بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً أخرجاه¹

صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَابًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا {93} الإسراء 90-93 صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة العلم والقدرة والغنى وان شئت ان تقول العلم والقدرة والقدرة إما على الفعل وهو التأثير وإما على الترك وهو الغنى والأول اجود وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال الا الله وحده فانه الذي احاط بكل شيء علما وهو على كل شيء قدير وهو غنى عن العالمين وقد امر الرسول ان يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله {قُلْ لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا مَا يُوحَى إِلَيَّ {الأنعام 50} وكذلك قال نوح عليه السلام {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ} {هود 31} فهذا أول أولى العزم وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وهذا خاتم الرسل وخاتم أولى العزم كلاهما يتبرأ من ذلك وهذا لأنهم يطالبون الرسول تارة بعلم الغيب كقوله {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} {الأنبياء 38} و {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} {الأعراف 187} وتارة بالتأثير كقوله {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِهَ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَابًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا {93} الإسراء 90-93} وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية كقوله {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا {7} أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا {8} الفرقان 7-8} فأمره ان يخبر انه لا

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 429-435

يعلم الغيب ولا يملك خزائن الله ولا هو ملك غنى عن الاكل والمال إن هو الا متبع لما اوحى اليه واتباع ما اوحى اليه هو الدين وهو طاعة الله وعبادته علما وعملا بالباطن والظاهر وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه اياه ويقدر منه على ما اقدره الله عليه ويستغنى عما اغناه الله عنه من الامور المخالفة للعادة المطردة او لعادة غالب الناس¹

نعمة الله على البشر واحسانه اليهم إذ بعث اليهم رسولا بشرا مثلهم

وقال تعالى { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 فقوله { صَاحِبُكُمْ } النجم 2 تنبيه على نعمته على البشر واحسانه اليهم إذ بعث اليهم من يصحبهم ويصحبونه بشرا مثلهم فانهم لا يطبقون الاخذ عن الملك كما قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ } {8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ } {9} الانعام 8-9 وروى ابن ابي حاتم عن ابي زرعة عن منجاب بن الحرث عن بشر بن عمارة عن ابي روق عن الضحاك عن ابن عباس ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر لأهلكتناهم ثم لا ينظرون لا يؤخرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا يقول لو اتاهم ملك ما اتاهم إلا في صورة رجل لانهم لا يستطيعون النظر الى الملائكة وكذلك قال غيره من المفسرين وللبسنا عليهم قالوا لخلطنا ولشبهنا عليهم ما يخلطون ويشبهون على انفسهم حتى يشكوا فلا يدروا املك هو او ادمى فبين سبحانه انه لو أنزل ملكا لم يمكنهم ان يروه إلا في صورة بشر كما كان جبريل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآه الناس في صورة دحية الكلبي او في صورة اعرابي لما اتاه وسأله عن الاسلام والايمان والاحسان وكذلك لما اتوا ابراهيم ولوطا ورأتهن سارة وقوم لوط لم يأتوا إلا في صورة رجال وكذلك لما اتى جبريل مريم عليها السلام لينفخ فيها اتاها في صورة رجل قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا } {17} قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا } {18} قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا } {19} مريم 17-19 وإذا كانوا لا يستطيعون ان يروا الملك إلا في صورة رجل فلو جاءهم لقالوا هذا بشر ليس بملك واشتبه الامر واختلط والتبس الامر عليهم فلم تكن هذه شبهة تنقطع بانزال ملك وهذا كما قال في السورة الاخرى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } {85} وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَدْهَبَنَّ بِالَّذِي أُوْحِيَْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } {86} إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنْ فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْنِكَ كَبِيرًا } {87} قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {88} وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } {89} الى قوله { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا } {94} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا } {95} الاسراء 85-95 وايضا في قوله { صَاحِبُكُمْ } التكويد 22 بيان انه عربي بعث بلسانهم كما قال { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ } ابراهيم 4 وقد قال تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } التوبة 128 قيل المراد من انفس العرب فالخطاب لهم وقيل من انفس بني ادم فهو بشر لا ملك ولا جني لان الخطاب لجميع الخلق الذين ارسل اليهم لا سيما وهذه في سورة براءة وهي من اخر القران نزولا وقيل ان هذه الاية اخر ما نزل وقد نزلت بعد دعوة الروم والفرس والقبط وهو بالمؤمنين من هؤلاء

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 312-313

كلهم رؤف رحيم ولا ريب انه صلى الله عليه وسلم من الانس ومن العرب افضل الانس ومن قريش افضل العرب ومن بني هاشم افضل قريش والانس يراد بهم جنس الانسان كما قال تعالى {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا} {النور} 12 فقوله صاحبكم مثل قوله من انفسكم ومثل قوله {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} {يونس} 2 وقوله {سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} {الإسراء} 93 لم يقصد بهذا اللفظ تفضيل الملك عليه كما توهمه بعض الناس كما ان قوله

{ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ } {يونس} 2 وقوله { سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا } {الإسراء} 93 لم يقصد به ان غيره افضل منه¹

{ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا }

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) {90} {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} {91} {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِيفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قِبَالًا} {92} {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} {93} {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} {94} {قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} {95} {الإسراء} 90- 95 وقد ثبت عنه في الحديث الذي في الصحيحين أنه قال لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وقد قال تعالى عنه { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا } {الإسراء} 93²

يتعجب الكفار من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) {90} {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} {91} {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِيفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قِبَالًا} {92} {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} {93} {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} {94} {قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} {95} {الإسراء} 90- 95 والاقيسة التي يستعملها الفلاسفة في علومهم ويجعلونها كلية كلها يعتضدون فيها بالامثلة وليس مع القوم إلا ما علموه من صفات الامور المشاهدة ثم قاسوا الغائب على المشاهد به بالجامع المشترك الذي يجعلونه كلياً فان لم يكن هذا صحيحاً لم يكن

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 540- 541

²القواعد النورانية ج: 3 ص: 385

مع أحد من أهل الارض علم كلى يشترك فيه ما شهدته وما غاب عنه حتى قوله الخبز يشبع والماء يروي ونحو ذلك فانه لم يعلم بحسه إلا امورا معينة فمن أين له أن الغائب بمنزلة الشاهد إلا بهذه الطريق والانسان قد ينكر امرا حتى يرى واحدا من جنسه فيقر بالنوع ويستفيد بذلك حكما كليا ولهذا يقول سبحانه كذبت قوم نوع المرسلين {كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ} الشعراء 123 {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ} الشعراء 141 {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} الشعراء 160 ونحو ذلك وكل من هؤلاء إنما جاءه رسول واحد لكن كانوا مكذبين بجنس الرسل لم يكن تكذيبهم بالواحد لخصوصه وهذا بخلاف تكذيب اليهود والنصارى لمحمد صلى الله عليه وسلم فانهم لم يكذبوا جنس الرسل إنما كذبوا واحدا بعينه بخلاف مشركي العرب الذين لم يعرفوا الرسل فان الله يحتج عليهم في القرآن بآيات جنس الرسالة ولهذا يجيب سبحانه عن شبه منكري جنس الرسالة كقولهم {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} الإسراء 94 فيقول {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} النحل 43 أي هذا متواتر عند أهل الكتاب فاسئلوهم عن الرسل الذين جاءتهم أكانوا بشرا أم لا وكذلك قوله {وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ} {8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ} {9} الانعام 8-9 فانهم لا يستطيعون الاخذ عن الملك في صورته فلو أرسلنا اليهم ملكا لجعلناه رجلا في صورة الانسان وحينئذ كان يلتبس عليهم الامر ويقولون هو رجل والرجل لا يكون رسولا وكذلك الرسل قبله قال تعالى {أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الأعراف 63

{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} يونس 2 وكما قال تعالى {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّن الرُّسُلِ} الأحقاف 9 ونحو ذلك فكان علمهم بثبوت معين من هذا النوع يوجب العلم بقضية مطلقة وهو ان هذا النوع موجود بخلاف ما إذا اثبت ذلك ابتداء بلا وجود نظير فانه يكون اصعب وإن كان ممكنا فان نوحا اول رسول بعثه الله الى اهل الارض ولم يكن قبله رسول بعث الى الكفار المشركين يدعوهم الى الانتقال عن الشرك الى التوحيد وادم والذين كانوا بعده كان الناس في زمههم مسلمين كما قال ابن عباس كان بين ادم ونوح عشر قرون كلهم على الاسلام لكن لما بعث الله نوحا وانجى من آمن به وأهلك من كذبه صار هذا المعين يثبت هذا النوع أقوى مما كان يثبت ابتداء¹

البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا} 90{ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} 91{ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَاثَةٍ أَوْ تَأْتِيَ بِنَاثَةٍ أَوْ تَأْتِيَ بِنَاثَةٍ أَوْ تَأْتِيَ بِنَاثَةٍ} 92{ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} 93{ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا} 94{ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِّن السَّمَاءِ مَلَكَ رَسُولًا} 95{ الإسراء 90-95 من الأشياء ما يرى ومنها ما لا يرى والفارق بينهما لا يجوز أن يكون أمورا عدمية لأن الرؤية أمر وجودي والمرئى لا يكون إلا موجودا فليست عدمية لا تتعلق بالمعدوم ولا يكون الشرط فيه إلا أمرا وجوديا لا يكون عدميا وكل ما لا يشترط فيه

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 369-370 و الجواب الصحيح ج: 2 ص: 360

إلا الوجود دون العدم كان بالوجود الأكمل أولى منه بالانقاص فكل ما كان وجوده أكمل كان أحق بأن يرى وكل ما لم يمكن أن يرى فهو أضعف وجودا مما يمكن أن يرى فالأجسام الغليظة أحق بالرؤية من الهواء والضياء أحق بالرؤية من الظلام لأن النور أولى بالوجود والظلمة أولى بالعدم والوجود الواجب الوجود أكمل الموجودات وجودا وأبعد الأشياء عن العدم فهو أحق بأن يرى وإنما لم نره لعجز أبصارنا عن رؤيته لا لأجل امتناع رؤيته كما أن شعاع الشمس أحق بأن يرى من جميع الأشياء ولهذا مثل النبي صلى الله عليه وسلم رؤية الله به فقال ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر شبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي مثل المرئي ومع هذا فإذا حرق البصر في الشعاع ضعف عن رؤيته لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله تعالى الآدميين وقواهم حتى أطاقوا رؤيته ولهذا لما تجلى الله عز وجل للجبل خر موسى صعقا { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } الأعراف 143 قيل أول المؤمنين بأنه لا يراك حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده فهذا للعجز الموجود في المخلوق لا لامتناع في ذات المرئي بل كان المانع من ذاته لم يكن إلا لنقص وجوده حتى ينتهي الأمر إلى المعدوم الذي لا يتصور أن يرى خارج الرائي ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته إلا من أيده الله كما أيد نبينا صلى الله عليه وسلم قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ } {8} وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ } {9} الأنعام 8-9 قال غير واحد من السلف هم لا يطبقون أن يروا الملك في صورته فلو أنزلنا إليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر وحينئذ كان يشتهب عليهم هل هو ملك أو بشر فما كانوا ينتفعون بإرسال الملك إليهم فأرسلنا إليهم بشرا من جنسهم يمكنهم رؤيته والتلقي عنه وكان هذا من تمام الإحسان إلى الخلق والرحمة ولهذا قال تعالى { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } التكويد 22¹

الإقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا) {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِي بِنَاثٍ وَأَلْمَانِكَةٌ قَبِيلًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ فَلَنْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا {94} قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا {95} الإسراء 90-95 وكذلك الملائكة يقر بها عامة الأمم كما ذكر الله عن قوم نوح وعاد وثمود وفرعون مع شركهم وتكذيبهم بالرسول أنهم كانوا يعرفون الملائكة قال قوم نوح { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً } المؤمنون 24 وقال { أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ } {13} إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً } {14} فصلت 13-14 وقال فرعون { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ } {52} فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ } {53} الزخرف 52-53 وكذلك مشركوا العرب قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 333

وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ { الأنعام 8 وقال تعالى { وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا { الفرقان 7 وقال تعالى عن الأمم
مطلقاً { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا {94} قُلْ لَوْ
كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا {95} الإسراء 94-95

فكانت هذه الأمم المكذبة للرسول المشتركة بالرب مقرة بالله وبملائكته فكيف بمن سواهم فعلم أن
الاقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم¹

التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا
وَالْمَلَائِكَةَ قِبَالًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا {93} الإسراء 90-93) والأمر بتسبيحه
يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه
و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و
توحيده²

لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا

قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا {90} أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ
وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا {91} أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا
وَالْمَلَائِكَةَ قِبَالًا {92} أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا {93} وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ
الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا {94} قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا
عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا {95} الإسراء 90-95) عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
وكذلك لفظ الهدى اذا اطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل
ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ { الفاتحة 6} والمراد طلب العلم بالحق
والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ { البقرة 2} والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به
ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا { الأعراف 43} وانما
هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله {
وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ { الأنعام 87} وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 321

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

وَهَدَاهُ { النحل 121 } { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } { الشورى 13 } وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ } { التوبة 33 } والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا¹

شهادة الله تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه

قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } { الإسراء 96 } فذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم ولم يقل شاهد علينا ولا شاهد لي لأنه ضمن الشهادة الحكم فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة فان الشاهد قد يؤدي الشهادة و أما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل و يأخذ حقه منه و يعامل المحق بما يستحقه و المبطل بما يستحقه وهكذا شهادة الله بين الرسول و متبعيه و بين مكذبيه فانها تتضمن حكم الله للرسول و أتباعه يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق و تلك الآيات أنواع متعددة و يحكم له أيضا بالنجاة و النصر و التأييد و سعادة الدنيا و الآخرة و لمكذبيه بالهلاك و العذاب و شقاء الدنيا و الآخرة كما قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ } { التوبة 33 } فيظهره بالدلائل و الآيات العلمية التي تبين أنه حق و يظهره أيضا بنصره و تأييده على مخالفيه و يكون منصورا كما قال تعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } { الحديد 25 } فهذه شهادة حكم كما قدمنا ذلك في قوله { شهد الله } { آل عمران 18 } قال مجاهد والفراء و أبو عبيدة { شهد الله } { آل عمران 18 } أي حكم و قضى لكن الحكم في قوله { بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } { الأنعام 19 } أظهر و قد يقول الانسان لآخر فلان شاهد بيني و بينك أي يتحمل الشهادة بما بيننا فالله يشهد بما أنزله و يقوله و هذا مثل الشهادة على أعمال العباد و لكن المكذوبون ما كانوا ينكرون التكذيب و لا كانوا يهتمون الرسول بأنه ينكر دعوى الرسالة فيكون الشهيد يتضمن الحكم أثبت و أشبه بالقرآن و الله أعلم²

شهادة الله وحده كافية

قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } { الإسراء 96 } فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات كما قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } { الرعد 43 } وشهادته للقرآن ولمحمد تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } { البقرة 140 } وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه وشهد لهم بأنهم صادقون والقرآن نفسه هو قول الله وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول وإنزاله على محمد وإتيان محمد به هو آية وبرهان وذلك من فعل الله إذ كان البشر لا يقدر على مثله لا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 194-195

يقدر عليه أحد من الأنبياء ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم كما قال تعالى {قُلْ لئن اجتمعتِ
الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضهم لِبعضِ ظهيراً
{الإسراء 88} ومحمد أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة سبحان وهي مكية
صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم عن جميع الثقلين
إنسهم وجنهم أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله بل يعجزون عن ذلك
وهذا فيه آيات لنبوته منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة
بأنهم لا يفعلون هذا بل يعجزون عنه هذا لا يقدم عليه من يطلب الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن
الأمر كذلك إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ما قصده وهذا
لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم المؤمن بمحمد والكافر به على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ
ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها ثم جعله هذا في القرآن المثلو المحفوظ إلى يوم القيامة
الذي يقرأ به في الصلوات ويسمعه العام والخاص والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا
الخبر وإلا لو كان شاكاً في ذلك لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير بل عند أكثر من اتبعه ومن
عاداه وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدق الناس فمن يقصد أن يصدق الناس لا يقول مثل هذا
ويظهره هذا الإظهار ويشيعه هذه الإشاعة ويخلده هذا التخليد إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه ولا
يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق إذ علم العالم بعجز جميع
الإنس والجن إلى يوم القيامة هو من أعظم دلائل كونه معجزاً وكونه آية على نبوته فهذا من دلائل
نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق
وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً} {الإسراء 79} وكثير
من السلف يريدون بلفظ النافلة ما كان زيادة في الحسنات وذلك لمن لا ذنب له ولهذا قالوا في
قوله {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} {الإسراء 79} ان النافلة مختصة برسول الله لأن الله غفر له
وغيره له ذنوب فالصلوات تكون سبباً لمغفرتها وهذا القول وان كان فيه كلام ليس هذا موضعه
فالمقصود ان لفظ النافلة توسع فيه فقد يسمى به ما أمر به وقد ينفي عن التطوع²

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 408-409

²مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 31

2- قال تعالى { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا } {الإسراء 80} و السلطان فى قوله { وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا } {الإسراء 80} فهذا النوع وهو الحجة والعلم¹

3- قال تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبٰطِلُ إِنَّ الْبٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا } {الإسراء 81} ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع²

4- قال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَزِيْدُ الظَّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا } {الإسراء 82} ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هى الجنة³

5- قال تعالى { وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِيْ أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } {الإسراء 86} وقال تعالى { وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوْا عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ } {المائدة 73} وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم فان الكلام اذا كان فيه شرط متقدم وقسم كان جواب القسم يسد مسد جواب الشرط والقسم جميعا وادخلت اللام الموطئة على اداة الشرط ونظير اللام الموطئة في قوله { وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِيْنَ أُوتُوْا الْكِتٰبَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبَلْتَكَ } {البقرة 145} ونظير هذه الآية قوله { وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُوْلُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ } {العنكبوت 10} وقوله { وَلَئِن أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُوْدَةٍ } {هود 8}⁴

6- قال تعالى { وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِيْ أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا } {86} {الإسراء 86} {الإسراء 87} {الإسراء 86-87} ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هى الجنة⁵

7- قال تعالى { قُلْ لَّئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْإِنْسُ عَلَىٰ أَن يَأْتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } {الإسراء 88} القرآن قد يراد به المصدر وقد يراد به الكلام المقروء وقال تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } {17} {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} {18} {القيامة 17-18} والقرآن هنا مصدر كما فى الآية عن ابن عباس قال علينا أن نجعله فى صدرك ثم أن تقرأه بلسانك فإذا قرأه

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 13 و الاستقامة ج: 1 ص: 22

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 515-517

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

⁴الجواب الصحيح ج: 2 ص: 122 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 453-454

⁵مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

جبريل فاستمع لقراءته { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } {19} القيامة 19 وقد يراد ب القرآن نفس الكلام المقروء كما قال { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأعراف 204 وقوله { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } الإسراء 88¹

8- قال تعالى { أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتَقَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا } الإسراء 90 قوله تعالى { تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } البقرة 25 فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان في مثل قوله { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا } يوسف 82 وتارة في المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال²

9- قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 96 فنذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم و لم يقل شاهد علينا و لا شاهد لي لأنه ضمن الشهادة الحكم فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم و الحكم قدر زائد على مجرد الشهادة فان الشاهد قد يؤدي الشهادة و أما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل و يأخذ حقه منه و يعامل المحق بما يستحقه و المبطل بما يستحقه و هكذا شهادة الله بين الرسول و متبعيه و بين مكذبيه فانها تتضمن حكم الله للرسول و أتباعه يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق و تلك الآيات أنواع متعددة و يحكم له أيضا بالنجاة و النصر و التأييد و سعادة الدنيا و الآخرة و لمكذبيه بالهلاك و العذاب و شقاء الدنيا و الآخرة³

10- قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 96 وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى { وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } الفتح 14 { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } الفتح 4 قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 96 ونحو ذلك قال كان ولم يزل ولا يزال⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 198

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 464

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 194- 195

⁴مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 538

11- قال تعالى { قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } الإسراء 96 بصير
منزه عن العمى¹

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الاسراء 97-111

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ
سَعِيرًا {97} ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا {98} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ
عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا {99}
قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
قَتُورًا {100} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْنَسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ
فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ
هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا {102}
فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا {103} وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا {104}
وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا {105} وَقُرْآنًا
فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا {106} قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا
تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ
سُجَّدًا {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا {108} وَيَخِرُّونَ
لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا {109} قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا
تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا {110} وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا {111}

الهدى أربعة أقسام

قال تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } الإسراء 97 وجلب المنفعة
ودفع المضرة أما أن يكون في الدين أو في الدنيا فصارت أربعة أقسام الهداية والمغفرة وهما جلب
المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وإن
شئت قلت الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية
والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعته واللباس لدفع مضرته وفتح الأمر بالهداية فإنها
وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدى الله إياهم كما قال سبحانه
{ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ {1} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ {2} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ {3} الْأَعْلَىٰ 1-3 } وقال موسى

{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} طه50 وقال تعالى {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} البلد10 وقال {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} الإنسان3 ولهذا قيل الهدى أربعة أقسام أحدها الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر والثاني الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفَعهم وأمرهم بذلك وهم نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} فصلت17 وقال تعالى {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} الرعد7 وقال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الشورى52 فهذا مع قوله {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} القصص56 يبين أن الهدى الذي أثبتته هو البيان والدعاء والأمر والنهي والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذي نفاه وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله والقسم الثالث الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة أما من قال إنهما استطاعتان إحداهما قبل الفعل وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف كما قال تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} آل عمران97 وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب وهذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهي الإستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه في غير هذا الموضوع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا والثانية المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهي المنفية عن من لم يفعل في مثل قوله {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} هود20 وفي قوله {لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} الكهف101 وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة6 وقوله {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} الأنعام125 وفي قوله {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا} الكهف17 وأمثال ذلك وهذا هو الذي تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} الفاتحة6 وعند القدرية أن الله لا يقدر من الهدى إلى على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإراحة العلة ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} يونس25 والقسم الرابع الهدى في الآخرة كما قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} 23 {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ} 24 {الحج 23-24} وقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} يونس9 فقوله {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} يونس9 كقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} الطور21 على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى {أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} 22 {مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ

أَلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ {23} الصافات 22-23 وقال {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} الإسراء 72 وقال { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تِينُكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى {126} وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى {127} طه 123-127 وقال تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } الإسراء 97 فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عمياً وبكماً وصماً فإن الجزء أبدأ من جنس العمل كما قال صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وقال من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل له الله به طريقاً إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وقال من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وقد قال تعالى { وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النور 22 وقال { إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا } النساء 149 وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة ولهذا أيضاً يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم¹

أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب ومشية العبد

قال تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } الإسراء 97 أن الله رب كل شيء وخالقه وملكه لا رب غيره و لا خالق سواه و إنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن لا حول و لا قوة إلا به و لا ملجأ منه إلا إليه و أنه على كل شيء قدير فجميع ما فى السموات و الأرض من الأعيان و صفاتها و حركاتها فهي مخلوقة له مقدورة له مصرفة بمشيئته لا يخرج شيء منها عن قدرته و ملكه و لا يشركه فى شيء من ذلك غيره بل هو سبحانه لا إله إلا هو و حده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شيء قدير فالعبد فقير الى الله فى كل شيء يحتاج إليه فى كل شيء لا يستغنى عن الله طرفة عين فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له فنقول إذا ألهم العبد أن يسأل الله الهداية و يستعينه على طاعته أعانه و هداه و كان ذلك سبب سعادته فى الدنيا و الآخرة و إذا خذل العبد فلم يعبد الله و لم يستعن به و لم يتوكل عليه و كل الى حوله و قوته فيوليه الشيطان و صد عن السبيل و شقى فى الدنيا و الآخرة و كل ما يكون فى الوجود هو بقضاء الله و قدره لا يخرج أحد عن القدر المقدر و لا يتجاوز ما خط له فى اللوح المحفوظ ليس لأحد على الله حجة بل { فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } الأنعام 149 كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل و على العبد أن يؤمن بالقدر و ليس له أن يحتج به على الله فالإيمان به هدى و الإحتجاج به على الله ضلال و غي بل الإيمان بالقدر يو جب أن يكون العبد صباراً شكوراً صبوراً على البلاء

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 425-429 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 171-176

شكورا على الرخاء إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فشكره سواء كانت النعمة حسنة فعلها أو كانت خيرا حصل بسبب سعيها فإن الله هو الذي يسر عمل الحسنات و هو الذي تفضل بالثواب عليها فله الحمد في ذلك كله و إذا أصابته مصيبة صبر عليها و إن كانت تلك المصيبة قد جرت على يد غيره فالله هو الذي سلط ذلك الشخص و هو الذي خلق أفعاله و كانت مكتوبة على العبد كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } {23} الحديد 22-23 و قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } {التغابن 11} قالوا هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و عليه إذا أذنب أن يستغفر و يتوب و لا يحتج على الله بالقدر و لا يقول أي ذنب لي و قد قدر علي هذا الذنب بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب و إن كان ذلك كله بقضاء الله و قدره و مشيئته إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته و خلقه لكن العبد هو الذي أكل الحرام و فعل الفاحشة و هو الذي ظلم نفسه كما أنه هو الذي صلى و صام و حج و جاهد فهو الموصوف بهذه الأفعال و هو المتحرك بهذه الحركات و هو الكاسب بهذه المحدثات له ما كسب و عليه ما اكتسب و الله خالق ذلك و غيره من الأشياء لما له في ذلك من الحكمة البالغة بقدرته التامة و مشيئته النافذة قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 فعلى العبد أن يصبر على المصائب و أن يستغفر من المعائب و الله تعالى لا يأمر بالفحشاء و لا يرضى لعباده الكفر و لا يحب الفساد و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن فمن يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له و مشيئة العبد للخير و الشر موجودة فإن العبد له مشيئة للخير و الشر وله قدرة على هذا و هذا و هو العامل لهذا و هذا و الله خالق ذلك كله و ربه و مليكه لا خالق غيره و لا رب سواه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و قد أثبت الله المشيئتين مشيئة الرب و مشيئة العبد و بين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب في قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } {29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } {30} الانسان 29-30 و قال تعالى { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } {27} لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } {28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } {29} التكوير 27-29 و قد قال تعالى { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَوْ لَا الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } {78} مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا } {79} النساء 78-79¹

خلق الله سبحانه تعالى الأشياء بأسباب

قال تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصَمًّا مَّا وَهَمُّ جَهَنَّمَ كَلَّمَا خَبِتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } {الإسراء 97} إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدي و يسعد و يشقى و يولى الملك

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 236-240

من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقاً كأنما يصعد في السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون و هو الذي جعل المسلم مسلماً و المصلي مصلياً قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً } 21 { الماعارج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37 و قال { وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ } النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } 95 { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } 96 { الصافات 95-96 فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبني دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا } الكهف 17 و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَفَنَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88 و قد خلق الله سبحانه تعالى الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16¹

تارة يستدل على امكان المعاد بخلق السموات والارض

قال تعالى { ذَلِكَ جَزَاءُ لَهُمْ بِانْتِهَاءِ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 98 { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَبِئْسَ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } 99 { الاسراء 98-99 وتارة يستدل على امكان المعاد بخلق

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78

السماوات والارض فان خلقها اعظم من اعادة الانسان كما في قوله { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } {98} أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } {99} الاسراء 98-99 وكما في قوله تعالى { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 وقوله { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف 33¹

الأجسام تتقلب من حال إلى حال

قال تعالى { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } {98} أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } {99} الاسراء 98-99 والقول الذي عليه السلف و جمهور العقلاء من أن الأجسام تتقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة و الأطباء و هذا القول و هو القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقبلها و يحيلها من جسم إلى جسم هو الذي عليه السلف و الفقهاء قاطبة و الجمهور و لهذا يقول الفقهاء في النجاسة هل تطهر بالإستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا و الخنزير و غيره ملحا و نحو ذلك و المنى الذي في الرحم يقبله الله علقه ثم مضغة و كذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء و الماء الذي نزل عليها غير ذلك من المواد التي يقبلها ثمرة بمشيئته و قدرته و كذلك الحبة يخلقها و تتقلب المواد التي يخلقها منها سنبله و شجرة و غير ذلك و هكذا خلقه لما يخلقه سبحانه و تعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظاما و لحما و غير ذلك من أجزاء البدن و كذلك المضغة يقبلها عظاما و غير عظام قال الله تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } {12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ } {13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } {14} ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ } {15} ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ } {16} المؤمنون 12-16 و كذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا } يس 80 فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلا و لا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا و بما ضمه إلى هذا من مواد آخر و كذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم و منه يركب و هو إذا أعاد الإنسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا و لا يبصقون و لا يتمخطون و إنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفْسَدُوا وَتَكُونُوا مِنَ الْمُضِلِّينَ } {104} فهم يعودون غلفا لا مختونين

¹ الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 320

وقال الحسن البصري و مجاهد كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة
أحياء و قال قتادة بدأهم

من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه 55 و قال { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } الأعراف 25 و هو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها فى غير موضع كقوله و { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 و قال { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ } ق 7 إلى قوله { وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } ق 11 و قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } 5 { ذَلِكَ بَأْسَ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } 6 { الحج 5-6 و قال تعالى { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقِّنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } فاطر 9 و هو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيى العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } الروم 27 و يخبر أن الثانى مثل الأول كقوله تعالى { وَقَالُوا أَنبَأْنَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 98 { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ } 99 { الإسراء 98-99 و قال تعالى { وَقَالُوا أَنبَأْنَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } 49 { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا } 50 { أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا } 51 { يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا } 52 { الإسراء 49-52 و قال تعالى { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 و قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف 33 و قال { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } 58 { أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } 59 { نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَٰ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } 60 { عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } 61 { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ } 62 { الواقعة 58-62 و المراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك فى قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ } الأحقاف 33 فإن القوم ما كانوا ينازعون فى أن الله يخلق فى هذه الدار ناسا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين و هذه هي النشأة الأولى و قد علموها و بها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ } الواقعة 62 و قال { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } 78 { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } 79 { يس 78-79 و قال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } الحج 5 و لهذا قال { عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } الواقعة 61 قال الحسن بن الفضل البجلي الذي عندي فى هذه الآية { وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } 61 { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ } 62 { الواقعة 61-62 أي أخلقكم للبعث بعد الموت من

حيث لا تعلمون كيف شئت و ذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت فى بطون الأمهات و ليست الأخرى كذلك و معلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ثم علقه ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح و تلك النطفة من منى الرجل و المرأة و هو يعذبه بدم الطمث الذي يربي به الجنين فى ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة و ظلمة الرحم و ظلمة البطن و النشأة الثانية لا يكونون فى بطن امرأة و لا يغذون بدوم و لا يكون أحدهم نطفة رجل و امرأة ثم يصير علقه بل ينشئون نشأة أخرى و تكون المادة من التراب كما قال { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه 55 و قال تعالى { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } الأعراف 25 { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } 17 { ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا } 18 { نوح 17-18 و فى الحديث أن الأرض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون فى القبور كما ينبت النبات كما قال تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } ق 11 { كَذَلِكَ النُّشُورُ } فاطر 9 { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان و يتماثلان و يتشابهان من و جه و يفترقان و يتنوعان من و جه آخر و لهذا جعل المعاد هو المبدأ و جعل مثله أيضا فباختبار إتفاق المبدأ و المعاد فهو هو و باعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله و هكذا كل ما أعيد لفظ الإعادة يقتضى المبدأ و المعاد سواء فى ذلك إعادة الأجسام و الأعراض كإعادة الصلاة و غيرها فإن النبى صلى الله عليه و سلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة و يقال للرجل أعد كلامك و فلان قد أعاد كلام فلان بعينه و يعيد الدرس فالكلام هو الكلام و إن كان صوت الثاني غير صوت الأول و حركته و لا يطلق القول عليه أنه مثله بل قد قال تعالى { قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ وَالجنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } الإسراء 88 و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا و إن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أي مثل هذا قال و يقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى و منه البئر البدي و البئر العادي فالبدي التى إبتدئت و العادي التى أعيدت و ليست بنسبة إلى عاد كما قيل و يقال إستعدته الشيء فأعاده إذا سألته ان يفعله مرة ثانية و منه سميت العادة يقال عادة و إعتاده و تعوده أي صار عادة له و عود كلبه الصيد فتعوده و هو المعاودة و المعاودة الرجوع إلى الأمر الأول و يقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس و عاودته الحمى و عاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة و تعاود القوم فى الحرب و غيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه و العواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى و عواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هي الأولى و إن تعدد الشخص و لهذا يقال هو مثله و يقال هذا هو هذا و كلاهما صحيح و أعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده و إنما يقال حاكاه و شابهه بخلاف ما إذا فعلا ثانيا مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله و كذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده و لا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده و يقال قريء على هذا و أعاد على هذا و هذا يقرأ أي يدرس و هذا يعيد و لو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد و كذلك من كسر خاتما أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان و يقال من هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيدا و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه و يقال هذا مثل الأول من كل و جه و نحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من و جه و هو مثله من و جه و بهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان و نحو ذلك مما يمنع إعادته فى صريح العقل و إنما يعاد بالإتيان بمثله و إن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه و الإعادة التى أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة فى هذا الخطاب و هي الإعادة التى فهمها المشركون و المسلمون

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم و هي التي يدل عليها لفظ الإعادة و المعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البداية فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثانى مباينا للأول من كل وجه كما زعم بعضهم و لا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم و كما إنه سبحانه خلق الإنسان و لم يكن شيئاً كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً و على هذا فالإنسان الذي صار تراباً و نبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر و هلم جرا و الإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان و أكل ذلك الحيوان إنساناً آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان و هذا الإنسان و صار كل منهما تراباً كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا و يعاد هذا من التراب و إنما يبقى عجب الذنب منه خلق و منه يركب و أما سائرهم فعدم فيعاد من المادة التي إستحال إليها فإذا إستحال في القبر الواحد ألف ميت و صاروا كلهم تراباً فإنهم يعادون و يقومون من ذلك القبر و ينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدماً محضاً كما أنشأهم أولاً بعد أن كانوا عدماً محضاً و إذا صار ألف إنسان تراباً في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة و جعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام و الشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات و حيوان و كذلك لو أكل إنساناً أو أكل حيواناً قد أكل إنساناً فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الإستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة و من غير أن يغذوها بدم الطمث و من غير أن يغذوها بلبن الأم و بسائر ما يأكله من الطعام و الشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي إستحالت إلى أبدانهم فقد غلط و حينئذ إذا أكل إنسان إنساناً فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية و هو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية و معلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاماً و شراباً ثم يصير كلوساً كالثرثرة ثم كيموساً كالحريرة ثم ينطبخ دماً فيقسمه الله تعالى في البدن كله و يأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظماً و اللحم لحماً و العرق عرقاً و هذا في الرزق كإستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة و كما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزاً و فاكهة و لحماً ثم يجعلها كلوساً و كيموساً ثم دماً ثم عظماً و لحماً و عروفاً بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال { وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } الواقعة 61 و لا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الإستحالات التي كانت في النشأة الأولى و بهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائماً في التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من إنقلاب النطفة علقة و العلقة مضغة و حقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى و أما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى و تماثلها و إذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى إنقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بإنقلابه بسبب التحلل و معلوم أن من رأي شخصاً و هو شاب ثم رآه و هو شيخ علم أن هذا هو ذلك مع هذه الإستحالة و كذلك سائر الحيوان و النبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل و الإستحالة ثابتة في سائر الحيوان و النبات كما هو في بدن الإنسان و لا يحتاج عاقل في إعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى و أن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين و لا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل و لا يخطر هذا ببال أحد و لا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذلك على تلك الأجزاء التي لا تعرف و لا تتميز عن غيرها بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة و الفرس و الإنسان مع أنه قد يكون كان صغيراً فكبر و لا يقال إنما كان هو ذلك بإعتبار أن النفس الناطقة و احدة كما زعمه من إدعى أن البدن الثاني ليس هو ذلك الأول و لكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففي أي بدن كانت حصل المقصود فإن هذا أيضاً باطل مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف مخالف للمعقول من الإعادة فإننا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس

هو ذلك و هذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه و تقوم بذاتها و كذلك يقولون مثل هذا في الحيوان و في الإنسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا و ذلك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذلك مع و جود الإستحالة و علم بذلك أن ما ذكر من الإستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن و لهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} يس65 و قال تعالى {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {20} وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {21} فصلت 21-22¹

قياس الأولى

قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا } الإسراء99 فإن الأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمى الله آيتي موسى براهينين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل و الفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولايجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شموليا كما قال تعالى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ } النحل60 مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث فالواجب القديم أولى به وكل كمال ثبت للمخلوق المرربوب المعلول المدبر فإنما استفاده من خالقه وربيه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص و عيب وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود والأمور العدمية الممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات ونحو ذلك مثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه إمكانية أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجود لم يلزم من تقديره وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم الامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فالله

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 248-259

سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا تبين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } الإسراء: 99 وقوله { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس: 81 وقوله { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف: 33 وقوله { أَخْلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } غافر: 57 فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك وكذلك استدلاله على ذلك بالنشأة الأولى في مثل قوله { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } الروم: 27 ولهذا قال بعد ذلك { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الروم: 27 وقال { إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } الحج: 5 الآية وكذلك ما ذكره في قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } 78 { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } 79 { يس: 78-79 الآيات فإن قوله تعالى { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس: 78 قياس حذف إحدى مقدمتي لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس: 78 وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميماً يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات والتقدير هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء وبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال { يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يس: 79 وقد أنشأها من التراب ثم قال { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } يس: 79 ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال ثم قال { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً } يس: 80 فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب وذلك أبلغ في المنافاة لأن إجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من إجتماع الحرارة واليبوسة فالرطوبة تقبل من الانفعال ما لا تقبله اليبوسة ثم قال { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } يس: 81 وهذه مقدمة معلومة بالبدئية ولهذا جاء باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب كما قال سبحانه { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } الفرقان: 33 ثم بين قدرته العامة بقوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس: 82¹

الإنسان منوع عند الخير

¹ الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 447-449 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 299 و درء التعارض ج: 1 ص: 29-32

قال تعالى { قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا } الإسراء 100 حال الإنسان عند السراء والضراء وذلك أن الإنسان هو كما وصفه الله بقوله تعالى { وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ كُفُورًا } 9 { وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّئُهُ لَيُفُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا } 10 { هود 9-10 وقال تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } هود 11 فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء يبأس من زوالها في المستقبل ويكفر بما أنعم الله به عليه قبلها وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود الضراء في المستقبل وينسي ما كان فيه بقوله { ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا } هود 10 علي غيره يفخر عليهم بنعمة الله عليه وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِقٌ هَلُوعًا } 19 { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } 20 { وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } 21 { المعارج 19-21 فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه منوع عند الخير يبخل به وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } إبراهيم 34 وقال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } العاديات 6 وقال تعالى { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } الأحزاب 72 وقال تعالى { قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَثُورًا } الإسراء 100 وقال { وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْوِسُ قَنُوطٌ } فصلت 49 وقال تعالى { فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا } الإسراء 67 وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون في البأساء والضراء وحين البأس والصابرون في النعماء أيضا بقوله تعالى { إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } هود 11 والصبر في السراء قد يكون أشد ولهذا قال من قال من الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وكان النبي يستعيز بالله من فتنة القبر وشر فتنة الغني وقال لأصحابه والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علي من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كم أهلكتهم¹

العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق

قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا } 101 { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } 102 { فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا } 103 { الإسراء 101-103 } والذين قالوا المعرفة لا تحصل إلا بالنظر قالوا لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر وغيره فيقال لهم وليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحدا أوجبها بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم ولكن أكثر الرسل إفتتخوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب وقومهم كانوا مقرين بالخالق لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن الكفار من أظهر جحود الخالق كفرعون حيث قال { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ } القصص 38 وقال { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } النازعات 24 وقال لموسى { لَئِن اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } الشعراء 29 وقال { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي }

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 178

أَبْلَغُ الْأَسْبَابِ {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا {37} غافر 36-37 ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } {10} قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّبِعُونَ {11} قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ {12} وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ {13} وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ {14} قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ {15} فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ {16} أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ {17} قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ {18} وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ {19} قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ {20} فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ {21} الشعراء 10-21 قال فرعون إنكاراً و جحداً { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } {24} قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ {25} قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ {26} قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ {27} قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا {28} الشعراء 28 الآيات وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان ما الملك ما الجنى و نحو ذلك قالوا و لما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به و هو قوله { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الشعراء 23 و هذا قول قاله بعض المتأخرين و هو باطل فإن فرعون إنما استفهم إنكاراً و جحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكراً له جاحداً و لهذا قال في تمام الكلام { لئن اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ } الشعراء 29 و قال { وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا } غافر 37 فاستفهامه كان إنكاراً و جحداً يقول ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا إنكاراً له فبين موسى أنه معروف عنده و عند الحاضرين و أن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده و أنكم إنما تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى في موضع آخر لفرعون { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ } الإسراء 102 و قال الله تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } النمل 14 و لم يقل فرعون و من رب العالمين فإن من سؤال عن عينه يسأل بها من عرف جنس المسئول عنه أنه من أهل العلم و قد شك في عينه كما يقال لرسول عرف انه جاء من عند إنسان من أرسلك و أما ما فهي سؤال عن الوصف يقول أي شيء هو هذا و ما هو هذا الذي سميته { رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال ذلك منكراً له جاحداً فلما سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر و أظهر من أن يشك فيه و يرتاب فقال { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } الشعراء 24 و لم يقل موقنين بكذا و كذا بل أطلق فأبي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ } إبراهيم 10 و إن قلتم لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة و مدعيها كاذب ظاهر الكذب فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لا بد له من علم و لهذا قيل في حد العقل انه علوم ضرورية و هي التي لا يخلو منها عاقل فلما قال فرعون { إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } الشعراء 27 و هذا من إفتراء المكذبين على الرسول لما خرجوا عن عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون و لما كانوا مظهرين للجدد بالخالق أو للإستراية و الشك فيه هذه حال عامتهم و دينهم و هذا عندهم دين حسن و إنما الإلهم الذي يطيعونه فرعون قال { إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } الشعراء 27 فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع و أنتم أحق بهذا الوصف فقال { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } الشعراء 28 فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية و أعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو

موقن به و اليقين بشيء هو من لوازم العقل بين ثانيا أن الإقرار به من لوازم العقل و لكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل إنه ليس له عقل و يقال أيضا لمن لم يتبع ما أيقن به إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضا يراد به العلم المستقر في القلب و يراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم و العمل و قوم فرعون لم يكن عندهم إتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل و لا يقين و كلام موسى يقتضى الأمرين إن كان لك يقين فقد عرفته و إن كان لك عقل فقد عرفته و إن ادعيت أنه لا يقين لك و لا عقل لك فكذلك قومك فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان و من يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية مع أن هذا باطل منكم فإنكم موقنون به كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } النمل 14 و لكم عقل تعرفونه به و لكن هواكم يصدكم عن إتباع موجب العقل و هو إرادة العلو في الأرض و الفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار كما قال أصحاب النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 و قال تعالى عن الكفار { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44 قال تعالى عن فرعون و قومه { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } الزخرف 54 و الخفيف هو السفية الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه و بسط هذا له موضع آخر و المقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا و استدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه و تقر به و كل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها و الإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته و لهذا قال الله في خطابه لموسى { فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ } طه 44 ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه و يعرف إنعامه عليه و إحسانه إليه و إفتقاره إليه فذلك يدعو إلى الإيمان { أَوْ يَخْشَى } طه 44 ما ينذر به من العذاب فذلك أيضا يدعو إلى الإيمان كما قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } النحل 125 فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة و من نازعه هواه و عظ بالترغيب و الترهيب فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى إتباعه فإن الحق محبوب في الفطرة و هو أحب إليها و أجل فيها و ألد عندها من الباطل الذي لا حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذلك فإن لم يدعه الحق و العلم به خوف عاقبة الجحود و العصيان و ما في ذلك من العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حى يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به و استحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لا بد من نوع من الغفلة و الجهل حتى يتبعه و لهذا كان كل عاص لله جاهلا كما قد بسط هذا في مواضع¹

قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظما اعتبارا لأهل الايمان ولأهل

الكفر

قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا } {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 332-338

وَأَنِّي لِأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا {102} فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ

جَمِيعًا {103} الإسراء 101- 103 الاختلاف في تنزيله هو بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} غافر 70 فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسل كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسل تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} يونس 2 الآية فإن في هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد {إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ النَّبَشْرُ} المدثر 25 ولهذا كان أصل الإيمان الايمان بما أنزله قال تعالى {الم} {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ {3} البقرة 1-3 إلى قوله {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ} {4} وفي وسط السورة {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} البقرة 136 الآية ولهذا عظم تقرير هذا الاصل في القرآن فتارة يفتتح به السورة إما اخبارا كقوله {ذَلِكَ الْكِتَابُ} البقرة 2 وقوله {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} يونس 1 وقوله {الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود 1 الآية وكذلك ال طسم وال حم فعامة ال الم وال الر وال طسم وال حم كذلك وإما ثناء بانزاله كقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} الكهف 1 {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} الفرقان 1 الآية وأما في اثناء السور فكثير جدا وثنى قصة موسى مع فرعون لأنها في طرفي نقيض في الحق والباطل فان فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة وموسى في غاية الحق والايمان من جهة ان الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت وهذا بخلاف اكثر الانبياء مع الكفار فان الكفار اكثرهم لا يجحدون وجود الله ولم يكن ايضا للرسل من التكليم ما لموسى فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتبارا لأهل الايمان ولأهل الكفر ولهذا كان النبي يقص على امته عامة ليله عن بنى اسرائيل وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة ولما بشر بقتل أبي جهل يوم بدر قال هذا فرعون هذه الأمة وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ولهذا كان يعبد الهة من دون الله كما اخبر الله عنه بقوله {وَيَذَرِكْ وَالْهتَّكَ} الأعراف 127 وان كان عالما بما جاء به موسى مستيقنا له لكنه كان جاحدا مثبورا كما اخبر الله بذلك في قوله {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} {13} {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} {14} النمل 13-14 الآية وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} الإسراء 101 إلى قوله {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ} الإسراء 102¹

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 7-10

فرعون من أكبر خلق الله عنادا وبغيا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه

قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا {102} فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْهُ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا {103} الإسراء 101-103 } وأسماء دينه الذي أمر الله به ورسوله يسمى إيماننا وبراً وتقوى وخيراً وديناً وعملاً صالحاً وصراطاً مستقيماً ونحو ذلك وهو في نفسه واحد لكن كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة التي يدل عليها الآخر وتكون تلك الصفة هي الأصل في اللفظ والباقي كان تابعا لها لازماً لها ثم صارت دالة عليه بالتضمن فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ولا بد فيه من شئين تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب قال الجنيد بن محمد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله وإخلاص العمل لله وحده وتوكل القلب على الله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب وقال أبو هريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وقول أبي هريرة تقريب وقول النبي أحسن بيانا فإن الملك وإن كان صالحاً فالجنود لهم إختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصطفى العابد لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما قال الله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبا لله من المشركين لأناداهم وفي الآية قولان قيل يحبونهم كحب المؤمنين الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم لأوثانهم وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبا لله منهم وهذا هو الصواب والأول قول متناقض وهو باطل فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله وتستلزم الإرادة والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الإنسان محبا لله ورسوله مريداً لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه ومن هنا يظهر خطأ قول جهنم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى الله ورسوله ويعادى أولياء الله ويوالى أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ويهين المصاحف ويكرم الكفار غاية الكرامة ويهين المؤمنين غاية الإهانة قالوا وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه بل

يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن قالوا وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار لأن هذه الأقوال أمانة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة قالوا فهذا دليل على إنتفاء التصديق والعلم من قلبه فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل والإيمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا إبليس كافر بنص القرآن وإنما كفره بإستكباره وإمتناعه عن السجود لآدم لا لكونه كذب خيرا وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل14 وقال موسى عليه السلام لفرعون {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ} الإسراء102 بعد قوله {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} {102} الإسراء 101-102 فموسى وهو الصادق المصدوق يقول {لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ} الإسراء102 فدل على أن فرعون كان عالما بأن الله أنزل الآيات وهو من أكبر خلق الله عنادا وبغيا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه قال تعالى {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} القصص4 وقال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل14 وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} البقرة146 وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله فيهم {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} الأنعام33 فهؤلاء غلطوا في أصلين أحدهما ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة وخشية في القلب وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب فالأول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الابرار اصحاب اليمين ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين وذلك مثل حب الله ورسوله بل أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين والتوكل على الله وحده دون المخلوقين والإنابة إليه مع خشيته كما قال تعالى { هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} {32} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} {33} ق 32-33 ومثل الحب في الله والبغض في الله والموالاتة لله والمعاداة لله والثاني ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار فإنما ذلك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمة الفطرة وجماهير النظار فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحملة ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم أن الحق معه وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون لكن إما لحسدهم وإما لإرادتهم العلو والرياسة وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصدقة أقوام وغير ذلك فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء

المحبوبة إليهم أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكثر الناس كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسول على الحق ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدر في صدق الرسل إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح { أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ } الشعراء 111 ومعلوم أن إتباع الأردلين له لا يقدر في صدقه لكن كرهوا مشاركة أولئك¹

إن الله أمر بسؤال العلم

قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا } {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } {102} فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا } {103} الإسراء 101-103 وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما في قوله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا } {101} وهذا لأن العلم يجب بذله فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة وهو يزكو على التعليم لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ولهذا يشبهه بالمصباح وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده وكذلك مال الفئء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها ولى الأمر للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية لأن المستولى يجب عليه أداء الحق الى مستحقه ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه اليه فالبايع يسأل الثمن والمشتري يسأل المبيع ومن هذا الباب قوله تعالى { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } النساء²

دعوة الأنبياء عليهم السلام أنه جاء بالطريق الفطرية

قال تعالى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } {102} الإسراء

أجابه موسى بما يقيم الحجة عليه ويبين أن الرب معروف معلوم لا سبيل إلى إنكاره وجده وكان فرعون مقرا به في الباطن وإن جده في الظاهر كما قال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 187-191 و مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 241

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 185

قال تعالى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } الإسراء 102¹

أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة ولهذا كانت دعوة عامة الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشراكهم به بعبادة ما دونه والذين أظهروا إنكار الصانع كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق كقول موسى لفرعون { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ } الإسراء 102 ولما قال فرعون { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 قال له موسى { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } 24 { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ } 25 { قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } 26 { قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } 27 { قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } 28 { الشعراء 24-28 ولما قال فرعون { فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى } 49 { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } 50 طه 49-50 فكان جواب موسى له جوابا للمتجاهل الذي يظهر أنه لا يعرف الحق وهو معروف عنده فإن سؤال فرعون بقوله { وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 23 استفهام إنكار لوجوده ليس هو استفهام طلب لتعريف ماهيته كما ظن ذلك بعض المتأخرين وقالوا إن فرعون طالبه ببيان الماهية فعدل عن ذلك لامتناع الجواب بذكرها فإن هذا غلط منهم فإن فرعون لم يكن مقرا بالصانع ألبيته بل كان جاحدا له وكان استفهامه استفهام إنكار لوجوده ولهذا قال { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } القصص 38 وقال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } النازعات 24 ولو كان مقرا بوجوده طالبا لمعرفة ماهيته لم يقل هذا ولكان موسى ما أجابه إجابة لم تذكر فيها ماهيته²

قال تعالى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } الطور 35 قال جبير بن مطعم لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع وهو استفهام إنكار يقول أوجدوا من غير مبدع فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكون ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم وعلهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه لا يحتاج أن يستدل عليه بأن كل كائن محدث أو كل ممكن لا يوجد بنفسه ولا يوجد من غير موجد ودعوة الأنبياء عليهم السلام أنه جاء بالطريق الفطرية كقولهم { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } إبراهيم 10 وقول موسى { لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ } الإسراء 102³

الإمتحان والتكليف الذي جاءت به الرسل كان بأن يعبدوا الله وحده لا يشركون به إلى هذا دعا عامة الرسل ومن كان من الناس جاحدا دعوه إلى الإعتراف بالصانع كفرعون ونحوه مع أنه كان في

¹الصفدية ج: 1 ص: 242

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 270

³مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 12

الباطن عارفا وإنما جحد ظلما وعلوا كما قال تعالى {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل14 وقال له موسى {لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ} الإسراء102¹

أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه

قال تعالى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } الإسراء102

ان لفظ الايمان انما يستعمل فى بعض الاخبار وهو مأخوذ من الأمن كما ان الاقرار مأخوذ من قر فالمؤمن صاحب امن كما ان المقر صاحب اقرار فلا بد فى ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فاذا كان عالما بأن محمدا رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فان هذا ليس بمؤمن به بل كافر به ومن هذا الباب كفر ابليس وفرعون واهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وغير هؤلاء فان ابليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا بل استكبر عن امر ربه وفرعون وقومه قال الله فيهم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل14 وقال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ } الإسراء102 وقال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} البقرة146 فمجرد علم القلب بالحق ان لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل اشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع ولكن الجهمية ظنوا ان مجرد علم القلب وتصديقه هو الايمان وان من دل الشرع على انه ليس بمؤمن فان ذلك يدل على عدم علم قلبه وهذا من اعظم الجهل شرعا وعقلا وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر ولهذا اطلق وكيع بن الجراح واحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة كفرهم بذلك فانه من المعلوم ان الانسان يكون عالما بالحق ويبغضه لغرض آخر فليس كل من كان مستكبرا عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الايمان قول وعمل ثم انه اذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للارادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فان الارادة الجازمة اذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وانما ينتفى وجود الفعل لعدم كمال القدرة او لعدم كمال الارادة والافع كمالها يجب وجود الفعل الاختيارى فاذا اقر القلب اقرارا تاما بان محمدا رسول الله واحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ان لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك لكن ان كان عاجزا لخرس ونحوه او الخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما و ابو طالب وان كان عالما بان محمدا رسول الله وهو محب له فلم تكن محبته له لمحبهته الله بل كان يحبه لأنه ابن اخيه فيحبه للقرابة واذا احب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فلماذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى ان بالاقرار بهما زوال دينه الذى يحبه فكان دينه احب اليه من ابن اخيه فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه

¹رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 14

ابو بكر الذى قال الله فيه {وَسَيَجْزِيَنَّهَا الْأُنْقَى} {17} {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} {18} وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} {19} إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} {20} وَأَلَسَوْفَ يَرْضَى} {21} {الليل 17-21} وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلى غيرهم لنتطق بالشهادتين قطعا فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول وموازرتة لأنه لم يعمله لله والله لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه بخلاف الذى فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى وهذا مما يحقق ان الايمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلا بد من اخلاص الدين لله والدين لا يكون ديننا الا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتي الاخلاص قل يا ايها الكافرون {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} {1} {اللَّهُ الصَّمَدُ} {2} {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} {3} {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} {4} {الاخلاص 1-4} فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثانى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} {1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ} {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} {5} {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} {6} {الكافرون 1-6} فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله واخلاص العبادة لله¹

المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل

قال تعالى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } {الإسراء 102}

وأن المستكبر عن الحق يبتلى بالانقياد للباطل فيكون المستكبر مشركا كما ذكر الله عن فرعون وقومه أنهم كانوا مع استكبارهم وجحودهم مشركين فقال عن مؤمن آل فرعون { وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ } {41} {تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ} {42} { لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَإِنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ } {43} {غافر 41-43} وقال {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ} {غافر 34} الآية وقال يوسف الصديق لهم { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {40} {يوسف 39-40} وقد قال تعالى { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } {الأعراف 127} فإن قيل كيف يكون قوم فرعون مشركين وقد أخبر الله عن فرعون أنه جحد الخالق فقال { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } {الشعراء 23} وقال { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } {القصص 38} وقال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } {النازعات 24} وقال عن قومه { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } {13} { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } {14} {النمل 13-14} والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله وإلا فالجحد له لم يشرك به قيل لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى وأما الذين كانوا فى زمن يوسف فالقرآن يدل على أنهم كانوا

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 324-325 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 271-274

مقرين بالله وهم مشركون به ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله { أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } يوسف 39 { ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ } يوسف 50 الى قوله { إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ } يوسف 50 { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف 52 الى قوله { وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } يوسف 53 وقد قال مؤمن آل حم { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا } غافر 34 فهذا يقتضي أن أولئك الذين بعث اليهم يوسف كانوا يقرون بالله ولهذا كان اخوة يوسف يخاطبونه قبل أن يعرفوا أنه يوسف ويظنونهم من آل فرعون بخطاب يقتضى الإقرار بالصانع كقولهم { تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } يوسف 73 وقال لهم { أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } يوسف 77 وقال { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ } يوسف 79 وقالوا له { يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } يوسف 88 وذلك أن فرعون الذي كان فى زمن يوسف أكرم أبويه وأهل بيته لما قدموا إكراما عظيما مع علمه بدينهم وإستقرار أحوال الناس يدل على ذلك فإن جحود الصانع لم يكن ديننا غالبا على أمة من الأمم قط وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماءهم من الفلاسفة الصابئة المشركين الذين يعظمون الهياكل والكواكب والأصنام والابخار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك ولكن فرعون موسى { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاطَعُوهُ } الزخرف 54 وهو الذي قال لهم دون الفراعنة المتقدمين { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي } القصص 38 ثم قال لهم بعد ذلك { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ } { 24 } فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ } { 25 } النازعات 25 نكال الكلمة الأولى ونكال الكلمة الأخيرة وكان فرعون فى الباطن عارفا بوجود الصانع وإنما إستكبر كإبليس وأنكر وجوده ولهذا قال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ } { الإسراء 102 } فلما أنكر الصانع وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها ولم يصفه الله تعالى بالشرك وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة اخرى والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيرا ما يعبد آلهة ولا يعبد الله قط فانه يقول هذا العالم واجب الوجود بنفسه وبعض أجزائه مؤثر فى بعض ويقول إنما إنتفع بعبادة الكواكب والأصنام ونحو ذلك ولهذا كان باطن قول هؤلاء الاتحادية المنتسبة إلى الإسلام هو قول فرعون وكنت أبين أنه مذهبهم وأبين أنه حقيقة مذهب فرعون حتى حدثنى الثقة عن بعض طواغيتهم أنه قال نحن على قول فرعون ولهذا يعظمون فرعون فى كتبهم تعظيما كثيرا فانهم لم يجعلوا ثم صانعا للعالم خلق العالم ولا أثبتوا ربا مدبرا للمخلوقات وإنما جعلوا نفس الطبيعة هى الصانع ولهذا جوزوا عبادة كل شيء وقالوا من عبده فقد عبد الله ولا يتصور عندهم أن يعبد غير الله فما من شيء يعبد إلا وهو الله وهذه الكائنات عندهم اجزائه أو صفاته كأجزاء الانسان أو صفاته فهؤلاء إذا عبدوا الكائنات فلم يعبدوها لتقربهم الى الله زلفى لكن لأنها عندهم هى الله أو مجلى من مجاليه أو بعض من ابعاضه أو صفة من صفاته أو تعين من تعيناته وهؤلاء يعبدون ما يعبده فرعون وغيره من المشركين لكن فرعون لا يقول هى الله ولا تقربنا الى الله والمشركون يقولون هى شفعاؤنا وتقربنا الى الله وهؤلاء يقولون هى الله كما تقدم وأولئك أكفر من حيث اعترفوا بأنهم عبدوا غير الله أو جحدوه وهؤلاء أوسع ضلالا من حيث جوزوا عبادة كل شيء وزعموا أنه هو الله وان العابد هو المعبود وان كانوا إنما قصدوا عبادة الله وإذا كان أولئك كانوا مشركين كما وصفوا بذلك وفرعون موسى هو الذي جحد الصانع وكان يعبد الآلهة ولم يصفه الله بالشرك فمعلوم أن المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله ولهذا يشتمون الله إذا

شتمت آلهتهم كما قال تعالى { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } الأنعام 108 فقوم فرعون قد يكونون أعرضوا عن الله بالكلية بعد أن كانوا مشركين به واستجابوا لفرعون في قوله { فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } {24} النازعات 24 و { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } القصص 38 ولهذا لما خاطبهم المؤمن ذكر الأمرين فقال { تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } غافر 42 فذكر الكفر به الذي قد يتناول جوده وذكر الإشراك به أيضا فكان كلامه متناولا للمقالتين والحالين جميعا فقد تبين أن المستكبر يصير اما بعبادة آلهة أخرى مع استكباره عن عبادة الله لكن تسمية هذا شركا نظير من امتنع مع استكباره عن إخلاص الدين لله كما قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } {35} وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ {36} الصافات 35-36 فهؤلاء مستكبرون مشركون وإنما إستكبارهم عن إخلاص الدين لله فالمستكبر الذي لا يقر بالله في الظاهر كفر عن أعظم كفرا منهم وإبليس الذي يأمر بهذا كله ويحبه ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته أعظم كفرا من هؤلاء وإن كان عالما بوجود الله وعظمته كما أن فرعون كان أيضا عالما بوجود الله وإذا كانت البدع والمعاصي شعبة من الكفر وكانت مشتقة من شعبة كما أن الطاعات كلها شعبة من شعب الإيمان ومشتقة منه وقد علم أن الذي يعرف الحق ولا يتبعه غاؤ يشبه اليهود وإن الذي يعبد الله من غير علم وشرع هو ضال يشبه النصارى كما كان يقول من يقول من السلف من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فعلى المسلم أن يحذر من هذين الشبهين الفاسدين من حال قوم فيهم استكبار وقسوة عن العبادة والتأله وقد أوتى نصيبا من الكتاب وحظا من العلم وقوم فيهم عبادة وتأله بإشراك بالله وضلال عن سبيل الله ووحيه وشرعه وقد جعل في قلوبهم رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وهذا كثير منتشر في الناس والشبه تقل تارة وتكثر أخرى فاما المستكبرون المتألهون لغير الله الذين لا يعبدون الله وإنما يعبدون غيره للانتفاع به فهؤلاء يشبهون فرعون¹

تصديق القلب يتبعه عمل القلب

قال تعالى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } الإسراء 102

ولفظ الإيمان يستعمل في الخبر أيضا كما يقال { كُلُّ أَمَنْ بِاللَّهِ } البقرة 285 أي أقر له والرسول يؤمن له من جهة أنه مخبر ويؤمن به من جهة أن رسالته مما أخبر بها كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه فالإيمان متضمن للإقرار بما أخبر به والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به والأصل في ذلك هو الإخبار بالله وبأسمائه ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب أعظم من جحد غيره وإن كان الرسول أخبر بكليهما ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما أخبر به إذا لم يكن معه طاعة لأمره لا باطنا ولا ظاهرا ولا محبة لله ولا تعظيم له لم يكن ذلك إيمانا وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق والعلم فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر بل أمره الله بالسجود لأدم فأبى وإستكبر وكان من الكافرين فكفره بالإباء والإستكبار وما يتبع ذلك لا لأجل تكذيب وكذلك فرعون وقومه { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 628-634

وَعُلُوًّا { النمل 14 وقال له موسى {لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ
 {الإسراء 102 فالذي يقال هنا أحد أمرين إما أن يقال الاستكبار والاباء والحسد ونحو ذلك مما
 الكفر به مستلزم لعدم العلم والتصديق الذي هو الإيمان وإلا فمن كان علمه وتصديقه تاما أوجب
 إستسلامه وطاعته مع القدرة كما أن الإرادة الجازمة تستلزم وجود المراد مع القدرة فعلم أن المراد
 إذا لم يوجد مع القدرة دل على أنه ما في القلب همة ولا إرادة فكذلك إذا لم يوجد موجب التصديق
 والعلم من حب القلب وإنقياده دل على أن الحاصل في القلب ليس بتصديق ولا علم بل هنا شبهة
 وريب كما يقول ذلك طوائف من الناس وهو أصل قول جهم والصالحي والأشعري في المشهور عنه
 وأكثر أصحابه كالقاضي أبي بكر ومن إتبعه ممن يجعل الأعمال الباطنة والظاهرة من موجبات
 الإيمان لا من نفسه ويجعل ما ينتفي الإيمان بإنتفائه من لوازم التصديق لا يتصور عنده تصديق
 باطن مع كفر قط أو أن يقال قد يحصل في القلب علم بالحق وتصديق به ولكن ما في القلب من
 الحسد والكبر ونحو ذلك مانع من إستسلام القلب وإنقياده ومحبته وليس هذا كالإرادة مع العمل لأن
 الإرادة مع القدرة مستلزمة للمراد وليس العلم بالحق والتصديق به مع القدرة على العمل بموجب ذلك
 العمل بل لابد مع ذلك من إرادة الحق والحب له¹

أن من آمن بما جاء به الرسل مجملا ثم بلغه مفصلا فأقر به مفصلا وعمل به كان قد زاد ما عنده
 من الدين والإيمان بحسب ذلك ومن أذنب ثم تاب أو غفل ثم ذكر أو فرط ثم أقبل فإنه يزيد دينه
 وإيمانه بحسب ذلك كما قال من قال من الصحابة كعمير بن حبيب الخطمي وغيره الإيمان يزيد
 وينقص قيل له فما زيادته ونقصانه قال إذا حمدنا الله وذكرناه وسبحناه فذلك زيادة وإذا غفلنا ونسينا
 وأضعنا فذلك نقصانه فذكر زيادته بالطاعات وإن كانت مستحبة ونقصانه بما أضعاه من واجب
 وغيره وأيضا فإن تصديق القلب يتبعه عمل القلب فالقلب إذا صدق بما يستحقه الله تعالى من الألوهية
 وما يستحق الرسول من الرسالة تبع ذلك لا محالة محبة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام
 وتعظيم الله عز وجل ورسوله والطاعة لله ورسوله أمر لازم لهذا التصديق لا يفارقه إلا لعارض من
 كبر أو حسد أو نحو ذلك من الأمور التي توجب الاستكبار عن عبادة الله تعالى والبعوض لرسوله عليه
 الصلاة والسلام ونحو ذلك من الأمور التي توجب الكفر ككفر إبليس وفرعون وقومه واليهود وكفار
 مكة وغير هؤلاء من المعاندين الجاحدين ثم هؤلاء إذا لم يتبعوا التصديق بموجبه من عمل القلب
 واللسان وغير ذلك فإنه قد يطبع على قلوبهم حتى يزول عنها التصديق كما قال موسى لفرعون {
 قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا
 {الإسراء 102²

نفاء الأسماء والصفات مضاهون لفرعون

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 533-535

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 178-179

قال تعالى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } الإسراء 102

وسورة قل هو الله أحد فيها إثبات الذات وما لها من الأسماء والصفات التي يتميز بها مثبتو الرب الخالق الأحد الصمد عن المعطلين له بالحقيقة نفاة الأسماء والصفات المضاهين لفرعون وأمثاله ممن أظهر التعطيل والجحود للإله المعبود وإن كان في الباطن يقر به كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } النمل 14 وقال موسى { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } الإسراء 102 والله سبحانه بعث أنبياءه بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات ومن خالفهم من المعطلة المتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل يقولون ليس كذا ليس كذا فإذا أرادوا إثباته قالوا وجود مطلق بشرط النفي أو بشرط الإطلاق وهم يقرون في منطقهم اليوناني أن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون في الخارج فليس في الخارج حيوان مطلق بشرط الإطلاق ولا إنسان مطلق بشرط الإطلاق ولا موجود مطلق بشرط الإطلاق بخلاف المطلق لا بشرط الذي يطلق على هذا وهذا وينقسم إلى هذا وهذا فإن هذا يقال إنه في الخارج لا يكون إلا معيناً مشخصاً أو يقولون إنه الوجود المشروط بنفي كل ثبوت عنه منه فيكون مشاركاً لسائر الموجودات في مسمى الوجود متميزاً عنها بالعدم وكل موجود متميزاً بأمر ثبوتي والوجود خير من العدم فيكون أحقر الموجودات خيراً من العدم وذلك ممتنع لأن المتميز بين الموجودين لا يكون عدماً محضاً بل لا يكون إلا وجوداً فهؤلاء الذين يدعون أنهم أفضل المتأخرين من الفلاسفة المشائين يقولون في وجود واجب وأنه جمع بين النقيضين وهذا هو في غاية الجهل والضلال وأما الرسل صلوات الله عليهم فطريقتهم طريقة القرآن قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} { وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {182} الصافات 180- 182 والله تعالى يخبر في كتابه أنه حي قيوم عليم حكيم غفور رحيم سميع بصير علي عظيم خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش وكلم موسى تكليماً وتجلى للجبل فجعله دكا يرضى عن المؤمنين ويغضب على الكافرين إلى أمثال ذلك من الأسماء والصفات ويقول في النفي ليس كمثلته شيء ولم يكن له كفوا أحد هل تعلم له سمياً فلا تجعلوا لله أنداداً فنفي بذلك أن تكون صفاته كصفات المخلوقين وأنه ليس كمثلته شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في شيء من صفاته ولا أفعاله { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } {44} { الإسراء 43- 44 فالؤمن يؤمن بالله وما له من الأسماء الحسنى ويدعوه بها ويجتنب الإلحاد في أسمائه وآياته قال تعالى { وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {الأعراف 180} وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا } {فصلت 40} وهو يدعو الله وحده ويعبده وحده ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ويجتنب طريق المشركين الذين قال الله تعالى فيهم { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } {56} { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } {57} { الإسراء 56- 57} وقال تعالى { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ } {22} { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ

الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {23} سبأ 22-23 وهذه جمل لها تفاصيل ونكت تشير إلى خطب جليل فليجتهد المؤمن في تحقيق العلم والأيمان وليتخذ الله هاديا ونصيرا وحاكما ووليا فإنه نعم المولى ونعم النصير وكفى بربك هاديا ونصيرا وإن أحب دعا بالدعاء الذي رواه مسلم وأبو داود وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلي من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وذلك أن الله تعالى يقول {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} البقرة 213 أي فاختلّفوا كما في سورة يونس {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} يونس 19 وقد قيل إنها كذلك في حرف عبد الله {فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة 213¹

كان لموسى من الآيات ما لم يكن مثله للمسيح

قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا } {101} قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } {102} فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا } {103} وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا } {104} الإسراء 101-104 فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح²

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ }

قال تعالى { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } الإسراء 105 ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا فهدى به من الضلالة وبصر به من العمى وارشده به من الغي وفتح به أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا وفرق به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي والمؤمنين والكفار والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار وبين أولياء الله واعداء الله³

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 465-468

² الجواب الصحيح ج: 4 ص: 19

³ مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 157

صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له

قال تعالى { **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** } الإسراء 105 وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنها فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عنه أو نظيره كقوله تعالى { **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** } الزمر 42 وقال تعالى { **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ** } الأنعام 60 مع قوله تعالى { **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ** } السجدة 11 وقوله { **تَوَفَّيْتَهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ** } الأنعام 61 وقال تعالى { **يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا** } الحديد 4 وقال تعالى { **يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } النحل 2 وقال { **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** } الشعراء 193 وقال تعالى { **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** } الإسراء 105 وقال { **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } المؤمنون 18¹

القرآن منقول بالتواتر محفوظ في الصدور

قال تعالى { **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** } 105 { **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكُثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا** } 106 { **الإسراء 105-106** } فان الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة لأنهم انما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدورهم لا على المصاحف وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور ولو عدت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة فان المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغيير والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه لم ينزله مكتوبا كالتوراة وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب كما قال تعالى { **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** } الفرقان 32 الآية وقال تعالى { **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** } 105 { **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكُثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا** } 106 { **الإسراء 105-106** } الآية وقال تعالى { **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ** } طه 114 الآية وقال تعالى { **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** } القيامة 17 الآية وفي الصحيح عن ابن عباس قال كان النبي يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفثيه فقال ابن عباس أحركهما لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما فحرك شفثيه فأنزل الله تعالى { **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** } 16 { **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** } 17 { **القيامة 16-17** } قال جمعه في صدرك ثم تقرأه { **فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** } 18 { **القيامة 18** } قال فاستمع له وانصت { **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** } 19 { **القيامة 19** } أي

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 243

نبينه بلسانك فكان النبي إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي كما أقرأه فلماذا لم تكن الصحابة ينقطنون المصاحف ويشكلونها وأيضا كانوا عربا لا يلحنون فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل يعملون وتعملون فلم يقيده باحدهما ليمنعوه من الأخرى ثم أنه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها وكانوا يعملون ذلك بالحمرة ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف والكسرة بنقطة حمراء تحته والضمة بنقطة حمراء امامه ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك شد ويعملون المدة بقولك مد وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين لأن الهمزة أخت العين ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان الفاظ العدد وغير ذلك وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل أنا وعلى شكل ثنا وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها على قولين معروفين وهما روايتان عن الامام أحمد لكن لا نزاع بينهم ان المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط كما يجب احترام الحرف ولا تنازع بينهم ان مداد النقطة والشكل مخلوق كما أن مداد الحرف مخلوق ولا نزاع بينهم ان الشكل يدل على الأعراب والنقط يدل على الحروف وان الاعراب من تمام الكلام العربي ويروى عن أبي بكر وعمر انهما قالوا حفظ إعراب القرآن أحب اليينا من حفظ بعض حروفه ولا ريب ان النقطة والشكله بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما ولا ريب أن إعراب القرآن العربي من تمامه ويجب الاعتناء باعرابه والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق كذلك يبين الشكل المكتوب للاعراب المنطوق¹

أنزل الله القرآن منجما مفرقا

فكيف بكتاب الله الذي أمر ببيانه لهم وهو عصمتهم وهداهم وبه فرق الله بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي وقد أمرهم بالإيمان بما أخبر به فيه والعمل بما فيه وهم يتلقونه شيئا بعد شيء كما قال تعالى **{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} {105}** **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} {106}** **الإسراء 105- 106** وهل يتوهم عاقل أنهم كانوا إنما يأخذون منه مجرد حروفه وهم لا يفقهون ما يتلوه عليهم ولا ما يقرؤونه ولا تشتاق نفوسهم إلى فهم هذا القول ولا يسألونه عن ذلك ولا يبندى هو بيانه لهم هذا مما يعلم بطلانه أعظم مما يعلم بطلان كتمانهم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ومن زعم أنه لم يبين لهم معاني القرآن أو أنه بينها وكتموها عن التابعين فهو بمنزلة من زعم أنه بين لهم النص على علي وشيئا آخر من الشرائع والواجبات وأنهم كتموا ذلك أو أنه لم يبين لهم معنى الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك مما يزعم القرامطة أن له باطنا يخالف الظاهر كما يقولون إن الصلاة معرفة أسرارهم والصيام كتمان أسرارهم والحج زيارة شيوخمهم وهو نظير قولهم أن أبا بكر وعمر كانا منافقين²

جبريل نزل القرآن من الله لا من هواه ولا من لوح

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 101

²بغية المرئاد ج: 1 ص: 331

قال تعالى {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} 105 { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } 106 { الإسراء 105-106 } قد أخبر الله في غير موضع من القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه رد على هذا المبتدع المفترى وأمثاله ممن يقول إنه لم ينزل منه قال تعالى { أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَعِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } الأنعام 114 وقال تعالى { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } 193 { عَلَى قَلْبِكَ } 194 { الشعراء 193-194 } وقال { قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } البقرة 97 وقال هنا { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ } النحل 102 فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواه ولا من لوح ولا من غير ذلك وكذلك سائر آيات القرآن كقوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الزمر 1 وقوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } غافر 2 وقوله { تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } فصلت 2 وقوله { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } السجدة 2 وقوله { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ } المائدة 67 فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله فمن قال أنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح أو الهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأنه قال { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } الأنعام 99 فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزل من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ } الحديد 25 لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء وكذلك أنزل الحيوان فإن الذكر ينزل الماء في الإناث فلم يقل فيه من السماء ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة وأنزلها مكتوبة فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ومحمد أخذه عن جبريل عن اللوح فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزل عليه تلاوة لا كتابة وفرقه عليهم لأجل ذلك فقال { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } الإسراء 106 وقال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } الفرقان 32 ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجد مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به وهذا خلاف دين المسلمين¹

ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله وأما المسلمون فأخذوه عن محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزل عليه تلاوة لا كتابة وفرقه عليهم لأجل ذلك فقال { وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } الإسراء 106 وقال تعالى { وَقَالَ

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 300-302

الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً { الفرقان 32 } ثم أن كان جبريل لم يسمعه من الله وانما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر ان يتكلم به وهذا خلاف دين المسلمين¹

إن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه وأنه تنزيل منه وأنه كلامه

قال تعالى { **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** } 105 { **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا** } 106 { **الإسراء 105-106** } ونفاة الصفات يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء لوجهين أحدهما أن الإنزال إنما يكون من علو والله تعالى عندهم ليس في العلو فلم ينزل منه شيء و قد قال تعالى { **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** } الأنعام 114 { **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِّنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } الأحقاف 2 إلى غير ذلك و قولهم أنه خلقه في مخلوق و نزل منه باطل لأنه قال { **أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ** } الأنعام 114 و لم يجيء هذا في غير القرآن و الحديد ذكر أنه أنزله مطلقا و لم يقل منه و هو منزل من الجبال و المطر أنزل من السماء و المراد أنه أنزله من السحاب و هو المزن كما ذكر ذلك في قوله { **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ** } الواقعة 69 و الثاني أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له و كلاما له فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل و لأن الله لا يتصف بالمخلوقات و لو إتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات و متحرك إذا خلق الحركات في غيره إلى غير ذلك إلى أن قال فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره وأنهم داخلون في هذه الآية و أنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل و لا على الكلام بمشيئته و لا على نزوله و على إنزاله منه شيئا فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدره الله و أنه إلى كل شيء قدير و إذا لم يكن قديرا لم يكن قويا و يلزمهم أنه لم يخلق شيئا فيلزمهم الدخول في قوله ضعف الطالب و المطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز فهم ينفون حقيقة قدرته في الأزل و حقيقة قولهم أنه صار قادرا بعد أن لم يكن و القدرة التي يثبتونها لاحقيقة لها و هذا أصل مهم من تصوره عرف حقيقه الأقوال الباطلة و ما يلزمها من اللوازم و عرف الحق الذي دل عليه صحيح المنقول و صريح المعقول لاسيما في هذه الأصول التي هي أصول كل الأصول والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول و قد تبين أنه كلما تحققت الحقائق و أعطى النظر و الإستدلال حقه من التمام كان مادل عليه القرآن هو الحق و هو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولا و هو مشتبه مختلط كما قال مجاهد في قوله تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا** } الأنعام 159 قال هم أهل البدع و الشبهات فهم في أمور مبتدعة في الشرع مشتبهة في العقل والصواب هو ما كان موافقا للشرع مبينا في العقل فإن الله سبحانه أخبر أن القرآن منزل منه و أنه تنزيل منه و أنه كلامه و أنه قوله و أنه كفر من قال أنه قول البشر و أخبر

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 520-521

أنه قول رسول كريم من الملائكة و رسول كريم من البشر و الرسول يتضمن المرسل فبين أن كلا من الرسولين بلغه لم يحدث هو منه شيئاً و أخبر أنه جعله قرآنا عربيا¹

الكتب السماوية السابقة بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم

قال تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الاسراء 107-109 المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون²

ان موسى والمسيح عليهما السلام بشرتا بمحمد صلى الله عليه وسلم و الكتب السماوية السابقة التوراة والانجيل بشرتا بمحمد صلى الله عليه وسلم³

أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم لم يرسل إليهم ملكًا ولهذا كان النبي في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله وكذلك من أسلم منهم كعبدالله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح المخرجة في الصحيحين وغيرهما وقال تعالى عن من أتى عليه من أهل الكتاب { وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } {106} قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الإسراء 106-109⁴

وهذا كله في السور المكية والمقصود الجنس فاذا شهد جنس هؤلاء مع العلم بصدقهم حصل المطلوب لا يقف العلم على شهادة كل واحد واحد فان هذا متعذر ومن أنكر أو قال لا أعلم لم يضر إنكاره وإن قال بل أعلم عدم ما شهدوا به علم افتراءه في الجنس وعلم في الشخص اذ كان لم يحط

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 26-28

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 358

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 151

⁴الجواب الصحيح ج: 2 ص: 365

الجواب الصحيح ج: 2 ص: 365

علما بجميع نسخ الكتب المتقدمة وما في النبوات كلها فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب أن يعلم انتفاء ذكر محمد في كل نسخة نسخة بكل كتاب من كتب الأنبياء إذ العلم بذلك متعذر ثم هذه النسخ الموجودة فيها ذكره في مواضع كثيرة قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع ومما ينبغي أن يعلم أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين وتنزيهه عن المثل والولد يجمع كل التنزيه¹

الرسول صلى الله عليه وسلم موصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن

قال تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَان وَعَدُّ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الاسراء 107-109 ودلائل نبوة محمد قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن فإن الظن لا يدفع اليقين لا سيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمدا كان مكتوبا باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء كما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو أخبرنا ببعض صفة رسول الله في التوراة فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للآمين أنت عدي ورسولي سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا تجزي بالسيئة السيئة ولكن تجزي بالسيئة الحسنة وتغفو وتغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة الموجهة فأفتح به أعينا عميا وأدانا صما وقلوبا غلفا بأن يقولوا لا إله إلا الله²

ومما ينبغي أن يعرف ما قد نبهنا عليه غير مرة أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد إما شهادتها بنبوته وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البيّنات على نبوته ونبوة من قبله وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين الملحدين كما قد ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه كما في قوله تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَان وَعَدُّ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الاسراء 107-109³

وأمثال ذلك مما يذكر فيه شهادة الكتب المتقدمة بمثل ما أخبر به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الأخبار منقولة عند أهل الكتاب بالتواتر كما نقل عندهم بالتواتر معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وإن كان كثير مما يدعونه من أدق الأمور لم يتواتر عندهم لانقطاع التواتر فيهم فالفرق بين الجمل الكلية المشهورة التي هي أصل

¹النبوات ج: 1 ص: 19

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 151

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 198

الشرائع التي يعلمها أهل الملل كلهم وبين الجزئيات الدقيقة التي لا يعلمها إلا خواص الناس ظاهر ولهذا كان وجوب الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان وحج البيت وتحريم الفواحش والكذب ونحو ذلك متواترا عند عامة المسلمين وأكثرهم لا يعلمون تفاصيل الأحكام والسنن المتواترة عند الخاصة فإذا كان في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب وفيما ينقلونه بالتواتر ما يوافق ما أخبر به نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان في ذلك فوائد جلية هي من بعض حكمه إقرارهم بالجزئية أحدها أنه إذا علم اتفاق الرسل على مثل هذا علم صدقهم فيما أخبروا به عن الله تعالى حيث أخبر محمد عليه الصلاة والسلام بمثل ما أخبر به موسى من غير تواطىء ولا تشاعر الثاني أن ذلك دليل على اتفاق الرسل كلهم في أصول الدين¹

سجود التلاوة سجود عند خصوص الأمر بالسجود

قال تعالى { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} {الاسراء 107-109} في سجود القرآن وهو نوعان خبر عن أهل السجود ومدح لهم أو أمر به وذم على تركه فالأول سجدة الأعراف {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} الأعراف 206 وهذا ذكره بعد الأمر بإستماع القرآن والذكر وفي سبحان قال تعالى { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} {الاسراء 107-109} وهذا خير عن سجود مع من سمع القرآن فسجد وكذلك في مريم {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } مريم 58 فهو لاء الأنبياء سجدوا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن وأولئك الذين أوتوا العلم من قبل القرآن إذا يتلى عليهم القرآن يسجدون وظاهر هذا سجود مطلق كسجود السحرة وكقوله { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ } البقرة 58 وإن كان المراد به الركوع فالسجود هو خضوع له وذل له ولهذا يعبر به عن الخضوع كما قال الشاعر ترى الأكم فيها سجدا للحوافر قال جماعة من أهل اللغة السجود التواضع والخضوع وأنشدوا ساجد المنخر ما يرفعه خاشع الطرف أصم المسمع قيل لسهل بن عبدالله أيسجد القلب قال نعم سجدة لا يرفع رأسه منها أبدا فالسجدة الأولى الى الأولى من الحج خبر ومدح والتسع البواقي من الثانية من الحج أمر وذم لمن لم يسجد الا ص فنقول قد تنازع الناس في وجوب سجود التلاوة قيل يجب وقيل لا يجب وقيل يجب اذا قرئت السجدة في الصلاة وهو رواية عن أحمد والذي يتبين لى أنه واجب فان الآيات التي فيها مدح لا تدل بمجردا على الوجوب لكن آيات الأمر والذم والمطلق منها قد يقال إنه محمول على الصلاة كالثانية من الحج والفرقان وقرأ وهذا ضعيف فكيف وفيها مقرون بالتلاوة كقوله { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } السجدة 15 فهذا نفي للإيمان بالآيات عمن لا يخر ساجدا اذا ذكر بها واذا كان سامعا لها فقد ذكر بها وكذلك سورة الانشقاق {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } {20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ } {21} الانشقاق 20-

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 194

21 وهذا نم لمن لا يسجد اذا قرىء عليه القرآن كقوله {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ} {المدثر 49} {وَمَا لَكُمْ لَّا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ} {الحديد 8} {فَمَا لَهُؤْلَاءِ الْقَوْمِ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} {النساء 78} وكذلك سورة النجم قوله {أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} {59} {وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} {60} {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} {61} {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} {62} {النجم 59-62} أمر بالغاً عقب ذكر الحديث الذي هو القرآن يقتضى أن سماعه سبب الأمر بالسجود لكن السجود بالمأمور به عند سماع القرآن كما أنه ليس مختصاً بسجود الصلاة فليس هو مختصاً بسجود التلاوة فمن ظن هذا أو هذا فقد غلط بل هو متناول لهما جميعاً كما بينه الرسول فالسنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه فالسجود عند سماع آية السجدة هو سجود مجرد عند سماع آية السجدة سواء تليت مع سائر القرآن أو وحدها ليس هو سجوداً عند تلاوة مطلق القرآن فهو سجود عند جنس القرآن وعند خصوص الأمر بالسجود فالأمر يتناولوه وهو أيضاً متناول لسجود القرآن أيضاً وهو أبلغ¹

الخرور على الذقن عبادة مقصودة

فانه سبحانه وتعالى قال {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} {السجدة 15} فهذا الكلام يقتضى أنه لا يؤمن بآياته الا من اذا ذكر بها خر ساجداً وسبح بحمد ربه وهو لا يستكبر ومعلوم أن قوله {بِآيَاتِنَا} {السجدة 15} ليس يعنى بها آيات السجود فقط بل جميع القرآن فلا بد أن يكون اذا ذكر بجميع آيات القرآن يخر ساجداً وهذا حال المصلى فانه يذكر بآيات الله بقراءة الامام والامام يذكر بقراءة نفسه فلا يكونون مؤمنين حتى يخروا سجداً وهو سجودهم فى الصلاة وهو سجود مرتب ينتقلون أولاً الى الركوع ثم الى السجود والسجود مثنى كما بينه الرسول ليجتمع فيه خروران خرور من قيام وهو السجدة الأولى وخرور من قعود وهو السجدة الثانية وهذا مما يستدل به على وجوب قعدة الفصل والطمأنينة فيها كما مضت به السنة فان الخرور ساجداً لا يكون الا من قعود أو قيام واذا فصل بين السجدين كحد السيف أو كان الى القعود أقرب لم يكن هذا خرورا ولكن الذى جوزه ظن أن السجود يحصل بوضع الرأس على الأرض كيف ما كان وليس كذلك بل هو مأمور به كما قال {إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا} {السجدة 15} ولم يقل سجداً فالخرور مأمور به كما ذكره فى هذه الآية ونفس الخرور على الذقن عبادة مقصودة كما أن وضع الجبهة على الأرض عبادة مقصودة يدل على ذلك قوله تعالى {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} {107} {وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} {108} {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} {109} الإسرائاء 107-109 فمدح هؤلاء واثنى عليهم بخرورهم للأذقان أى على الأذقان سجداً والثانى بخرورهم للأذقان أى عليها ويكون فتبين أن نفس الخرور على الذقن عبادة مقصودة يحبها الله وليس المراد بالخرور الصاق الذقن بالأرض كما تلتصق الجبهة والخرور على الذقن هو مبدأ الركوع والسجود منتهاه فان الساجد يسجد على جبهته لا على ذقنه لكنه يخر على ذقنه والذقن آخر حد الوجه وهو أسفل شىء منه وأقر به الى الأرض فالذى يخر على ذقنه يخر وجهه ورأسه خضوعاً لله ومن حينئذ قد شرع فى السجود فكما أن وضع الجبهة هو آخر السجود فالخرور على الذقن أول السجود

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 137

وتمام الخرور أن يكون من قيام أو قعود وقد روى عن ابن عباس { **يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ** } الإسراء 107
أى للوجه قال الزجاج الذى يخر وهو قائم انما يخر لوجهه والذقن مجتمع اللحيين وهو غضروف
أعضاء الوجه فاذا ابتداء يخر فأقرب الأشياء من وجهه الى الأرض الذقن وقال ابن الأنبارى أول
ما يلقى الأرض من الذى يخر قبل أن يصوب جبهته ذقنه فلذلك قال { **لِلأَذْقَانِ** } الإسراء 109
ويجوز أن يكون المعنى يخرون للوجه فاكتفى بالذقن من الوجه كما يكتفى بالبعض من الكل وبالنوع
من الجنس قلت والذى يخر على الذقن لا يسجد على الذقن فليس الذقن من أعضاء السجود بل
أعضاء السجود سبعة كما قال النبي أمرت أن اسجد على سبعة أعضاء الجبهة وأشار بيده الى
الأنف واليدين والركبتين والقدمين ولو سجد على ذقنه ارتفعت جبهته والجمع بينهما متعذر أو
متعسر لأن الأنف بينهما وهو ناتىء يمنع الصاقهما معا بالأرض في حال واحدة فالساجد يخر على
ذقنه ويسجد على جبهته فهذا خرور السجود ثم قال { **وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ** } الإسراء 109 فهذا
خرور البكاء قد يكون معه سجود وقد لا يكون فالأول كقوله { **إِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُ الرَّحْمَنِ**
خَرُوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } مريم 58 والثانى كقوله { **وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ** } الإسراء 109 فقد يبكى
الباكى من خشية الله مع خضوعه بخروره وان لم يصل الى حد السجود وهذا عبادة أيضا لما فيه من
الخرور لله والبكاء له وكلاهما عبادة لله فان بكاء الباكي لله كالذى يبكى من خشية الله من افضل
العبادات وقد روى عيان لا تمسهما النار عين باتت تحرس فى سبيل الله وعين يخرج منها مثل
رأس الذباب من خشية الله وفى الصحيحين عن النبي أنه قال سبعة يظلمهم الله فى ظله
يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا
عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل دعت امرأة ذات حسب وجمال
فقال انى أخاف الله رب العالمين فذكر هؤلاء السبعة اذ كل منهم كمل العبادة التى قام بها
وقد صنف مصنف فى نعتهم سماه اللعة فى أوصاف السبعة فالامام العادل كمل ما يجب من
الامارة والشاب الناشىء فى عبادة الله كمل ما يجب من عبادة الله والذى معلق بالمسجد كمل
عمارة المساجد بالصلوات الخمس لقوله { **إِنَّمَا يَعْزُمُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ** } التوبة 18 والعفيف
كمل الخوف من الله والمتصدق كمل الصدقة لله والباكى كمل الاخلاص وأما قوله عن داود
عليه السلام { **وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ** } ص 24 لا ريب أنه سجد كما ثبت بالسنة واجماع المسلمين أنه
سجد لله والله سبحانه مدحه بكونه خر راکعا وهذا أول السجود وهو خروره فذكر سبحانه أول فعله
وهو خروره راکعا ليبين أن هذا عبادة مقصودة وان كان هذا الخرور كان ليسجد كما اتى على
النبيين بأنهم كانوا { **إِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** } مريم 58 و { **الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ**
مِن قَبْلِهِ } الإسراء 107 انهم { **إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِم يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا** } الإسراء 107 { **وَيَخْرُونَ**
لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ } الإسراء 109 وذلك لأن الخرور هو أول الخضوع المنافى للكبر فان المتكبر يكره
أن يخر ويحب أن لا يزال منتصباً مرتفعاً اذا كان الخرور فيه ذل وتواضع وخشوع ولهذا يأنف منه
أهل الكبر من العرب وغير العرب فكان أحدهم اذا سقط منه الشيء لا يتناوله لئلا يخر وينحنى
فان الخرور انخفاض الوجه والرأس وهو أعلى ما فى الانسان وأفضله وهو قد خلق رقيقاً منتصباً
فاذا خفضه لا سيما بالسجود كان ذلك غاية ذله ولهذا لم يصلح السجود الا لله فمن سجد لغيره فهو
مشارك ومن لم يسجد له فهو مستكبر عن عبادته وكلاهما كافر من أهل النار قال تعالى { **وَقَالَ رَبُّكُمْ**
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 وقال
تعالى { **وَمِن آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ**
إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } فصلت 37 وقال فى قصة بلقيس { **وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ**

اللَّهُ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ {24} أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ
الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ {25} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْعَظِيمِ {26} النمل 24-26 والشمس أعظم ما يرى في عالم الشهادة وأعمه نفعا وتأثيرا فالنهي عن
السجود لها نهى عما دونها طريق الأولى من الكواكب والاشجار وغير ذلك وقوله {وَاسْجُدُوا
لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ} فصلت 37 دلالة على أن السجود للخالق لا للمخلوق وان عظم قدره بل لمن خلقه
وهذا لمن يقصد عبادته وحده كما قال { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } فصلت 37 لا يصلح له أن يسجد
لهذه المخلوقات قال تعالى { فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا
يَسْأَمُونَ } فصلت 38 فانه قد علم سبحانه أن في بني آدم من يستكبر عن السجود له فقال الذين هم
أعظم من هؤلاء لا يستكبرون عن عبادة ربهم بل يسبحون له بالليل والنهار ولا يحصل لهم سامة ولا
ملالة بخلاف الآدميين فوصفهم هنا بالتسبيح له ووصفهم بالتسبيح والسجود جميعا في قوله { إِنْ
الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } الأعراف 206 وهم يصفون له
صفوفا كما قالوا { وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ } {165} وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ {166} الصفات 165-166
وفى الصحيح عن النبي أنه قال الا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها قالوا وكيف
تصف الملائكة عند ربها قال يسدون الأول فالأول ويتراصون في الصف¹

فان النبي لما قرأ والنجم سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس كما
ثبت ذلك في الصحيح عن ابن عباس وفي الصحيح عن ابن مسعود أنهم سجدوا الا رجلا من
المشركين أخذ كفا من حصى وقال يكفيني هذا قال فلقد رأيته بعد قتل كافرا وهذا يدل على أنهم
كانوا مأمورين بهذا السجود وان تاركه كان مذموما وليس هو سجد الصلاة بل كان خضوعا لله
وفيه كفار وفيهم من لم يكن متوضيا لكن سجد الخضوع اذا تلى كلامه كما أتى على من اذا
سمعه سجد فقال { إِذَا تُلِّيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } مريم 58 وقال { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا
لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الإسراء 107-109 وهذا وان قيل
انه متناول سجود الصلاة فانهم اذا سمعوا القرآن ركعوا وسجدوا فلا ريب أنه متناول سجود القرآن
بطريق الأولى لأن هناك السجود بعض الصلاة وهنا ذكر سجودا مجردا على الأذقان فما بقي يمكن
حملة على الركوع لأن الركوع لا يكون على الأذقان وقوله { لِلْأَذْقَانِ } الإسراء 107 أى على
الأذقان كما قال { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } الصفات 103 أى على الجبين وقوله { لِلْأَذْقَانِ } الإسراء 107
يدل على تمام السجود²

قال تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ
وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الإسراء 107-109 فانه سبحانه قال { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا
خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } السجدة 15 فأخبر أنه لا يكون مؤمنا إلا من سجد
إذا ذكر بالآيات وسبح بحمد ربه ومعلوم أن قراءة القرآن في الصلاة هي تذكير بالآيات ولذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 141- 147

²مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 157

وجب السجود مع ذلك وقد أوجب خرورهم سجدا وأوجب تسبيحهم بحمد ربهم وذلك يقتضى وجوب التسبيح فى السجود وهذا يقتضى وجوب الطمأنينة ولهذا قال طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم إن مقدار الطمأنينة الواجبة مقدار التسبيح الواجب عندهم والثانى أن الخرور هو السقوط والوقوع وهذا إنما يقال فيما يثبت ويسكن لا فيما لا يوجد منه سكون على الأرض ولهذا قال الله تعالى { فَأِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا } الحج36 والوجوب فى الأصل هو الثبوت والإستقرار¹

سجود التلاوة يسقط لما هو أفضل منه

وانهم سجدوا على الأنف مع الجبهة حتى التصقت الأذقان بالأرض ليسوا كمن سجد على الجبهة فقط والساجد على الأنف قد لا يلصق الذقن بالأرض الا اذا زاد انخفاضه واما احتجاج من لم يوجبه بكون النبى لم يسجد لما قرأ عليه زيد النجم وبقول عمر لما قرأ على المنبر سورة النحل حتى جاء السجدة فنزل فسجد وسجد الناس حتى اذا كانت الجمعة القابلة قرأها حتى جاء السجدة قال يا ايها الناس إنا نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا اثم عليه وفى لفظ فلما كان فى الجمعة الثانية تشرفوا فقال انا نمر بالسجدة ولم تكتب علينا ولكن قد تشوفتم ثم نزل فسجد فيقال تلك قضية معينة ولعله لما لم يسجد زيد لم يسجد هو كما قال ابن مسعود أنت امامنا فان سجدت سجدنا وقال عثمان انما السجدة على من جلس اليها واستمع وهذا يدل على أنها تجب على المستمع ولا تجب على السامع وكذلك حديث ابن مسعود يدل على أنها لا تجب اذا لم يسجد القارئ وقد يقال كان للنبى عذر عند من يقول ان السجود فيها مشروع فمن الناس من يقول يمكن أنه لم يكن على طهارة لكن قد يرجح جواز السجود على غير طهارة وقد قيل ان السجود فى النجم وحدها منسوخ بخلاف اقرأ و الانشقاق فقد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه سجد فيهما وسجد معه ابو هريرة وهو أسلم بعد خيبر وهذا يبطل قول من يقول لم يسجد فى المفصل بعد الهجرة وأما سورة النجم بل حديث زيد صريح فى أنه لم يسجد فيها قال هؤلاء فيكون النسخ فيها خاصة لا فى غيرها لما كان الشيطان قد ألقاه حين ظن من ظن أنه وافقهم ترك السجود فيها بالكلية سدا لهذه الذريعة وهى فى الصلاة تأتى فى آخر القيام وسجدة الصلاة تغنى عنها فهذا القول اقرب من غيره والله أعلم وأما حديث عمر فلو كان صريحا لكان قوله واقرار من حضر وليسوا كل المسلمين وقول عثمان وغيره يدل على الوجوب ثم يقال قد يكون مراد عمر أنه لم يكتب علينا السجود فى هذه الحال وهو اذا قرأها الامام على المنبر يبين ذلك أن السجود فى هذه الحال ليس كالسجود المطلق لأنه يقطع فيه الامام الخطبة ويعمل عملا كثيرا والسنة فى الخطبة الموالاتة فلما تعارض هذا وهذا صار السجود غير واجب لأن القارئ يشتغل بعبادة أفضل منه وهو خطبة الناس وان سجد جاز ولهذا يقول مالك وغيره أن هذا السجود لا يستحب قال وليس العمل عندنا على أن يسجد الامام اذا قرأ على المنبر كما أنه لم يستحب السجود فى الصلاة لا السر ولا الجهر وأحمد فى احدى الروايتين وأبو حنيفة وغيرهما يقولون لا يستحب فى صلاة السر مع أن أبا حنيفة يوجب السجود وأحمد فى احدى الروايتين يوجبه فى الصلاة ثم لم يستحبوه فى هذه الحال بل اتصال الصلاة عندهم أفضل فكذا ذلك قد يكون مراد عمر أنه لم يكتب فى مثل هذه الحال كما يقول من يقول لا يستحب

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 549

أيضا في هذه الحال وهذا كما أن الدعاء بعرفة لما كانت سنته الاتصال لم يقطع بصلاة العصر بل صليت قبله فكذلك الخاطب يوم الجمعة مقصوده خطابهم وأمرهم ونهيهم ثم الصلاة عقب ذلك فلا يجب أن يشتغلوا عن هذا المقصود مع أن عقبه يحصل السجود وهذا يدل على أن سجود التلاوة يسقط لما هو أفضل منه الا ترى أن الانسان لو قرأ لنفسه يوم الجمعة قد يقال إنه لم يستحب له أن يسجد دون الناس كما لا يشرع للمأموم أن يسجد لسهوه لأن متابعة متابعة الامام أولى من السجود وهو مع البعد وان قلنا يستحب له أن يقرأ فهو كما يستحب للمأموم أن يقرأ خلف امامه ولو قرأ بالسجدة لم يسجد بها دون الامام وما أعلم في هذا نزاعا فهنا محافظته على متابعة الامام في الفعل الظاهر أفضل من سجود التلاوة ومن سجود السهو بل هو منهي عن ذلك ويوم الجمعة انما سجد الناس لما سجد عمر ولو لم يسجد لم يسجدوا حينئذ فاذا كان حديث عمر قد يراد به أنه لم يكتب علينا في هذه الحال لم يبق فيه حجة ولو كان مرفوعا وأيضا فسجود القرآن هو من شعائر الاسلام الظاهرة اذا قرىء القرآن في الجامع سجد الناس كلهم لله رب العالمين وفي ترك ذلك اخلال بذلك ولهذا رجحنا أن صلاة العيد واجبة على الأعيان كقول أبي حنيفة وغيره وهو أحد أقوال الشافعي وأحد القولين في مذهب أحمد وقول من قال لا تجب في غاية البعد فانها من أعظم شعائر الاسلام والناس يجتمعون لها أعظم من الجمعة وقد شرع فيها التكبير وقول من قال هي فرض على الكفاية لا ينضب فانه لو حضرها في المصر العظيم أربعون رجلا لم يحصل المقصود وانما يحصل بحضور المسلمين كلهم كما في الجمعة¹

السمع المأمور به سماع فقه وقبول

قال تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الاسراء 107-109 أصل السماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سماع فقه وقبول ولهذا إنقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه و صنف سمع الصوت و لم يفقه المعنى و صنف فقهه و لكنه لم يقبله و الرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول و الصنف الرابع الذين سمعوا سماع فقه وقبول فهذا هو السماع المأمور به كما قال تعالى { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } المائدة 83 و قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } {108} الاسراء 107-109 الآية²

فالمستمع للقرآن يثاب عليه والسماع له من غير قصد لا يثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات وإن كان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله أو التي تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه والمقصود ههنا أن

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 160-162

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 14

سماع آيات الله تعالى هو سماع النبيين وأهل العلم

أصل هذه المسألة أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين وبين ما يرخص فيه رفعا للخرج وبين سماع المتقربين وبين سماع المتلعبين فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم فهو سماع آيات الله تعالى وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة قال الله تعالى لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} مريم 58 وقال {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} الأنفال 2 وقال تعالى {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} {108} وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} {109} الإسراء 107-109 وقال تعالى {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} المائدة 83 وبهذا السماع أمر الله تعالى كما قال تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الأعراف 204 وعلى أهله أتني كما في قوله تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادَ} {17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} {18} الزمر 17-18 وقال في الآية الأخرى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} المؤمنون 68 فالقول الذي أمروا بتدبره هو القول الذي أمروا باستماعه وقد قال تعالى {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} محمد 24 وقال تعالى {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص 29 وكما أتني على هذا السماع ذم المعرضين عن هذا السماع فقال تعالى {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا} لقمان 7 وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ} فصلت 26 وقال تعالى {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} {30} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} {31} الفرقان 30-31 وقال تعالى {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ} {49} كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ} {50} فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ} {51} المدثر 49-51 وقال تعالى {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} فصلت 5 وقال تعالى {وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْثُورًا} {45} وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا} {46} الإسراء 45-46 وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر والعشائين وغير ذلك وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله يجتمعون وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقون يستمعون وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لأبى موسى يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون وهذا هو السماع الذي كان النبي يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال

¹التحفة العراقية ج: 1 ص: 74

النبى إقرأ على القرآن قلت أقرأه عليك و عليك أنزل فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً} النساء 41 قال حسبك فنظرت فاذا عيناه تذر فان وهذا هو الذى كان النبى يسمعه هو وأصحابه كما قال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران 164 و الحكمة هي السنة وقال تعالى { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } {91} وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ } {92} النمل 91-92 وكذلك غيره من الرسل قال تعالى { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } الأعراف 35 وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة كما قال تعالى { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ } الأنعام 130 وقال تعالى { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } الزمر 71 وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح والمعرض عنه ضال شقى قال تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } {123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } {126} طه 126-126 وقال تعالى { وَمَنْ يَعْمُرْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمَنُ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } الزخرف 36 و ذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ويراد به الذكر الذى أنزله الله كما قال تعالى { وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } الأنبياء 50 وقال نوح { أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ } الأعراف 63 وقال { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } الحجر 6 وقال { مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمْعَوْهُ } الأنبياء 2 وقال { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ } الزخرف 44 وقال { إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } {27} لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ } {28} التكوير 27-28 وقال { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْدِغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ } يس 69 وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها وله فى الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقتشعروا الجلد وهذا مذكور فى القرآن وهذه الصفات موجودة فى الصحابة ووجدت بعدهم آثار ثلاثة الاضطراب والصراخ والاعماء والموت فى التابعين و بالجملة فهذا السماع هو أصل الايمان فان الله بعث محمدا إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغه الرسول فأمن به وأتبعه اهتدى وأفلح ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى وأما سماع المكاء والتصدية وهو التصفيق بالأيدى والمكاء مثل الصفيق ونحوه فهذا هو سماع المشركين الذى ذكره الله تعالى فى قوله { وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ } الأنفال 35 فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت بالفم قرابة ودينا ولم يكن النبى وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ولا حضروه قط ومن قال إن النبى حضر ذلك فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته¹

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 558-563

حكم السماعات المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف

قال تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الإسراء 107-109 أما السماعات المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف المصلصلات فقد أتفق أئمة الدين أنها ليست من جنس القرب والطاعات بل ولو لم يكن على ذلك كالغناء والتصفيق باليد والضرب بالقضيب والرقص ونحو ذلك فهذا وان كان فيه ما هو مباح وفيه ما هو مكروه وفيه ما هو محظور أو مباح للنساء دون الرجال فلا نزاع بين أئمة الدين أنه ليس من جنس القرب والطاعات والعبادات ولم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين وغيرهم من مشايخ الدين يحضرون مثل هذا السماع لا بالحجاز ولا مصر ولا الشام ولا العراق ولا خراسان ولا في زمن الصحابة والتابعين ولا تابعيهم لكن حدث بعد ذلك فكان طائفة يجتمعون على ذلك ويسمون الضرب بالقضيب على جلاجل ونحوه التغيير قال الحسن بن عبد العزيز الحراني سمعت الشافعي يقول خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير يصدون به الناس عن القرآن وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين فان القلب إذا تعود سماع القصائد والأبيات والتذ بها حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات فيستغنى بسماع الشيطان عن سماع الرحمن وقد صح عن النبي انه قال ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقد فسره الشافعي واحمد بن حنبل وغيرهما بأنه من الصوت فيحسنه بصوته ويترنم به بدون التلحين المكروه وفسره ابن عيينة وأبو عبيد وغيرهما بأنه الاستغناء به وهذا وان كان له معنى صحيح فالأول هو الذي دل عليه الحديث فانه قال ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به وفي الأثر ان العبد إذا ركب الدابة أتاه الشيطان وقال له تغن فان لم يتغن قال له تمن فان النفس لا بد لها من شيء في الغالب تترنم به فمن لم يترنم بالقرآن ترنم بالشعر وسماع القرآن هو سماع النبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين قال الله تعالى { وَأُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنِ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } مريم 58 الآية وقال { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ } المائدة 83 الآية وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } {109} الإسراء 107-109 وقال { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ لِلزمر 23 الآية وقال { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } الأنفال 2 وهذا السماع هو الذي شرعه الله للمؤمنين في الصلاة وخارج الصلاة وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم يقرأ والناس يستمعون ومرو النبي بأبي موسى وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك فقال لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا أي لحسنه تحسينا وكان عمر يقول لأبي موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون لقراءته وقال النبي لابن مسعود اقرأ على القرآن فقال اقرأ عليك وعليك أنزل قال اني أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى اذا بلغت هذه الآية فكيف اذا جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيدا فقال حسبك فنظرت فاذا عيناه تدرقان بالدمع فهذا هو السماع الذي يسمعه سلف الأمة وقرونها المفضلة وخيار الشيوخ انما يقولون بهذا

السمع والاستماع إلى القوائد الملحنة والاجتماع عليها فاكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وابى سليمان الداراني ومعروف الكرخي والسري السقطي وأمثالهم من المتأخرين كالشيخ عبد القادر والشيخ عدى بن مسافر والشيخ أبى مدين والشيخ أبى البيان وأمثال هؤلاء المشائخ فانهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع وقد حضره طائفة من الشيوخ وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه وكان الجنيد رحمه الله تعالى لا يحضره فى آخر عمره ويقول من تكلف السماع فتن به ومن صادفه السماع استراح به أى من قصد السماع صار مفتونا وأما من سمع بيتا يناسب حاله بلا اقتصاد فهذا يستريح به والذين حضروا السماع المحدث الذى جعله الشافعى من أحداث الزنادقة لم يكونوا يجتمعون مع مردان ونسوان ولا مع مصلصات وشبابات وكانت اشعارهم مزهدات مرققات فاما السماع المشتمل على منكرات الدين فمن عده من القربات استتيب فان تاب والاقتل وان كان متأولا جاهلا بين له خطأ تأويله وبين له العلم الذى يزيل الجهل هذا من كونه طريقا إلى الله وأما كونه محرما على من يفعله على وجه اللهو واللعب لا على وجه القربة إلى الله فهذا فيه تفصيل فأما المشتمل على الشبابات والدفوف المصلصلة فمذهب الأئمة الأربعة تحريمه وذكر أبو عمرو ابن الصلاح ان هذا ليس فيه خلاف فى مذهب الشافعى فان الخلاف انما حكى فى اليراع المجرد مع ان العراقيين من أصحاب الشافعى لم يذكروا فى ذلك نزاعا ولا متقدمة الخراسانيين وانما ذكره متأخروا الخراسانيين وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الذين يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف على وجه الذم لهم وان الله معاقبهم فدل هذا الحديث على تحريم المعازف والمعازف هى آلات اللهو عند أهل اللغة وهذا اسم يتناول هذه الآلات كلها ولهذا قال الفقهاء ان من أتلفها فلا ضمان عليه اذا أزال التالف المحرم وان اتلف المالية ففيه نزاع ومذهب أحمد المشهور عنه ومالك أنه لا ضمان فى هذه الصور ايضا وكذلك اذا اتلف دنان الخمر وشق ظروفه واتلف الأصنام المتخذة من الذهب كما اتلف موسى عليه السلام العجل المصنوع من الذهب وأمثال ذلك¹

علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة

وجماع الأمر فى ذلك انه إذا كان الكلام فى السماع وغيره هل هو طاعة وقربة فلا بد من دليل شرعى يدل على ذلك وإذا كان الكلام هل هو محرم أو غير محرم فلا بد من دليل شرعى يدل على ذلك إذ ليس الحرام إلا ما حرمه الله ولا دين إلا ما شرعه الله والله سبحانه وتعالى ذم المشركين على انهم ابتدعوا ديناً لم يشرعه الله لهم وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله تعالى فقال تعالى أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وقال تعالى { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {28} قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 532-536

وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ {29} الأعراف 28-29 وكثير من الناس يفعل في السماع وغيره ما هو من جنس الفواحش المحرمة وما يدعو إليها وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب فهو مما أمر الله به فهو لاء لهم نصيب من معنى هذه الآية قال تعالى {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} {32} قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {33} الأعراف 32-33 وقد كان المشركون يحرمون من الطعام واللباس أشياء ويتخذون ذلك ديناً وكان بعض الصحابة قد عزموا على الترهيب فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} {87} {وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} {88} المائدة 87-88 وجماع الدين أن لا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع ولا نعبد بالبدع كما قال تعالى {لِيُبَلِّغُكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا} {الملك 2} قال الفضيل بن عياض أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشائخ كما قال أبو سليمان الداراني إنه لتمر بقلبي النكته من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين الكتاب والسنة وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر فاذا سمع بأثر كان نوراً على نور وقال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا وقال سهل ابن عبد الله التستري كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وقال كل عمل على ابتدع فانه عذاب على النفس وكل عمل بلا اقتداء هو غش النفس وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله يقول {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} {النور 54} مثل هذا كثير في كلامهم وإذا كان كذلك فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه الرسول لأتمته فهو الداعي إلى الله بآذنه الهادي إلى صراطه الذي من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار فهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وصحبه وسلم قال تعالى {قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا} {107} {وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} {108} {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} {109} الإسراء 107-109 قال تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ} {مريم 58} إلى قوله {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} {مريم 58} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا} {الإسراء 107} إلى قوله {وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} {الإسراء 109} وقال تعالى {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} {المائدة 83} وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {الأنفال 2} وقال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} {الزمر 23} الآية وقال سبحانه وتعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} {الزمر 18} وهذا كثير في القرآن وكما اتنى سبحانه وتعالى على المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عن استماعه وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا} {لقمان 6} إلى قوله {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ}

بِعَذَابِ أَلِيمٍ { لقمان 7 وقال تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا { الفرقان 73 وقال تعالى { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ {49} كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ {50} فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ {51} {المدرثر 49-51 وقال تعالى {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ {22} { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ {23} {الأنفال 22-23} وقال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ { فصلت 26 } ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه ويبغضه

فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه حيث أكمل الدين وأتم عليهم النعمة ورضى لهم الإسلام ديناً وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين وأعظم سماع في الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يمدح النبي صلى الله عليه وسلم وفيما رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استنقلت بالمشركين المضاجع أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع وهو مستحب لهم خارج الصلوات وروى عن النبي أنه خرج على أهل الصفة وفيهم واحد يقرأ وهم يستمعون فجلس معهم وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحد منهم يقرأ والباقيون يستمعون وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ومر النبي بأبي موسى وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال **لقد أوتى هذا زممار من مزامير داود** وقال **يا أبا موسى لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك فقال لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبرت لك تحبيراً أي حسنته لك تحسينا** وقال النبي ليس منا من لم يتغن بالقرآن زينوا القرآن بأصواتكم وقال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف وقال **الله أشد أدنا للرجل حسن الصوت من صاحب القينة إلى قينته وقوله ما أذن الله إذنا أي سمع سمعا ومنه قوله { وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ { الانشقاق 2 } أي سمعت والآثار في هذا كثيرة وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقشعروا الجلد وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن وكانت موجودة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أثنى عليهم في القرآن ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة الاضطراب والاختلاج والاعماء أو الموت والهيام فأنكر بعض السلف ذلك إما لبدعتهم وإما لحبهم وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك فإن السبب إذا لم يكن محظورا كان صاحبه فيما تولد عنه معذورا لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين كما ذم الله الذين قال فيهم { **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ { البقرة 74 } وقال { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ { الحديد 16 } ولو أثر فيهم آثارا محمودة لم يجذبهم عن حد العقل لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضا ومعذورين فإما سماع القاصدين لصالح القلوب في الاجتماع على ذلك إما نشيد مجرد نظير الغبار وإما بالتصفيق ونحو ذلك فهو السماع المحدث في الإسلام فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبي حيث قال **خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ وقال الشافعي رحمه الله خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن وسئل عنه الامام أحمد بن حنبل فقال هو محدث****

أكرهه قيل له أنه يرق عليه القلب فقال لا تجلسوا معهم قيل له أيهجرون فقال لا يبلغ بهم هذا كله فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة لا في الحجاز ولا في الشام ولا في اليمن ولا في مصر ولا في العراق ولا خراسان ولو كان للمسلمين به منفعة في دينهم لفعله السلف¹

التسبيح يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها

قال تعالى { وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً } {109} الإسراء 108-109 والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده²

الايان يتبعض ويزيد وينقص

وقال تعالى { قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } {107} وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً } {108} وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً } {109} الإسراء 107-109

النفاق يتبعض والكفر يتبعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبعض ويزيد وينقص قال الله تعالى { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ } التوبة 37 وقال { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَلَيْسَ الَّذِي زَادَنَاهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَأَدَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } {125} التوبة 124-125 وقال { وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا } المائدة 68³

الأحوال المذكورة في القرآن هي وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود

وقد روى أبو الشيخ الاصبهاني باسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف فقال أن قوما يتخيرون الصوف يقولون أنهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدى نبينا أحب إلينا وكان النبي يلبس القطن وغيره أو كلاما نحو من هذا ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 585-587 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 79-81 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 74 و الاستقامة ج: 1 ص: 304 و الاستقامة ج: 1 ص: 228

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

³مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 188

هذا الباب إنما هو عن عباد أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشى عليه في سماع القرآن ونحوه كقصة زرارة بن أوفى قاضى البصرة فانه قرأ فى صلاة الفجر {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} {المدثر} 8 فخر ميتا وكقصة ابى جهير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المرى فمات وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت ابى بكر وعبد الله بن الزبير ومحمد بن سيرين ونحوهم والمنكرون لهم مأخذان منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا يذكر عن محمد بن سيرين انه قال ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على احدهم وهو على حائط فان خر فهو صادق ومنهم من انكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدى الصحابة كما نقل عن اسماء وابنها عبد الله والذي عليه جمهور العلماء ان الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه وان كان حال الثابت أكمل منه ولهذا لما سئل الامام أحمد عن هذا فقال قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ونحو هذا وقد نقل عن الشافعى أن اصابه ذلك وعلى بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب فى صدقه لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى القرآن وهى وجل القلوب ودموع العين واقتشعرار الجلود كما قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {الأفال} 2 وقال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} {الزمر} 23 وقال تعالى {إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} {مريم} 58 وقال {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} {المائدة} 83 وقال تعالى {وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} {108} {وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} {109} {الإسراء} 108-109¹

يدعى الله بجميع أسمائه الحسنى

قال تعالى {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} {الإسراء} 110 كان النبى يقول فى دعائه يا الله يا رحمن فقال المشركون محمد ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فقال الله تعالى {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} {الإسراء} 110 أى المدعو إله واحد وإن تعددت أسماؤه كما قال تعالى {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} {الأعراف} 180²

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 16

²مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 487

فاذا كان يدعى بجميع أسمائه الحسنى وبأى اسم دعاه فقد دعا الذى له الأسماء الحسنى¹

أن أسماء الله تبارك وتعالى متعددة كثيرة وفي الصحيحين عن النبي أنه قال إن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة وهذا معناه في أشهر قولي العلماء وأصحهما أن من أسمائه تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة وإلا فأسماءه تبارك وتعالى أكثر من ذلك كما في الحديث الآخر الذي رواه أحمد في مسنده وأبو حاتم في صحيحه عن ابن مسعود عن النبي أنه قال ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن وقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي إلا أذهب الله همه وغمه وأبدل مكانه فرحاً قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلى ينبغي لمن سمعنهن أن يتعلمهن²

دعاء الإسم هو دعاء مسماه

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 فإن الإسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى والإسم نفسه لا يفعل شيئاً لا إكراماً ولا غيره ولهذا ليس في القرآن إضافة شيء من الأفعال والنعم إلى الإسم ولكن يقال { سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى } الأعلى 1 { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ } الرحمن 78 ونحو ذلك فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة والعبد يسبح إسم ربه الأعلى فيقول سبحان ربي الأعلى ولما نزل قوله { سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى } الأعلى 1 قال إجعلوها في سجودكم فقالوا سبحان ربي الأعلى فكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول سبحان إسم ربي الأعلى لكن قوله سبحان ربي الأعلى هو تسبيح لإسمه يراد به تسبيح المسمى لا يراد به تسبيح مجرد الإسم كقوله { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الإسراء 110 فالداعى يقول يا الله يا رحمن ومراده المسمى وقوله { أَيًّا مَا } الإسراء 110 أي الإسمين تدعوا ودعاء الإسم هو دعاء مسماه وهذا هو الذى أراده من قال من أهل السنة أن الإسم هو المسمى أرادوا به أن الإسم إذا دعى وذكر يراد به المسمى فإذا قال المصلي الله أكبر فقد ذكر اسم ربه ومراده المسمى لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوروه ولو كان كذلك كان من قال ناراً إحترق لسانه وبسط هذا له موضع آخر³

¹مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 150

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 224

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 322-323

فان أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنی مضادا لدعائه باسم آخر بل الامر كما قال تعالى { **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } {الإسراء 110} وكل اسم من اسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الإسم كالعلم يدل على الذات والعلم والتقدير يدل على الذات والقدرة والرحيم يدل على الذات والرحمة ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعى الظاهر ففوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون لا يقال هو حي ولا ليس بحي بل ينفون عنه النقيضين فان أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسما هو علم محض كالمضمرات وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنی من صفات الاثبات فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقا لغلاة الباطنية في ذلك وليس هذا موضع بسط ذلك وإنما المقصود ان كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته ويدل أيضا على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم¹

قال تعالى { **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا** } {الإسراء 110} وقال تعالى { **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** } {الأعراف 180} وقال الله تعالى { **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** } {22} { **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } {23} { **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } {24} { الحشر 22-24} فأسماؤه كلها متفقه في الدلالة على نفسه المقدسة ثم كل إسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الإسم الآخر فالعزیز يدل على نفسه مع عزته والخالق يدل على نفسه مع خلقه والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ونفسه تستلزم جميع صفاته فصار كل إسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة وعلى أحدهما بطريق التضمن وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم²

أنكر الله على المشركين الذين امتنعوا من تسميته بالرحمن

وأن الله أنكر على المشركين الذين امتنعوا من تسميته بالرحمن وقال تعالى قال تعالى { **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا** } {الإسراء 110}

وهذا يؤول إلى قول القرامطة الباطنية ونحوهم نفاة أسماء الله تعالى الذين يقولون لا يقال حي ولا عالم ولا قادر وهذا كله من الإلحاد في أسماء الله وآياته وإذا كان من الإلحاد إنكار اسمه الرحمن كما قال تعالى وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب سورة الرعد 30 وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن سورة الفرقان 60 وقال **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنی** سورة الإسراء 110⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 333-334

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 185

³العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 106-107

⁴سؤال عن يقول إن صفات ج: 1 ص: 171

لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 والدعاء قصد المدعو والتوجه إليه إما على وجه المسألة وإما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه وإرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه ومن ذلك قوله تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } غافر 60 فإنه فسر بالمسألة وبالعبادة¹

قال تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة قال الله تعالى { فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ } الشعراء 213 وقال تعالى { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ } المؤمنون 117 وقال تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } القصص 88 وقال { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا } الجن 19 وقال { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا } النساء 117 ولفظ الصلاة في اللغة أصله الدعاء وسميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء وهو العبادة والمسألة وفي الصحيحين عن النبي انه قال ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له فذكر اولاً لفظ الدعاء ثم ذكر السؤال والاستغفار والمستغفر سائل كما ان السائل داع لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما فهو من باب عطف الخاص على العام وقال تعالى { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } البقرة 186 وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول وكل عابد له فهو ايضاً راغب وراهب يرجو رحمته ويخاف عذابه فكل عابد سائل وكل سائل عابد فاحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ولكن اذا جمع بينهما فانه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة بصيغ السؤال والطلب ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتنال الامر وان لم يكن في ذلك صيغ سؤال والعابد الذي يريد وجه الله والنظر اليه هو ايضاً راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته قال تعالى { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } الأنبياء 90 وقال تعالى { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } السجدة 16 ولا يتصور ان يخلو داع لله دعاء عبادة او دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع²

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 28

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 240

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة أو دعاء المسألة والإستعانة كما قال تعالى **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ**
أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا {الإسراء 110} 1

وقول الله عز وجل **{ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ {55} وَلَا تُفْسِدُوا فِي**
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ {56} الأعراف 55 -
56 هَاتَانِ الْآيَاتَانِ مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة دعاء المسألة فإن الدعاء في
القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما
ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون
مالكا للنفع والضر فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة ويدعو خوفا ورجاء دعاء العبادة فعلم أن
النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة
وأما قوله تعالى **{قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ {الإسراء 110}** الآية فهذا الدعاء المشهور أنه
دعاء المسألة وهو سبب النزول قالوا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه فيقول مرة يا الله
ومرة يا رحمن فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية²

كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته

قال تعالى **{ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ**
وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا {الإسراء 110} و في الصحيحين عن ابن عباس قال كان
رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن
جاء به فقال الله له و لا تجهر به فيسمعه المشركون و لا تخافت به عن أصحابك فنهى عن أن
يسمعهم إسماعا يكون ضرره أعظم من نفعه وهكذا كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته
راجحة على مفسدته و المصلحة هي المنفعة و المفسدة هي المضررة فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت
المصلحة راجحة و هو أن تحصل به منفعة راجحة على المضررة و هذا يدل على الوجه الأول و
الثاني فحيث كان الضرر راجحا فهو منهي عما يجلب ضررا راجحا³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 15

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 164-165

هذان الإسمان هما أصل بقية أسماء الله تعالى

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 وشريعة الإسلام الذي هو الدين الخالص لله وحده تعبيد الخلق لربهم كما سنه رسول الله وتغيير الأسماء الشركية إلى الأسماء الإسلامية والأسماء الكفرية إلى الأسماء الإيمانية وعامة ما سمي به النبي عبد الله وعبد الرحمن فإن هذين الإسمين هما أصل بقية أسماء الله تعالى وكان شيخ الإسلام الهروي قد سمي أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى وكذلك أهل بيتنا غلب على أسمائهم التعبيد لله كعبد الله وعبد الرحمن وعبد الغني والسلام والقاهر واللطيف والحكيم والعزيز والرحيم والمحسن والأحد والواحد والقادر والكريم والملك والحق وقد ثبت في صحيح مسلم عن نافع عن عبد الله بن عمر أن النبي قال أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة وكان من شعار أصحاب رسول الله معه في الحروب يا بني عبد الرحمن يا بني عبد الله يا بني عبيد الله كما قالوا ذلك يوم بدر وحنين والفتح والطائف فكان شعار المهاجرين يا بني عبد الرحمن وشعار الخزرج يا بني عبد الله وشعار الأوس يا بني عبيد الله¹

رفع الأصوات الرفع الشديد مكروه

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 فما يزداد من رفع الأصوات الرفع الشديد في المساجد بالدعاء وأنواع من الخطب والأشعار الباطلة فمكروه قال المروزي سمعت أبا عبد الله يقول ينبغي أن يسر دعاءه لقوله { وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 قال هذا في الدعاء قال وسمعت أبا عبد الله يقول وكانوا يكرهون أن يرفعوا أصواتهم بالدعاء وروى الخلال بإسناد صحيح عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال أحدث الناس الصوت عند الدعاء وعن سعيد بن أبي عروبة أن مجالد بن سعيد سمع قوما يعجون في دعائهم فمشى إليهم فقال أيها القوم إن كنتم أصبتم فضلا على من كان قبلكم لقد ضللتكم قال فجعلوا يتسللون رجلا رجلا حتى تركوا بغيتهم التي كانوا فيها²

الاسم يظهر به المسمى ويعلو

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 378-380 و

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 311

قال تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 قال تعالى { وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } الأعراف 180 فأسماؤه الحسنی مثل الرحمن الرحيم و الغفور الرحيم فهذه الاقوال هي أسماؤه الحسنی وهي اذا ذكرت في الدعاء والخبر يراد بها المسمى اذا قال { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } الشعراء 217 فالمراد المسمى ليس المراد أنه يتوكل على الأسماء التي هي أقوال كما في سائر الكلام كلام الخالق وكلام المخلوقين قال تعالى { وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الأعراف 180 كان المراد أنه نفسه له الأسماء الحسنی ومنها اسمه الله كما قال { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الإسراء 110 فالذي له الأسماء الحسنی هو المسمى بها ولهذا كان في كلام الامام أحمد أن هذا الإسم من أسمائه الحسنی وتارة يقول الاسماء الحسنی له ای المسمى ليس من الأسماء ولهذا في قوله { وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الأعراف 180 لم يقصد أن هذا الاسم له الأسماء الحسنی بل قصد أن المسمى له الأسماء الحسنی¹

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو فيقال للمسمى سمة ای اظهره واعله ای اعل ذكره بالاسم الذي يذكر به لكن يذكر تارة بما يحمده ويذكر تارة بما يذمه كما قال تعالى { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } الشعراء 84 وقال في النوع المذموم { وَأَتَّبَعْنَا لَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ } القصص 42 وقال تعالى { نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } القصص 3 فكلاهما ظهر ذكره لكن هذا امام في الخير وهذا امام في الشر وما ليس له اسم فانه لا يذكر ولا يظهر ولا يعلو ذكره بل هو كالشيء الخفي الذي لا يعرف ولهذا يقال الاسم دليل على المسمى وعلم على المسمى ونحو ذلك ولهذا كان أهل الاسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويعبدونه ويحبونه ويذكرونه ويظهرون ذكره والملاحدة الذين ينكرون اسماءه وتعرض قلوبهم عن معرفته وعبادته ومحبته وذكره حتى ينسوا ذكره { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } التوبة 67 { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ } الحشر 19 { وَادُّكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } الأعراف 205 والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب وقد يراد به مجرد اللفظ وقد يراد به مجرد المعنى فانه من الكلام والكلام اسم لفظ والمعنى وقد يراد به أحدهما ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره لكن ذكره بهما أتم والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنی فيدعى بأسمائه الحسنی ويسبح اسمه وتسبيح اسمه هو تسبيح له اذ المقصود بالاسم المسمى كما أن دعاء هو دعاء المسمى قال تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } الإسراء 110 والله تعالى يأمر بذكره تارة ويذكر اسمه تارة كما يأمر بتسبيحه تارة وتسبيح اسمه تارة فقال { ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا } الأحزاب 41 { وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ } الأعراف 205 وهذا كثير وقال { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } المزمل 8 كما قال { فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 118 { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } الأنعام 121 { فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ } المائدة 4 لكن هنا يقال بسم الله فيذكر نفس الاسم الذي هو ألف سين ميم واما في قوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ } المزمل 8 فيقال سبحانه الله

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 197-198

والحمد لله ولا اله الا الله وهذا أيضا مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى قوله في الذبيحة {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} {الأنعام 118} كقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {العلق 1} وقوله {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} {هود 41} فقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق 1} هو قراءة بسم الله في أول السور وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضوع وبين ان هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور ان يقرأ بسم الله وانها ليست كسائر القرآن بل هي تابعة لغيرها وهنا يقول {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} {النمل 30} كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة واجمع المسلمون بالله الرحمن الرحيم في قوله {وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} {الإنسان 25} فانه يقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ونحو ذلك وهنا قال {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق 1} لم يقل اقرأ اسم ربك وقوله {وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ} {الإنسان 25} يقتضى أن يذكره بلسانه وأما قوله {وَأذْكُرْ رَبَّكَ} {آل عمران 41} فقد يتناول ذكر القلب وقوله {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} {العلق 1} هو كقول الأكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله وأما التسبيح فقد قال {وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} {الأحزاب 42} وقال {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {الأعلى 1} وقال {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} {الواقعة 74} وفي الدعاء {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110} فقوله {أَيًّا مَا تَدْعُوا} {الإسراء 110} يقتضى تعدد المدعو لقوله ايا ما وقوله {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} {الإسراء 110} يقتضى ان المدعو واحد له الاسماء الحسنى وقوله {ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} {الإسراء 110} ولم يقل ادعوا باسم الله او باسم الرحمن يتضمن ان المدعو هو الرب الواحد بذلك الاسم فقد جعل الاسم تارة مدعوا وتارة مدعوا به في قوله {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} {الأعراف 180} فهو مدعو به باعتبار ان المدعو هو المسمى وانما يدعى باسمه وجعل الاسم مدعوا باعتبار ان المقصود به هو المسمى وان كان في اللفظ هو المدعو المنادى كما قال {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} {الإسراء 110} أى ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم والمراد اذا دعوته هو المسمى اى الاسمين دعوت ومرادك هو المسمى {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ} {الإسراء 110} فمن تدبر هذه المعانى اللطيفة تبين له بعض حكم القرآن واسراره ف {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} {الفرقان 1} فانه كتاب مبارك تنزىل من حكيم حميد لا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء من ابتغى الهدى فى غيره اضله الله ومن تركه من جبار قصمه الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو قرآن عجب يهدى الى الرشده انزله الله هدى ورحمة وشفاء وبيانا وبصائر وتذكرة فالحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله آخره والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم¹

الاسماء الحسنى

قال تعالى {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} {الإسراء 110} {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} {الأعراف 180} وقال تعالى {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110} وقال تعالى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {طه 8} وقال

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 210

تعالى {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الحشر 24} و الحسنى
المفضلة على الحسنه والواحد الاحاسن ثم هنا ثلاثة أقوال اما ان يقال ليس له من
الاسماء الا الأحسن ولا يدعى الا به واما ان يقال لا يدعى الا بالحسنى وان سمي بما يجوز وان لم
يكن من الحسنى وهذان قولان معروفان واما ان يقال بل يجوز فى الدعاء والخبر وذلك ان قوله
{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} {الأعراف 180} وقال {ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا
تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} {الإسراء 110} أثبت له الاسماء الحسنى و امر بالدعاء بها فظاهر هذا ان
له جميع الاسماء الحسنى وقد يقال جنس الاسماء الحسنى بحيث لا يجوز نفيها عنه كما
فعله الكفار و امر بالدعاء بها و امر بدعائه مسمى بها خلاف ما كان عليه المشركون من النهى عن
دعائه باسمه الرحمن فقد يقال قوله {فَادْعُوهُ بِهَا} {الأعراف 180} امر ان يدعى بالاسماء
الحسنى وان لا يدعى بغيرها كما قال {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ} {الأحزاب 5} فهو نهى ان يدعوا لغير
آبائهم ويفرق بين دعائه والاخبار عنه فلا يدعى الا بالاسماء الحسنى واما الاخبار عنه فلا يكون
باسم سيء لكن قد يكون باسم حسن او باسم ليس بسيء وان لم يحكم بحسنه مثل اسم شىء وذات
وموجود اذا اريد به الثابت واما اذا اريد به الموجود عند الشدائد فهو من الاسماء الحسنى
وكذلك المرید والمتكلم فان الارادة والكلام تنقسم الى محمود ومذموم فليس ذلك من الاسماء الحسنى
بخلاف الحكيم والرحيم والصادق ونحو ذلك فان ذلك لا يكون الا محمودا وهكذا كما فى حق
الرسول حيث قال {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} {النور 63} فأمرهم ان
يقولوا يا رسول الله يا نبي الله كما خاطبه الله بقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} {الأنفال 64} {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ
{المائدة 41} لا يقول يا محمد يا أحمد يا أبا القاسم وان كانوا يقولون فى الاخبار كالآذان ونحوه
أشهد ان محمدا رسول الله كما قال تعالى {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} {الفتح 29} وقال {وَمُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} {الصف 6} وقال {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ
رَسُولَ اللَّهِ} {الأحزاب 40} فهو سبحانه لم يخاطب محمدا الا بنعت التشريف كالرسول والنبي والمزمل
والمدثر وخاطب سائر الانبياء بأسمائهم مع انه فى مقام الاخبار عنه قد يذكر اسمه فقد فرق سبحانه
بين حالتى الخطاب فى حق الرسول و امرنا بالتفريق بينهما فى حقه وكذلك هو المعتاد فى عقول
الناس اذا خاطبوا الاكابر من الامراء والعلماء والمشايخ والرؤساء لم يخاطبوهم ويدعوهم الا باسم
حسن وان كان فى حال الخبر عن أحدهم يقال هو انسان وحيوان ناطق وجسم ومحدث ومخلوق
ومربوب ومصنوع وابن انثى ويأكل الطعام ويشرب الشراب لكن كل ما يذكر من اسمائه
وصفاته فى حال الاخبار عنه يدعى به فى حال مناجاته ومخاطبته وان كانت اسماء المخلوق فيها ما
يدل على نقصه وحدوثه واسماء الله ليس فيها ما يدل على نقص ولا حدوث بل فيها الاحسن الذى يدل
على الكمال وهى التى يدعى بها وان كان اذا اخبر عنه يخبر باسم حسن او باسم لا ينفى الحسن ولا
يجب ان يكون حسنا وأما فى الاسماء المأثورة فما من اسم الا وهو يدل على معنى حسن فينبغى
تدبير هذا للدعاء وللخبر المأثور وغير المأثور الذى قيل لضرورة حدوث المخالفين للتفريق بين
الدعاء والخبر وبين المأثور الذى يقال او تعريفهم لما لم يكونوا به عارفين وحينئذ فليس كل اسم ذكر
فى مقام يذكر فى مقام بل يجب التفريق¹

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 141

الله هو المستحق للمحامد الكاملة

قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } {الإسراء 111} فان الله سبحانه اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو في نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذي منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب¹

الحمد لله رأس الشكر

الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر لأنه يكون على المحاسن والإحسان فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى وما خلقه في الآخرة والأولى ولهذا قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } {الإسراء 111} وقال { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } {الأنعام 1} وقال { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } {سبأ 1} وقال { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {فاطر 1} وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام فهو أخص من الحمد من هذا الوجه لكنه يكون بالقلب واليد واللسان كما قيل أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا ولهذا قال تعالى { اَعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا } {سبأ 13} والحمد إنما يكون بالقلب واللسان فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه والحمد أعم من جهة أسبابه وفي الحديث الحمد لله رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها والله أعلم²

" أول من يدعى الى الجنة الحمادون "

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 215 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 133

جمع بين التحميد تحميد الثناء والتكبير في قوله { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111 فامر بتحميده وتكبيره ومعلوم أن الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر¹

فالمصلي في آخر القيام بعد الركوع يقول ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض الى قوله أهل الثناء والمجد احق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وقوله احق ما قال العبد خبر مبتدأ محذوف أى هذا الكلام احق ما قال العبد فتبين ان حمد الله والثناء عليه احق ما قاله العبد وفي ضمنه توحيده له اذا قال ولك الحمد أى لك لا لغيرك وقال في آخره لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت وهذا يقتضى انفراد العطاء والمنع فلا يستعان الا به ولا يطلب الا منه ثم قال ولا ينفع ذا الجد منك الجد فبين ان الانسان وان أعطى الملك والغنى والرئاسة فهذا لا ينجيه منك انما ينجيه الايمان والتقوى وهذا تحقيق قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 فكان هذا الذكر فى آخر القيام لأنه ذكر أول القيام وقوله احق ما قال العبد يقتضى ان يكون حمد الله احق الاقوال بان يقوله العبد وما كان احق الاقوال كان أفضلها واوجبها على الانسان ولهذا افترض الله على عباده فى كل صلاة ان يفتتحوها بقولهم { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } الفاتحة 2 وامرهم ايضا ان يفتتحوا كل خطبة بالحمد لله فامرهم ان يكون مقدا على كل كلام سواء كان خطابا للخالق او خطابا للمخلوق ولهذا يقدم النبي الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة ولهذا أمرنا بتقديم الثناء على الله فى التشهد قبل الدعاء وقال النبي كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم وأول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء وقوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ } الفاتحة 1 حمد مطلق فان الحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية فالثناء كميته وتكبيره وتعظيمه كيفيته²

نزّه الله تعالى نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد

قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111 ومما ينبغى أن يعلم أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه هو دعوى الشريك لله والولد والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين وتنزيهه عن المثل والولد³

أن الله نزّه نفسه عن الشريك والولد والكفو في غير موضع وهذا القول يوجد في مشركي العرب وفي النصارى وغيرهم و هم يقولون بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه ولكن يثبتون تولدا من

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 232

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 265-266

³النبوات ج: 1 ص: 19

بعض الوجوه وهو تولد حادث كما تقوله النصارى في المسيح وكما كانت تقوله مشركو العرب في الملائكة ونحو ذلك¹

فقد نزه الله نفسه عن الوالد والولد وكفر من جعل له ولداً أو والداً أو شريكاً فقال تعالى في السورة التي تعدل ثلث القرآن التي هي صفة الرحمن ولم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن ما صح في فضلها قال فيها (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4}) الاخلاص 1-4 وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة في التوحيد كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم فنفي عن نفسه الأصول والفروع والنظراء وهي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن بل والنبات ونحو ذلك فإنه ما من شيء من المخلوقات الا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه اما أصل واما فرع واما نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة وهذا في الآدميين والجن والبهائم ظاهر وأما الملائكة فانهم وان لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الامثال والاشباه فإن قوله { لَمْ يَلِدْ } {3} الاخلاص 3 رد لقول من يقول ان له بنين وبنات من الملائكة أو البشر مثل من يقول الملائكة بنات الله أو يقول المسيح أو عزيز ابن الله وقد نفى في كتابه عن نفسه الولادة ونفى اتخاذ الولد جميعاً²

وقد يتبنى الرجل ولد غيره فيتخذه ولداً ويجعله بمنزلة الولد وإن لم يكن متولداً عنه كما كانت تفعله أهل الجاهلية من العرب وغيرهم ولهذا نزه الله تعالى نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد فقال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111³

ففيه سبحانه عن نفسه أن يلد شيئاً يقتضى أن لا يتولد عنه شيء

قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111 فنفيه سبحانه عن نفسه أن يلد شيئاً يقتضى أن لا يتولد عنه شيء ونفيه أن يتخذ ولداً يقتضي أنه لم يفعل ذلك بشيء من خلقه على سبيل التكريم وأن العباد لا يصلح أن يتخذ شيئاً منهم بمنزلة الولد وهذا يبطل دعوى من يدعي مثل ذلك في المسيح وغيره ومن يقول نحن أبناء الله ومن يقول الفلسفة هي التشبه بالإله فإن الولد يكون من جنس والده ويكون نظيراً له وإن كان فرعاً له ولهذا كان هؤلاء القائلون بهذه المعاني من أعظم الخلق قولاً بالتشبيه والتمثيل وجعل الأنداد له

¹الصفدية ج: 1 ص: 215

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 438-439

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 473

والعدل والتسوية ولهذا كانت الفلاسفة الذين يقولون بصدور العقول والنفوس عنه على وجه التولد والتعليل يجعلونها له أندادا ويتخذونها آلهة وأربابا بل قد لا يعبدون إلا إياها ولا يدعون سواها ويجعلونها هي المبدعة لما سواها مما تحتها {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} الإسراء 111 فالحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك¹

يعظم الله فرية النصارى على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم

قال تعالى {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا} الإسراء 111 ففي الجملة ما قال قوم من أهل الملل قولاً في الله إلا وقول النصارى أقبح منه ولهذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لا ترحمهم فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر ولهذا يعظم الله فريتهم ولهذا يعظم الله فريتهم على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } {88} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا {89} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {90} أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا {91} وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا {92} إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {94} وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {95} مريم 88-95 وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي قال يقول الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك فأما شتمه إياي فقله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد وأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ورواه البخاري عن ابن عباس عن النبي قال قال الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياي فقله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولدا وفي الصحيحين عن أبي موسى قال قال رسول الله ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل إنه يشرك به ويجعل له ند وهو يعافهم ويرزقهم ويدفع عنهم²

الشفاعة التي نفاها القرآن

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 134

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 457-459

قال تعالى **{ وَقَلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111** والله سبحانه لم يجعل له أحدا من الأنبياء والمؤمنين واسطة في شيء من الربوبية والألوهية مثل ما ينفرد به من الخلق والرزق وإجابة الدعاء والنصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات بل غاية ما يكون العبد سببا مثل أن يدعو أو يشفع والله تعالى يقول **{ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255** ويقول **{ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى } الأنبياء 28** ويقول **{ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى } النجم 26** وقال تعالى **{ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } 56** **{ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } 57** الإسراء 56-57 قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فنهاهم الله عن ذلك في قوله تعالى **{ مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } 79** **{ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } 80** آل عمران 79-80 فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ولهذا كان الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام فالمشركون أثبتوا الشفاعة التي هي شرك كشفاعة المخلوق عند المخلوق كما يشفع عند الملوك خواصهم لحاجة الملوك إلى ذلك فيسألونهم بغير إذنهم وتجيب الملوك سؤالهم لحاجتهم إليهم فالذين أثبتوا مثل هذه الشفاعة عند الله تعالى مشركون كفار لأن الله تعالى لا يشفع عنده أحد الا باذنه ولا يحتاج إلى أحد من خلقه بل من رحمته وإحسانه إجابة دعاء الشافعين وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ولهذا قال تعالى **{ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وِليٍّ وَلَا شَفِيعٍ } السجدة 4** وقال **{ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وِليٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } الأنعام 51** وقال تعالى **{ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ مَا كَانَ لِأَنْ يَمْلِكُوا شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ } 43** **{ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً } 44** الزمر 43-44 وقال تعالى عن صاحب يس **{ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُقْدُونَ } 23** **{ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } 24** **{ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون } 25** يس 23-25 وأما الخوارج والمعتزلة فانهم أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته وهؤلاء مبتدعة ضلال مخالفون للسنة المستفيضة عن النبي ولإجماع خير القرون والقسم الثالث هم أهل السنة والجماعة وهم سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان أثبتوا ما أثبتته الله في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونفوا ما نفاه الله في كتابه وسنة رسوله فالشفاعة التي أثبتوها هي التي جاءت بها الأحاديث كشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إذا جاء الناس إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتونه عليه السلام قال فأذهب إلى ربي فإذا رأيت ربي خررت له ساجدا فأحمد ربي بمحامد يفتحها على لا احسنها الآن فيقول أي محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع فهو يأتي ربه سبحانه فيبدأ بالسجود والثناء عليه فإذا اذن له في الشفاعة شفع بأبي هو وامي وأما الشفاعة التي نفاها القرآن كما عليه المشركون والنصارى ومن ضاهاهم من هذه الأمة فينفيها أهل العلم والإيمان مثل انهم يطلبون من الأنبياء والصالحين الغائبين والميتين قضاء حوائجهم ويقولون إنهم إذا أرادوا ذلك قضوها ويقولون إنهم عند الله تعالى كخواص الملوك عند الملوك يشفعون بغير إذن الملوك ولهم على الملوك أدلال يقضون به حوائجهم فيجعلونهم لله تعالى بمنزلة شركاء الملك وبمنزلة أولاده والله تعالى قد نزه نفسه المقدسة عن ذلك كما قال تعالى **{ وَقَلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111** ولهذا قال

النبى صلى الله عليه وسلم لا تطرونى كما اطرت النصارى ابن مريم فإنا أنا عبد فقولوا عبد الله
ورسوله¹

جميع ما سوى الله من الأعيان و صفاتها و أحوالها مخلوقة لله مملوكة لله

قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا } **وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا** {الإسراء 111} ان جميع ما سوى الله من الأعيان و صفاتها و أحوالها مخلوقة لله مملوكة لله هو ربها و خالقها و مليكها و مدبرها لا رب لها غيره و لا إله سواه له الخلق و الأمر لا شريك له فى شيء من ذلك و لا معين بل هو كما قال سبحانه { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ {23} سبأ 22- 23 أخبر سبحانه أن ما يدعى من دونه ليس له مثقال ذرة فى السموات و لا فى الأرض و لا شرك فى ملك و لا إعانة على شيء و هذه الوجوه الثلاثة هي التى ثبت بها حق الغير فإنه إما أن يكون مالكا للشيء مستقلا بملكه أو يكون مشاركا له فيه نظير أو لا ذا و لا ذاك فيكون معيناً لصاحبه كالوزير و المشير و المعلم و المنجد و الناصر فبين سبحانه أنه ليس لغيره ملك لمتقال ذرة فى السموات و لا فى الأرض و لا لغيره شرك فى ذلك لا قليل و لا كثير فلا يملكون شيئاً و لا لهم شرك فى شيء و لا له سبحانه ظهير و هو المظاهر المعاون فليس له و زير و لا مشير و لا ظهير وهذا كما قال سبحانه { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا } **وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا** {الإسراء 111} فإن المخلوق يوالي المخلوق لذله فإذا كان له من يواليه عز بولييه و الرب تعالى لا يوالي أحدا لذلته تعالى بل هو العزيز بنفسه { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } فاطر 10 بخلاف الملوك و غيرهم ممن يتولاه لذاته إذا لم يكن له ولي ينصره²

فأنه يتولى عباده المؤمنين فيحبهم و يحبونه و يرضى عنهم و يرضون عنه و من عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة و هذه الولاية من رحمته و إحسانه و نعمته و حكمته و إحسانه و جوده و فضله و إنعامه ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته إليه قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا } **وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا** {الإسراء 111}**³

جمع الله فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 340- 343

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 519- 520

³منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 30

قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } {الإسراء 111} فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } {180} وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ } {181} وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {182} الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } {الإسراء 111}¹

{ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ }

قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } {الإسراء 111} ولهذا ذكر محمد بن كعب وغيره عن المجوس والصابئة أنهم قالوا عن الله لولا أولياؤه لذل فأنزل الله تعالى { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ } {الإسراء 111} فإنهم يجعلونه محتاجاً إلى من يعاونه إذ كان مغلوباً من وجه مع القدماء معه كما هو غالب من وجه²

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربّه ومليكه فهو الغنى عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير اليه بخلاف الملوك المحتاجين الى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك والله تعالى ليس له شريك في الملك بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير³

الله سبحانه يولى عباده إحساناً وجوداً وكرماً لا حاجة إليهم

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 130-131 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 13

²رسالة في تحقيق الشكر ج: 1 ص: 106

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 127

قال تعالى **{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا }** {الإسراء 111} وهو سبحانه وتعالى ليس كالمخلوقين الذين ترفع إليهم الحوائج بالحجاب بل في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدى عبدي فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أتنى علي عبدي فإذا قال مالك يوم الدين قال الله مجدنى عبدي فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله هذه الآية وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل وهو سبحانه يتولى كلام عباده يوم القيامة كما جاء في الصحيح عن عدى بن حاتم أنه قال قال رسول الله ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه عز وجل ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه وينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمره فليفعل فإن لم يجد فبكلمه طيبة وهو سبحانه قريب ممن دعاه يتقرب ممن عبده وأطاعه كما في الحديث الصحيح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرنى إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيتته هرولة والله سبحانه يولى عباده إحسانا وجودا وكرما لا حاجة إليهم كما قال تعالى **{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا }** {الإسراء 111} ولا يحاسب العباد إلا هو وحده وهو الذى يجازيهم بأعمالهم **{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ }** {7} **{ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }** {8} الزلزلة 7-8 وهو الذى يرزقهم ويعافهم وينصرهم ويهديهم لا أحد غيره يفعل ذلك قال تعالى **{ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الْأَرْضِ فِي غُرُورٍ }** {20} **{ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ }** {21} الملك 20-21¹

فالرب لا يوالي عبده من ذل كما يوالي المخلوق لغيره بل يواليه إحسانا إليه والولي من الولاية والولاية ضد العداوة وأصل الولاية الحب وأصل العداوة البغض وإذا قيل هو مأخوذ من الولي وهو القرب فهذا جزء معناه فإن الولي يقرب إلى وليه والعدو يبعد عن عدوه²

الشريعة الحنيفية أكمل من غيرها من الشرائع

قال تعالى **{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا }** {الإسراء 111} والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 370-374

²منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 352

نزته عن صفات النقص وفي الصحيح عن النبي أنه قال يقول الله تعالى كذبتني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك فأما تكذيبه إياي فقله أنى يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقله أنى اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وفي الصحيح عن النبي أنه قال ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم ليجعلون له ولدا وشريكا وهو يرزقهم ويعافيههم ولهذا كان معاذ بن جبل يقول لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية وحرمت أن يتكلم في حق الله باسم ابن أو ولد سدا للذريعة كما منعت أن يسجد أحد لغير الله وإن كان على وجه التحية كما منعت أن يصلي أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبه عباد الشمس والقمر فكانت بسدها للأبواب التي تجعل الله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع مثل تحريمها قليل المسكر لأنه يجر إلى كثيره فإن أصول المحرمات التي قال الله فيها {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف¹33

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} الإسراء 97 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتفديد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرب الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَقْبَوُا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ } {71} الصافات 69- 71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67- 68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَسْتَقِي } طه 123 ثم يقرب بالغى والغضب كما في قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 وفي قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } القمر²47

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 152

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-167

2- قال تعالى { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجْلاً لَأَنْ يُبَيِّنَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } الإسراء 99 قدير منزه عن العجز والضعف¹

3- قال تعالى { قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُوراً } الإسراء 100 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة²

4- قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً } الإسراء 101 والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسمونها من يسميها من النظر معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن³

5- قال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً } الإسراء 101 فرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقبصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك⁴

6- قوله تعالى { وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } الإسراء 110 وفي الصحيح عن عائشة قالت نزلت في الدعاء وفي الصحيح عن ابن عباس قال كان النبي يجهر بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه فقال الله لا تجهر بالقرآن فيسمعه المشركين فيسبوا القرآن ولا تخافت به عن أصحابك فلا يسمعه منهاه عن الجهر والمخافتة فالمخافتة هي ذكره في نفسه والجهر المنهى عنه هو الجهر المذكور في قوله { وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } الأعراف 205 فإن الجهر هو الأظهار الشديد يقال رجل جهوري الصوت ورجل جهير وكذلك قول عائشة في الدعاء فإن الدعاء كما قال تعالى { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } الأعراف 55 وقال إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا { مريم 3 فالإخفاء قد يكون بصوت يسمعه القريب وهو المناجاة والجهر مثل المناداة المطلقة وهذا كقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالتكبير فقال أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته⁵

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

³الجواب الصحيح ج: 5 ص: 414

⁴قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

⁵مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 33-35

7- قال تعالى { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا } الإسراء 111 فالرب لا يوالي عبده من ذل كما يوالي المخلوق لغيره بل يواليه إحساناً إليه والولي من الولاية والولاية ضد العداوة وأصل الولاية الحب وأصل العداوة البغض وإذا قيل هو مأخوذ من الولي وهو القرب فهذا جزء معناه فإن الولي يقرب إلى وليه والعدو يبعد عن عدوه¹

¹منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 352

{ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي { النمل 40

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ { النمل 19

الحمد لله رب العالمين

###